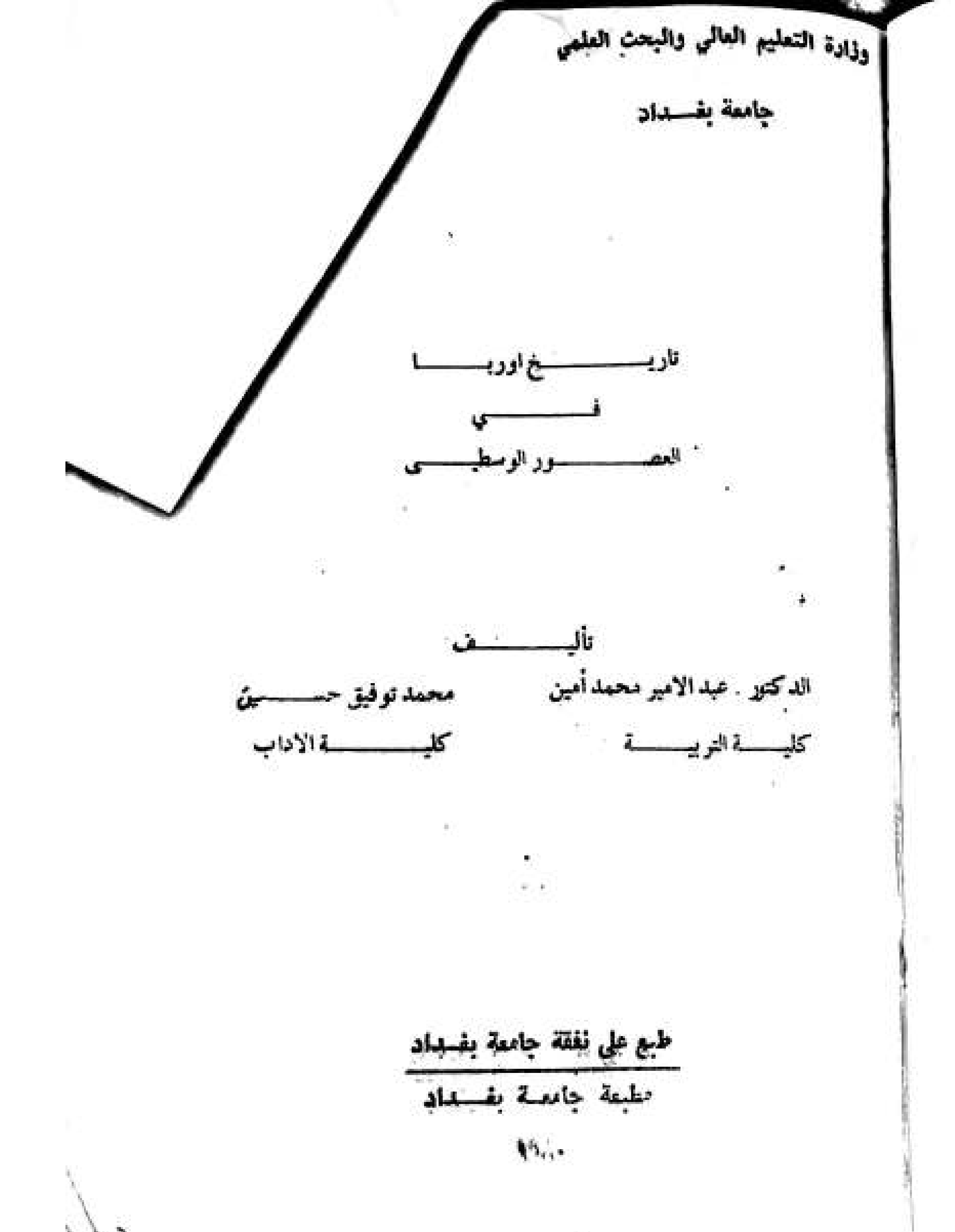
هدية مقدمة من قبل باسم خلف الخفاجي من العراق للاخوين اللذين لم يتسنا لعيناي رؤيتهم
الدكتور : علي عمر البدوي ، والدكتور على محمد من مصر الشقيقة
حباً ،ووفاءاً ورداً للجميل





وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة بغـــداد

تاريـــــــــخ اوربـــــا

فـــــــي

العصـــــــور الوسطـــــى

تأليــــــف

الدكتور . عبد الامير محمد أمين — كليـــــة التربيـــــة

محمد توفيق حســـينْ — كليـــــة الاداب

طبع على نفقة جامعة بغـــداد

مطبعة جامعة بغـــداد

١٩٩٠

قسمنا كتابنا الى قسمين : يتناول القسم الاول تاريخ اوربا السياسي فـــي العصور الوسطى . ويتناول القسم الثاني تاريخ الحضارة الاوربية في هذه العصـــور .

وقد راعينا في التأليف الاحاطة بالأحداث السياسية الاساسية ، والجوانـــب الحضارية المهمة ، واكدنا على التحليل ، وربط القضايا بعواملها الجوهرية ، مستهدفين اعطاء القارئ صورة واضحة عن هذه العصور حتى تكون اساسا لدراسته عن التاريـــخ الاوربي في العصور الحديثـــة .

وقد اعتمدنا على اهم المؤلفات في الموضوع باللغة العربية والانكليزية ، او المترجمة الى اللغة العربية . ولم نكثر من ذكر المراجع وانما اقتصرنا على تلك التـــي اصبحت من المراجع الاساسية في الجامعات الاجنبية والعربية .

وقد راعينا اثر الحضارة العربية والاسلامية على الحضارة الاوربية ، فنوهنـــا بفضل الحضارة العربية على النهضة الأوربية الحديثة في تضاعيف فصول الكتـــاب .

ونأمل ان يسد كتابنا هذا حاجة الطلبة والمثقفين من ابناء العرب .

بغداد ٦ / ١١ /١٩٧٨ المؤلفـــان

الكتاب الاول

تاريخ اوربا في العصور الوسطى

الفصل الاول :

مقدمة في عوامل ضعف وسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب .

١ . نبذة عن الامبراطورية الرومانية – اوغسطس يرسي أسس الامبراطورية

٢ . عوامل ضعف الامبراطورية الرومانية .

١ . العوامل السياسية والعسكرية

٢ . العوامل الاقتصادية والاجتماعية

٣ . العوامل الادارية

٤ . عوامل اخرى

٣ . الامبراطورية الرومانية في عهدي قسطنطين الكبير وثيودسيوس

الفصل الثاني :

المسيحية : ظهورها وانتشارها وعلاقتها بالسلطة الرومانية

١ . ظهور المسيحية وانتشارها .

٢ . موقف الحكومة الرومانية من ألديانة المسيحية – عهد الاضطهاد حتى عـــام ٣١٣م.

٣ . الاعتراف بالديانة المسيحية (مرسوم ميلان) .

٤ . انتشار المسيحية في القرنين الخامس والسادس

٥ . الهرطـــــقة

الفصل الثالث :

قبائل الهون والجرمان : اصولها ، وتحركاتها نحو الغرب .

واثر ذلك في الامبراطورية الرومانية

١ . مقدمة في الشعوب التيتونية : اصولها ، عددها ، قبائلها .

٢ . القبائل الجرمانية : عاداتها وعلاقاتها الاولى بالامبراطورية الرومانية

٣ . قبائل الهون : اصولها وتحركاتها نحو الغرب .

٤ . معركة ادرنة واهميتها

٥ . القوط الغربيون ومملكتهم

٦ . القوط الشرقيون ومملكتهم

٧ تجدد خطر الهون : اتيلا يغزو ايطاليا

٨ . نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب

الفصل الرابع :

اهم القبائل الجرمانية والتحولات التي طرأت عليها : القوط ، اللمبارد ، ظهور الممالك الجرمانية .

١ . مقدمة في الممالك الجرمانية بعد سقوط روما ٤٧٦ م

٢ . مملكة القوط الشرقيين

٣ . مملكة البرغنديين

٤ . الفرنجة – قيام مملكة الميروفنجيين

٥ . حروب كلوفس

٦ . كلوفس يعتنق الكثلكة

٧ . عودة السلطة الامبراطورية الى ايطاليا

٨ . اللمبارديون

٩ . التحولات التي طرأت على القبائل الجرمانية في المحيط الجديد .

الفصل الخامس :

البابويـــــة

ظهورهـــــا ونموهـــــا

١ . نبذة عن ظهور التنظيم الكنسي

٢ . البابوية في عهد المسيحية الاولى – عهد الاضطهاد

٣ . البابوية في القرنين الرابع والخامس

٤ . علاقة البابوية بالقسطنطينية

٥ . المسؤوليات الجديدة للبابوية

البابا ليو الاول الكبير

البابا جلاسيوس الاول

البابا غريغوري الكبير

الفصل السادس :

الميروفنجيون والكارولنجيون – شارلمان وتكوين الامبراطورية – تدهور وزوال الامبراطورية الكارولنجية

١ . الميروفنجيون

٢ . الكارولنجيون – رؤساء البلاط

٤ . انتهاء حكم الميروفنجيين وتولي الكارولنجيين الحكم – بين القصير –

٥ . شارلمان

٦ . حروب شارلمان

٧ . شارلمان يتوج امبراطورا

٨ . الادارة في عهد شارلمان

٩ . لويس التقي

١٠ . معاهدة فردان

١١ . الامبراطورية بعد فردان

١٢ . تدهور وزوال الامبراطورية الكارولنجية

العوامل الداخلية للتدهور

العوامل الخارجية للتدهور

الفصل السابع : نمو الدول الاوربية الرئيسية بين القرن الحادي عشر واواخر القرن الخامس عشر .

انكلترا

١ . مقدمة : انكلترا قبل الفتح النورماندى

٢ . الفتح النورماندى – وليم الفاتح

٣ . تطور الاجهزة الادارية والقضائية في القرن الثاني عشر .

هنري الاول ١١٠٠ – ١١٣٥ .

هنري الثاني ١١٥٤ – ١١٨٩ .

٤ . انكلترا في القرن الثالث عشر

الطريق الى الماكنا كارتا .

٥ . الصراع بين جون الاول والبارونات

٦ . استمرار الصراع في عهد هنري الثالث

٧ . ادوارد الاول (١٢٧٢ – ١٣٠٧)

٨ تدهور المؤسسات الاقطاعية ونمو البرلمان

٩ انكلترا في اواخر القرن الخامس عشر .

فرنســـــا :

١ . فرنسا بعد معاهدة فردان ظهور اسرة آل كابيه

٢. نمو السلطة الملكية خلال القرن الثاني عشر

٣ . فيليب الثاني (١١٨٠ – ١٢٢٣)

٤ . لويس التاسع ، او القديس لويس (١٢٢٦ – ١٢٧٠)

٥ . فرنسا بعد لويس التاسع

٦ نهاية آل كابيه

٧ . حرب المئة العام (١٣٣٧ – ١٤٥٣)

مقدمة في احوال انكلترا وفرنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

٨ . اسباب حرب المئة العام

٩ . تزايد قوة برغنديا ودورها في الحرب

١٠. جان دارك

١١. فرنسا في اواخر القرن الخامس عشر

١٢. لويس الحادي عشر

الامبراطورية الرومانية المقدسة :

١ . مقدمة في تطور فكرة الامبراطورية

٢ . المانيا بعد معاهدة فردان (٨٤٣ – ٩١٩)

٣ . المانيا في عهد الاسرة السكسونية (٩١٩ – ١٠٢٤)

١ قيام الامبراطورية

٢ . اوتو الاول – الكبير (٩٣٦ – ٩٧٣)

٣ . خلفاء اوتو الكبير من الاسرة السكسونية

٤ . المانيا في عهد الاسرة الفرانكونية – بدايات الصراع مع البابوية

١ . كونراد الثاني (١٠٢٤ – ١٠٣٩)

٢ . هنري الثالث (١٠٣٩ – ١٠٥٦

٣ . هنري الرابع (١٠٥٦ – ١١٠٦)

أ – مقدمة في حركة الاصلاح الديني

ب – الصراع مع البابوية

٥ المانيا في عهد هوهنشتاوفن – استمرار الصراع مع البابوية

١ – فردريك [illegible] ([illegible] ١١٩٠)

٢ . هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧)

٣ الامبراطورية الالمانية بعد هنري السادس

٤ . فردريك الثاني (١١١٥ - ١٢٥٠)

٦ ـ المانيا بعد عام ١٢٥٠

الفصل الثامن :

الحروب الصليبية . دوافعها . تطورها . واثرها في اوربا

١ . مقدمة

٢ دوافع الحروب الصليبية

آ . الدوافع الدينية

٢ . الدوافع الاخرى

٣ . تطور الحروب الصليبية

آ الحملة الصليبية الاولى

آ . الحملة الشعبية

ب حملة الامراء

٢ . الاحتلال الصليبي – قيام الدويلات الصليبية

٣ المقاومة الاسلامية العربية

٤ . الحملة الصليبية الثالثة

٥ . الحملة الصليبية الرابعة

٦ . حملة فردريك الثاني

٧ حملة القديس لويس

٨ نهاية الصليبيين

الحروب الصليبية في

الفصـــل الاول

مقدمة في عوامل ضعف وسقوط الامبراطوريه الرومانية في الغرب

الامبراطورية الرومانية – اوغسطس يرسي اسس الامبراطورية

ـاد المؤرخون اعتبـــار حكـــم اوغسطس (٣١ ق.م. ب . م) نهاية للعهد الجمهوري وبداية للعهد الامبراطوري في روما . والواقع اوغسطس نجح في ايجاد طراز من الحكم كان مزيجا من الملكية والجمهوريـة احتفظت الدولة بمظهرها الجمهوري وذلك بالابقاء على سلطة مجلس الشيوخ ينات» أو «السانتو» وفي الوقت نفسه تمتع اوغسطس بسلطات واسعة ، فهـو ـد الاعلى للجيش الرومانـي ، وهـو المهيمن على ير من شؤون الدولـة المهمة مـن ذلك صلاحيتـه نقض اى من قرارات مجلس الشيوخ ، وقدرته في التحكم في عضوية مجلس يوخ نفسه . يضاف الى ذلك انه كان لاوغسطس الحق في تعيين جميـع كام الاقاليم الرومانية وكان هؤلاء مسؤولون امامه مباشرة .

واحتفظ مجلس الشيوخ بقسط من السلطة في ادارة الاقاليم الرومانيه الداخليـة يدة عن الحدود اما تلك الاقاليم المتاخمة للحدود ، فقد حصر حق ادارتهـا غسطس مباشرة وذلك لاهميتها من الناحية العسكرية . (١)

وتمشيا مع هذا الاتجاه الهادف الى تقوية سلطانه الشخصي ، حاول اوغسطس ث روح جديدة في الديانة الرومانية القديمة ، تلك الديانة التي اضفت علـى حكام وم نوعا من الالوهية والقدسية . وفي الواقع ، لم يكن الطموح الشخصي المجرد ، حده ، هو الدافع وراء قبول اوغسطس قرار مجلس الشيوخ برفعه الى مصاف الالهـة ومن المرجح ان يكون اوغسطس نفسه قد حث الشاعر الروماني فرجل على مه رائعته الشعرية في اطراء اوغسطس وفي الاشادة بانجـازات عائلتـه (٢)

وكان الهدف من ذلك المجد الشخصي اضفاء الهيبة والقداسة على منصب الامبراطور

الخلاصة نجح اوغسطس في ارساء قواعد راسخة للامبراطورية الرومانية

ولعل نجاحه هذا يفسر استمرار الامبراطورية اربعة قرون من بعده ، على الرغم من الصعوبات الهائلة والمشكلات المعقدة التي واجهتها الامبراطورية . لقد حافظت الامبراطورية الرومانية على نوع من التماسك واحتفظت بقدر من القوة خلال تلك القرون الاربعة ، بفضل جيشها الدائم الكثير العدد والحسن التدريب والتسلح ، وبفضل جهاز ها الاداري ، وجودة وسائل مواصلاتها وصلاحية طرقها .

لكن الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادى ، لم تكن نفس تلك الامبراطورية التي خلفها اوغسطس عام ١٤ للميلاد . لقد شهدت الامبراطورية تطورات مهمة خلال القرون الثلاثة الاخيرة من حياتها ، فعمت فيها الفوضى السياسية وتدهورت اوضاعها الاقتصادية ، وفقدت الامبراطورية الكثير من اقاليمها المهمة مثل اسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا ، وكان الشطر الغربي من الامبراطورية اوفر نصيبا من تلك الفوضى السياسية وذلك التدهور الاقتصادى . والواقع ان اقاليم الامبراطورية في الشرق احتفظت بكثير من الازدهار والرفاه (٣) .

اما انتشار المسيحية في اجزاء الامبراطورية الرومانية فيمثل هو الآخر مظهرا من المظاهر المهمة التي تميز تاريخ الامبراطورية خلال القرون الثلاثة الاخيرة . وقد نجحت الكنيسة المسيحية في نهاية الامر الى ان تحل محل الامبراطورية الرومانية في قيامها بالمحافظة على وحدة الحضارة في اوربا خاصة بعد ان وفقت في نشر عقيدتها بين القبائل الجرمانية . وكان هذا بحد ذاته عاملا مهما ساعد هذه القبائل على تفهم تلك الحضارة وتقبلها .

عوامل ضعف وسقوط الامبراطورية الرومانية

شهد القرن الثالث الميلادى نهاية النظام الذى اقامه الامبراطور اوغسطس فالفوضى وعدم الاستقرار السياسي فسحا المجال للدكتاتورية وتعاقب الدكتاتوريات العسكرية أدت في آخر الامر الى الغاء نظام اوغسطس ذى المظهر الجمهوري برمته والى احلال نظام استبدادي على غرار الانظمة الشرقية محله وتم هذا على يد الامبراطور دقلديانوس .

وضعف روما وسقوطها من الامور التي اثارت اهتمام الباحثين في كل العصور ووضعت لذلك تفسيرات كثيرة ومتباينة . فبينما اكد البعض على العامل السياسي وحمله مسؤولية السقوط ، ابرز فريق آخر دور العوامل الاخرى الاقتصادية واجتماعية واخلاقية ، ولعله من الصواب القول أن سقوط روما لا يعزى الى عامل واحد ، بل الى عوامل كثيرة تظافرت وعملت على اضعافها وعلى اسقاط امبراطوريتها العتيدة

دور العوامل السياسية والعسكرية :

١ / كانت مشكلة وراثة العرش الروماني من العوامل الرئيسة التي سببت الكثير من الفوضى السياسية وادت الى عدم الاستقرار في انحاء الامبراطورية الرومانية فلم يتطور خلال تاريخ الامبراطورية الطويل نظام ثابت لوراثة العرش ، فكان الصراع بين المتنافسين على العرش يتكرر بعد وفاة كل امبراطور

ولم تكن هذه المشكلة جديدة بالنسبة الى الامبراطورية ، بل هي من اهم ما تميز به تاريخها . والشئ الجديد في الامر هو ان الفوضى التي كانت ترافق عادة اختيار الامبراطور الجديد ، لم تعد تقتصر على روما ، بل تعدتها الى اقاليم الامبراطورية الاخرى ، اضف الى هذا أن الجيش اخذ في التدخل اكثر فاكثر في

الشؤون السياسية بل وحتى في اختيار الامبراطور . وقد ادى هذا التدخل الى سلسلة من الحروب الداخلية التي سببت بدورها تدمير الممتلكات ونهب المدن وخراب الريف ، والحق هذا كله الضرر البليغ بالانتاجين الزراعـــي والصناعي وبالحياة العامة (٤) .

وفي الوقت الذي ازداد فيه تورط الجيش في الشؤون السياسية فان تغيرا جوهريا طرأ على تركيبه فالجيش الروماني كان يتألف من المواطنين الرومان وكان في الواقع مدرسة يتعلم الفرد واجبات المواطنه الرومانية . وكان يقوده ضباط رومان جاءوا من اقاليم ذات صبغة رومانية اصيلة . ويقضي الضابط أو الجندي ما يقرب من العشرين عاما في الخدمة العسكرية يتقاعد بعدها ، فيمنح راتبا تقاعديا ملائما أو قطعة من الارض مناسبة وهكذا يعود الى الحياة المدنية كمواطن صالح ليساهم في الحيـاة العامة . ولهذا صار الجيش الرومـاني بالنسبة للفرد وسيـلـة لتحقيق النجاح الاقتصادي والاجتماعي . واجتذب اليه خيرة المواطنين الرومان . ودأب الشباب في تهيئة انفسهم للخدمة العسكرية ، في حين تمتع المحاربون القدماء بالعز والاحترام .

ولكن الجيش الروماني منذ اوائل القرن الثاني لم يعد بهذا الشكل فلم يكن العنصر الروماني هو العنصر الوحيد الذي يتألف منه الجيش ، بل دخلته عناصر اخرى غير رومانية ، اما العناصر الرومانية التي كانت لاتزال فيه فقد جاءت من اقاليم رومانية نائية ومن مناطق ريفية بشكل خاص وكان تأثرها بالمدنية الرومانية محدودا وتفهمها للمثل الرومانية وللنظام السياسي الروماني ضئيلا جدا .

فالسلم والرفاه اللذان سادا الامبراطورية الرومانية في القرن الاول للميلاد جعلا سكان المدن الرومانية يفضلون حياة الاستقرار والرغد على الحيـاة العسكرية المضنية والمحفوفة بالمخاطر . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لم تعد الخدمة العسكرية تتعدى حراسة الحدود ، ولم يعد فيها ما يشبع روح المغامرة والحرب . ولهذا انصرف الكثيرون من الرومان عن الخدمة في الجيش . التي اصبحت مملة رتيبة .

وجوبهت الحكومة الرومانية بهذا العزوف عن الخدمة العسكرية فاضطرت الى قبول انخراط من يريد الانخراط فيه دون تمييز . وفقد الجيش الروماني تدريجيـا صلته بالسكان الاكثر اصطباغا بالصبغة الرومانية . وصار رجاله يمثلون فئة منفصلة تتحكم فيها النزعة الاقليمية اكثر مما تتحكم فيها روح المواطنة الرومانية . ولم ينصرم القرن الثاني حتى صار الجيش الروماني يتألف كله تقريبا من عناصر ريفية : رومانيـة وغير رومانية ، لم تمسها الحضارة الا قليلا . واصبح ولاء الجندي لا يتعدى حدود كتيبته وضباطه (٦) .

حدث كل هذا في الوقت الذي ازدادت فيه اهمية الجيش نتيجة للصـراع الداخلي والحروب الاهلية من ناحية ، وازدياد الاخطار الخارجية التي كانت تواجهها الامبراطورية من ناحية اخرى .

وشعر الاباطرة باهمية الجيش بالنسبة لهم ، فحاولوا استمالة رجاله بكل السبل وقد سار اغلبهم على المبدأ القائل (اجزل العطاء للجيش ولا تعبأ بالآخرين) .

وهكذا اخذت الامبراطورية الرومانية تفقد صبغتها الدستورية القائمـة علـى السلطة الثنائية – سلطة الامبراطور وسلطة مجلس الشيوخ ، السانتو . ولما كان الاباطرة يعتمدون على الجيش وحده للابقاء على سلطانهم ، فقد دفعهم هذا الى ارضاء الجيش من ناحية ، وشجعهم على التجاوز على القوانين الرومانية وحقوق المواطنين الرومانيين من ناحية ثانية والاستخفاف بالمؤسسات الدستورية من ناحية ثالثة .

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث تحكم الجيش تحكما مطلقا في توليـة الاباطرة وخلعهم . بل انه قام في كثير من الاحيان برفع رجاله الـــى المنصب الامبراطوري وكان فريق من هؤلاء رجالا طيبين وجنودا شجعان ، ولكنهم كانوا جميعا ضباطا صغارا من اصول ريفية ، وذوي تعليم محدود جاءوا من ثكناتهم ليتولوا مهام خطيرة تنوء بها كواهل اعظم السياسيين (٧) .

ويعتبر بعض المؤرخين ما حدث في الجيش ثورة اجتماعية ثار فيها الريف الروماني والعناصر غير الرومانية ، عن طريق الجيش ، من البرجوازية وسكان المدن الرومانية المثقفين المتحضرين (٨) .

وتعرضت الامبراطورية الرومانية الى مخاطر خارجية جسيمة منذ اوائل القرن الثالث للميلاد . فالفوضى التي سادت الامبراطورية ، شجعت القوى الخارجية على التجاوز على حدودها والتغلغل في ارضها . ففي الشرق قامت اسرة حاكمة جديدة في بلاد الفرس هي الاسرة الساسانية سنة ٢٢٦ للميلاد . وقد استطاع الساسانيون احتلال انطاكية لفترة من الزمن كما هددوا بقية اقاليم الامبراطورية في الشرق . وفي الغرب توغلت القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية والواقع ان وضع الامبراطورية الدفاعي كان حرجا الى درجة اضطرت معه الحكومة الرومانية الى صرف مبالغ طائلة على تحصين الكثير من المدن الداخلية ومن ضمنها روما نفسها (٩) .

العوامل الاقتصادية والاجتماعية :

لقد تكون العوامل الاقتصادية والاجتماعية اكثر غموضا ، واصعب توضيحا من العوامل العسكرية والسياسية وعلى اية حال ، فان هناك بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية تبدو واضحة المعالم فالحروب الاهلية والفوضى السياسية ادت الى هبوط ملموس في عدد السكان ؛ وقد اثر هذا تأثير بليغا في مستوى الانتاجين الصناعي والزراعي وقد تركت فعلا مساحات شاسعة من غير زراعة . وبوجود حكومة مركزية ضعيفة لم تعد الطرق آمنة فتعرضت الطرق البرية الى عصابات من قطاع الطرق كما تعرضت الملاحة في البحر الابيض المتوسط هي الاخرى الى تهديد مستمر من قراصنة البحر . وانخفاض الانتاجين الزراعي والصناعي من جهة وفقدان الامن في البحر وعلى اليابسة من جهة اخرى ، اديا الى تدهور خطير في التجارة .

ومن المحتمل جدا (على الرغم من فقدان الاحصائيات الدقيقة في هذا الشأن) ان يكون الميزان التجاري الداخلي للامبراطورية في صالح ولاياتها الشرقية على حساب الولايات الغربية . ولعل هذا الاختلال في الميزان التجاري يفسر بشكل رئيسي ما عانته الاقاليم الغربية من الامبراطورية من شحة ملحوظة في النقود . ومما

زاد في هذه الشحة نقصان الانتاج في مناجم الفضة والذهب الاوربية . وحاولت الحكومة الرومانية علاج تلك الشحة بتزييف النقود (تخفيض نسبة المعدن الثمين فيها وقد ادى هذا العلاج الى التضخم والى فقدان النقود لقيمتها الامر الذي زاد في ارباك الحياة الاقتصادية وشل جميع مظاهر النشاط الاقتصادى . (١٠) .

لقد ترك هذا التدهور الاقتصادي ابلغ الاثر واعمقه في الاقاليم الغربيــة وادت هذه الازمة الاقتصادية في المدن من جهة واستمرار الحكومة في جباية الضرائب مــن سكان تلك المدن من جهة اخرى الى انهيار الطبقة الوسطى . تلك الطبقة التي كانت من انشط طبقات المجتمع الروماني .

ودفع هذا الوضع بالكثير من ابناء تلك الطبقة من تجار وصناع الى تــرك المدن والفرار الى الريف للعمل بالزراعة هناك . وفي الريف الروماني اصاب المزارعين الاحرار وصغار الملاكين ما اصاب الطبقة الوسطى في المدن . فان تعسف السلطــة المركزية ، وفداحة الضرائب المفروضة عليهم ، ادت بهم الى حالة بائسة من الفقر والاملاق وقد اخذوا ينحدرون تدريجياً الــــى مستوى العبودية والقنانـــة (١١)

وعلى النقيض من هذا الاجحاف الذي اصاب الطبقة الوسطى في المدن وصغار الملاكين والمزارعين والاحرار في الريف ، استفادت طبقة كبار الملاكين من الاوضاع الجديدة فان سعة المقاطعات الزراعية التي ورثوها عن الاباء وثراهم البالغ ومنزلتهم الاجتماعية الرفيعة مكنتهم من الصمود امــام الازمات السياسية والاقتصاديـــة التي كانت تجتاح الامبراطورية ؛ ومهدت السبيل لهـــم للحصـــول على مكاسب وامتيازات سياسة واقتصادية جديدة على حساب الحكومة المركزية مـــن جهة ، وعلى حساب – الطبقات الاخرى من جهة ثانية .

لقد تحدت طبقة كبار الملاكين السلطة المركزية لضعفها وامتنعت عن دفــع ما كان يترتب عليها من ضرائب . وفي هذا الوضع الذي عجز فيه صغار الملاكيـــن والمزارعين الاحرار عن منافسة كبار الملاكين وضاقوا ذرعا بتحمل اعباء الضرائب

الحكوميين ، اضطروا الى التنازل عن اراضيهم الى كبار الملاكين لقاء حمايتهم وتوفير العيش لهم . وهكذا فان هذه الطبقة النشطة سارت هي ايضا في طريق الاضمحلال من المجتمع الروماني وتحول افرادها الى عبيد وأقنان (١٢) .

العامل الاداري

وفي خضم الفوضى السياسية والتدهور الاقتصادي مال الجهاز الاداري للامبراطورية الرومانية الى التدني والانحلال لقد كانت الامبراطورية تضم بلدان واقاليم كثيرة جدا في اوربا واسيا وافريقيا وكانت لجميع تلك البلدان والاقاليم في اغلب الاحيان خلفيات ثقافية متنوعة ، ولها نظم ادارية متباينة . ونجحت الحكومة الرومانية في عصر قوتها ، في دفع الجهاز الاداري الى العمل بدقة ومقدرة متميزة حتى وصفت الادارة الرومانية بانها اكفأ ما شهد التاريخ القديم ، وعندما ضعفت الامبراطورية الرومانية ؛ ودب الضعف في اجهزتها السياسية ونظامها الاقتصادي برزت التناقضات في انظمتها الادارية . (١٣) واستغل الموظفون الاداريون تلك التناقضات واستغلوا كذلك ضعف الحكومة الرومانية وفقدان الرقابة المركزية الصارمة فعاثوا في الادارة فسادا . وبمرور الزمن اصيب الجهاز الاداري بالشلل والعجز والفساد .

عوامـــــــل اخــــــرى

ذكرنا في مقدمة هذا البحث ان سقوط روما من الامور التي اثارت الاهتمام والجدل عبر العصور . فبالاضافة الى كل ما ذكر من اسباب فقد عرضت اسباب وعوامل اخرى ، وطرحت تفسيرات متباينة . (١٤) فهناك من عزا سقوط روما لاسباب خلقية تتلخص في ابتعاد الرومان عن الخلق الرفيع وانغماسهم بالرذيلة . وهذا مــــا قاله بعض مؤرخي الرومان في – اواخر عهد الأمبراطورية ورأى فريق آخر من المؤرخيـــن الرومان ايضا أن ما حل بروما لم يكن الا نتيجة لغضـــب الآلـــــه الرومانيـــــة

لعزوف الرومان عن عبادتها ولاعتناق المسيحية . بل ان هذا الفريق لم يتورع عــن اتهام المسيحية صراحة ، فقد قال ان المسيحية بما بثته من مفاهيم وقيم تتعارض مــع القيم والمفاهيم الرومانية ، وما خلقته من بلبلة في المجتمع الروماني هي المسؤولــة عن تدهور روما وسقوطها . ودفع هذا الاتهام المفكرين المسيحيين - وعلى رأسهــم القديس اوغسطين ، الى الرد عليه بشدة . وفسروا بدورهم ما حدث بانه ارادة اللــه وعجز البشر عن ادراك كنهها . ثم ان هناك من يعتقد ان ما حدث لروما جاء بسبـب الجرمان (١٥) . فالقبائل الجرمانية المتوحشة عملت على بربرة المجتمع الروماني المتمدن هذا مــن ناحية ومن ناحية اخرى ؛ فان هجمات القبائل الجرمانية وتهديداتها المستمــرة للامبراطورية استنزفت قوة الرومان وادت بالامبراطورية في نهاية الامر الى الانهيـار والسقوط على ايدي الجرمان دون سواهم

صلاحات دقلديانوس ونتائجها

ولد دقلديانوس في اقليم دلماشيا من أب فلاح .. وفتحت له الخدمة في الجيش الروماني مجال التقدم . واخيرا ، وعلى اكتاف الجيش ، ارتقى الى ذلك المنصب الرفيع منصب الامبراطور . واعتلاء دقلديانوس العرش يمثل بحد ذاته امرين مهمين كانا يميزان وضع الأمبراطورية خلال تلك الفترة من تاريخها اولهما تركيب الجيش الروماني من عناصر غير رومانية وثانيهما الدور الذي كان يلعبه الجيش في سياسة الامبراطورية . وعلى اية حال فان دقلديانوس نفسه يعتبر خير ممثل للعصر الذي عاش فيه

لم يكن مثقفا ثقافة عالية . ولم يكن ملما بتطور الانظمة الرومانية ، ولا متبحرا في تاريخ الرومان . ولكنه كان رغم ذلك متفهما لعصره مدركا مشكلات الامبراطورية التي هيأت له الاقدار اعتلاء عرشها . وكجندي نظر لمشاكل الامبراطورية مــن زاوية عسكرية بالدرجة الاولى فكان هدفه حماية حدود الامبراطورية اولا وقبــل كل شئ (١٦) .

وهي بدورها تجمع ذلك المال من منتسبيها واجبر دقلديانوس الابناء على الانخراط في نفس الحرف التي كان يمتهنها آباؤهم وكان لهذه الاجراءات اثرها في تخفيف هذه الضائقة المالية التي كانت تعاني . منها الحكومة ولكنها في الوقت نفسه ألحقت ابلغ الضرر بالمشاريع الفردية ، وادت على المدى البعيد الى ركود الحياة في المجتمع الروماني (٢١) .

وامتدت يد دقلديانوس الى الريف ، ولكن قوة كبار الملاكين هنا حدت من سلطة الحكومة وحالت بينها وبين احداث اى تغيير جذري في وضع الريف الروماني لقد كان الفلاح الروماني الحر يؤلف ركيزة مهمة من ركائز المجتمع الروماني كما ان ضريبة الارض كانت مصدرا اساسيا للدخل الحكومي . وكل ما فعلته الحكومة عندما تدهورت الزراعة وتناقصت الضريبة انها منعت الفلاحين الاحرار من ترك اراضيهم ، وأوكلت جمع الضريبة منهم الى كبار الملاكين واحتفظ هؤلاء لانفسهم بالجزء الاكبر من الضرائب التي كانوا يجبونها من الفلاحين . وبمرور الزمن اسندت الى كبار الملاكين واجبات حكومية اخرى كحفظ الامن المحلي والقضاء .

لقد هيمن قسم من كبار الملاكين على مقاطعات واسعة جدا وتمتعوا فيها بنفوذ كبير للغاية ، وصاروا بذلك حكاما مستقلون فعلا . وهؤلاء هم بعض اسلاف النبلاء الاقطاعيين الذين سادوا اوربا خلال عهد الاقطاع من العصور الوسطى . (٢٢)

من هذا العرض لاصلاحات دقلديانوس ، يلاحظ انها كانت حلولا عملية لاوضاع حرجة تتطلب حلولا سريعة ومؤقتة . وكانت النتيجة جيدة في بعض الحالات فقد اعيد الامن الى اغلب اجزاء الامبراطورية ، وحفظت الحدود ، لمدة قرن اخر من الزمن .

ج / الامبراطورية في عهدي قسطنطين الكبير وثيودسيوس :

اعتلى الامبراطور قسطنطين الكبير العرش في مطلع القرن الرابع (٣٠٥ – ٣٣٧) وكان بحق من اعظم الاباطرة في التاريخ الروماني . فقد نجح في بسط سيطرة الدولة على اجزاء الامبراطورية ، بعد ان قضى على منافسيه الطامعين في العرش . كما انه دافع بنجاح عن الحدود . ويعتبر الاعتراف بالمسيحية وبناء مدينة القسطنطينية من اهم

انجازات هذا الامبراطور العظيم (٢٣) . وبالنسبة للامر الاول فقد اعترف قسطنطين بموجب مرسوم ميلان الصادر في عام ٣١٣ م بالديانة المسيحية وبذلك اصبحت هذه الديانة في مستوى الديانات الاخرى السائدة في الامبراطورية الرومانية . وبهذا قضى على مشكلة مهمة من مشاكل الامبراطورية التي بقيت لمدة طويلة مصدرا للمتاعب وعدم الاستقرار .

اما بالنسبة الى بناء عاصمة جديدة للامبراطورية في الشرق فقد قام الأمبراطور ببناء مدينة كبيرة محل بلدة بيزنطة القديمة على الضفة الاسيوية للبسفور عند اتصاله ببحر مرمرة وتأسيس هذه المدينة بحد ذاته يشير الى الاهمية المتزايدة للاقاليم الشرقية في الامبراطورية وانشئت هذه لتكون عاصمة الجزء الشرقي للامبراطورية الى جانب روما عاصمة الغرب .

وبينما سارت هذه المدينة في طريق النمو والازدهار منذ تأسيسها ، فان روما من جهة اخرى كانت تسير نحو التدهور والاضمحلال .

وفي اواخر القرن الرابع اعتلى الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ – ٣٩٥) العرش في ظروف عصيبة ولدتها معركة ادرنة الشهيرة التي دمر فيها الجيش الروماني امام القوط الغربيين واستطاع ثيودسيوس ان يعيد شيئا من الثقة والاستقرار (٢٤) . ومن اعماله المهمة قيامه بفصل الامبراطورية الرومانية فصلا تاما الى امبراطوريتين واحدة في الغرب عاصمتها روما وقد خص بها ابنه هونوريوس واخرى في الشرق عاصمتها القسطنطينية خص بها ابنه اركاديوس وبهذا يكون ثيودسيوس قد اتم كل ما شرع به كل من دقلديانوس وقسطنطين . فالاول بدا بفكرة تقسيم الامبراطورية ، ولكن تقسيمه كان صوريا فقد بقيت في الواقع امبراطورية واحدة . والثاني انشأ فعلا عاصمة جديدة فصارت للامبراطورية عاصمتان . وجاء ثيودسيوس ليتخذ الخطوة الاخيرة في عملية الفصل .

F.F. Abbot, History and Describtion of Roman Poli-
tical Institutions (3ed. 1911), PP. 341–388.
Carlton J.H. Hayes, Marshall W. Baldwin and C.W.
Cole, History of Europe, 1955, P. 46.

وهو من الكتب الرئيسية التي اعتمد عليها في تأليف هذا الكتاب . وذلـ
لغزارة مادته ووضوحها . كما ان كتاب البروفسور هيزوزميلية وضع خصيصا
لهم في مستوى الطالب العراقي الذي ستعطي له هذه المادة

Ibid, PP. 48–50
I bid.

٥) كرستوفر داوسن ، تكوين اوربا ، ترجمة ومراجعة الدكتور محمـ
مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٩٦٧ ، ص ١٤ –

٦) نفس المصدر .

٧) نفس المصدر ، ص ١٦ .

M. Rostovt ef, The Social and Economic History
of the Roman Empire, 2 vols. 1926. vol., I., P. 419.
Hayes, OP. cit., P.66.

Ibid.
Rostovt ef, OP. cit., chs. x–x!
Ibid.
Abbot, op. cit., p. 350

١٤) انظر كتاب الدكتور عبد القادر احمد اليوسف ، العصور الوسطى الاوربية ٤٧٦ – ١٥٠٠ ١٩٦٧ ص ١٣ – ٢٧ . وذلك لما احتواه من تلخيص وعرض تبيين لهذه الاراء والتفسيرات .

١٥) نفس المصدر .

(16) E. R. Boak, A History of Rome to 565 A.D. (1922) chs. XIV–XIX
(17) Hayes, op. cit., pp.

١٨) لا يقصد بالشيوخ الاعضاء في مجلس الشيوخ فقط ، بل ان الشيخ لقب يمنحه الامبراطور للوجهاء والاثرياء من المواطنين . وكان الحصول على هذا اللقب يعني الحصول على مزيد من الجاه والسلطة والامتيازات . وقد حصل حملة هذا اللقب على المناصب العليا في الدولة وكون الشيوخ طبقة متميزة . انظر عبد القادر احمد اليوسف ، نفس المصدر ص ٢٩ – ٣٠ .

(19) Hayes, op. cit., pp. 67–73
(20) Boak, op. cit., Chps. XIV–XX
(21) Hayes op. cit., pp. 67–73.
(22) Ibid.
(23) C.F. Firth, Constantine the Great,
(24) J.B. Bury, Later Roman Empire, 2 vols London: 1923, vol. I, Chps. iii–lv

الفصـــــل الثانـــــي

المسيحية : ظهورها وانتشارها وعلاقتها بالسلطة الرومانية

المسيحية : ظهورها وانتشارها وعلاقتها بالسلطة الرومانية

١ . ظهور المسيحية وانتشارها .

٢ . موقف الحكومة الرومانية من الديانة المسيحية – عهد الاضطهاد حتى عام ٣١٣ م .

٣ . الاعتراف بالديانة المسيحية (مرسوم ميلان) .

٤ . انتشار المسيحية في القرنين الخامس والسادس .

٥ . الهرطقة .

. ظهور المسيحية وانتشارها :

ظهرت الديانة المسيحية في فلسطين وانتشرت في اقاليم الامبراطورية الرومانية رقا وغربا بسرعة تثير الاعجاب والتساؤل . فهذه الديانة الشرقية التي بشر بها رجل ان يعيش في بقعة مغمورة تقع في زاوية نائية من زوايا الامبراطورية ، قدر لها ان نشر ذلك الانتشار الواسع ، وان يعترف بها ديانة رسمية في الامبراطورية الرومانيـــة بد ثلاثة قرون فقط من ظهورها ، ولتصبح بعد ذلك بوقت قصير الديانة الوحيـــدة عترف بها بل الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية المترامية الاطراف .

ثمة تعليلات كثيرة لذلك النجاح الذي حققته المسيحية منها : طبيعة تركيـــب امبراطورية الرومانية فقد كانت اجزاء هذه الامبراطورية مرتبطة بعضها مع بعض شبكة من الطرق ووسائل المواصلات لا نظير لها في العالم القديم اجمع وكان الامن سود تلك الطرق وقد ساعد هذا على انتقال العقائد والافكار بين اقاليم الامبراطوريـة رعة ويسر تماماً كما كان يساعد على انتقال التجارة وتحرك الجيوشـــــــــس

ثم ان طبيعة الديانة المسيحية التبشرية ساعدت على سرعة انتشار المسيحية . لقد شرت المسيحية في بداية الامر بين المحرومين والفقراء من سكان المدن ، ثم اخذت نتشر بين كل الفئات والطبقات . لقد كان المسيحيون الاوائل كلهم مبشرين . كانوا حملون ديانتهم الجديدة ويدعون لها في حلهم وتر حالهم . ولم يكن هناك مـــن ي ادعى الى السعادة الى قلب المسيحي من كسبه مؤمن جديد الى ديانته المسيحية . لقد ان المسيحيون يبشرون دون خوف او وجل بثبات واصرار وكثيرا ما تعرضوا بسبب لك الى الاذى والاضطهاد . وبالاضافة الى هذا فقد كانت فئة من المسيحين الاوائل ركت امور الدنيا كافة وكرست حياتها وجهودها من اجل التبشير بالعقيدة الجديدة هذه الفئة بالذات يعود الفضل الاول لما حققته المسيحية من النجاح . ومن هؤلاء بطبيعة حال تلامذة السيد المسيح المقربون او ما يسمون بالرسل والحواريين (٢) .

وفي مقدمة اولئك الرسل القديس بولص وهو مثقف يهودي ومواطن روماني ن اهل طرسوس . كان خصما المسيحية في بداية الامر ثم صار من المؤمنين بهـــا

تميز القديس بولص بثقافة عالية جـ .ر كان بطبيعة الحال عارفا بالتعاليم اليهوديـة وبتراثها . ثم انه كان ملما بالفلسفة اليو . وبالافكار والاتجاهات التي كانـت سائدة في عصره . والى جانب هذا وذاك طلعا على الديانات الشرقية المختلفة التي كانت اخذة في الانتشار في نفس الوقت الذ .رت فيه المسيحية وبدأت فـي الانتشار . لقد بشر القديس بولص بالمسيح وبالـ الجديدة . وكان تبشيره ومواعظ موجهة بالدرجة الاولى الى ابناء قومه ومواطنيه ولكنه الوقت نفسه امن ، منـ البداية ، ايمانا مطلقا وعميقا بان المسيحية ديانة جميع ا ام والشعوب والاجناس لقـد سافر بولصـ في طـول ، راطورية الرومانيـة وعرضها واحاط بـه في كل مكـان مجموعـة مـن التلامذة المتحمسين للعقيدة الجديدة . واوجد في كل بقعة حل ا جماعة مـن المؤمنين الغيورين كان همها بعد ان يفارقها القديس بولص القيا دورهـا بالتبشير للديانة المسيحية وكسب الانصار والمؤيدين لهـا .

والى جانب جهود المسيحيين الاوائل وتضحياتهم ودور الرسل والحواريين ، فان التطورات الفكرية والدينية التي كانت تشهدها الامبراطورية الرومانية وقت ظهور المسيحية قد تعطي تفسيرا ملائما لنجاح المسيحية .

لقد كانت الوثنية اليونانية والرومانية فقدت الكثير من حيويتها وجاذبيتها بسبب الانجازات الثقافية والفكرية اليونانية العظيمة . وحاول اوغسطس دون جدوى ، رفع منزلة الالهة الرومانية من جديد . ولم يوفق اوغسطس الا بتأكيد عبادة الامبراطور . وقد اصبح هذا في الواقع هو الدين الرسمي للدولة . ولكن عبادة الامبراطور بحـد ذاتها اثارت شكوك المثقفين والتابعين اذ لم تكن لتتفق مع العقل والمنطق .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يمكن القول ان الفلسفة العقلية لا تغني عـن العقيدة الدينية ، طالما انها لا تفي بحاجة الرجل العادي العاطفية ولا تشبع رغبتـه للايمان والخلاصة يمكن القول انه كان هناك فراغ روحي ولعل هذا يفسر انتشـار الاديان الصوفية المتغلغلة في الغيب والغموض والخيال ، بل في الخرافات والاساطيـر السائدة في العالم اليوناني والروماني ... (٢)

لقد كانت تلك الديانات الوافدة تتميز كلها بتجاوبها مع العاطفة من خـلال الخيال والغموض من ناحية والشعائر والطقوس المعقدة من ناحية اخرى . وهكذا نـرى ، انه في الوقت الذي اخذت فيه المسيحية في الظهور والانتشار كان المثقفون قـد وجدوا عزاء لهم في الاتجاهات الفلسفية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، امـا العامة فقد وجدت ذلك العزاء في الديانات الشرقية الصوفية ومع ان الافلاطونية الجديدة حاولت التوفيق بين الاتجاهين وحاولت ان تكون همزة الوصل بينهما الا ان نجاحها كان محدودا وقد يقال بشئ كثير من الصواب ، ان المسيحية ظهرت في وقت كان العالم فيه خاليا من دين حقيقي شامل / وانه كان هناك فراغ روحي جاءت المسيحيـة لتملأه .

حقا لقد عرضت المسيحية اشياء كثيرة كانت الديانات الشرقية قد عرضتها من قبل . ولكن المسيحية اضافت اشياء جديدة قصرت الديانات الاخرى عـن بلوغها من ذلك تاكيدها الاخوة الانسانية تحت رعاية الابوة الالهية . التعاليم المسيحية اعطت مفهوما مسيحيا متميزا للحب والعطاء والاحسان والمسيحية ذهبت الى ابعـد مدى مما ذهبت اليه اية ديانة شرقية في عرض افكار اجتماعية واقعية توفر الفائـدة في الحياة الدنيا والسعادة والهناء في الاخرة . وقد قال القديس بولص معبرا عن المفاهيم المسيحية " ولو كنت املك نعمة التنبئ واعلم الغيب ، ولو كنت احيط علما بجميع الغموض والاسرار ، ولو كانت عندي المعرفة بكل شئ ، ولو كانت لدى كـل العقيدة والايمان ، فاستطيع بهما زحزحة الجبال الشامخات ، ولكني لا املك الحب والاحسان ، فانا لا شئ " ، (٤)

ويرى البرفسور . ا س . هويت ان هناك ثلاث خاصيات (٥) للديانـة المسيحية مكنتها من البقاء والانتصار هي :

ايمان المسيحيين المطلق بديانتهم ورفـ .هم الـ لاية ديانة و .قيدة اخرى . تمييز نفسهم عمن سواهم بشكل حاد وفاصل .ون مخالفة ومهادنة مع .ي شكل . وللديانات الاخرى كلها آله . ولكن اله المسيحيين حريص ان لا يلد ... سواه . انه الالـه

الواحد القدير ، وهو الواحد الاحد . والمسيحيون هم عباده المختارون المخلصون . وقـال القديس بطرس انتم اية العباد المختارون . الملكيون . انتم الامة المقدسة . وانتم الصفـ من العباد (٦) . وهذه النظرة الى ربهم والى انفسهم جعلت المسيحيين مبغوضين مكروهين ، ولكنها في الوقت نفسه شدت بعضهم الى بعض . وصيرتهم فـ جماعة متماسكة ، وكونت لديهم حسا وضميرا مشتركا . وجعلت منهم قاعدة صلـ استطاعت الحفاظ على ذاتها اولا ثم الاندفاع في التوسع على حساب الديانات والعقائد الاخرى في نهاية الامر .

اعتراف المسيحية الصريح بحقوق السلطة الدنيوية لقد وضع القديس بولص ، الاساس للفكر السياسي المسيحي حين قال لا توجد سلطة غير سلطة الله وتلك التي فرضها وخولها . ومن يقاوم هذه السلطة المفوضة يكون قد قاوم الله .وجزاء مثل هـ الهلاك والجحيم . والواقع ان المسيحيين لم يتعرضوا ابدا للامبراطورية الرومانية ولـم ينافسوها سلطانها ، طالما ان مملكتهم لم تكن في هذه الدنيا ، بل في ملكوت السموات انهم ضيوف عابرون الى دار القرار . ولذا فان الحكومة الرومانية ، على الرغم مـن الصرامة والقسوة اللتين عاملتهم بهما في بعض الاحيان ، كانت متسامحة معهـم بشكل عام . ولم تبذل تلك الحكومة اية محاولة جادة لاستئصالهم . ولم تشن حملات الاضطهاد القوية الا في ظروف الاضطراب خلال القرن الثالث للميلاد .

والمسيحية كما قلنا لم تهاجم الدولة ولم تتعرض لسيادتها ، ولكنها في الوقت نفسه لم تنصاع لها ولم تستكين لارادتها . لقد حرص المسيحيون على ان يكونـوا مستقلين كل الاستقلال في مجال عبادتهم وعقيدتهم دون السماح لاى تدخل فيه باى شكل من الاشكال . كانوا مخلصين لهذا المبدأ اعطي ما لقيصر لقيصر ومـا لله لله ولذا رفضوا بثبات واصرار عبادة الامبراطور الامر الذي كانـت تعتبره الحكومة الرومانية مظهرا من مظاهر الولاء السياسي والذي رأى فيه المسيحيون كفـرا والحادا . ورفض المسيحيين المطلق لتدخل السلطة الزمنية في شؤون عبادتهم سبب لهم الكثير من المتاعب ولكن اكسبهم على المدى البعيد القوة والقدرة على البقاء .

. موقف الحكومة الرومانية من الديانة المسيحية – عهد الاضطهاد – حتى عام ٣١١ :

لم ترحب الحكومة الرومانية بالمسيحية وقاومت انتشارها مقاومة شديدة وذلك على الرغم مما عرف عن سياسة تلك الحكومة من تسامح تجاه الاديان المختلفـة . وهناك اسباب مهمة دفعت الحكومة الرومانية الى اتخاذ موقف متشدد من الديانـة المسيحية . منها :

(١) ان المسيحيين الاوائل ، كان جلهم تقريبا يقيمون في المدن ، وعاشوا فـي عزلة عن بقية الناس . مما اثار الشكوك حولهم . وحمل السلطات الرومانية علـى الوجل منهم ثم دفعها الى اتهامهم بالتآمر على سلامة الدولة . وقد كان معظم المسيحيين الاوائل من الاغريق الساكنين في المدن الرومانية والناقمين . من العبيد المضطهدين وكان كل من اولئك وهؤلاء في الاساس موضع شك وازدراء من قبل المواطنين الرومان والحكومة الرومانية .

(٢) والاهم من هذا وذاك ان المسيحيين رفضوا عبادة الامبراطور ورأوا في تلـك العبادة ضربا من الوثنية البغيضة ، لا يمكن التهادن معها . في حين ان عبادة الامبراطور كانت امرا اساسيا بالنسبة للديانة الرومانية القديمة ودعامة من دعائم الحكم وركيزة من ركائز الوحدة ومظهرا من مظاهر الولاء . ورأت السلطات الرومانية في المسيحيـة تنكرا لعبادة الامبراطور ، تهديدا خطيرا ليس لسلطان الامبراطور ومقامه الرفيـع بل للامبراطورية وكيانها ومثلها . ومثل هذا جريمة يستحق صاحبها عليها العقـاب . ولعل المؤرخ الروماني تاكيتوس عبر خير تعبير عن رأى الرومانيين في هذا المجال . فقد اتهم المسيحيين بعدائهم للجنس البشري وذلك لامتناعهم وولعهم في التشكك بكل القيم التي يقوم عليها المجتمع المتمدن انهم يضعون مصالحهم الدينية فوق مصالح المجتمع والدولة (٧) والواقع ان كثيرا من المثقفين لم تكن لديهم القناعة التامة فـي عبادة الامبراطور ولكنهم كانوا مضطرين لاظهار الرضى خدمة لمصلحه مجتمـع

ودفعت الاسباب الانفة الذكر بالحكومة الرومانية ، بل بعامة الناس
مقاومة المسيحية ، وكانت تلك المقاومة تتخذ احيانا صفة الاضطهاد والتعذ
القتل ايضا . وعلى الرغم من مبالغة المسيحيين في وصف ذلك ، فانه من المؤ
ان سياسة الحكومة الرومانية المعادية للمسيحية لم تبلغ ابدا من الصرامة بحيث
معها المسيحية او يحال دون انتشارها .

ودفع الموقف المعادي الى المسيحيين بهؤلاء الى ممارسة عبادتهم وايداء
في الخفاء ، بعيدا عن اعين السلطة ورقابتها . وكان افتضاح امرهم يعرضهم
والتنكيل . ومع هذا فقد ابدى الرجال والناس ، بل والاحداث ايضا شجاعة و
وواجهوا التعذيب باقدام وصبر بثيران الاعجاب . وكان يلقى بهم في بعض ا
الى الوحوش والاسود في الساحات العامة امام اعين المتفرجين ، دون ان ينال
ذلك شيئا ودون ان يستكينوا لمضطهديهم او يتراجعوا عن عقيدتهم .

وجاء اضطهاد المسيحيين على يد اباطرة جائرين عرفوا بظلمهم وطغيانه
نيرون ، كما جاء على يد اباطرة آخرين عرفوا بالعدل والتعقل مثل دقلديانوس . و
القول ان اغلب الاباطرة كانوا اكثر تساهلا مع المسيحيين من الحكام المحليين
كان هؤلاء اكثر ميلا للتشدد واكثر استجابة لضغط الرأى العام المعادي للمس
ولسنين طويلة كانت سياسة الحكومة الرومانية تلخص بما ورد في رسالة الام
تراجان الى احد حكام الولايات وجاء فيها ما دام المسحيون لا يجاهرون بعبا
وعقيدتهم فدعهم وشأنهم ،، (٨) .

٣ . **الاعتراف بالمسيحية (مرسوم ميلان) :**

وصار واضحا في اوائل القرن الرابع انه على رغم من اجراءت الحكومـ
الرومانية ضد المسيحية ، سواء كانت تلك الاجراءات شديدة ام معتدلة ، فان ع
اتباع المسيحية ازداد الى درجة يتطلب الامر معها نوعا من الاعتراف بهذه الديا
واتخذت هذه الخطوة على يد الامبراطور [illegible] عام ٣١١ وذلك بموجب

لان الشهير . حيث اصبحت المسيحية من الاديان المعترف بها في الامبراطورية
رومانية وصارت بذلك على قدم المساواة مع بقية الاديان . اما الدوافع وراء خطوة
طنطين هذه ، فهي غير واضحة فبالنسبة للرواية المسيحية القديمة فان الامبراطور عند
سمه الى اوربا في حربة ضد ماكسنتوس وفي ساعة حرجة من ساعات الحرب رأى
. غروب الشمس نورا من السماء وفي وسطه صليب وتحته هذه العبارة ، ستنتصر بفضل
،، فما كان من قسطنطين الا واتخذ الصليب شعارا له خلال المعركة فتم له النصر ،
مر الذي دفعه الى الاعتراف بالمسيحية . والحقيقة ان قسطنطين نفسه لم يصبح
يحيا الا في اواخر حياته كما انه لم يتخل ابدا – خاصة في الشرق – عن المفهوم
خاص بعبادة الامبراطور . وهذا يدل من غير شك ان الاعتبارات السياسية ورغبته
القضاء على عامل من عوامل التوتر والقلق في الامبراطورية هي المسؤولة ايضا عن
اتخاذه الخطوة وليس الاعتبارات الدينية المجردة فقط . ومهما تكن الحوافز
حقيقية لاعتراف قسطنطين بالمسيحية فان خطوته هذه كان لها اهميتها البالغة بالنسبة
ستقبل المسيحية ولمستقبل اوربا .

واصيبت المسيحية بانتكاسة مؤقتة على يد الامبراطور جوليان المرتد (٣٦١ –
٣٦) ، ولكنها انتكاسة جاءت لتؤكد قوة الديانة الجديدة وصمودها . وفي عهد
امبراطور ثيودسيوس ٣٩٥ رفعت المسيحية الى مستوى الديانة الرسمية للدولة .
عقبها اقدام الحكومة الرومانية على اضطهاد بقية الاديان وهكذا قبل ان تسقط
لامبراطورية الرومانية كانت قد اصبحت امبراطورية مسيحية .

. **انتشار المسيحية خلال القرنين الرابع والخامس :**

وصار واضحا في اوائل القرن الرابع انه على رغم من اجراءات الحكومة
كنيسة المسيحية مجال نشاطها طيلة القرن المذكور في كل جزء من اجزاء الامبراطورية
نجحت في اقامة مؤسسات ثابتة كما ارست لها قواعد راسخة تتمثل في النظام
لكهنوتي والبابا والاساقفة .

وعندما انهارت السلطة الرومانية نهائيا في الغرب ... الكنيسة بتنظيماتها تمتلك القدرة على البقاء ، بل انها كانت مهيأة لتمارس سلطا... ونفوذها على المجتمع الاوربي ولتخلف الامبراطورية الرومانية كهيئة متسلطة ... في اوربـــا .

ولم تنجح الكنيسة الكاثوليكية في تطوير الكنيسة فحسب ، بل انها ... جغرافيا متخطية حدود الامبراطورية الر ومانية القديمة (١٠) . وعندما فتح الر... بريطانيا كادت المسيحية ان تدحر فيها ، بل كادت العزلة تفرض على الجزر البر... برمتها . ولكن القديس باتريك الذي قضى ٦ سنوات في ارلندة اثناء شبابه ، ... صار راهبا في بلاد الغال رجع سنة ٤٦١ الى ارلندة ليقوم بتبشير آسرية السابقي... وكان من دواعي سعادته ان يرى قبل وفاته غالبية الارلنديين وقد اهتدوا الى المسي... بل قام الارلنديون انفسهم بدور تبشيري فعال .

وعبر المبشرون الارلنديون بقيادة سنت كولوبا (٥١٢ – ٥٩٧) المياه الـ... الشاطئ الشمالي لانكلترا حيث وجدوا شعبا يتكلم لغة قريبة من اللغة الكلتية . ولما ... الاسم اللاتيني للارلندى هو سكوتا (Scota) فقد اطلق هذا الاسم على ... الشمالي من بريطانيا فعرف بسكوتلاند (Scotland) وعبر مبشرون ارلنديـ... آخرون البحر الى (برتاني) الكلتية حيث توغلوا في مملكة الفرنجة التي كانت ... ذلك الوقت وثنية ونشروا المسيحية هناك . وفي اواخر القرن السادس (٥٩٧) ارسـ... البابا غريغوري الراهب اوغسطين لهداية السكسون في جنوب انكلترا . وقد ... هذا نجاحا منقطع النظير . وقام مبشر سكسوني هوونفرد الذي عرف فيما بعـد بـ... بونيفاس بتأسيس كنيسة في الاقسام الشرقية لمملكة الفرنجة . ويعتبر معظم الال... حتى ايامنا هذه القديس بونيفاس قديسهم القومي .

وفي الشرق قام القديسان الاخوان ميثديوس وسيرل بنشاط كبير وحققا ... متميزا في هداية الشعوب السلافية (١١) .

وحيثما حلت الكنيسة فان اراءها الدينية اثرت في جوانب الحياة المختلفة السياسـ... والاقتصادية والاجتماعية .

وفي الوقت نفسه كانت سلطة الكنيسة في كل مكان تحددها الاوضاع السائدة فيه ففي الشرق حيث وجود حكومة قوية جعل السلطة والسيادة بيد الحكومة الامبراطورية وجعل الكنيسة خاضعة لها ، في حين ان فقدان مثل هذه السلطة في الغرب جعل سلطة الكنيسة هي العليا واضفى على الكنيسة من المهابة والمنزلة الرفيعة مالم يتوفر لنظيرتهـا الشرقية .

. الهرطقـــة :

تعرضت الكنيسة المسيحية الى عديد من حركات الانشقاق منذ فجر تاريخها . والمقصود بالهرطقة البدعة ، او الخروج على العقيدة المعترف بها من قبل الكنيســة او الخروج على جزء منها . فالهرطقة انشقاق وخلاف روحي وثقافي ليس له صلـة بالقضايا الاخلاقية او بالمعاصي مهما كانت هذه كبيرة . وعندما يكون عدد الخارجين على العقيدة كبيرا وحركتهم واسعة يتطلب الامر ردا قويا وشاملا من الكنيسة . وكثيرا ما ادت مقاومة الحركات الهرطقية الى تقوية الكنيسة وتعزيز مكانتها واغلب الحركات الهرطقية قادت الكنيسة الكاثوليكية الى امرين هامين ، اولهما : اعطاء تعريف رسمي دقيق ومحدد للعقيدة المختلف عليها ، وثانيهما : اتخاذ اجراءات قمعية او اقناعيـــة تجاه الهراطقة .

وظهرت معظم الحركات الهرطقية خلال القرون الاولى من تاريخ المسيحية حول امور تتعلق بعقيدة الثالوث . فهذه نقطة يكتنفها من غير شك الغموض وهـــي صعبة الفهم والتفسير فكان هناك سؤال دائم حول طبيعة وشخصية السيد المسيح وعلاقته بالاب . ولعل اريوس (Arius) هو اقدم الهراطقة ومنه اشتقت الاريوسيـــة التي ظهرت عام ٣٢٣ . واريوس هذا كان من الاسكندرية . وقد اثار هذا الجـدل :

اذا كان المسيح هو ابن الله فهو لا بد ان يكون اصغر منه واحدث ، وعلى هذا فهو اذن اقل منه شأنا . ان من صفات الله الازلية تعني ان لا بداية هناك ولا نهايــة . ولكن المسيح غير ازلي لان له بداية . لذا فهو ليس اله بالمعنى التام (١٣) . لقـــد استنكر اسقف الاسكندرية هذه الاراء وصدرت على اريوس عقوبة التحريم . واحدثت

الامر الذي دفع بالامبراطور قس[illegible]
:فكاره بلبلة كبيرة وشقت المسيحيين على انفسهم
الكبير الى عقد مجمع نيقية عام ٣٢٥ . وقد حضره الاساقفة من مختلف انحاء ال[illegible]
المسيحي . وفي مجمع نيقية هذا حددت وعرفت بدقة ازلية السيد المسيح ووحد[illegible]
الكاملة بالاب . وبقيت الاريوسية تقاوم . ولكن العقيدة الكاثوليكية حققت النص[illegible]
اخيرا بمساندة الحكومة الرومانية لها . ونجحت الاريوسية في تحقيق انتصار ف[illegible]
مجال اخر ، فقد قام المبشرون الاريوسيون بنشر هذه الديانة بين القبائل الجرماني[illegible]
الامر الذي سيكون له نتائج مهمة كما يتضح ذلك في دروسنا القادمة .

وفي مجمع افسوس المعقود في عام ٤٣١ أكدت مرة اخرى عقيدة الثالو[illegible]
وكان ذلك ردا على نوسطوريوس الذي قال بوجود طبيعتين للسيد المسيح واحدة سماوي[illegible]
ولاخرى بشرية نتج عنهما شخصيتان وان مريم هي ام تلك الشخصية البشرية فقط
وصادق مجمع افسوس على تأكيد لقب مريم ام الربُ كما صادق على رفع منزلته[illegible]
بجعلها سيدة القديسين والقديسات . واصبحت منزلة مريم الرفيعة هذه من الصفا[illegible]
المميزة للعقيدة المسيحيه الكاثوليكية منذ ذلك العهد (١٤) .

وجوبهت الكنيسة الكاثوليكية بهرطقة اخرى قام بها المونوفيسيون القائلو[illegible]
بوجود طبيعة واحدة للسيد المسيح . وقد استنكر مجمع خلقدونيا (عام ٤٥١) هـ[illegible]
القول . واكد تعريفه وتحديده السابق لشخصية السيد المسيح ولطبيعته (١٥) .

وقد نجحت المونوفستية في نشر تعاليمها في الشرق وصار لها انصار كثيرو[illegible]
في مصر وسوريا وفلسطين الامر الذي سبب كثيرا من المتاعب والمشكلات للاباطر[illegible]
الشرقيين .

(1) Hayes, op. Cit., pp. 52–53
(2) J.J.I. Dollinger, The First Age of Christianity and the Church, 4 ed. Trans. (1906), pp. 213–291
(3) I bid.
٤ . دوسن ، نفس المصدر ، ص ص ٢٩ – ٥٦ .
(5) Robert S. Hoyt and Rupert H. Davis, Europe in the Middle Ages, 1957, p. 55.
(6) I bid, pp. 54–61
(7) Ibid, p. 56
(8) R.H.C. Davis, AHistory of Medieval Europe, 1970 p. 17
(9) Hayes, op. cit., p.57
(10) Firth, op. cit.,
(11) Hayes, op. cit., pp. 107–108.
(12) The Shorter Cambridge Medieval History 2 vols 1952, Vol. I, pp. 283–297
(13) Hayes, op. cit., pp. 60–61
(14) Davis, op.cit., p. 17
(15) Hayes, op. cit., pp. 60–61

الفصل الثالث

محمد ذكي

قبائل الهون والجرمان : اصولها ، وتحركاتها نحو الغرب ، واثر ذلك في الامبراطورية الرومانية

١ . مقدمة في الشعوب التيتونية : اصولها ، عددها ، قبائلها .

٢ . القبائل الجرمانية : عاداتها وعلاقاتها الاولى بالامبراطورية الرومانية

٣ . قبائل الهون : اصولها وتحركاتها نحو الغرب .

٤ . معركة ادرنة واهميتها

٥ . القوط الغربيون ومملكتهم

٦ . الوندال .

٧ . تجدد خطر الهون : اتيلا يغزو ايطاليا

٨ . نهاية الامبراطور الرومانية في الغرب

١ – مقدمة في الشعوب التيتونية :

اصولها ، عددها ، قبائلها

قدر للشعوب التيتونية ان تضع نهاية للامبراطورية الرومانية في الغرب . ولهذه الشعوب اهمية خاصة في تاريخ اوربا ، فهي بعد ان استقرت في الاقاليم الغربية الامبراطورية ، اثرت تأثيرا عميقا في رسم معالم التركيب البشري والسياسي والثقافي لتلك الاقاليم . ومن العنصرين الروماني والتيتوني ، بشكل رئيس ، برزت الامم الاوربية الحالية مثل الايطاليين والفرنسيين والالمان والاسبان والانكليز ، بلغاتهم وشعوبهم ، ودولهم وآدابهم وثقافاتهم .

واذا كانت اوربا تمثل في العصر الحديث وحدة حضارية لها خصائصها وسماتها المتميزة ، فان تلك الوحدة ترجع الى ثلاثة اصول هي : التراث الكلاسيكي ، اى اليوناني والروماني ، خاصة الروماني منه ، والمسيحية ، ثم الشعوب التيتونية . واختلفت الاراء حول الموطن الاقدم للشعوب التيتونية ، فقيل الهند ، او بعض مناطق آسيا الوسطى ، او شمال البحر الاسود . ولكن الامر المعروف تماما ، انهم كانوا يسكنون في وقت من الاوقات شبه جزيرة اسكندنافية وحول بحر البلطيق . . وقدر الوقت الذي استغرق لهجرتهم من مواطنهم الاصلية الى مناطق الراين والدانوب بالف وخمسمئة عام .

وانحدرت تلك القبائل التيتونية التي ضغطت على حدود الامبراطورية الرومانية خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد عبر المنطقة الكائنة جنوب بحر البلطيق وغرب نهر الفستولا . وقد سبق الكلتيون التيتونيين في استيطان اوربا ، فسكنت الشعوب

اما الشعوب السلافية فقد جاءت في اعقاب الشعوب التيتونية وانتشرت في المنطقة الواقعة في اسفل منابع الفستولا ونهر الاودر .

وقد اطلق الرومان على الشعوب التيتونية اسم الجرمان (Germani) وليس هناك اتفاق تام عن اصل هذه التسمية . ويقول المؤرخ الروماني تاكيتوس ان التسمية في الاساس هي لقبيلة تيتونية معينة ثم اخذت تطلق على جميع القبائل التيتونية (١) .

واعتاد الرومان ان يطلقوا على التيتونيين ايضا اسم البرابرة (Barbarians) وهذه لا تعني بكل تأكيد الهمج او المتوحشين ففي الاصل اللاتيني تشير لفظة بربري (barbari) الى اولئك الناس الذين لا يتكلمون اللغة اللاتينية او اليونانية . وبمرور الزمن صارت اللفظة تطلق على اولئك الذين تخلف حضارتهم او تقل شأنا عن الحضارة اليونانية والرومانية ، واخيرا اطلقت على اولئك المتخلفين حضاريا او اولئك الذين تعوزهم صفات واخلاق وميزات المجتمع المتمدن . وفي القرن الرابع الميلادي ، حيث صار الجيش الروماني مؤلفا باغلبيته من الجرمان كانت كلمة بربري تستعمل مرادفة لكلمة جندي (٢) وفي وقت اشتدت فيه الهجمات الجرمانية وازداد فيه الهلع والخوف منهم ، خاصة في القرنين الرابع والخامس بولغ كثيرا في عدد نفوس القبائل الجرمانية وفي عدد افراد كل قبيلة . ولعل الامر الذي شجع على تلك المبالغة كثرة تنقل القبائل الجرمانية وسرعة حركتها من محل الى آخر . ولكن التقديرات الحقيقية ، تعطي القبائل الكبيرة منها او الشعوب – وهي اتحادات قبلية كبيرة – حد الف فرد منهم بين عشرين وثلاثين الف مقاتل والبقية من النساء والاطفال والشيوخ والعبيد . ولعل ما يدلل على خوف الرومان من كثرة عدد الجرمان ذلك الامر الذي اصدره ثيودوسيوس منع بموجبه القوط من ارتداء زيهم الخاص عند الظهور في المدن الرومانية ، وذلك كي لا تثير كثرتهم القلق والخوف في النفوس (٣) .

هذا من ناحية عدد النفوس ، اما من حيث عدد القبائل والعشائر المتفرعة منها واسمائها فانها امور يصعب معرفتها . فقد كانت هناك تجمعات قبلية كبيرة . وكانت هناك احلاف قبلية . وكانت هذه كثيرة وسريعة التبدل والتغير ، اذ كثيرا ما تنتقل القبيلة الواحدة من حلف الى آخر . والاسم الوحيد المعروف في اغلب الاحيان هو اسم القبيلة المتفوقة والمنتصرة وكثيرا ما فرض هذا الاسم على القبائل الاخرى الصغيرة او المندحرة . ذكر المؤرخ الروماني تاكيتوس في نهاية القرن الاول للميلاد اسماء خمسين قبيلة . واعطى اخرون في القرن الثاني للميلاد اسماء سبعين قبيلة(٤) .

وكانت القبائل الجرمانية القاطنة على طول نهر الراين وعلى حدوده الشمالية هي : السكسون (saxons) الانكليز (Angles) الألماني (Almanni) البرغنديين (Burgundions) والفريزيون (Frisions) السوفي (Suevi) اللومبارد (Lombards) الفرنجة البحريون (Ripuarian franks) والفرنجة الساليون او البريون (Salian Franks) وعلى طول حدود الدانوب وشماله كانت هناك الماركوماني (marocomanni) ، كودى (Quadi) جابيدي (Gapidaae) الهرولي (Herali) الوندال (Vandals) ، القوط الغربيون (visigoths) القوط الشرقيون (ostrogoths) . واما القبائل الاكثر اهمية واماكن سكناها على وجه التحديد هي كما يلي : الالماني في الجهات الجنوبية الشرقية لنهر الراين البرغنديون حول نهر الماين . الفرنجة البحريون في جهات الراين السفلى . الفرنجة الساليون او البريون في الاراضي المنخفضة . السكسون ... بين نهري الراين والالب على سواحل بحر الشمال ، والى الشرق منهم قبائل ... في الجهات الشمالية الشرقية ... الاسد ...

... جهات الدانوب الوسطى بين ...

الغرب منهم القوط الغربيون . والوندال في ... كل ما ذكر قدر ان يكون لهما

وبودابست الحاليتين . وهناك جماعتان من بين

دائم هما : الانكليز والفرنجة .

٢ - القبائل الجرمانية :

وعلاقاتها الاولى بالرومان :

بدأت القبائل الجرمانية في التحرك باتجاه نهري الراين والدانوب من اماك

سكناها حول بحر البلطيق حوالي ٥٠٠ ق . م . واستمرت حركتها هذه خمس

قرون دون توقف ، كان الرومان خلالها منهمكين في حل مشكلاتهم الداخلية

وفتوحاتهم الخارجية ، فلم يكترثوا كثيرا لهؤلاء الجرمان البعدين عنهم والذي

يعرفون عنهم الا الشئ القليل .

وقد وضعت حملة يوليوس قيصر على بلاد الغال واحتلاله لها في القرن ا

قبل الميلاد الرومان والجرمان وجها لوجه لاول مرة في التاريخ . ومن حسن الح

يوليوس قيصر نفسه قد ترك لنا وصفا ممتعا لانطباعاته الشخصية عن هذه الشعو

ويمثل وصفه هذا اقدم المعلومات المتوفرة عن القبائل الجرمانية ، وردت هـ

المعلومات في كتابه عن حملته على بلاد الغال الذي نشر في عام ٥١ ق . م .

وخلاصتها انهم شعوب رعوية محاربة ؛ مولعون بالصيد والحرب اكثر مـ

ولعهم بالزراعة ، يغطون جزءا صغيرا من اجسادهم بجلود الحيوانات ويتركون الـ

الاكبر منه عاريا . وهم كرماء ونظيفون ، يستحمون في الترع والبحيرات بمجموع

كبيرة . وما يملكون من ارض مشاع للقبيلة كلها ولا يسمح لفرد واحد بامتلاك قط

خاصة (٥)

وبعد مرور قرن ونصف على وصف يوليوس قيصر الآنف الذكر ، جـ

كتاب تاكيتوس : الجرمان (Germania) ليعطي تفاصيل اكثر عـ

س / ماذا كان يتضمن كتاب تاكيتوس ؟ ماهو الدافع والدافع من تأليف تاكيتوس لكتابه ؟

حياة الجرمان وعن عاداتهم وطراز معيشتهم ودياناتهم ومؤسساتهم السياسية / انهم يتميزون بشعرهم الاحمر او الاشقر وعيونهم الزرق واجسامهم الضخمة القويـة . انهم مولعون بالحرب والصيد يبغضون العمل اليدوي والزراعة لذا يتركون هذه للنساء والعبيد ، يقاومون البرد والجوع ، ولكن لا طاقة لهم بتحمل العطش والحر / يحبون الشراب والمقامرة وهم محاربون اولا وقبل كل شئ . قوانينهم مجموعة من التقاليد والعادات وهي تختلف من قبيلة الى اخرى . والواقع ان الدافع من وراء تأليف تاكيتوس لكتابه هـو توبيخ لمواطنيه الرومان لتدني مستواهم الخلقي بالمقارنة مع اولئك الجرمان البسطـاء حيث الحياة العائلية والزوجية عندهم تمثل نموذجا للعفة والطهارة والصفاء (٦) والمجتمعات الجرمانية مجتمعات قبلية التأكيد فيها على رابطة القرابة والـدم وليس على رابطة الوطن والمواطنة . وكانت بعض القبائل الجرمانية تتحد مع بعضهـا البعض فتكون اتحادات قبلية كبرى او شعوبا . وكان هناك ملوك على رأس كـل شعب من تلك الشعوب . وفي البداية لم يكن اولئك الملوك سوى زعماء حرب وقادة جيوش ، اختيروا من قبل الاحرار وهم خاضعون لارادتهم . ولكن في الوقت الذي دخلت فيه الشعوب الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية ؛ كانت قد تطورت بحيث اصبح هناك اتجاه بينهم لانتخاب القائد او الزعيم من عائلة معينة وهكذا فان الشعوب الجرمانيـة اخذت بالنظام الملكي ومبـدأ الوراثة فـي الحكـم ،

وكانت القبائل الجرمانية خلال القرون الثلاثة التي سبقت سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب في حركة مستمرة ، فهي ابعد ما تكون عن الاستقرار ولعلـه من غير الصواب الاعتقاد بان الامبراطورية الرومانية واجهت خطرا جرمانيا موحدا . والواقع ان الحروب بين الشعوب الجرمانية نفسها والخلافات القبلية مكنت الحكومة الرومانية لفترة طويلة من استخدام احدى القبائل ضد الاخرى ، وتحريك زعيم ضد آخر ثم الاحتفاظ بنوع من السيطرة والنفوذ عليهم جميعا .

ونتيجة لتلك القرون الطويلة من الجوار صار الكثير من الجرمان ملمين بطريقة الحياة الرومانية شغوفين بها . وقد اسعف الحظ بعضهم فعبروا الحدود الرومـانيـة

أفراداً وجماعات ليصبحوا مزارعين في الحقول الرومانية ، او ليخدموا جنوداً في
الامبراطوري . وفي حالات كثيرة سمح لقبيلة بكاملها باجتياز الحدود والاستيـ
ضمن حدود الامبراطورية كحليفة ، وقد انيطت بها مهمة الدفاع عن الحدود
المنطقة التي استقرت فيها ضد بقية القبائل الجرمانية واعتبرت حليفه.

وقبل سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب بوقت طويل ، صارت الفرق الرومانية
في معظمها من جنود جرمان . وكان اولئك الجنود يكنون الكثير من الاخلاص
للامبراطور والأحترام للامبراطورية . وشاركهم هذا اولئك الجرمان
لم يسعفهم الحظ في اجتياز حدود الامبراطورية وفي العيش في كنفها . لقد كان
الامبراطورية الرومانية والارض الرومانية جزءاً جميلا من العالم الذي يعرفه الجرمان و
به . ان مؤسساتها ومدنها الجميلة وحقولها الخصبة تفوق ما سواها مما يعرفون . ول
تكن طموحاتهم تتعدى ان يصبحوا جزءاً منها ، مستقرين بصورة سلمية ضمن
ولم تكن لدى الزعماء والقادة الجرمان امنية اعلى من ان يكون لهم شرف الخدمة
جيش الامبراطور وتحت قيادته (٩) . والخلاصة ان شعور الأحترام للامبراطور
والامبراطور كان عميقا عند الشعوب الجرمانية . وقد بقي كذلك حتى بعد سق
الأمبراطورية .

وما ان حلت نهاية القرن الرابع الا وكان هناك عدد كبير من الجرمان قد اجتازوا الحدود
الرومانية بصورة سلمية واستقروا ضمن حدود الامبراطورية . كما وكان هناك عدد اك
ينتظر الفرصة المواتية للقيام بمثل هذا الأجتياز . ولعله كان من المحتمل استمرار عم
التسلل السلمي هذه الى ما لا نهاية دون عنف ، ولكن حدث امران غيرا هذا الأتج
وبدلا الطبيعة السلمية للعلاقات بين الرومان والجرمان . وأول هذين الحدثين الف
الذي تعرضت له القبائل الجرمانية نفسها من جراء زحف قبا
الهون الاسيوية نحو اراضيها الامر الذى اضطرها الى التوغل في الاراضي الرومانية
وثانيهما تزايد ضعف الامبراطورية الرومانية وافتضاح امر هذا الضعف امام القبائ
الجرمانية الامر الذي شجعها على الاستفادة من هذه الفرصة المتاحة امامها

قبائل الهون – اصولها وتحركاتها نحو الغرب :

وهي من القبائل الاسيوية التي كانت تسكن منطقة السهوب الاسيوية بين جبال
والاورال . ويتميز الهون عن الجرمان والرومان برؤسهم المستديرة وانوفهم
حة وعيونهم الغائرة وشعرهم الداكن الاسود . وكانوا يعتمدون على الرعي في
نهم ، يتبعون العشب جنوبا في الشتاء ، وشمالا في الصيف ، وتمتد مناطق
هم مسافة الف ميل احيانا (١٠) . والهون ماهرون جدا في ركوب الخيل وفي
والطعن من على ظهورها . وقد اكسبهم ذلك تفوقا على خصومهم . ولما
كا معيشة الهون تعتمد على الرعي فانها كانت مهددة بالجفاف من وقت لاخر .
وربما فشلت مراعيهم في سد حاجاتهم اندفع الهون بسرعة وعنف في مهاجمة
جاورهم من الشعوب . وكانت مهاراتهم المنقطعة النظير في ركوب الخيل ،
تهم الفائقة على تحمل المشاق والجوع والعطش خير معين لهم لتحقيق ما يبتغون .
الظن ان اواسط آسيا عانت فترة من الجفاف طويلة امتدت على مدى اربعة
، من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد .

بدأ الهون تحركهم من مناطقهم الاصلية في منتصف القرن الاول قبل الميلاد
الصين في بداية الامر نحو الحدود الصينية ، ولكن قدرة اباطرة الاسرة الهانية في
، وقوة الاستحكامات الممتدة من اطراف شمال الصين الى تركستان الشرقية ،
الهون بعيدا وانقذت الصين من دمار محتم . وبفشل محاولاتهم للتقدم شرقا
ت قبائل الهون نحو الغرب . فتوغلت في روسيا ، واستمرت عملية هذا التوغل
القرنين الاول والثاني للميلاد . وما ان حل القرن الثالث الا وكانت قبائل الهون
مت طرد شعوب السارماتيين سكان السهوب في جنوب روسيا
ووصلت جحافل الهون الى اوربا في القرن الرابع فاكتسحوا مملكة القوط
ين في جنوب روسيا واخضعوا قبائلها لهيمنتهم سنين طويلة . ثم واصل الهون
هم غربا وهاجموا القوط الغربيين والوندال ، الامر الذي دفع هؤلاء الى الفرار

، وعند فيرونـــا عام ٤٠٢ الاريك عند بولنتيا هو ستيليكو الذي استطاع ان يدحر

وقد دخل هذه المدينة لاول مرة في عام ٤٠٣ حيث كان قبل ذلك مقيما في رافينا نظرا لانها محاطة بالمستنقعات ولقربها من البحر ، الامر الذي يوفر الحماية لها في وجـه تهديدات القوط الغربيين .

وفي هذه الظروف ، حيث كانت الحكومة الرومانية بحاجة الى المزيد مـــن القوات للدفاع عن ايطاليا اضطرت الى سحب قواتها من بلاد الغال ومن بريطانيـــا واسبانيا الامر الذي كشف حدود هذه الاقاليم امام القبائـــــــل الجرمانيـــة وبعد عام ٤٠٦ بفترة قصيرة اكتسحت القبائل الجرمانية بلاد الغال واسبانيا وشمال افريقيا وهكذا اخذت الامبراطورية الرومانية في الغرب تتداعى بسرعة . وفي هذا الوقـــت الذي كانت فيه الامبراطورية بأمس الحاجة الى خدمات القائد ستيليكو اوغر الحاسدون والواشون صدر الامبراطور هونوريوس عليه فاعدمه . ولم يكتف بهذا بل نكـــل بجميع اتباعه واعوانه الامر الذي دفع بالكثيرين منهم الى اللجوء الى الاريك للاحتماء به(١٧) .

واستغل الاريك فرصة غياب ستيليكو عن الميدان فتقدم الى روما بعـــد شهرين فقط من مقتل ستيليكو . وضرب الاريك الحصار على المدينة في عام ٤٠٨ وعزم على اماتتها جوعا ، لاجبارها على التسليم . واخيرا قبل رفع الحصار عنها بعد ان دفعت له مبالغ كبيرة من المال ذهبا وفضة واطنانا من التوابل . وفي عام ٤١٠ اعـــاد الاريك حصار روما . وفي ليلة ٢٤ آب عام ٤١٠ فتحت له ابواب المدينة فدخلهـــا واستباحها لمدة ثلاثة ايام . وقد هز هذا الحادث العالم الروماني ومع ان الخـــــراب الذي لحق بروما من جراء هذا الاحتلال لم يكن جسيما ، فان احتـ' اكـان ضربة عنيفة لمعنويات الرومان ولكرامتهم (١٨) .

وقاد الاريك قومه بعد ذلك نحو الجنوب يريد عبور البحر الى افريقيـــا ، مخربا في طريقه الى صقليا كل شئ . واخيرا عندما وصل البحر حطمت عاصفة هوجاء

سطوله فاضطر على العودة الى الشمال ومات فجأة في اواخر عام ٤١٠ . ودفن فـــي هر احد الانهر مع جزء من خزائنه وقتل اتباعه جميع العبيد الذين اشتركوا في عمليـة لدفن كي يبقى القبر مجهولا ويحتفظ بسرية الموقع .

وخلف الاريك اخوه اثولف (Athulf).) فاراد ان يجد موطنا لقومه ي بلاد الغال . وكان الوندال والسوفي قد سبقوه اليها وعاثوا فيها فسادا . وكانت الفوضى سائدا والعصابات من مختلف الانواع منتشرة في كل مكان . واتجه اثولف جنوبا فاحتل طولوز وبوردو . ودفعت المجاعة في بلاد الغال القوط الغربيين الى الذهاب الى اسبانيا إغتيل اثولف عام ٤١٥ وجاء بعده وله (wallia) ، وأراد هذا عبـــور لبحر الى أفريقيا ولكن أسطوله تحطم في قادش واستأصل (وله) جيش الوندال فـــي سبانيا وحصر الوندال في جزء ضيق يقع في الشمال الغربي من هذه البلاد . وأخيـــراً ستقر القوط الغربيون في منطقة اوكتين من بلاد الغال وامتدت منطقة نفوذهم مــــن طولوز حتى المحيط الأطلسي ، وسكناهم في هذا الموقع جعلهم يعيشون بين أكثريـــة ن السكان الغاليين والرومان . وقد تأثروا بالحضارة الرومانية ، فأسسوا لهم نظاما اداريـا على غرار النظام الروماني . ثم اكتسحوا أسبانيا مرة أخرى ، ودحروا الوندال ، فاضطـــر ؤلاء الى مغادرة أسبانيا عام ٤٣٩ الى شمال أفريقيا (١٩)

بلغت قوة القوط الغربيين أقصاها في عهد ملكهم أرك (Euric) ، وكـــان هناك أحتمال لأزدهار هذه الدولة ولأستمرارها . وقد شيد أرك له بلاطاً فخماً فـــي طولوز على غرار بلاط الاباطرة الرومان . واعترف به الفرنجة والبرغنديون والسكـــون في عهده وضعت أقدم القوانين الجرمانية المدونة . وتميز القوط الغربيون بتعصبهـــم الشديد للاريوسية الامر الذي أثار سخط المسيحيين الكاثوليكيين وحقدهم (٢٠) وتوفي رك عام ٤٨٥ وبعد وفاته بجيل واحد فقط تمزقت دولة القوط الغربيين واستولى الفرنجة على اوكتين عام ٥٠٧ وانتزع منهم القوط الشرقيون منطقة بروفنس . وبقي نفوذهم في سبانيا الى عام ٧١١ حيث انتزعها منهم العرب المسلمون .

الـــونـــدال :

عبرت قبائل الوندال نهر الراين عام ٤٠٦ متوجهة الى بلاد الغال .. ولكن ضغط نجة هنا دفعهم للتوجه الى اسبانيا ولكنهم دحروا هنا على يد القوط الغربيـــين هوا الى افريقيا عام ٤٢٩ .

وكانت ظروف شمال أفريقيا مشجعة للوندال . فقد كانت الفوضى ضاربة أطنابها في أقاليمها والخلافات مستحكمة بين حكامها الرومان والثورات مستمرة. وقد دعا أحد الثوار ملك الوندال الكفوء جزريك (Gaisric) لغزو أسبانيا فلبى الـ... في الحالة . وعبر من أسبانيا الى شمال أفريقيا عام ٤٣٩ وكان عدد الوندال عند... ثمانين الف نفس منهم خمسة عشر ألف محارب . واعترف الامبراطور الروماني في عام ٤٣٥ بسيطرة الوندال على جزء مهم من شمال أفريقيا مشترطاً دفع جزريك ... سنوياً من المال من باب الأعتراف بالسيادة . وتجاهل جزريك هذا الشرط ، بل ا... تقدم الى قرطاجنة فاحتلها . وكان الوندال في هذا الوقت قد كونوا لهم اسطولاً قوي... فرض نوعاً من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط وعلى اجزاء مهمة من سواحله . وعقد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني في عام ٤٤٢ معاهدة اخرى مع الوندال اعترف لهم بموجبها بالسيطرة على اغنى المناطق ولم يبق للرومان سوى المناطق الداخلية الفقيرة الجر... (٢١) وفاق الوندال جميع الشعوب الجرمانية الاخرى في القسوة والعنف في معاملة السكان الخاضعين لهم. وقد صار اسمهم مرادفاً للظلم والتعسف عند الكثير من الشعوب الأوربية خلال العصور الوسطى .

ولم يكتف الوندال بما حصلوا عليه من شمال أفريقيا بل دفعتهم أطماعهم من جهة والاوضاع التي كانت سائدة في ايطاليا من جهة أخرى الى عبور البحر ومهاجمة روما فقد قتل ماكسموس (Maximus) الامبراطور فالنتين الثالث (Valentinlan) وفرض نفسه امبراطور على روما وأجبر ارملة الامبراطور القتيل (Edoxia) على الزواج منه ، وقرر أن يزوج أبنه من ابنتها . فاستنجدت الأرملة بجزريك ، وتوجه هذا باسطوله القوي ونزل ايطاليا وزحف على روما ولم يواجه مقاومة تذكر . وضرب الحصار على المدينة وحاول البابا ليو الأول التوسط ولم ينجح الا في الحصول على وعد من جزريك بعدم لجوئه الى القتل والحرق عند احتلاله المدينة .

وسقطت روما بيد الوندال عام ٤٥٥ وقد الحق بها هؤلاء من الخراب والدمار ما فاق كثيراً الخراب الذي الحقه بها القوط الغربيين عام ٤١٠ وواصل الوندال فتوحاتهم فاحتلوا صقلية وسردينيا وكورسيكا وفرضوا سيطرتهم على البحر الابيض المتوسط . وفي عام ٤٧٦ ، اي قبل عام واحد من وفاة جزريك ، اعترف الأمبراطور الشرقي بكل فتوحات الوندال وعقد صلحاً معهم ولكن السلام لم يعد الى أفريقيا الا بعد فتوحات جستنيان عام ٥٣٤ (٢٢)

وضعفت دولة الوندال كثيرا بعد موت جزريك . وجاء الى الحكم بعده ، هلدريك (hilderic) وكان هذا رومانيا أكثر منه جرمانياً حيث كان قد تربى في بيئة رومانية واعتنق الكثلكة . وثار عليه أحد أقربائه غلمر وعزله عام ٥٢٣ . واتخذ جستنيان من هذا مبرراً لمهاجمة شمال أفريقيا واحتلالها عام ٥٣٤ ، فدحر غلمر وأسره .

٧ . تجدد خطر الهون – اتيلا يغزو ايطاليا :

وتجدد خطر الهون على اوربا بعد أن أصبح اتيلا (Attila) ملكا عليهم (٢٣) وكان هذا ملكا كفؤا ولكنه كان مخيفا ومرعباً . وقد أطلق عليه معاصروه نقمه الله غزا اتيلا بلاد البلقان واجبر امبراطور القسطنطينية على دفع ضريبة له . وفي عام ٤٥١ وصل اتيلا بلاد الغال . وتحالفت الشعوب الجرمانية والرومان محاولة وقف تقدمه وحالفهم الحظ فدحر اتيلا عند شالون سنة ٤٥١ واتجه اتيلا بعد هذه الهزيمة نحو ايطاليا حيث خرج له البابا ليو الكبير واقنعه بالعدول عن مهاجمة روما . وتوفي اتيلا في عام ٤٥٣ وانهارت مملكته ورجع قومه الى اسيا (٢٤) .

٨ . نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب :

حوالي منتصف القرن الخامس كانت الامبراطورية الرومانية في الغرب قد فقدت معظم اقاليمها في اوربا وشمال افريقيا. ولعل خروج البابا ، وعدم خروج الامبراطور ، لمقابلة اتيلا يوفر الدليل لفقدان الحكومة الامبراطورية منزلتها السابقة وهيبتها ، والسنوات الاخيرة من حياتها تميزت باعتلاء عدد من الاباطرة الضعاف لعرشها . ولم يكن لاولئك الاباطرة من السلطة سوى الاسم ، فقد انحصرت السلطة الفعلية بيد قادة الجيش الجرماني وجاءت النهاية في عام ٤٧٦ . حيث قام احد قادة الجرمان اودواكر ، الذي كانت له الهيمنة على روما ، بعزل الامبراطور

(رومولس اوغسطولس) ونفيه الى جنوب ايطاليا دون ان يعين خلفا له ، وارسل
شارة الامبراطورية الى القسطنطينية (٢٥) .

الفصل الرابع

م القبائل الجرمانية والتحولات التي طرأت عليها : الغوط ، اللمبارد ظهور الممالك
مانية .

- مقدمة في الممالك الجرمانية بعد سقوط روما ٤٧٦ م
- مملكة الغوط الشرقيين
- مملكة البرغنديين
- الفرنجة – قيام مملكة الميروفنجين
- حروب كلوفس
- كلوفس يعتنق الكثلكة
- عودة السلطة الامبراطورية الى ايطاليا
- اللمبارديون .
- التحولات التي طرأت على القبائل الجرمانية في المحيط الجديد .

١ – مقدمة في الممالك الجرمانية بعد سقوط روما :

اعتبرت الامبراطورية الرومانية منتهية بالغرب ، بعزل الامبراطور روميلوس اوغسطولوس عام ٤٧٦ . اذ لم يقم المغتصب اودواكر باختيار خلف له ، واكتفى بارسال شعار الامبراطورية الى الامبراطورزينو في القسطنطينية اعترافا منه بالخضوع لسيادة ذلك الامبراطور ، وهكذا صار الشطر الغربي من الامبراطورية الرومانية خاضعا برمته للسيطرة الجرمانية . وكان هناك في الواقع ما لا يقل عن خمسة ممالك جرمانية كبيرة في اوربا عند سقوط الامبراطورية الرومانية . فبالاضافة الى حكم اودواكر الذي شمل جزءا كبيرا من ايطاليا ، كانت تقوم مملكة القوط الغربيين التي كانت تمتد من اللوار حتى مضيق جبل طارق ، ومملكة البرغنديين حول بحيرة جنيف وجهات وادي الرون ، ومملكة الفرنجة الساليين في وسط وشمال بلاد الغال ، ومملكة السوفي في الجهات المعروفة حاليا باسم البرتغال ، ومملكة القوط الشرقيين . اما الوندال فقد اقاموا مملكتهم القوية في شمال افريقيا .

وقد سبق الكلام عن كل من القوط الغربيين والوندال ، فرأينا ان القوط الغربيين استمروا في اندفاعهم نحو الغرب بعد وفاة ملكهم الاريك ، فدخلوا بلاد الغال واجتازوها الى اسبانيا ، وسيطروا على جزء كبير من ساحل البحر الابيض المتوسط . كما ان الوندال بقيادة ملكهم جزريك عبروا من اسبانيا الى شمال افريقيا حيث اسسوا مملكتهم البحرية القوية .

٢ – مملكة القوط الشرقيين :

لعب القوط الشرقيون دورا رئيسا على مسرح الاحداث في اوربا خلال الفترة التي تلت مباشرة سقوط روما ٤٧٦ لقد بقيت روما وجزء مهم من ايطاليا تحت اودواكر لسنين عديدة وكان هذا يبرر حكمه باعترافه الاسمي بسيادة القسطنطينية ، دون تدخل فعلي من الامبراطور بشؤون اودواكر ، ولكن دون اعتراف منه صريح بحكمه .

... الصراع بين الشع...

لقد كانت الفوضى تسود ايطاليا التي غدت مسرحا للصراع بين الشعوب الجرمانية (١) . وكان حكم اودواكر همجيا قاسيا حتى اذا قيس بالمقاييس الجرمانية البربرية وفي مثل هذه الظروف برز ملك القوط الشرقيين الكفوء ثيودرك ليفرض نفسه وشعبه على مجرى الاحداث .

كان القوط الشرقيون قد عانوا اكثر من سواهم من الشعوب الجرمانية من قسوة الهيمنة التي فرضها عليهم الهون والتي خضعوا لها سنين طويلة (٢) وعندما انهارت مملكة اتيلا وانسحب الهون الى آسيا تنفس القوط الشرقيون الصعداء ، واخذوا بدورهم في مهاجمة جيرانهم المحيطين بهم .

وفي الهجمات التي شنها القوط الشرقيون على حدود الامبراطورية الرومانية في الشرق اسر ثيودرك واخذ الى القسطنطينية ليقضي سنوات من حياته هناك كان خلالها موضع حفاوة وتكريم

لقد كان لتلك السنوات اثر بالغ في حياة ثيودرك ، لقد جعلته اكثر الما... بالحياة الرومانية واشد اعجاباً وتعلقاً بها ، اذا قرون بأي ملك من ابناء جنسه الجرمان على الرغم من أنه بقي اميا ، وكان قاسيا جدا احيانا مدللا بذلك على روحه الهمجية الاصلية وتخلص ثيودرك من الاسر في عام ٤٧٥ ، ورجع الى قومه ليقودهم مرة اخرى الى الحرب مع جيرانهم . ورأى الامبراطور زينوا أنه من الافضل دفع القوط الشرقيين عن حدوده فشجعهم على التوجه الى الغرب وانتدب ثيودرك لمحاربة اودواكر واسترجاع روما (٣) .

وكان الصراع بين ثيودرك واودواكر طويلا ومريرا فقد استمر عدة سنوات ٤٨٩ — ٤٩٣ ولم يستطع ثيودرك القضاء نهائيا على خصمه الا بمؤامرة دبرها له تميزت بالقسوة والخيانة . فبعد ان عقد ثيودرك معاهدة مع اودواكر دعاه الى ... فقتله وهو ضيف وعلى مائدته (٤) .

... خضعت ايطاليا الى حكم ... وهكذا صارت ايطاليا ...
... الرومانية المطيعة ، مملكة جرمانية ... ان كان

الناحية النظرية لا غير ، يعتبر ممثلا لامبراطور القسطنطينية ، ويعود جزء من ... في نجاح ثيودرك في ايطاليا الى انه قدم اليها بصفته مندوبا عن الامبراطور ... وبذلك نال تأييد السكان الرومان والكنيسة الكاثوليكية على حد سواء .

... اية حال ، تمتعت ايطاليا في عهد ثيودرك بالسلم والاستقرار اللذين فقدتهما ... سنوات طويلة وكان حكمه يتميز ، اذا ما قرون بحكم اغلب معاصريه من الملوك ... الرومان ، بالاستقامة والعدل ، حتى لقد قيل في ذلك ان طريقته في حكم رعاياه ... تحاكي طرق اعظم الاباطرة ، وذلك أنه اقر العدالة ، وشرع قوانين صالحة وحفظ ... حدود بلاده من الغزوات الخارجية ، واعطى الدليل على فطنته ونشاطه العظيمين (٥)

كان جهد ثيودرك منصبا على خلق ادارة رومانية تحت سيطرة عسكرية جرمانية ... اعاد تشييد الادارة الرومانية القديمة ، واحاط نفسه بموظفين ايطاليين يحملون الالقاب ... الرومانية ومع انه اتخذ رافينا Ravema عاصمة لمملكته ، فانه لم يهمل روما ، فقد اصلح مرافقها العامة ووفر الغذاء لسكانها . اما رافينا العاصمة ، فقد صارت في عهده مدينة عامرة مزدهرة . شيد فيها الكثير من البنايات الضخمة التي لا تزال شاخصة الى هذا اليوم . واستعان ثيودرك بكثير من العلماء الرومان وعهد اليهم بمناصب حكومية رفيعة . وعلى الرغم من أنه كان آريوسيا ، فانه وفر الحماية الكافية للكنيسة الكاثوليكية ، ولكن علاقات ثيودرك الطيبة مع الكاثوليك لم تستمر فقد ساءت كثيرا في اواخر عهده ، فعندما اعتلى الامبراطور جوستين عرش الامبراطورية في القسطنطينية عام ٥١٨ شرع في حملة اضطهاد واسعة ضد الاريوسيين في الاقاليم الشرقية ، وحاول ثيودرك ان يثني جوستين عن سياسته هذه ، واراد ان يقنعه بالعدول عن سياسة الاضطهاد ، فارسل البابا مبعوثا من قبله الى الامبراطور ، وفشلت جهود البابا مع الامبراطور جوستين على الرغم من الحفاوة البالغة التي قوبل بها في القسطنطينية فما كان من ثيودرك الا وشرع هو ايضا في اضطهاد الكاثوليك ومصادرة ... (٦) . ولقد كان ... الكثير من الشخصيات العامة و... الكاثوليكية البارزة ، وتوفي ثيودرك عام ٥٢٦ ...

مداخل

٣ - مملكة البرغنديين :

هي اضعف الممالك الجرمانية واقصرها عمرا . اكتسب البرغنديون سـ
عالية اقتربت من الاساطير وذلك لبلائهم وشجاعتهم عند بداية ظهورهم
مسرح الاحداث حول بحيرة جنيف (٧) ومملكة البرغنديين هي اولى الما
الجرمانية التي تركت الديانة الاريوسية واعتنقت الكاثوليكية ، كما ان البرغند
كانوا في مقدمة الشعوب الجرمانية التي اتخذت اللغة اللاتينية لغة للتخاطب بدلا
الجرمانية . وكان ملوكهم متسامحين مع السكان الرومان بشكل عام ، بل كا
فخورين دائما بكونهم جنودا للامبراطور

يعتبر كوندوباد اشهر ملوكهم . وقد اكتسح الفرنجة في اوائل القرن الـ
مملكة البرغنديين ، وضموها الى مملكتهم التي دعيت بمملكة الميروفنجيين (

٤ - الفرنجة - قيام مملكة الميروفنجيين :

اذا كنا نتكلم اليوم عن غرب اوربا ، فان الفرنجة بالذات لهم الفضل فـ
صياغة كيان هذا الجزء من القارة الاوربية . وباستثناء الانكلوسكسون ، فان الفر
هم الوحيدون من بين الشعوب الجرمانية الذين بقيت مملكتهم ضمن حدود الاقا
الغربية للامبراطورية الرومانية ولم تتجاوزها للشرق او للجنوب . وقدر لمملكة الـ
ان تبقى حتى عام ٩٨٧ في فرنسا وحتى عام ٩١١ في المانيا .

وينقسم الفرنجة الى قسمين : الفرنجة الساليين والفرنجة البريين . وكان الـ
الساليون قد استقروا منذ عهد الامبراطور جوليان على جانب الراين الايسر كحـ
للامبراطور . وقد استمروا كذلك حتى مجئ ملكهم كلوفس عام ٤٨١م . د
يقطعوا صلتهم بأقربائهم القاطنين وراء هذا النهر . وحارب الفرنجة الساليون باخلا
القوط الغربيين والهون الى جانب الرومان . وفي الوقت نفسه كانوا يزحفون با
في اتجاه نهر السوم . وسكنوا هذه المناطق كمزارعين محتفظين بعاداتهم وتقا
الجرمانية ، محافظين على آلهتهم الوثنية ، مطيعين الى ملوكهم ورؤسائهم
وجاء كلوفس الشديد البأس الكفوء على رأس اربعة آلاف من رجاله الاشداء

بدأ عهدا من التوسع والفتح . وصار هذا التوسع سياسة تقليدية راسخة سار عليها
جميع ملوك الفرنجة الذين خلفوا كلوفس . واستمر الامر كذلك الى نهاية عهد
شارلمان . ويمكن ان يقال ، مع شئ قليل من التردد ، ان كلوفس هو اعظم شخصية
ظهرت في غرب اوربا في الفترة الواقعة بين يوليوس قيصر وشارلمان

ومن الواضح بانه لا يمكن وصف حركة الفتوحات التي قام بها الفرنجة بانها
هجرة ، فقد كانت حركة توسع وامتداد فبالنسبة الى الشعوب الجرمانية الاخرى :
القوط والوندال والبرغنديين ، تركوا مقراتهم الاصلية كلية وبعد سنين طويلة من
التجوال استقر بهم المقام في اماكن بعيدة جدا عن اماكنهم القديمة وفي وسط غالبية
من السكان الرومان ، ففقدوا بذلك صلاتهم بمجتمعاتهم الجرمانية الاصلية ، وبصورة
تدريجية انصهروا مع الرومان وفقدوا طابعهم الجرماني . ولم يحدث هذا للفرنجة ،
ـ انطلقوا في حركتهم التوسعية محتفظين في الوقت نفسه بمركزهم الاصلي في
ـض نهر الراين الادنى ، مظيفين اليه منطقة بعد الاخرى (١٠) . كما ان الفرنجة
احتفظوا بصلاتهم بالقبائل الجرمانية النائية التي لم تكن بعد قد احتكت بالمجتمع
الروماني . لهذه الاسباب احتفظ الفرنجة بثقافتهم الجرمانية وبحيويتهم ، بينما
انصهرت الشعوب الجرمانية الاخرى في العالم الروماني الذي عاشوا فيه .

ـ حروب كلوفس :

بدأ كلوفس حركته التوسعية بان صفى بقايا الكيانات الرومانية في بلاد الغال .
حيث هذه تمثل كيانات سياسية صغيرة مستقلة . ثم قاد حملاته ضد الالماني
ـرويا . وكان هذا الشعب الجرماني الشديد البأس منتشرا على جانبي نهر الراين في
ـاس وبادن ، وفرتنبرغ وشمال وغرب سويسرا .

وقد اخذ الالماني حوالي عام ٤٩٦ في الضغط على الفرنجة البريين فطلب هؤلاء
ـ من كلوفس . واستطاع هذا بعد حملتين موفقتين القضاء على كيان الالماني
ـسي وتم له الحاق اراضيهم بمملكته . وجاء ضم الشعب الالماني الى مملكة
ـنجة ليزيد من قوتها وليؤكد طابعها الجرماني (١٠) .

واستمر كلوفس في التوغل في المانيا حيث بسط نفوذه على قبائل جرمانية

اخرى . وفي عام ٥١١ ، وقبيل وفاته بوقت قصير ، اختاره الفرنجة الريبوريون ملكا عليهم ، وهكذا صارت هناك مملكة واحدة لجميع الفرنجة ، وتعرف [illegible] بمملكة الفرنجة بالميروفنجية نسبة الى اسم عائلة كلوفس الحاكمة .

٦ - كلوفس يعتنق الكثلكة :

بالاضافة الى تلك المزايا التي سبق الحديث عنها ، والتي ميزت الفرنجة [illegible] الشعوب الجرمانية ، تبقى هناك ميزة اخرى لا تقل اهمية عما ذكر . وهذه [illegible] الفرنجة قد انفردوا في اعتناقهم المسيحية بموجب العقيدة الكاثوليكية في حين اعتنقت جميع الشعوب الجرمانية الاخرى الاريوسية .

لقد كان الفرنجة عند تولي كلوفس الحكم عام ٤٨٦ لا يزالون محافظين [illegible] وثنيتهم . وفي عام ٤٩٣ تزوج كلوفس كلوتيلدا وهي اميرة برغندية كاثوليكية [illegible] وفي يوم عيد الميلاد من عام ٤٩٦ ، وفي ساعة من ساعات الحرب الحاسمة [illegible] الالماني ، عمد كلوفس مع ٣٠٠٠ من رجاله (١١) .

لقد صار كلوفس منذ ذلك الوقت المناضل من اجل العقيدة الكاثوليكية ، [illegible] لواء الايمان ضد الهراطقة الاريوسيين . لقد جعله هذا الأمر اقرب الى قلوب الـــرومان الكاثوليك والـــى قلب البابا والكنيسة الكاثوليكية ، وكـــ[illegible] لهذا اثر في ما حققه من نجاح عسكري وسياسي . كما كان نقطة تحول مهمة في تاريخ اوربا وتاريخ المسيحية في الغرب .

ولعل كلوفس قد اتخذ من خلافاته الدينية مع الشعوب الجرمانية الاخرى [illegible] لمواصلة حركته التوسعية ، فقد قال مرة انه ليؤلمني ان يكون هناك اي اثـــر لهـــ[illegible] الاريوسيين في بلاد الغال ، دعونا نسر قدما وبعون الرب وبركاته لانتزاع اراضيهم وبسط سيطرتنا عليهم (١٢) . ونجح في دحر البرغنديين في عام ٥٠٠ واجبرهم على دفع مقدار كبير من المال ، فمهد بذلك السبيل لمن جاء من بعده لضمهم [illegible]

[illegible] مملكة الفرنجة . وانتصر على القوط الغربيين في عام ٥٠٧ في معركة مهمة عند فرجلية [illegible] ذبح بيده ملكهم الاريك الثاني .

وهكذا نجح كلوفس في توحيد الفرنجة في مملكة واحدة ، وقضى على بقايا [illegible]كيانات الرومانية الصغيرة في بلاد الغال ، وضم بلاد الالماني الى مملكته ، ودحـــر [illegible]برغنديين والقوط الغربيين ، وبدأ عملية احتلال لاراضيهم . وقد شملت مملكتـــه [illegible] نهر الراين وجميع بلاد الغال عدا جيوب صغيرة بقيت بيد القوط الغربيين . [illegible] لاضفاء صفة الشرعية على حكمه اعترف به امبراطور القسطنطينية قنصلا [illegible] هكذا اخذ تاريخ غرب اوربا بداية جديدة .

لقد بقيت الاسس الرومانية ، ولكن شيد عليها بناء آخر .

توفي كلوفس عام ٥١١ فقسمت مملكته بين ابنائه الاربعة ، بمساحات متساوية [illegible]ريبا ، وذلك تبعا للتقاليد الجرمانية التي تعتبر المملكة بموجبها ملكا شخصيا للملك [illegible]راحل يقتسمها الابناء كما يقتسمون مخلفاته الشخصية الاخرى . وعلى الرغـــم [illegible]ن الصراع الدموي المرير الذي نشب بين الاخوان ، فان حركة الفرنجة التوسعيـــة [illegible]ستمرت . ونجح اصغر ابناء كلوفس لوثر الأول في توحيد مملكة الفرنجة مـــرة [illegible]خرى لفترة قصيرة ٥٥٨ - ٥٦١ . (١٣) واندفع الفرنجة في عهده في التوسع جنوبا [illegible]شرقا في المانيا ، فضمت قبائل جرمانية اخرى . وتوفي لوثر الاول عام ٥٦١ فقسمت [illegible]ملكة مرة اخرى بين ابنائه الاربعة (١٤) .

[illegible]لعل سعة مملكة الجرمان هذه المرة وتنوع عناصرها واقاليمها والخبرة المكتسبـــة [illegible] عملية التقسيم السابقة دفعت الفرنجة الى اجراء عملية التقسيم الجديدة على اسس [illegible]ل من التجانس . وبرزت نتيجة لذلك ثلاثة كيانات رئيسية ذات طابع سياســـي [illegible]جتماعي متميز ، هي :

اوستراسيا (Austrasia) ، ونستريا (Neustria) ، [illegible]برغنديا (Burgundy) اما اكوتين فكانت تابعة الى نستريا . وتضـــم [illegible]ستراسيا القسم الشمالي الشرقي من بلاد الغـــال واراضي الراين والدانوب حتى [illegible]ان و[illegible] نستريـــا شمال بـــلاد [illegible] بـــين الــــ[illegible]

والنوار . امـــــا برغنديا فتضـــم تقريبـــا حوض

الرون ، ومملكة برغنديا السابقة وتمثل اكويتين تلك الاراضي التي انتزعها الفرنجـ

من القوط الغربيين . ومن الناحية الثقافية كان الطابع الجرمانـــي هو المهيمن عـ

المملكتين الشماليتين اما المملكتان الجنوبيتان فقد كان الطابع اللاتيني هو الغالب عـ

وكانت اوستراسيا جرمانية صرفة تقريبا بينما كانت نستريا اقل منها جرمانيـ

٧ - عودة السلطة الامبراطورية الى ايطاليا :

لم يكن باستطاعة اباطرة القسطنطينية التحكم بمجرى الاحداث في الغر
لهذا قبلوا بما لم يكن باستطاعتهم الحيلولة دون وقوعه . واقتنعوا بالسيادة الاسميـ
اعترف لهم بها الملوك الجرمان . ولكن كان من الواضح ان اباطرة القسطنطينية لـ
يكونوا على استعداد للتنازل عن الغرب نهائيا او القبول بالوضع الراهن على اساس
دائـــم .

وفي منتصف القرن السادس رأى الامبراطور جستنيان العظيم (٥٢٧ - ٥٦٥
انه آن الاوان لاسترجاع الاقاليم الغربية . فقد ضعفت قوة القوط الشرقيين بعـ
ثيودرك . وكان الفرنجة منقسمين على انفسهم . وخارت عزيمة القوط الغربيـ
والوندال .

توجه جستنيان في بداية الامر الى شمال افريقيا . فشخص قائده الشهـ
بلزاريوس ٦٣٣ الى هناك ، حيث نجح في القضاء على قوة الوندال في فترة قصيـ
لم تتجاوز الستة اشهر . ثم سار نحو الشمال ، وعبر البحر ، واحتل صقليا ونابلـ
وروما . واتخذت قوة بيزنطية اخرى طريقها لاحتلال دالماشيا (١٥) .

واخطأ كل من بلزاريوس وسيده جستنيان في تقديرهما لقوة مقاومة القـ
الشرقيين . فكان صراعا طويلا ومريرا ، واستطاع القائد نارسيس الذي خلف بلزار
من وضع نهاية للحرب التي استمرت عشرين عاما . وزال بذلك القوط الشرقيـ
عن مسرح الاحداث ، ولم يبق لهم من اثر سوى تلك الابنية الضخمة التي شيد
في رافنا وغيرها من المدن . (١٦)

وتركت تلك الحرب الطويلة اثارها السيئة في ايطاليا ، فقد عم الخراب والفقر انحاءها ، وتعرضت روما بالذات الى الحصار مرات عديدة خلال الحرب ، فتحولت الى مدينة صغيرة مهجورة تقريبا . ولم يحاول جستنيان اعادة بناءها وجعلها عاصمـــة لايطاليا مرة اخرى . بل أعاد بناء رافنا ، وحصنها فصارت مقرا لممثل الامبراطـــور الذي كان يسمى الاكستراخ . كما قسمت ايطاليا لاغراض ادارية الى وحدات اطلق عليها دوقيات (مفردها دوقية) .

ومضى جستنيان في مشروعه لاستعادة اقاليم الامبراطورية الرومانية في الغرب فمد فتوحاته الى سردنيا وكورسيكا ، وحاول انتزاع اسبانيا من الوندال . ولكنـــه فشل في تحقيق هذا ، فبقيت معظم اسبانيا وبلاد الغال خارج سلطته . والواقـــع ان جستنيان فشل في اعادة توحيد اقاليم الامبراطورية الرومانية . وقد اوهنت حروبـه في الغرب قواه وعرضت امبراطوريته للخطر . ولم يستطع خلفاؤه الحفاظ على مكاسبه وبعد سنوات قليلة من وفاته داهم ايطاليا خطر جديد متمثل باللمبارديـــــن (١٧)

٨ - اللمبارديون

اللمبارديون هم آخر الشعوب الجرمانية التي دخلت حدود الامبراطوريـــة الرومانية . وقد بدأت حركتهم في القرن الخامس تاركين مقرهم في اعالي نهـــر الاودر متجهين نحو الدانوب حيث وصلوا هناك في نهاية القرن المذكور . وسمـــح لهم الامبراطور جستنيان في الاستقرار في بانونيا ونوركوم كحلفاء له ضد بقيـــة القبائل الجرمانية خاصة القوط الشرقيين والجبداى . وقد ساهموا بالحرب التي كانت ناجحة بين جاستيان والقوط الشرقيين في ايطاليا . ونتيجة لذلك ألـــم اللمبارديون بوضع ايطاليا وبنجاح جستنيان في القضاء على القوط الشرقيين قضى على القوة الوحيـدة التي كان بامكانها الحيلولة دون تهديد اللمبارديين لايطاليا . وعندمـا تعرضـــس .. اللمبارديون الى ضغط قبائل الأفار التي خلفت قبائل الهون ، اجتازوا حدود ايطاليا بقيادة ملكهم البوين في عام ٥٨١ ، ليس كحلفاء هذه المرة ولكن كفاتحين و

لبلاد اهلكتها الحروب الطاحنة بين جستيان والقوط الشرقيين . وقد انتشروا في وا

فاحتلوا بافيا متخذين منها عاصمة لملكهم (١٨) .

وفي الوقت الذي أتم فيه اللمبارديون فتوحاتهم في ايطاليا ، كانت سيطر
تمتد الى جميع وادي البو وجزيرة فينيا (Venetia) وتوسكا
ودوقية سبوليتو ودوقية بنيفنتو . ولم يلجأ اللمبارديون ، كما فعل بقية الجر
الى انتزاع جزء من الارض من ملاكيها الرومان ، بل اكتفوا بأخذ ضريبة على المح
وعمدوا الى اخذ الارض في حالات خاصة مثل الوفوة والنفي واختفاء المال
لقد اعتنق اللمبارديون الاريوسية في اول الامر ، ولكنهم تحولوا عنها الى الكث
في القرن السابع . وكانت مملكة اللمبارديين ضعيفة اذا ما قورنت بالممالك الجر
الاخرى . وسرعان ما تحولت الى دوقيات شبه مستقلة ، وقد مهد هذا السبيل
شارلمان لاكتساح مملكتهم (١٩) .

٩ - التحولات التي طرأت على القبائل الجرمانية في المحيط الجديد :

تمثل الممالك الجرمانية على الارض الرومانية تفاعلا للمؤسسات الرومانية
التقاليد والعادات القبلية الجرمانية (٢٠) . وعند الكلام عن المؤسسات والنظم الرو
لا نعني مطلقا تلك التي كانت سائدة في عهد اوغسطس . وكذلك الامر بالنسبة
العادات والتقاليد الجرمانية ، فاننا لا نقصد بها تلك التي كانت سائدة في المجتمع
الجرمانية عندما كانت لا تزال تعيش في الغابات والمستنقعات . فدروسنا السابقة تش
بوضوح الى ان كلا من المجتمعين الروماني والجرماني قد طرأ عليهما تغير جوهر
خلال القرون القليلة السابقة . وهناك حقيقة مهمة اخرى يجب الاشارة اليها عند
الحديث في هذا المجال ، وهي ان الجرمان لم يكونوا من الناحية العددية في الاقا
الرومانية التي استقروا فيها ، الا اقلية صغيرة بالنسبة الى السكان الرومان . وك
تاثرهم بالحياة الرومانية يتباين بتباين الاقاليم والظروف . فالفرنجة على سبيل المث
وكما مر بنا ، لم يهجروا اماكن سكناهم الاصلية . كما فعل القوط والوندال . و
هذا الاساس على صلة وثيقة بتراثهم الجرماني والمجتمعات الرومانية الاصل

اللومبارديون الذين دخلوا ايطاليا في اواخر القرن السادس ولم تكن لهم خبرة
سابقة بالحياة الرومانية ، فقد كان يعوزهم التفهم والاحترام لتلك الحياة . من هنا
جاء التباين في مدى تاثر الشعوب الجرمانية بالرومان . وعلى هذا الاساس فان الحديث
عن هذا الموضوع سيقتصر على الصفات والخصائص العامة المشتركة بين الممالك
الجرمانية ، مع العلم ان هناك استثناءات كثيرة حتى في نطاق تلك الصفات العامة

وهناك ظاهرة مهمة تجدر الاشارة اليها ايضاً ، وقد كانت سائدة خلال القرن
الاول من الغزو الجرماني للاقاليم الرومانية ، هي ان كلا الجانبين الرومان والغزاة
الجرمان كانا يفضلان العيش جنبا الى جنب دون الاندماج والانصهار في مجتمع
واحد . لقد كان الجرمان فخورين بانفسهم معتزين بكونهم غوطا او برغنديين او
فرنجة . مع انهم بدأوا يرتدون الملابس الرومانية ويأخذون بالعادات والتقاليد الرومانية
وكان الرومان من جانبهم ينظرون الى الجرمان نظرتهم الى الغرباء الذين يقيمون بين
ظهرانيهم بصورة موقتة . ولم يحدث الاندماج والانصهار الا في زمن لاحق (٢١)

لقد سادت اغلب القبائل الجرمانية الكبيرة ملكيات انتخابية من الناحية النظرية ،
وراثية من ناحية الواقع والتطبيق . وكان لكل ملك من ملوك الجرمان بلاط فخم
يتناسب مع مكانته الرفيعة كقائد للامبراطور . وقد احاط الملوك الجرمان انفسهم
بموظفين كثيرين يحملون القابا رومانية فخمة ويرتدون البدلات الرسمية الخاصة
في الاحتفالات والمناسبات وكان ثيودرك اكثر الملوك الجرمان اهتماما بهذه المظاهر
التي كانت مصطنعة وخادعة في اغلب الاحيان . فمع ان الزعيم الجرماني كان ملكا
بالنسبة الى شعبه وقبيلته فانه لم يعدو بالنسبة الى الرومان كونه القائد الاعلى للجيش
او سيد الجيوش (Magister-Militum) والاكثر من هذا اهمية فان
المفهوم الروماني للحكومة بانها مؤسسة عامة غرضها الخدمة العامة ، كان من
الصعب استساغته وفهمه من قبل الجرمان الذين نظروا الى الارض والسلطة التي
تلازمها على انهما ملكية شخصية خاصة بالملك يرثها ويورثها . لذا كان بلاط الملك
الجرماني منتدى لتجمع السادة والوجهاء من جرمان ورومان اكثر من كونه القصر

رئيس للجهاز الاداري للملكة (٢٢) .

وبطبيعة الحال بقيت السلطة العسكرية جرمانية في كل مكان .

لقد كان الجرمان فاتحين ، ومع احترامهم للمؤسسات الرومانية ورغبتهم الحفاظ عليها ، ولكنهم لم يكونوا مطلقا على استعداد لترك السلطة العسكرية تفل من ايديهم او يشاركهم بها احد من الرومان . اما الادارات المدنية فقد احتفظ بطابعها الروماني لمدة طويلة . اذ لم يكن لدى الجرمان نظام اداري ملائم يعوض عنها ، لذا استمرت الاجهزة الادارية الرومانية في عملها ولكن تحت اشراف جرماني وبقيت اللاتينية لغة للحكومة ، وبقي الرومان يشغلون الوظائف الحكومية . ففي ايطاليا على سبيل المثال ابقى ثيودرك على مجلس الشيوخ (السناتو) وعلى الجه الاداري المدني والتقسيمات الادارية والتنظيمات المالية واعتمد على التقويم الروماني ايـ

وحاولت بعض الممالك الجرمانية تدوين وتنسيق قوانينها . وقد كتبت جميـ القوانين باللغة اللاتينية . ويلاحظ من بين جميع القوانين ان قوانين الفرنجة الساليين بشكل خاص ، تعطي صورة جيدة للمجتمع الجرماني في محيطه الجديد فالقانـ الجرماني من حيث الاساس نتاج للعادات والتقاليد الجرمانية القديمة ، وهو يعكس الحياة الرعوية والفردية القوية . والشئ الجديد في الامر ان هذه القوانين جاء بشئ من التأكيد على المسؤولية العامة للحفاظ على النظام وتطبيق العدالة . فبينما بقي اهل القتيل احرارا في الانتقام من الجاني أو من عشيرته أو في استلام الدية المقررة لمثل هذه الجريمة بموجب العرف القبلي ، فقد صار لزاما الآن ، تسوية النزاع امـــام محاكم معينة .

على اية حال ، استمرت المحاكم القبلية والمحاكمات الجرمانية بطريقتها البدائية مدة طويلة من ذلك (المحاكمة بالمحنة (ordeal) وتتلخص هـذ باجتياز المتهم لنوع من الاختبار الجسدي ، كأن يمسك في يده قطعة من الحديـ المحمي او يسير مسافة معينة على شئ جارح ، او يغطس مدة من الزمن في الماء المتجمد والمبارزة هي اكثر المحن شيوعا . فقد كان الاعتقاد ان الرب يعلن عن طريق المبارزة براءة المتهم أو اد

والتمايز بين الطبقات امر معترف به امام القانون الجرماني . فالدية التي تدفع لاصابة النبيل هي اعلى بكثير من تلك التي تدفع لاصابة شخص اعتيادي (٢٣) . والتمييز بين الفاتحين الجرمان والسكان الرومان واضح في وضعهما تجاه القانون وفي امور العملية الاخرى . فكلا من القوط الغربيين والشرقيين منعوا التزاوج مع الرومان والدية تدفع الى الشخص الجرماني من جراء أية اصابة اعلى من تلك التي تدفع الـــى الروماني من جراء اصابة مماثلة . والعقوبة التي تنزل بالروماني من جراء اعتداء علـى شخص جرماني ، تكون عادة صارمة ، بل ربما فرضت عقوبة الموت لجرائـــم صغيرة ترتكب تجاه الجرمان .

لقد زادت الخلافات الدينية بين الرومان والجرمان من حدة هذا التمايـــز . وباستثناء الفرنجة فان جميع الجرمان الذي استقروا في الاقاليم الرومانية كانـــوا اريوسيين ، في الوقت الذي كان فيه السكان الرومان كاثوليك . وهكذا ، ولفتـرة طويلة ، زاد العداء الديني من تفاقم التوتر العنصري بين الرومان والجرمان . ولحسن الحظ لم يستمر هذا الوضع طويلا فقد اعتنق الفرنجة الكثلكة منذ البداية . وتـــرك القوط الغربيون الاريوسية واعتنقوا الكثلكة في اواخر القرن السادس . اما البرغنديون فاعتنق ملكهم كوندوباد الكثلكة في عام ٥١٧ . واعاد جستنيان الكثلكة الـــى ايطاليا وشمال افريقيا ، وحتى اولئك اللومبارديون الذين حطموا انجازات جستنيان في ايطاليا اعتنقوا الكثلكة في القرن السابع .

وفي المجال الاقتصادي ، نلاحظ ان الاسس الاقتصادية لم يطرأ عليها تبديـــل جذري نتيجة للغزو الجرماني . فقد كان المجتمع الروماني في اواخر ايام الامبراطورية تحول الى مجتمع زراعي وطغت الحياة الريفية على حياة المدينة ، لسبب الازمـة الاقتصادية التي مرت بها الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث . وقد انسجـــم الجرمان بسهولة مع هذا المجتمع الزراعي . وصار السادة الجرمان ملاكي اراضـــي يعيشون في مزارعهم ، شأنهم بذلك شأن الوجهاء وملاكي الاراضي الرومـــان

وقد انحدر ...

اما العبيد والمزارعون في المجتمعين الروماني والجرماني ، فقد استمروا في حياتهم السابقة دون ... من المجتمعين الروماني والجرماني ، فقد استمروا في حياتهم السابقة دون تبدل ... في تبدل الاسياد . وكان هذا تحولا للاقطاع الذي تبلور خلال القرون القليلة ...

واستمرت الحياة التجارية كما كانت في اواخر عهد الامبراطورية الرو... متأثرة قليلا بالغزوات الجرمانية ، وهو امر قد لا يتوقعه المرء لاول وهلة . فلم تنق... الصلات التجارية بين الاقاليم الشرقية والغربية فقد استمر التجار السوريون وغ... يفضون بضائعهم في موانئ البحر الابيض المتوسط الاوربية . على اية حال ، لم ... الجرمان على الحياة التجارية شيئا جديدا ولم يضيفوا لها امرا يستحق الذ...

وبقيت الصناعة في وضع الركود الذي شهدته الامبراطورية الرومانية في اواخر عهدها واستمرت عملية التحول من حياة المدنية الى الحياة الريفية . والخلا... ان وحدة حوض البحر الابيض المتوسط الاقتصادية التي اقامها الرومان لم تتحط... وانما حدث هذا في القرون التالية .

لقد عرضنا في الصفحات السابقة للنواحي السلبية التي حفظت المجتمعين الجرماني والروماني منفصلين عن بعضهما البعض . ولكن الانفصال لم يستمر ط... ففي اواخر القرن السادس واوائل السابع اختفى كثير من اسباب الفرقة وصار بالا... الكلام عن مجتمع موحد .

لقد زالت الفوارق الدينية بتحول الجرمان كما رأينا الى الكثلكة . ثم ان اضم... نفوذ الامبراطورية الشرقية في اوربا وانكماش سيطرتها على الاقاليم الرومانية الغربي... بدد آمال السكان الرومان في هذه الاقاليم ودفعهم الى الرضى والاعتراف بملوك الجرمان ، فهؤلاء هم حكامهم الفعليون ، وبهذا اقروا الوضع القائم على انه و... دائم ومشروع . وخدم الوجهاء الرومان في الجيش وزاد الاختلاط وارتباط المص... بين الطبقة النبيلة من كلا الفريقين بل تكونت منهما طبقة ارستقراطية خا... مصالح مشتركة وكثيرا ما وقفت هذه الطبقة متظافرة لكبح جماح الملوك المستبد...

وتغيرت المؤسسات الادارية والعادات الاجتماعية ، فقد اختفى التمايز بين النظامين القضائيين ، وعلى سبيل المثال ، شرع ملك القوط الغربيين في عام ٦٥٤ قانونا طبق على الجرمان والرومان دون تمييز . وازداد التزاوج بين العنصرين شيوعا . وقام ملك القوط الغربيين بالغاء الحضر على مثل هذا الزواج رسميا في اواخر القرن السابع .

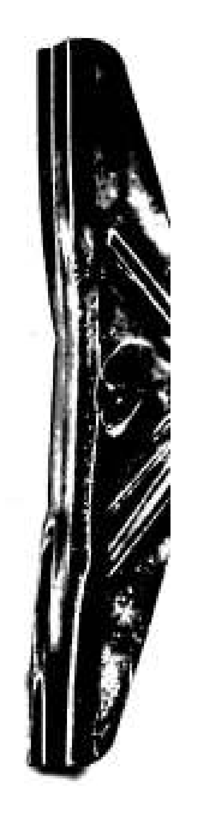
وفي القرن السابع شاع استخدام السادة الرومان لأسماء جرمانية (٢٥) .

واستمرت اللغة اللاتينية لغة رسمية للحكومة والكنيسة . اضف الى هذا ان اللغة الجرمانية اختفت كلغة للتكلم من المناطق التي يشار اليها احيانا باسم (رومانيا) من مناطق تقارب في سعتها سعة النصف الغربي للامبراطورية الرومانية القديمة . حيث اشتقت اللغة هنا من اللاتينية العامية مع دخول كثير من المفردات الجرمانية والكلتية اليها . وقد نمت من هذه اللغة الشعبية لغات الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والايطالية الحديثة (٢٦) .

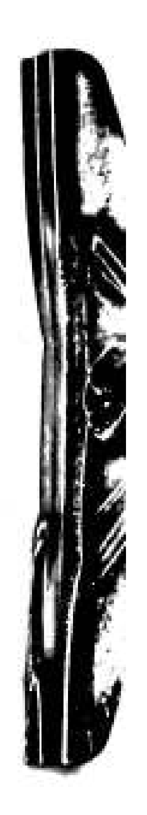
والحدود بين مناطق (رومانيا) التي يتكلم سكانها باللغة اللاتينية الدارجة وتلك المناطق التي احتفظ اهلها باللغة الجرمانية ، لم تتغير كثيرا ، وقد برهنت على انها اكثر استقرارا وثباتا من الحدود السياسية . وصارت مناطق الحدود على طول الراين والدانوب مصطبغة بالصبغة الجرمانية ، وتسودها الروح الجرمانية .

ولهذا فان الخط الفاصل يجب ان يرسم غرب الراين وجنوب الدانوب . فالسكان في اغلب القسم الذي على الضفة الغربية للراين والتي هي اليوم الالزاس وشرق سويسرا وبافاريا والنمسا تتكلم اللغة الالمانية ، باستثناء واحد فقط ، وهو رومانيا الحالية حيث يتكلم اهلها احدى اللهجات المشتقة من اللاتينية .

انه من الواضح ان عملية الصهر والاندماج قد بدأت في القرن السابع ، ان لم يكن قبل ذلك بزمن طويل . ولم يعد من الصواب التكلم عن مجتمعين منفصلين وبشكل عام فان الطابع الروماني كان هو البارز والغالب في عملية الصهر هذه . ولا غرابة في ذلك ، فالجرمان اقل عددا من الرومان ، وهؤلاء اقدم حضارة واوسع ثقافة من الشعوب الجرمانية . فقد تفوقت لغتهم واستخدمت منذ البداية كلغة للكتابة والشؤون الادارية والثقافية والدين . ثم انها حلت محل اللغة الجرمانية كلغة للكلام ...



وشاع تطبيق القانون الروماني في كثير من الانحاء مع ادخال كثير من التعديل عليه . وما تبقى من اسس اقتصادية رومانية ونظم زراعية وتجارية تبناها وتقبلها الجرمان بعد ان كيفت وفقا لاحتياجات المجتمع الجديد (٢٧) .



(1) Edward Peters, Europe the World of the Middle Ages, 1977. pp. 96–102.
(2) The Shorter Cambridge History, Vol. pp. 133–141
(3) I bid.
(4) I bid .
(5) I bid, p. 137
(6) I bid.
(7) I bid.
(8) Thompson, op. cit., pp. 106–107
(9) I bid.
(10) I bid.
(11) I bid, pp. 108–110
(12) I bid, p. 111
(13) O'Sullivos, op. cit., pp. 164–165
(14) I bid.
(15) Peferts, op. cit., pp. 117–125.
(16) I bid.
(17) I bid.
(18) I bid.
(19) I bid.
Hayes, op. cit., pp. 90–96

(٢٠ اعتمد على كتاب
بشكل رئيس عند كتابة هذه الصفحات .

I bid.
I bid.
I bid.
Thopson, op. cit., p. 292.
I bid.
W. P. Ker, The Dark Ages, Amentor book 1955, pp.
149
I bid.

ظهورها ونموها

١ – نبذة عن ظهور التنظيم الكنسي .
٢ – البابوية في عهد المسيحية الاولى – عهد الاضطهاد .
٣ – البابوية في القرنين الرابع والخامس .
٤ – علاقة البابوية بالقسطنطينية .
٥ – المسؤوليات الجديدة للبابوية .
٦ – اشهر البابوات .
البابا ليو الاول الكبير .
البابا جلاسيوس الاول .
البابا غريغوري الكبير .

البابوية

ظهورها وتطورها

١ - نبذة عن ظهور التنظيم الكنسي :

منذ ايام المسيحية الاولى ، ظهر تنظيم ديني متميز عرف بالكنيسة (Eccelesia) وعرف اولئك الذين يديرون ذلك التنظيم ويشرفون على اداء الطقوس والشعائر الدينية برجال الدين (الاكليرس) تمييزا لهم عن عامة المسيحيين . وكان تلامذة السيد المسيح الاوائل (الحواريون) الاثنا عشر ، بطبيعة الحال ، هم الاساس لفئة الاكليرس وصار خلفاء الحواريين يعرفون بالاساقفة (efiscopi) ولما كانت الجماعات المسيحية الاولى تقيم في المدن ، فقد صارت المدينة هي المقر للاسقف . ويشرف الاسقف على الشؤون الكنسية والدينية في المدينة التي يقيم فيها . واطلق على الوحدة الادارية الدينية التي يشرف عليها الاسقف اسم (الاسقفية) (diocese) وما يوجد من كنائس في نطاق كل اسقفية يشرف عليها ما يعرفون بالقسس (Priests) ويساعد القسس في ادارة مهام كنائسهم فريق آخر من رجال الدين يعرفون بالشمامسة (deacons) وهؤلاء لا يقومون بممارسة الطقوس والشعائر الدينية ولكنهم يتولون امورا وخدمات اخرى مثل تنظيف الكنائس وتوزيع الهبات .

وتمتعت المدن التي قام الحواريون بتأسيس كنائسها بمنزلة خاصة في العالم المسيحي . وتأتي روما في المقدمة في هذا المجال . فقد فاقت هذه المدينة ما سواها سمواً ورفعة . وكان لذلك اسباب عدة منها ان كلا من القديس بطرس والقديس بولص قد شرفا المدينة بزيارتهما لها . والاول قام بتشييد كنيستها الاولى وتقول الروايات المسيحية ان هذين القديسين قد استشهدوا فيها . كما ان هناك اشارة في الكتاب المقدس (انجيل متي ، الاصحاح السادس عشر) الى ان السيد المسيح قد اشار الى القديس بطرس كرئيس للحواريين ، والاساقفة هم خلفاء الحواريين فمن الطبيعي ان يكون اسقف روما ، وهو خليفة القديس بطرس ، رئيسا لبقية الاساقفة .

وبعد اخذ تلك الجوانب والروايات الدينية بنظر الاعتبار فقد كان للجوانب السياسية والواقعية ايضا دور مهم في رفع منزلة روما الى تلك الدرجة السامية . فقد كانت روما عند ظهور المسيحية وعند بدء انتشارها . العاصمة الوحيدة للامبراطورية الرومانية العظيمة المترامية ، بل كانت اهم واكبر واغنى مدينة في العالم اجمع (١)

٢ . البابوية في عهودها الاولى - عهد الاضطهاد :

وظهر هذا الاحساس بعلو منزلة اسقف روما واضحا منذ عهود المسيحية الاولى ، بل وفي عهد اضطهاد المسيحيين ، فاسقف روما القديس كلمنت الاول (91-100) يتدخل في شؤون اسقفية كورنثه تدخل صاحب السلطان العـ

وتدل الرسالة الاولى التي وجهها كلمنت الى الكورنثيين (عام ٩٦ م) دلالة واضـ على الشعور بالسيادة والزعامة . اذ يقول القديس كلمنت فيها ان النظام هو القانو الكوني ، وكما انه اساس الطبيعة الظاهر للعيان ، فهو كذلك اساس المجتمع المسيـ وينبغي على المؤمنين الالتزام بالنظام والطاعة لمن هم اعلى منهم مرتبة . وكما ان المسيـ جاء من الله ، جاء الحواريون من المسيح ، وهؤلاء بدورهم عينوا اتباعهم الاولين بـ بعدهم ليكونوا اساقفة وقساوسة للمسيحيين ومن هذا يصبح ضروريا ان تتجنب كنيسـ كنة التنازع وان تخضع لرجال الكنيسة المعينين بموجب القواعد المرعية ، لانهم يمثلون المثل المسيحية والسلطة الالهية الصحيحة (٢) .

وفي منتصف القرن الثالث تحدى بعض الاساقفة في شمال افريقيا سلطة اسقـ روما وسيادته ، فما كان من اسقف قرطاجنة الا واصدر في عام ٢٥٨ رسالة بعنوا حول وحدة الكنيسة اكد فيها ضرورة الاعتراف بسيادة اسقف روما ، وضرورة وحـ الكنيسة . فالكنيسة كما قال يجب ان تكون كاثوليكية - ومعنى كاثوليكية عالميـ شاملة - والواقع انه حتى تلك الايام الغابرة كان هناك شبه اجماع بين المسيحيين عـ وحدة الكنيسة . ولا تكون الكنيسة موحدة دون ان تكون لها سلطة عليا واحدة تستطيـ تجسيد الوحدة وتوجيهها (٣) .

لعل اهم التطورات بالنسبة للكنيسة المسيحية خلال فترة انحطاط الامبراطورية الرومانية هو ارتفاع منزلة اسقف روما (وقد صار يعرف منذ القرن الرابع بالبابا) في المجالين الديني والدنيوي . لقد لاحظنا سمو منزلة خلفاء القديس بطرس على غيرهم من الاساقفة في عهد الاضطهاد ، اما بعد ذلك وفي فترة انحطاط الامبراطورية الرومانية وضعفها ، فقد احتفظ البابا بتلك المنزلة السامية ، بل ان سيادته على بقية الاساقفة ، قد نمت وتبلورت واصبحت امرا ثابتا ومعترفا به من الجميع .

وتبدو السيادة البابوية واضحة في كثير من المجالات . منها الاجراءات التي اتخذت لمناهضة الهرطقة . فمع ان اغلب الحركات الهرطقية في عهود المسيحية الاولى قد ظهرت في الشرق (كالاريوسية والنوفستية) وهي على هذا الاساس تمثل مشكلات للاساقفة الشرقيين بالدرجة الاولى ، ومع ان المجامع الدينية العامة السبعة الاولى عقدت كلها في الشرق ، فقد لعبت روما دورا قياديا في تلك المجامع التي قامت بدور مهم في تعريف العقيدة الكاثوليكية وفي تحديد مضامينها . ففي مجمع (نيقية Nicoea ٣٢٥) اخذ بتفسير روما لطبيعة الاب والابن وكان قد حضر المجمع قسيسان يمثلان البابا ومن المرجح ان يكون هوسيوس اسقف قرطبة الذي ترأس معظم جلسات المجمع هو الاخر مندوبا للبابا ايضا (٤) .

وفي مجمع خلقدونيا عام ٤٦١ ، عندما عجز الاساقفة المجتمعون عن التوصل الى اتفاق يرضي الجميع ، اصدر البابا ليو الاول رسالته الشهيرة المسماة Tome التي انهت الجدل بتأكيدها العقيدة القائلة بان للسيد المسيح طبيعتين بشرية وسماوية ضمتهما شخصية قدسية واحدة . وبهذا انكر على المونوفستيين عقيدتهم القائلة بالطبيعة الالهية الواحدة للسيد المسيح . وهكذا اثبتت البابوية زعامتها مرة اخرى (٥)

وفي المجال الاداري ، يلاحظ ان روما نجحت هنا ايضا في فرض نوع من السيادة الادارية على بقية الكنائس ، علما بان الفوضى السياسية التي سادت الغرب

الاعلى للكنيسة . ومن حسن حظ الكنيسة ان جستنيان بالذات كان غيورا ... الباپا بتأييده المطلق ، ومع كل ... متحمسا لوحدتها ، ولذا نراه لايخل ...

بالنسبة الى هذا الامبراطور الصليبي ، ... ن العلاقات بينه وبين البابا لم تكن ... البرود والتوتر في بعض الاحيان خاصة عندما حاول الامبراطور مهادنة الهر... الاريوسيين وغيرهم . والواقع ان البابا (فجليوس كان سجينا في القسطنطينية ... سنوات بسبب خلافاته مع الامبراطور جستنيان (٩) .

وعندما اعهدت سلطة الامبراطور البيزنطي الى ايطاليا نتيجة لفتوحات جستنيان ... الخلافات بل تفاقمت . والحقيقة ان الاباطرة البيزنطيين كانوا يحـ... البابا ويحاولون الحد من نفوذه بكل الوسائل الممكنة لديهم . من ذلك تحر... اسقف رافينا وبقية الاساقفة وتشجيعهم على تحدى سلطانة . كما شجعوا بعض ... وبخاصة المتوفشيين . وعندما لم يجد كل ذلك نفعا لجأوا الى تعزيز موقف بطر... القسطنطينية ودفعه الى تحدى البابا ومساواته . (١٠)

وتطور خلاف خطير بين روما والقسطنطينية في اوائل القرن الثامن ، وكـ... الظهور الاسلام صلة بذلك فقد عاب المسلمون على المسيحيين تعلقهم بالصور و... وافراطهم في تكريم القديسين الى درجة بلغت حد العبادة . فظهرت اتجاهات ... لدى المسيحيين في الشرق ، تهدف الى الحد من التعلق بالصور والتماثيل والا... في تكريم القديسين وعرف دعاة هذا الاتجاه بمحطمي التماثيل والصور (ال... ايقونيين) ونال هؤلاء تأييد بعض الاباطرة خاصة ليو الايسورى (٧١٤ – ... لقد نشأت ازمة دينية خطيرة ، فالكنيسة الشرقية نفسها انقسمت ونشب صراع بـ... الايقونيين واللا ايقونيين . وبينما نال الا... يرون تأيد الامبراطور ، حظي الايقـ... بمساندة بطريق القسطنطينية . ولم يستمر الصراع طويلا فقد انتصر الايقونيون و... ظافرين . ومع ان الحركة اللا ايقونية لم تؤثر بشكل مباشر في الكنيسة الغربية ... البابا بصفته الرئيس الاعلى للكنيسة المسيحية كلها وقف الى جانب بطريق القسطـ... ودافع بحماس عن احترام القديسين ودعا الى الابقاء على الصور والتماثيل وعلى ... حال فان سياسة ليو الايسوري ادت الى توتر خطير في العلاقات بين البابا والامبرا...

... البابا غريغوري الثاني (٧١٥ – ٧٣١) [illegible] الثالث الايسوري (٧١٧ – ٧٤١) وشجع الايطاليين على تجاهل قراراته . وقد تركت المشكلة اثارها في توتـر العلاقات بين شقي العالم المسيحي لقرون عديدة لاحقة (١١) .

والانفصال السياسي بين الاقاليم الشرقية والاقاليم الغربية ادى بصورة تدريجية الى نوع من الانفصال الديني كذلك . والحقيقة كانت هناك خلافات عقائديـــة ، غير عقائدية منذ البداية بين المسيحيين في الشرق والمسيحيين الغربيين . فقد كــان المسيحيون في الشرق يستعملون اللغة الاغريقية في اداء المراسيم الدينية ، بينما استعمل المسيحيون الغربيون اللغة اللاتينية في تلك المراسيم . ثم ان الرقي الثقافي والرخـاء الاقتصادي في الشرق دفع السكان الى اعتبار الغرب متوحشا ومتخلفا . ورفض عـدد من بطارقة القسطنطينية الخضوع لروما المدينة المهجورة والفقيرة وهم يعيشون فــي تلك المدن الشرقية العامرة بالسكان والمرفهة اقتصاديا . وهكذا يلاحظ انه على الرغم من احتجاجات البابا المستمرة استعمل بطريق القسطنطينية لقب البطريق العام .

وفي خلال القرنين السابع والثامن اتسعت الشقة بين القسطنطينية وروما . ومــع هذا وعلى الرغم من التباين الاقتصادي والثقافي ، استمرت وحدة الكنيسة المسيحية وقد حدث هذا الانفصال في وقت لاحق . والحقيقة كان هناك ما لا يقل عن ستـة بابوات من اصل شرقي (بين عام ٦٥٠ – ٧٥٠) ولكن في هذه الفترة ايضا تعرضـت سيادة البابا على القسطنطينية لمعوقات كثيرة منها زيادة الفروق الثقافية والاقتصادية بين الشرق والغرب ، وطموح بعض بطارقة القسطنطينية ورغبتهم في الاستقلال عــن روما ، وتدخل الاباطرة المستمر في الشؤون الدينية .

. المسؤليات الجديدة للبابوية :

بسبب اعتراف الحكومة الامبراطورية بالمسيحية زيادة كبيرة في الواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتق البابا والاساقفة . فقد دخل الناس في الدين الجديد افرادا وافواجـا . وحدو اغلبهم الامل في الاستفادة من الوضع الجديد ، اكثر ما يحدوهم الايمــان بالعقيدة . على اية حال كان الامر يتطلب زيادة في بناء الكنائس وفي تقديم المواعظ

الكنيسة ممن يرجون الثواب ويخشون العقاب

والارشاد . وانهالت الهبات على الكنيسة ممن يرجون الثواب ويخشون العقاب . فكان على البابا والاساقفة استثمار الاموال بالشكل الافضل وتوزيع الاعانات والصدقات على المستحقين . ومنذ اوائل القرن الخامس صارت الحكومة الامبراطورية في ايطاليا شبه مشلولة ، عاجزة عن تقديم الخدمات للناس فتولت الكنيسة جزءا مهما من تلك المسؤولية . فبنت المستشفيات واقامت الملاجئ والمياتم ومارست القضاء وساعدت منكوبي الكوارث الطبيعية والحروب كالطاعون والفيضانات والقحط وضحايا غزوات الجرمان والهون . والقيام بكل هذه المسؤوليات والمهام زاد من اهمية البابا والاساقفة وعزز مكانتهم ونفوذهم . وقد صار البابا اهم شخص في المدينة خلال القرنين الرابع والخامس . ولعل المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها تبرر العبارة التي شاعت في تلك الفترة وهي " الاساقفة الملوك " (١٢)

بالاضافة الى كل ما سبق فقد وضعت خلال القرنين المذكورين اسس السلطة الزمنية للبابوات ، تلك السلطة التي قدر لها ان تلعب دورا مهما خلال القرون الوسطى . فقد ترك انهيار السلطة الامبراطورية في الغرب فراغا كان لابد ان يملأ بشكل من الاشكال . ونظرا للهيبة والمنزلة الرفيعتين التي كان يتمتع بها البابوات ، فقد نظر اليهم الناس كرمز حقيقي للسلطة والحماية . فالبابا ليو الاول الكبير هو الذي خرج عام ٤٥٢ لمقابلة اتيلا لاقناعه بالانصراف عن روما ، في حين لم يفعل الامبراطور شيئا .

ومنذ ان تم الاعتراف بالديانة المسيحية عام ٣١٣ ، حصلت الكنيسة عن طريق الهبات على اراضي شاسعة بالقرب من روما ، وقد اطلق عليها اسم (اوقاف القديس بطرس) . ثم حصلت على اراضي اخرى في صقليا وسردينيا واماكن اخرى من ايطاليا . وعندما انهارت سلطة الحكومة تماما ، رأى البابا نفسه يتحمل مسؤولية الحكم في هذه المناطق . وصارت هذه الحالة اكثر وضوحاً بعد الغزوات اللمباردية حيث عمت الفوضى ولم تعد في غالبية اجزاء ايطالية سلطة حكومية من أي نوع

ليو الاول الكبير (٤٤٠ – ٤٦١) :

وظهر خلال القرن الخامس عدد من البابوات كان لهم دور هام في تعزيز السلطة البابوية وفي وضع اللبنات الاولى في صرحها الشامخ واشهر هؤلاء البابوات البابا ليو الاول الكبير . وهذا هو اول البابوات الثلاثة الذين لقبوا بهذا اللقب (الكبير) . وقد سبق ان تطرقنا الى خروجه لمواجهة اتيلا لاقناعه بالانصراف عن روما . هذا وكان لموقفه القوي والثابت في مجمع chalcedon ، اثر في ارغام بطريق القسطنطينية على الاعتراف بالسيادة البابوية . ومن انجازاته الاخرى ، نجاحه في انتزاع مرسوم من الامبراطور فالنتين عام ٤٤٥ ، اعترف بموجبه بسلطة البابا القضائية العليا على جميع اساقفة الغرب . وقد طلب الامبراطور من جميع الموظفين الحكوميين التقيد بهذا المرسوم وتنفيذه . (١٣) .

البابا جلاسيوس الاول (٤٩٢ – ٤٩٦) :

واشتهر البابا جلاسيوس الاول بنظريته الخاصة بثنائية السلطة والتي يطلق عليها احياناً نظرية جلاسيوس . وتقول هذه النظرية بوجود سلطتين لهذا العالم احداهما دينية والثانية زمنية انهما مختلفتان ولكن مصدرهما واحد هو الله . وقد تعتمد الواحدة منهما على الاخرى ولكنهما مستقلتان . كل واحدة منهما سيدة في مجالها الخاص . فالسلطة الزمنية تكون خاضعة في المجال الخاص للسلطة الدينية والعكس بالعكس (١٤)

وتبدو نظرية جلاسيوس على جانب معقول من الحياد ولكن الامر غير ذلك اذ ان السلطتين متداخلتان ولا يمكن الفصل بينهما تماما . علما بان سيطرة احدى السلطتين على الاخرى ، لم يكن قد اثير عندما قال جلاسيوس بنظريته . وعندما اثير هذا الموضوع بعد قرون ، وجد انصار الكنيسة في نظرية جلاسيوس ما يؤيد ادعاء البابوية في السيادة . فقد شرح كل من يوناس الاورلياني وهنكمار الريمي في القرن التاسع النظرية المذكورة قائلين : ان كلا من السلطتين الزمنية والدينية داخل

في حظيرة الكنيسة . وان واجب رجل الدين يقتضيه التأكد من قيام الحاكم الدنـ
بواجبه . وكما انه في حفل مسح الملك بالزيت المقدس يكون الماسح في مرتبة ...
فوق الممسوح ، كذلك يكون رجل الدين في مرتبة فوق الحاكم الدنيـــوي (...

وفقدت البابوية الكثير من نفوذها ومكانتها خلال القرن السادس ففي خضـ... الفوضى والغزوات فقد البابا ما كان قد حققه من مكاسب خلال القرنين الماضـ... وكان البابا نفسه شريدا في بعض الاحيان معزولا في مدينته روما البائسة الفقيرة الخر... في احيان اخرى . ولكن هذا التدهور في السلطة البابوية توقف في نهاية القرن الـ... بل وقدر للبابوية ان يرتقي عرشها في مطلع العقد الاخير من القرن السادس من هـ... بحق وكما وصف اب البابوية في العصور الوسطى .

البابا غريغوري الكبير (٥٩٠ – ٦٠٤) :

لعل تطور الكنيسة المسيحية في الغرب في اوائل العصور الوسطى وارتفـ... مكانة البابوات وتعاظم منزلتهم . يتصل اتصالا مباشرا ووثيقا بالبابا غريغوري الكبـ... فهو من اعظم البابوات في تاريخ الكنيسة المسيحية على مدى العصور (١٦) . و... الذي وضع الاساس الذي شاد عليه البابوات من بعده في المجالين الديني والدنيـ... خلال القرون التالية .

ولد غريغوري في روما حوالي عام ٥٤٠ من عائلة رومانية نبيلة تميزت بالمـ... والثراء (١٧) . تولى في شبابه مناصب حكومية عديدة حيث عين حاكما لاحدى الـ... ولكنه فضل ترك الحياة وباهجها والدخول الى احد الاديرة ، بعد ان وهب كل ... يملك من اراضي واحجار كريمة واثاث الى الكنيسة . ومثل هذا الرجل لا يمكـ... تستغني عنه الكنيسة لتدعه يقضي حياته في الدير . فقد استدعاه البابا الى روما حيـ... عهد اليه بمناصب دينية رفيعة ثم انتدبه بمهمة الى القسطنطينية . واختير عام ٥٩٠ ليجلس على عرش القديس بطرس .

امتاز غريغوري باحترامه لسلطة الامبراطور الشرعية ، وفي الوقت نفسه تميـ... باعتزازه بمنصبه البا... ، ورفضه اخضاع هذا المنصب الى اية سلطة ا...

كانت ظروف ايطاليا السياسية في الوقت الذي ارتقى فيه غريغوري عرشـ... ـبوية تؤهله القيام بدور سياسي (١٨) هام . فقد ازداد خطر اللومبارديين وعبثهـم ... ايطاليا . وعندما كانت مساعدة امبراطور الشرق غير متوقعة فقد لجأ غريغوري ... طلب مساعدة الفرنجة الذين كانت قد تمت هدايتهم الى الكثلكة منذ زمن طويـل ... كان غريغوري قد اولى التبشير عناية خاصة ، فاخذت الكثلكة تنتشر بسرعة بيـن ... ـوط الغربيين في اسبانيا . ولعل هداية السكسون في انكلترا الى الكثلكة من اهـم ... ـجازات حركة التبشير في هذا الوقت . ولجهود غريغوري فضل كبير فيها . ولما ... ـان غريغوري راهبا في طور من اطوار حياته فقد اظهر وهو على راس الكنيسة حماسا ... ـاصا للرهبنة .

واظهر في علاقته بالبزنطيين واللومبارديين والفرنجة درجة فائقة من المهـارة ... ـياسية وقد مكنته تلك المهارة من الاحتفاظ بمقام محترم ورفيع ، كما مكنته فـي ... ـك الجو المضطرب من الابقاء على سلامة ولاية روما التي كانت تحت ادارتـه – ... ـعل خير ما يبرز حنكته السياسية موقفه من بطريق القسطنطينية عندما اصر هذا على ... ـتخدام لقب البطريق العام لقد قال له ان مثل هذا الوصف اقرب الى الخلق عبـر ... ـسيحي منه الى روح التواضع المسيحية . وقد استخدم غريغوري لنفسه هذا النعـت ... ـادم خدم الله صار هذا احد القاب البابوية منذ ذلك التاريخ (١٩) .

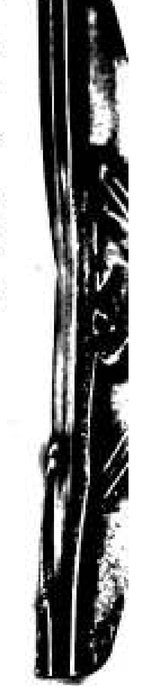
ولم يقتصر اهتمام غريغوري على النواحي الدينية والسياسية ، بل تعداها الـى ... ـنواحي المالية والتجارية . فقد كان حريصا كل الحرص في الحفاظ على موارد الكنيسة ... ـالية ، دقيقا وحاذقا ، بشكل يثير الاعجاب ، في استثمارها وتنميتها . كان يختـار ... الاسواق الملائمة ليرسل لها المحاصيل الزراعية التي تنتجها حقول الكنيسة ومزارعها ، ... يضمن بذلك الربح الوفير ولم يبخل على الفقراء والبائسين واللاجئين بجزء مـن ... اموال الكنيسة ومواردها .

واضافة الى كل ما سبق فقد كان لغريغوري اهتمامات اخرى ، فوضع ترنيما ... خاصا لموسيقى الكنيسة . ووضع انشادا رسميا لها لا يزال يحمل اسمه حتى يومنـا ... هذا . ولغريغوري ...

وارشاد رجال الدين . وحول الشعائر والمراسيم الدينية ، وقصص الانبياء والقديسين .

والخلاصة فان البابا غريغوري يعتبر بحق واحد من ابرز الشخصيات في تاريخ الكنيسة المسيحية ومن مشيدي بناءها الشامخ .

ولا يفوتنا ، وقد تكلمنا عن البابوية ونموها في اوائل العصور الوسطى ، ان نذكر امورا مهمة عملت على تثبيت اسس المسيحية في تلك الحقبة القلقة من تاريخها قادت بذلك بشكل غير مباشر الى تعزيز مركز البابوية من هذه : (١) جهود من يعرفون بآباء الكنيسة ونخص بالذكر منهم القديس امبروس (St. Ambrose) (عام ٣٤٠ - ٣٩٨ . والقديس جيروم (St. Jerome) ٣٥٤ - ٤٣٠ . والقديس اوغسطين (St. Augustine) ٤٢٠) وقد وضع هؤلاء الحجر الاساس للحياة الفكرية والثقافية للعصور الوسطى . (٢) الحركة الديرية (٣) الحركات التبشيرية . وسوف ياتي الكلام عن هذه كلها في دروس قادمة .



الهوامش

(1) Ferdinand Mourret, The papacy, tran. by R. Eaton (1931)

ويتناول هذا الكتاب تاريخ البابوية منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر .

) دوسن ، نفس المصدر ، ص ص ٣٧ - ٣٨

(3) Hoyt, op. cit., p. 69.
(4) Hayes, op. cit., pp. 70–71
(5) I bid.
(6) I bid.
(7) Hoyt, op. cit., pp. 69–70
(8) The Shorter Cambridge, Medieval History. vol. 1, P. 115
(9) I bid, pp 185– 05
(10) I bid, pp. 245–283

(١) ل . م . هارتمان وج باركلاف ، الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور جوزيف نسيم جوزيف ، ١٩٧٠ ص ص ٤٦ - ٤٧ .

(12) Hoyt, op. cit., pp. 68–70
(13) I bid.

) ج . كرامب و ا . جاكوب ، تراث العصور الوسطى ، ترجمة ومراجعة مجموعة من اساتذة الجامعات المصرية ، الجزء الثاني ، ص ٧١٥ .

) نفس المصدر .

المير وفنجيون والكارولنجيون – شارلمان وتكوين الامبراطورية

هور وزوال الامبراطورية الكارولنجية .

١ . الميروفنجيون .

٢ . الكارولنجيون – رؤساء البلاط .

٣ . شارل مارتل .

٤ . انتهاء حكم الميروفنجيين وتولي الكارولنجيين الحكم بين القصيـــر .

٥ . شارلمان .

٦ . حروب شارلمان .

٧ . شارلمان يتوج امبراطورا .

٨ . الادارة في عهد شارلمان .

٩ . لويس التقي .

١٠. معاهدة فردان .

١١. الامبراطورية بعد فردان .

١٢. تدهور وزوال الامبراطورية الكارولنجية .

العوامل الداخلية للتدهور .

العوامل الخارجية للتدهور .

(١٨) هارتمان ، نفس المصدر ، ص ٥٠ .
Hoyt, op. cit., pp. 68-70

كثيرا من الامتيازات للنبلاء . فبا

اند اصدر كلوتير في ٦١٤ تشريعا تضمن انتخاب الاساقفة ووسع اختصاص النبلا

الى النبلاء الدينيين تعهد الملك بعدم التدخل في بتلك المحاكم ، وتعهد بعر

المحاكم الكنسية ، وحصر محاكمة رجال الدين من الاشكال . اما بالنسبة الـ

التجاوز على املاك الكنيسة واموالها باى شكل من فرضت عليهم بطريقة غ

النبلاء الملمانيين فقد تعهد برفع جميع الضرائب التي في اقطاعياتهم . وهكذا حول كلوتير

عادلة ووعدهم بسلطات وصلاحيات اوسع في

من السلطات الملكية الى الحكومات المحلية التي يمارس النبلاء انفسهم الحكم فيها

والاكثر من كل هذا اهمية ان ممثل النبلاء وزعيمهم خلال الصـــراع مـــ

برونهلد والمعروف برئيس البلاط زادت سلطته كثيرا الان وصارت وظيفته

يتسلمها الابناء عن الاباء .

وخلف كلوتير الملـــك داغوبرت (Dagobert) ٦٢٩ -

وهو آخر ملك من الملوك الميروفنجيين كان له شيء من النفوذ فقد بدأ من بعـ

عهد جديد من حكم الملوك الذين لا يملكون من السلطة الفعلية شيئا ويوصف

بانهم الملوك الذين لا يعملون شيئاً) ووصفهم اينهارت مورخ شارلمان بانهـ

(ضعفاء البنية واحداث يتزوجون مبكرين ويموتون مبكرين ، ويعيشون حيا

مجدية) (٤) اما السلطة الفعلية فقد انتقلت الى رؤساء البلاط . وانحصر هذا المن

في عائلة واحدة هي العائلة الكارولنجية .

٢ . الكارولنجيون – رؤساء البلاط :

ترجع اصول العائلة الكارولنجية التي انحصر في افرادها منصب رئيس البلا

الى اوستراسيا حيث الطابع الجرماني اكثر وضوحا من اى جزء من اجزاء مملكـ

الفرنجة . وقد لعبت هذه العائلة دورا مهما خلال الصراع مع الملكة برونهلد . و

بيبن (pepin) اول من تولى منصب رئيس البلاط في هذه العا

واصيبت العائلة بانتكاسة بعد بيبن عندما حاولت انتزاع السلطة نهائيا من الميروفنج

بعزل الملك الميروفنجي وارتقاء احد افرادها العرش . فقد كانت المحاولة سابقة

لاوانها تنضا جهود النبلاء والكنيسة لاحباط محاولة الكا... هذه . و

النبلاء والكنيسة كانوا يفضلون الابقاء على الميروفنجيين الضعفاء على سواهم مـــن

حكام الاقوياء الذين قد يجردونهم من سلطانهم وامتيازاتهم .

واستعاد الكارولنجيون مكانتهم في عهد بيبن الثاني او ما يعرف بيبن هرتزال .

استطاع هذا الارتقاء الى منصب رئيس البلاط مرة اخرى . وفي عهده كرئيس

لاط اشتد الصراع بينه كممثل للسلطة المركزية وبين النبلاء الذين كانوا يريـــدون

ضعاف تلك السلطة وتفكيكها . والواقع ان بيبن الثاني ظهر على مسرح الاحداث فـــي

مملكة الفرنجة في الوقت الذي كانت فيه تلك المملكة على شفا الانهيار والانحلال

. جاء بيبن ليتم ما بدأه كلوفس وليعيد بناء الدولة وليمد حدودها ويستعيد هيبتهـا .

انت مملكة الفرنجة قد خسرت كثيرا من اراضيها في عهد الفوضى والحـــروب

اخلية . فقد خلعت اوكتين عنها نير الفرنجة وثار البافاريون والالماني واستقل حكامهم

م بيبن بحملات متواصلة على الالماني وعلى البافاريين وعلى اوكتين واستطاع دحرهـم

يعا فاعاد وحدة مملكة الفرنجة . اضافة الى هذا اخضع النبلاء وحد من النفـــوذ

ايد للكنيسة (٥) .

شارل مارتل :

وكادت جهود بيبن تذهب سدى بعد وفاته ، وذلك بسبب الخلاف بيـــن

– عائلته على وراثة منصبه . ولكن ابنه غير الشرعي والذي عرف بشارل مارتـل

ارل المطرقة) قدرله ان ينقذ مملكة الفرنجة ويخلصها مما كان يحيط بها مـــن

طر وان يواصل الجهود التي بدأها اسلافه في بناء مملكة الفرنجة وفي بسط نفوذها

جميع الاراضي التي كانت تسكنها الشعوب الجرمانية .

وركز شارل مارتل جهوده لضم الجرمان وراء الراين . وكان القديس بونيفاس

بالتبشير بين الوثنيين هناك فدعم شارل مارتل جهوده وقد اعترف البابـــا بجهود

ل مارتل ، ، انني لا استطيع ادارة شؤون الكنيسة ولا استطيع حماية القسس والشمامسة

الرهبان ولا الراهبات ، ولا استطيع الحيلولة دون قيام الوثنيين بممارســـة

طقوسهم او منعهم من عبادة اصنامهم في هذه الاصقاع دون مساعدة امير الفرنجة

وحمايته (٦) .

وعلى الرغم من التعاون بين شارل مارتل والكنيسة في هذا المجال فانه لم يتردد في وضع يده على الكثير من اراضي الكنيسة وممتلكاتها ، وذلك للحد من نفوذهم المتزايد من جهة ولتوفير المال اللازم الذي كانت تحتاج اليه مملكة الفرنجة لمواصلة الحرب ضد المسلمين بشكل خاص من جهة اخرى . لقد استفاد شارل مارتل من اموال الكنيسة في اسناد جيشه من الفرسان . واستطاع فعلا تكوين جيش قوي كان الاول من نوعه عند الشعوب الجرمانية وهذا الجيش هو الذي حقق للفرنجة بقيادة شارل مارتل النصر على المسلمين في معركة بواتية عام ٧٣٢ ومع انه قد لا تكون لهذا النصر تلك الاهمية التي اضفاها عليه المعاصرون الا انه على اية حال وفر لشارل مارتل الفرصة لمعالجة مشاكله الكثيرة في جهات اخرى .

ورث شارل مارتل عن ابيه وظيفة رئيس البلاط لجميع بلاد الفرنجة وبسط نفوذه هو جهده ــ للمحافظة على وحدة تلك البلاد ، وحارب جميع القوى التي كانت تحاول النيل من تلك الوحدة او تحاول تحدي السلطة المركزية . لقد قاوم بشدة سلطة النبلاء المتزايدة وعمد الى تنحيه الكونتات والدوقات في اجزاء المملكة وابدالهم بكونتات ودوقات من اوستراسيا فقط . فقد كان لا يثق باحد سواهم .

قضى شارل مارتل على جميع مظاهر الاستقلال المحلي وعلى كل انواع التحدي للسلطة المركزية خاصة في برغنديا واكوتين . وقاد من اجـــل هذا حملتيـــن ضد البافاريين وخمس حملات ضد السكسون ، وحملات كثيرة اخرى ضد اجزاء اخرى من مملكة الفرنجة (٧) .

وهكذا ترك شارل مارتل المملكة عند وفاته وهي موحدة وقوية كل هذا ولـــم يكن هو الا رئيـــا للبلاط دون ان يرتقي العرش .

- انتهاء حكم الميروفنجيين وتولي الكارولنجيين الحكم :

اشترك ولدا شارل مارتل وهما كارلمان وبيبن القصير في الحكم لفترة قصيرة بعد وفاة ابيهما . ولكن الاول انسحب عام ٧٤٧ ودخل الدير فانفرد بيبن بالسلطة ... صمم بيبن منذ البداية على وضع حد لوجود الميروفنجيين غير الطبيعي . وبــــدأ باتخاذ الخطوات لذلك فوطد علاقاته بالكنيسة ، حيث اعاد لها بعض اراضيهـــا التي كان والده قد انتزعها منها . ثم انتخب بيبن ملكا من قبل النبلاء الفرنجـــة المجتمعين في سواسن في كانون الثاني عام ٧٥٢ . وكان بيبن قد حصـــل على موافقـــة البابا حـــول هـــذا الامر . فقـــد تقـــدم الى البابـــا بالسؤال التالي هل هو صواب ان يحمل رجل لقب الملك بينما يقـــوم غيره بممارسة السلطة ؟ وكان الجواب في صالح بيبن فقال البابـــا فـــي اجابتـــه ان ذلك امر ليس من الصواب بشيء ولم يكتف البابا ستيفن الثاني بهذا ، بل جاء بنفســه وتوج بيبن في عام ٧٥٤ ونصب الملك بيبن ملكا على الفرنجة ، فكان بيبن اول ملـــك في الغرب ينصب رسميا من قبل البابا واثاب بيبن البابا على موقفه هذا فقدم لـــه المساعدة ضد اعدائه اللمبارديين ثم اعطى البابوية ما اخذ يعرف منذ ذلـــك الوقـــت باسم (منحه بيبن pipen Donation) وهي اراضي واقطاعيات ... في ايطاليا (٩) . لقد عزز بيبن بسياسته هذه تجاه الكنيسة التحالف والتعـــاون ... المتين بين الفرنجة والبابوية . وكانت الكنيسة باسس الحاجة في هذا الوقت بالـــذات الى مساعدة بيبن وحمايته فكانت تحيط بها المشكلات . فكان هناك خلافهـــا المستعصي مع كنيسة القسطنطينية وكانت هناك تهديدات اللمبارديين المستمرة . على اية حال لم تكن سياسة بيبن هذه تجاه البابوية الا تأكيدا لعلاقات الصداقة التقليدية السابقة التي ترجع الى عهد كلوفس ، والتي سار عليها اغلب رؤساء البلاط ، ووطـــد دعائمها التعاون في هداية الشعوب الجرمانية الوثنية الى المسيحية .

وواصل بيبن سياسة التوسع ، وهذه هي السياسة التقليدية الاخرى التي تميـــز تاريخ الفرنجة . فبعد ان دفع المسلمين الى ما وراء جبال البرنس وقضى علـــى محاولات التمرد في اوكتين وبافاريا ، اندفع بيبن في توسعه في سكسونيا . وهكـــذا

الابقاء على وحدة مملكة الفرنجـ

نجح بيبن في الحفاظ على انجازات عائلته في

وقوتها . (١٠)

والى جانب ما سبق ، فقد قام بيبن باصلاحات مهمة في الكنيسة بعد ان دب

الفساد في اجهزتها واقعدها التفسخ الذي حل بها عن القيام بواجباتها الروحية على

الوجه الصحيح . فكان هناك الكثير من الاساقفة والقسس السيء السمعة واصبحت الكنا

من – الكنائس فقيرة معوزة بعد ان نهب النبلاء اموالها واستطاعوا بطريقة او باخـ

الاستحواذ على املاكها . ونتيجة للاصلاحات التي قام بها بيبن في هذا المجال استعادت

الكنيسة مكانتها وهيبتها .

وقد عقدت عدة مجامع دينية (Synod) ونظمت خدمات الاساقفة

والقسس ، وطرد اولئك الذين لم يكونوا مؤهلين للخدمة الروحية . وانشئت كنائس

جديدة ، وملئت الشواغر التي كانت تعاني منها الكنائس القديمة . والزم جميع الاساقفة

بالاعلان ولائهم الكامل للبابا . وواضب بيبن على عقد مجامع دينية للحفاظ على

نظام الكنيسة ولمحاسبة الاشخاص غير اللائقين بها .

لقد اكدت تلك المجامع الدينية عطلة ايام الاحد وفرضت على الجميع دفـع

عشرا للكنيسة (١١) وفي مجال السياسة الخارجية . كانت المشكلة الايطالية هـي

اكثر المشكلات التي واجهت بيبن الحاحا . وكان البابا ، كما مر بنا ، قد اسدى جميلا

الى الكارولنجيين بتأييده ارتقاء بيبن عرش مملكة الفرنجة ، وصار لزاما على بيبـن

ان يرد ذلك الجميل ، بعد ان تعرض البابا ستيفن الثاني لخطر اللمبارديين وتهديداتهم

لقد فرض ملك اللمبارديين اوستولف (Aistulf) ٧٤٩ – ٧٥٦

ضرائب باهضة على سكان ايطاليا ، وحاول البابا ، كما حاول الامبراطور الشرقـي

اقناعه بالعدول عن سياسته التعسفية في ايطاليا ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل فلجـأ

البابا الى بيبن والى النبلاء الفرنجة مستصرخا اياهم تقديم العون الى خليفة القديـس

بطرس الذي يخصه الله بمفاتيح السماوات [illegible] ات . ولم يكتف البابا بهذا بـل

شد [illegible] عام ٧٥٤ لمقابلة بيبن وقد مسحه ومسح ولد [illegible] ان وشارلمان بالزيـت

ـس . ودعا لهم جميعا . وتوعد الفرنجة باللعنة الابدية ان هم اختاروا سواهـم

ياتهم للعرش (١٢) .

ولم يكن التدخل في الشؤون الايطالية من الامور المرغوب فيها من قبل بيبن

ـلاء الفرنجة ، وحاول بيبن الا يفعل الا ما هو ضروري . ودخل الفرنجـة

ـاليا ، وحقق بيبن انتصارات صغيرة على اوستولف ، فاضطر هذا الى الخضـوع ،

ـفا بسيادة بيبن ومتنازلا عن كثير من الاراضي في ايطاليا الى البابا ، وانسحـب

ـنجة من الساحة الايطالية ، ولكن اوستولف عاد الى مضايقة البابا في السنة التاليـة

، الامر الذي اضطر معه بيبن الى القيام بحملة ثانية على ايطاليا . وذلك بعد ان تلقى

النداء المثير من خليفة القديس بطرس بحق القديس بطرس الذي يستصرخ ابناءه

ـرض عليهم الفردوس والنعيم لقاء اطاعته ويحذرهم العذاب الاليم من معصيتـه

ـلائه (١٣) وفي هذه الحملة حوصر اوستولف في بافيا واجبر على الاستسلام .

ـي الحقت مناطق شاسعة كانت خاضعة للمبارديين بالولاية البابوية ، وفرضـت

ـة حربية كبيرة على اللمبارديين والواقع صارت هناك دولة بابوية واسعة تحت حماية

ـنجة . وتمشيا مع تقاليد الفرنجة ، قسم بيبن مملكته بين ولديـه شارلمـان

ـرلمان . وتوفي الاخير في عام ٧٧١ وتوحدت مملكة الفرنجة مرة اخرى تحت حكـم

ـلمان .

ـ شارلمـان : (٧٦٨ – ٨١٤)

مما لا شك فيه ان حكم شارلمان يعتبر فاتحة لعهد جديد متميز ليس بالنسبـة

ـيخ الفرنجة فحسب ، بل بالنسبة لتاريخ اوربا كلها . لقد جاء شارلمان ليضـع

ـسات الاخيرة لعملية الصهر والاندماج للعناصر الجرمانية والرومانية في وسـط

ـرب اوربا . والى جانب هذا كان شارلمان مواظبا على سياسة الفرنجة التقليدية فـي

ـسع ، بعد ان اخذت لها ابعادا جديدة وهدفا واضحا يتلخص في ضم جميـع

ـاصر الجرمانية في اوربا وصهرها في دولة واحدة . وادى اندفاع شارلمان في تنفيذ

وقاد شارلمان بنفسه عددا كبيرا من الحملات ضد السكسون ، وكانت القسوة هي الطابع المميز للصراع بين الفرنجة والسكسون . يكفي ان يذكر هنا انه في يوم واحد فقط قطع الفرنجة رؤوس ٤٥٠٠ من السكسون في فردان عام ٧٨٢ . وهجر شارلمان عشرات الالوف من السكسون وانتزع اراضيهم ومنحها لبقية الشعوب الجرمانية .

وبعد ان حقق شارلمان النصر النهائي في سكسونيا ، وانهارت تماما مقاومة اهلها ، نظمت شؤونها وثبت وجود الكنيسة المسيحية فيها وحوالي عام ٧٨٢ اصدر شارلمان مرسوما اعطى بموجبه الخيار للسكسونيين بين المسيحية والموت وفرض عليهم عقوبة الموت لاى تجاوز على الكنيسة بأى شكل من الاشكال وخضع السكسون لهذه القسوة ، ولكن الاساقفة بقوا لمدة طويلة يشكون من ميل الناس في سكسونيا الى الوثنية والى عبادة الهتهم القديمة . على اية حال ، ادت هذه السياسة القاسية الى جر السكسون والى دمجهم في العالم الاوربي . كما ادى توسع الفرنجة في سكسونيا الى وضعهم الى جوار السلاف .

وباحتلال اراضي اللمباردين والبافاريين والسكسون ، اتم شارلمان العمل الذي بدأه كلوفس ، فقد ضمت جميع الشعوب الجرمانية الى مملكة الفرنجة ولم يبق خارجا عنها سوى الانكليز والسكسون في الجزر البريطانية ، والشعوب الاسكندنافية (١٨).

وفيما وراء حدود الاراضي التي كان يقطنها السكسون والبافاريون واللمبارديون انطلقت جيوش شارلمان لتقيم " الماركات " أو ولايات الحدود . وهذه الماركات كانت في الواقع نقاط حماية ودفاع في وجه الشعوب الاخرى المجاورة لمملكة الفرنجة في حدودها الجديدة وكانت في الوقت نفسه نقاط انطلاق وتغلغل في اراضي تلك الشعوب . ومن هذه الماركات المارك الداني وهو اصغر الماركات التي اقامها شارلمان وهو عبارة عن برزخ يفصل بين السكسون وبلاد الدانيين اقيم لمنع هؤلاء من تقديم المساعدة الى السكسون خلال صراع هؤلاء المرير مع الفرنجة ومن هذا المارك الداني اشتق اسم الدانمرك . واقا... ماركا آخر شرق سكسونيا حيث السلاف وجه...

مركزه مجد برغ (Magdberg) وسمي هذا بالمارك القديم .

واستمر تقدم الفرنجة شرقا بعد فتح بافاريا ، حتى بلغوا حدود هنغاريا الحالية . حيث شعب الافار . ولحماية بافاريا وايطاليا من هجمات الافار ، أقام شارلمان المارك الشرقي في ادنى الراين . وكما ذكرنا ان الغرض من جميع هذه الماركات لم يكن دفاعيا فحسب ، بل كانت كلها مراكز انطلاق للفتح والاستعمار . وكانت هذه نقطة البداية لحركة التوسع الجرمانية جهة الشرق

وباقامة المارك الاسباني في الجنوب والمارك البريتاني في الغرب اتم شارلمان سلسلة الماركات حول امبراطوريته الواسعة . لقد حققت مملكة الفرنجة توسعا في كل الجهات . وكانت تحتاج الى حماية خاصة من المسلمين . فعبرت جيوش شارلمان جبال البرنس ولكن حملته الاولى انتهت بكارثة رونسفو تركت اثارها في (١٩) الادب الشعبي ، حيث نظمت في تمجيدها عدة ملاحم من اشهرها ملحمة رولاند .

٧ - شارلمان يتوج امبراطورا

لم تحقق اية شخصية في اوربا من انجازات بقدر ما حققه شارلمان منذ عهد اوغسطس فقد ضمت امبراطورية الشعوب الجرمانية كلها تقريبا وامتدت حدودها فشملت اقطارا كثيرة بل انها صارت اوسع من القسم الغربي للامبراطورية الرومانية حتى عندما كانت في اوج – عظمتها واتساعها . وكانت علاقته مع الكنيسة جيدة للغاية بل ان البابوية لم تنكر على شارلمان سيادته وحمايته لها . وفي عام ٧٩٩ كان وضع البابا ليو الثالث حرجا ودقيقا للغاية نتيجة تمرد اقطاب الكنيسة في روما عليه واتهامهم اياه بسوء الخلق والفساد . ولجأ البابا الى شارلمان طالبا العون والتأييد . وقام شارلمان بزيارة روما . وفي يوم الاحتفال بعيد الميلاد عام ٨٠٠ وفي كنيسة القديس بطرس ، وبينما كان شارلمان راكعاً امام المذبح ويحاول النهوض تقدم منه البابا ووضع التاج على رأسه ودعا له بالنصر والتوفيق كامبراطور للرومان (
ويقال ان شارلمان نفسه فوجئ بهذا الشئ / بل ان مؤرخه اينهارت كتب يقول لو ان

وبين حنهم ميخائيل الاول التي تعد لقبه شارلمان تمنحه امبراطورا ومنكى ولايات (Vicors) وكان هذه النظام الاداري موجودا منذ عهد [illegible]

وجه توضيح الى ما كان عليه في [illegible] الامبراطورية الرومانية بل الى هوبكنه صار لان اكثر تنظيما (٢٥) فالكونتية هي الوحدة الادارية الرئيسة وتنقسم

عن وجه التحديد عندما توفي ثيودوسيوس وكانت هناك امبراطورية واحدة وامبراطوريتان كل واحدة منها الى وحدات ادارية اصغر منها تعرف بالمئة ومجموعها المئات (فيكاريز)

ولعل هذا يوضح مفهوم الامبراطورية السائد في الشرق والغرب في القرن التاسع الماركات او ولايات الحدود والتي سبق الكلام عنها فقد عين لها موظفون خاصون

كما يوضح ايضا ان روما لم تفقد اسمها السحري . ولا تزال تمثل الكيان السياسي من الحكام العسكريين يسمى احدهم كونت المارك The Conrt of the March

الثاني الذي يضم العالم المسيحي برمته او في الاقل العالم المسيحي الغربي . ولعل هو ما يعرف بالفرنسية بالماركيز ومساحة المارك الواحد اوسع عادة من مساحة

هو المغزى المهم لتتويج شارلمان امبراطورا . (٢٣) كونتية ووجبات كونت المارك اكثر من واجبات الكونت ، فان عليه بالاضافة الى

لقد كان لشارلمان مفهوم ثيوقراطي واضح للدولة . انها دولة تستند حكم واجبات الكونت الاعتيادية مهمة الدفاع عن الحدود .

الى سنة سماوية وتسترشد قيادتها بالهام من الله انه الممثل المختار لله لتحقيق اهداف وكان يشغل وظيفة الكونت شخص من المنطقة نفسها التي هي في عهدته ومن

الهية ؛ وان تتويجه من قبل البابا يضفي على منصبه الطابع المقدس . وفي قوانينه اسرة ذات نفوذ . وهي وظيفة قد تتحول الى منصب وراثي . كانت لدى شارلمان مخاوف

يفرق شارلمان بين القوانين الدينية والدنيوية فهذه كلها امور حكومية . ان الملك ثمة من ان يصبح الكونتات مستقلين بكونتياتهم ؛ ولهذا حاول ابقاء نوع من

الحاكم المسؤول عن حكم جميع المسيحيين . انه المسؤول عن كل شأن من شؤون السيطرة عليهم . ورأى ان خير وسيلة لذلك هو التفتيش المستمر والاشراف المتواصل

الدنيوية والدينية . وهو مشرع لهم في كل الامور دون استثناء فهو أملى على البابا كل الكونتات فاوجد نظاما خاصا واشخاصا خاصين هم المبعوثون الملكيون (Missus

امر من الامور الدينية والدنيوية ، بل انه املى عليه امورا هي في صميم العقيدة الكاثوليكية dominicus) للقيام بهذه المهمة . وقسمت المملكة بموجب هذا النظام

واملى على الاساقفة والقسس ما يقدمونه من مواعظ . بل املى على المنشدين المرتلين مناطق كل منطقة تضم عددا من الكونتيات مسؤول عنها مبعوث ملكي وعادة

في الكنيسة ينشدون (٢٤) . ولقد كان مؤمنا بضرورة ابعاد رجال الدين ابعادا مبعوثان احدهما مدني خاص بالاشراف على الشؤون المدنية والاخر ديني خاص

تاما عن مجال القضايا الدنيوية والسياسية . مع مراعاة ضمان احتياجات الكنيسة . بالاشراف على الشؤون الدينية انهما حلقة وصل بين الملك وشعبه . فهما يقومان

جعل دفع العشور لها امرا اجباريا . [illegible] بزيارة الكونتيات فيقدمون التقارير عنها الى الملك حول كل الامور الدينية والدنيوية

[illegible]د اصدر شارلمان قانونا خاصا عام ٨٠٢ لتنظيم امر المبعوثين الملكيين . وكان هذا

٨ - الادارة في عهد شارلمان

[illegible]انون يحتوي على تفاصيل كثيرة تخص واجبات المبعوثين الملكيين وصلاحياتهم .

[illegible]ي واسعة وشاملة . والواقع انه في حالة وجود حكومة مركزية قوية ومبعوث ملكي

بقي الموظفون المعينون من قبل الملك يمثلونه في مناطق تعيينهم وكانوا عادله وكفوء يؤدي نظام المبعوثين الملكيين خدمة كبيرة ومفيدة . ولكن في حالة فقدان

يشغلون وظائفهم مدى الحياة ومضى الكونتات يتمتعون في كونتياتهم بصلاحيات عسكرية ومالية وقضائية واسعة . ونظام الكونتات هذا طبق في ايطاليا وبافاريا او تلك فلن يحقق النظام الهدف المنشود منه .

وسكسونيا [illegible] وظيفة الدوق والتي تمثل المصالح القبلية فقد الغيت . وكذلك الحال وهكذا اوجد شارلمان وظيفتين جديدتين هما وظيفة كونت المارك ووظيفة

بالنسبة الى وظيفة رئيس [illegible] البلاط . وفي الكونتية كان هناك مساعدين للكونت [illegible] المبعوث الملكي . وكان شارلمان دائب الحركة والتنقل بين اجزاء مملكته الواسعة . وقد

يصعب الحديث عن عاصمة معينة له . وان كان هو يفضل اكس لاشابل – آخن التي كانت تقع في قلب امبراطوريته والتي كان يفضلها لموقعها وربيعها الجميل والدافئ (٢٦) .

في الوقت الذي جاء فيه شارلمان الى الحكم كان نظام الضرائب الروماني قد زال برمته . فلم يعد الشخص الحر يدفع ضريبة للدولة ، بل استعيض عنها بالخدمات التي يؤديها . ومن تلك الخدمات ضيافة الملك ورجال بلاطه حيث كان هؤلاء في حركة مستمرة وتنقل دائم . وكذلك ضيافة موظفي الحكومة اثناء مرورهم وتنقلاتهم . وكان يفرض العمل الالزامي في حالات الاشغال ذات النفع العام . و اهم واجبات الشخص الحر هي تلك الخاصة بالقضاء والخدمة العسكرية . فقد يحتم على كل فرد من الفرنجة حضور المحكمة التي يدعو اليها الكونت او بديله اليها من يمثله . كما كان ملزما بالحضور اذا ما دعاه الكونت للقيام بالخدمة العسكرية بعد ان يسلح نفسه تسليحاً كاملا . وكانت حروب شارلمان المستمرة وساحات القتال النائية قد تطلبت اعدادا كبيرة من المجندين ، وكان لهذا اثاره المدمرة على الاحرار صغار المزارعين . وهذا يفسر قيام عدد كبير منهم ممن كانوا علـــى شفـ الكفاف من التنازل عن حرياتهم ليصبحوا في عداد العبيد موكلين واجباتهم القضا والعسكرية الى الآخرين الذين كانوا في وضع احسن وقدرة اكبر للقيام بتلك الواجبات

• وحاول شارلمان التخفيف من وطأة هذه الحالة فقرر عدم عقد المحكمة للجرائم الكبيرة . وحدد عدد مرات عقدها بثلاث مرات فقط في العام . اما تلـــ المحاكمات التي تعقد للنظر في القضايا الصغرى فقد اعفي الاحرار من حضورها (٢٧) .

وبالنسبة الى الخدمة العسكرية فقد قرر شارلمان بان تكون دعوة الرجال الاحرار اليها تقوم على اساس الحاجة المحلية وليس على اساس حاجة الامبراطورية العامة وجعل الخدمة العسكرية تتناسب مع مقدار الملكية . فهؤلاء الذين يملكون مساحة معينة من الاراضي كانوا ملزمين بالحضور متى يستدعون وهم مسلحون تسليحاً كاملا . اما اولئك الاحرار الذين يملكون اقل ... او لا يملكون شيئا علـــى

الاطلاق فيتعاونون فيما بينهم وكل مجموعة منهم تساهم في تسليح واحد منهم فقط لاداء الخدمة العسكرية على اساس مساحة معينة من الارض يقابلها رجل مسلح واحد لكن هذا الاجراء بحد ذاته ، قد جاء للتخفيف عن كاهل الرجال الاحرار الاعتياديين واعفائهم من المساهمة في الشؤون السياسية والعسكرية وتشجيعهم على التخلي عـــن وظائفهم الى من هم اكثر ثراء منهم من الملاكين . كان في الواقع نقطة تحول لعدد كبير من الاحرار الى صنف العبيد . فمنزلة الرجل الذي ليس له موضع قدم في المحكمة ولا يحارب ، لا يختلف كثيرا عن منزلة العبد . وفي الوقت نفسه ساعد هذا الاجراء كثيرا في بروز الطبقة النبيلة المحاربة والى جانبها طبقة الفلاحين العبيد (٢٨) .

– لويس التقي (٨١٤ – ٨٤٠) :

توفي شارلمان في ٢٨ كانون الثاني عام ٨١٤ وآلت مملكته الواسعة الـــى لويس التقي وهو الابن الوحيد الذي كان قد بقي له على قيد الحياة . وسبق لشارلمان ان عقد مجلسا من كبار نبلاء مملكته في اكس لاشابل عام ٨١٣ توج فيه بيده ابنه لويس ملكا وامبراطورا دون تدخل من البابا ودون حاجة الى مصادقتــه .

كانت المملكة عند وفاة شارلمان تتمتع بالسلام ، فلم يكن هناك تهديد خارجي ولا بهجوم محتمل ، ولا تمرد كبير . لقد كان خليفة شارلمان لويس التقي ذا ثقافة لاتينية ودينية ، ولعل هذا هو الذي دفع الى اعطائه لقب التقي . والواقع انه لم يكـــن ...نيا بقدر ما كان ضعيفا ومتخاذلا ومترددا . ولم يستطع لويس ابدا ملء الفراغ الـــذي تركه ابوه القدير المتمكن . وكان لشخصيته الضعيفة اثرها في تفكك الامبراطوريـــة الكارولنجية . فقد شجع ذلك الضعف كثيرا من العناصر على التمرد . فقد ثار عليـــه ابناؤه الطموحون واقرباؤه الذين طمع كل واحد منهم في اقتطاع ما يمكن له اقتطاعه من تلك الامبراطورية الواسعة . كما دفع النبلاء في طول البلاد وعرضها الى التجاوز على اختصاصات وصلاحيات السلطة المركزية (٢٩) . وكان هذا عاملا مهما في انحلال الامبراطورية وفي تبلور نظام الاقطاع . وفي عهد لويس التقي ايضا ازدادت سلطـــة

البابوية واخذت في ادعاء حقوق اكثر واكثر وفي ممارسة سلطات دينية ودنيوية اوسع واوسع .

ومنذ البداية واجهت لويس التقي مشكلة اساسية هي مسألة وراثة الامبراطورية فقد كان له ثلاثة ابناء هم : لوثر ولويس الالماني وبيبن ، ويفترض تقسيم الامبراطورية بين هؤلاء الابناء الثلاثة طبقا لتقاليد الفرنجة . ولكن الشيء الجديد في الامر ، هو ان التقسيم يتنافى تماما مع مفهوم الامبراطورية ، فالسلطة الامبراطورية بطبيعتها غير قابلة للتجزئة . وهي واحدة كالسلطة البابوية تماما .

واخيرا قرر لويس الابقاء على المظهر الامبراطوري لمملكته دون التفريط نهائيا بالعرف والتقاليد الجرمانية الخاصة بالتقسيم المتساوي بين الابناء . ففي عام ٨١٧ عين ابنه الاكبر لوثر وصيا على ان يرث لقب الامبراطور من بعده .

وفي الوقت نفسه اعطى بيبن اوكتين واعطى لويس الالماني بافاريا . وقد يكون هناك قليل من الشك في ان لويس قام بهذا الاجراء بعد التشاور مع البابا . ولم ترض هذه التسوية الاخوين لويس الالماني وبيبن فقد اعتبراها مجحفة بحقوقهما (٣٠) . واخذا يتربصان بأبيهما واخيهما لوثر للانتقام منهما . وسرعان ما جاءت الفرصة وتهيأت لهما الظروف لذلك .

فقد تزوج لويس التقي عام ٨١٩ من يوديث الفتاة الجميلة الذكية الطموح وسرعان ما وقع تحت تأثيرها . وفي عام ٨٢٣ رزق منها بولد سمي (شارل الاصلع) واخذت يوديث تحيك الدسائس وتضغط على زوجها لحمله على اعادة النظر في قسمته السابقة كما تعاونت مع ولديه الساخطين لويس الالماني وبيبن . وخضع لويس التقي لضغط زوجته وانتزع من ابنه الاكبر لوثر لقب الوصي وانكر عليه وراثة لقب الامبراطور . وعبر لوثر جبال الالب وذهب الى روما ليعرض ظلامته وشكواه امام الاب المقدس ابيه واخوته . واعاد لويس التقي التقسيم وخص ابنه شارل الاصلع هذه المرة بحصة الاسد من مملكته ، الامر الذي اثار بقية اولاده جميعا – لوثر ولويس الالماني وبيبن – واتفقوا على محاربة ابيهم وساروا اليه عام ٨٣٣ وجاء بصحبتهم البابا غريغوري الرابع [illegible] الاخوان الثلاثة انتصاراً حاسما على ابيهم [illegible] واقع انه

كان نصرا للبابا الذي كان يشد ازرهم . فباسم السلام الالهي ادعى البابا الحق في التدخل لاعادة حقوق لوثر والحفاظ على مصالح اخويه لويس الالماني وبيبن . كما وبخ الامبراطور لما اسند اليه من جرائم ومخالفات ونكث للعهد . (٣١)

لقد كانت حقا هزيمة للامبراطورية ونصرا للبابا والبابوية ، ولم ترضى التسوية جميع الاطراف المعنية . واستمر الصراع بين لويس التقي وابنائه الاربعة . ولم يضع موت بيبن عام ٨٣٨ ولا موت الامبراطور نفسه عام ٨٤٠ حدا للصراع . واخيرا وفي عام ٨٤٣ ، وبعد ان استنفذت قوة جميع الاطراف ، وضعت التسوية النهائية لاقتسام الامبراطورية الكارولنجية في معاهدة فردان المهمة .

معاهدة فردان عام ٨٤٣ :

قسمت الامبراطورية الكارولنجية بموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ بين ابناء لويس التقي الثلاثة : لوثر ، ولويس الالماني ، وشارل الاصلع . وتعتبر معاهدة فردان من اهم المعاهدات في التاريخ الاوربي ، فقد رسمت معالم اكثر من قطر من اقطار اوربا (٣٢) .

واخذ لوثر بموجب المعاهدة شريطا من الارض يمتد من هولندة الحالية الى ايطاليا ويشمل حوض الراين وايطاليا وسميت المنطقة كلها باسمه لوثارنجيا (Lotharingia) واحتفظ بلقب الامبراطور . واخذ شارل الاصلع بلاد الفرنجة الغربية (West Frankland) وهي مقاربة لفرنسا وبلجيكا الحاليتين . اما لويس الالماني فقد اخذ بلاد الفرنجة الشرقية (East Frankland) وهي مقاربة لالمانيا الحالية . لقد انهت معاهدة فردان الامبراطورية الكارولنجية وصارت هناك وحدات سياسية متميزة . ان خارطة اوربا من غير شك قد وضعت خطوطها العريضة في معاهدة فردان .

الامبراطورية بعد فردان :

انهت معاهدة فردان من الناحية العملية الامبراطورية ولم يبق الا وجودها ،

النظري . لقد كان للوتر نوع من السيادة غير الواضحة المعالم على اخويه شارل ولويس ولكن من الناحية العملية ، لم يعد حامل لقب الامبراطور يحكم سوى ثلث الامبراطورية التي كان يحكمها شارلمان .

وتردى وضع الامبراطورية كثيرا بعد وفاة لوثر عام ٨٥٥ . فقد كان له ثلاثة ابناء فاقتسموا مملكته بينهم ، واخذ الاكبر منهم لويس الثاني ايطاليا مع اللقب الامبراطوري . واذا كان ابوه يملك من القوة والنفوذ بقدر ما كان لكل من اخويه لويس الالماني وشارل الاصلع ، فان لويس الثاني حامل اللقب الامبراطورى الجديد لم يكن الا ملكا من الدرجة الثانية بالنسبة الى عميه . وهكذا ظهر البون الشاسع بين واقع الامبراطورية من ناحية ومفهومها النظرى من الناحية الثانية . وقد يلخص الامر بانه كان هناك امبراطور ولم تكن له امبراطورية (٣٣) .

وانحطاط مركز الامبراطور وتلاشي قوته كان يقابله من الجهة الاخرى ازدياد قوة البابا وامتداد نفوذه . وكان هناك توازن في القوى بين البابوية والامبراطورية ، أو بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية بشكل عام ، وان ما يخسره احدهما يربحه الآخر لقد فرض غريغوري الرابع تمسه على لويس التقي وابنائه . وفرض نقولا الاول ٨٥٨ - ٨٦٧ نفوذه على الامبراطور لويس الثاني . وهكذا انتهى ذلك التحالف بين البابوية والملكيتان الميروفنجية والكارلنجية وحلت محله سيطرة بابوية .

فالبابا بما يدعيه من اصول سماوية لسلطانه اعتبر نفسه الآن هو الحكم الفصل وهو الموجه والمرشد للحكام الدنيويين سواء كانوا ملوكا ام اباطرة . وان اى اعتراض على سلطته ، انما هي اعتراض على السلطة الالهية ، يستحق صاحبها العقاب . وكان الحرم الكنسي (او الحرمان) والتهديد بالحرم السلاح الماضي للبابوات ضد كل ملحد وجاحد ومتمرد من ملوك وامراء واباطرة .

وذهب البابا نيقولا الاول ابعد من تلك الحدود عندما اراد فرض سيطرته على الكنيسة الشرقية واعلن الحرم ضد بطريق القسطنطينية ، الامر الذي ادى الى زيادة التوتر بين الكنيستين الشرقية والغربية .



وأتاحت وفاة لويس الثاني عام ٨٧٥ فرصة اخرى للبابوية لاظهار سيادتها على الامبراطورية ولتاكيد نظريتها القائلة بان الامبراطورية تستند في وجودها الى البابوية وليس الى الاسرة الكارولنجية . اذ لم يكن للويس الثاني ولد يرث العرش واللقب الامبراطوري من بعده . وكان اقرب الورثة اليه من الذكور كارلمان ابن عمه لويس الالماني ، وقد اختاره فعلا ليكون وريثه . ولكن البابا جون الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢) ارتأى غير ذلك ، فقد استدعى شارل الاصلع العم الى روما وتوجه امبراطورا .

والواقع ان شارل الاصلع هو آخر من حمل لقب الامبراطور من الكارولنجيين وكان يتمتع بشئ من السلطة والهيبة (٣٤) .

على اية حال لم تستفد البابوية ، على المدى البعيد ، من انهيار سلطة الكارولنجيين فان ازدياد قوة النبلاء الاقطاعيين في اواخر القرن التاسع ، وهجمات الشماليين والمسلمين والهنغاريين والبلغار وضعف السلطة المركزية والحروب الداخلية والمنافسات والمؤمرات التي سادت علاقات النبلاء والامراء كل هذه الامور تركت البابا والاباطرة الذين يختارهم لاحول لهم ولا قوة . بل ان تلك السلطة التي كان يدعيها البابوات وهي حقهم في تتويج الاباطرة صارت وبالا عليهم . فكم من ملك وامير ونبيل طموح شق طريقه الى روما في وسط تلك الفوضى الضاربة اطنابها في اوربا ، لارغام البابا على منحه اللقب الامبراطوري الرفيع ، وتتويجه بالتاج الامبراطوري الكبير ولم يكن بوسع خليفة القديس بطرس الا ان يذعن وينفذ ما يطلب اليه (٣٥) .

١٢- عوامل انهيار الامبراطورية الكارولنجية :

يقول هنري برين المختص بتاريخ العصور الوسطى ، انه على الرغم من سعة شارلمان ومكانته يجب على المرء الا يبالغ في اهمية انجازاته السياسية وتماسكها وصلابتها . فالامبراطورية التي خلفها لم تكن الا بناء هشا ، سرعان ما تفكك . ولم يمض على وفاته الا وقت قصير . ويرى برين ان عوامل انحلال الامبراطورية

الكارولنجية هي في داخلية اساسها ، تابعة من طبيعة تركيبها . (٣٦)

ويفسر كرستوفر دوسن ، وهو مختص آخر في العصور الوسطى ، تلك العوامل الداخلية ، فيقول : ان بذور الفساد والانحلال تولدت في الامبراطورية الكارولنجية ز صميم اصولها الاولى . فعلى الرغم مـن مظاهر القوة ، فانها كانت بناء غير متجانس الاجزاء وهي وان ادعت لنفسها وراثة الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكن في الحقيقة لم تكن الا مملكة جرمانية وليس شيئا آخر . فالامبراطورية الكارولنجية كانت في الواقع قليلة الشبه بالامبراطورية الرومانيـة القديمة ، على الرغم من اسمها ، بل ، انها كانت اقرب الى الامبراطوريات البربرية التي اقامها الهون والافار والمغول . وهي الامبراطوريات التي كانت ثمارا عابرة من اعمال الحرب والغزو ، والاستيلاء ، والتي تعاقبت واحدة بعد اخرى على تخوم العالم المتحضر ، ثم ذهبت في سرعة مذهلة خلال تلك القرون (٣٧) .

والواقع ان الامبراطورية الكارولنجية التي اراد لها اصحابها ان تكون وريثـة للامبراطورية الرومانية القديمة كان يعوزها كل صفات الامبراطورية القديمـة فليس لها القانون الروماني ولا الكتائب الرومانية ولا السانتو الروماني ولا المدن الرومانية بل لم تكن سوى كتلة من مساحات اقليمية شاسعة .

اما موظفوا هذه الامبراطورية الجديدة فلم يكونوا موظفين مدنيين مؤهلين للحكم والادارة بل كانوا كونتات وقادة عسكريين قبليين وشبه قبليين .

لقد كان اولئك الكونتات ونظائرهم الاساقفة يكونون الطبقة الحاكمـة الارستقراطية الفعلية في المجتمع الكارولنجي . وكان عدد من هؤلاء يجتمعون بالملك مرتين في العام (في عيد الميلاد وفي عيد الفصح) يساعدوه في ادارة شؤون مملكته ولكن ذلك التجمع بقي ذا طابع بدائي قبلي ساذج من دون ان يتطور ويتحول الى مؤسسات سياسية وادارية واضحة المعالم دقيقة الاهداف . فلم تتوضح حتى النهاية ... واهداف ... وهناك امر واحد بقي واضحا ... طيلة عهود الميروفنجيين والكارولنجيين هو استمرار ازدياد نفوذ هذه الفئة الارستقراطية على حساب السلطة المركزية .

والواقع انه عندما اعتلى شارلمان العرش ، كانت هذه الطبقة الارستقراطية قد بلغت من القوة درجة اصبح من الصعب معها مقارعتها ، ولكن شخصية شارلمـان المهيبة وساعده القوى ابقى هذه الطبقة في مواقعها من دون السماح لها في تجاوز تلك المواقع . بل ان شارلمان حاول عن طريق المبعوثين الملكيين الحد من نفـوذ الارستقراطيين من كونتات واساقفة ، ولكن اولئك المبعوثين جاؤا من الطبقـة الارستقراطية نفسها ، وبدلا من ان يعمل النظام على الحد من نفوذ الطبقة الارستقراطية فانه زاد من نفوذها ، فقد كانت مصالح المبعوثين الملكيين متفقة مع مصالح الكونتات والاساقفة . على اية حال ، ان ازدياد نفوذ الطبقة الارستقراطية كان على حساب السلطة الملكية ، وكان هذا عاملا مهما في اضعاف الملكية الكارولنجية ، وفي تفككها فـي نهاية الامر (٣٨) .

والكارولنجيون جرمان ، وبقيت مثلهم ومفاهيمهم جرمانية في اساسها ، فشارلمان نفسه ، على سبيل المثال ، كان يرتدي الملابس الجرمانية ، ويحارب ويعمل كزعيم جرماني . فعلى هذا الاساس بقي المفهوم الروماني للوحدة والدولة والامبراطورية غريبا وغير مقبول بالنسبة لهم .

والواقع ان مفهوم الوحدة والامبراطورية لم يكن غير مستوعب من قبل الشعوب الجرمانية والنبلاء الجرمان فحسب ، بل كان غير مستوعب ايضا مـن قبل العائلـة المالكة الكارولنجية نفسها . وليس ادل على ذلك من استمرار الكارولنجيين حتـى نهاية عهدهم في اعتبار المملكة ملكا شخصيا للعاهل تقسم بالتساوي بين ابنائه عنـد وفاته كأية تركة اخرى . وكان للتقسيم المتتالي لمملكة الفرنجة منذ ... كلوفس وحتى نهاية القرن التاسع عاملا مهما في تأجج الحروب الاهلية وتهديد وحدتها للخطر وفي استنزاف مواردها . لقد اعقب كل تقسيم حربا اهلية مدمرة ولعل حروب لويس التقي واولاده مثل لذلك (٣٩) .

... هي العوامل الرئيسة التي عملت على تفكيك الامبراطورية الكارولنجيـة ... عوامل داخلية كما يتضح لنا ، والى جانبها ... ات الهجمات الخارجية المتمثلة

لتعجل عملية الانـ[illegible] في غزوات الشماليين والسلاف والمجرين والبلغار والمسلمين والتفكك .

العوامل الخارجيـــة :

كان القرنان اللذان اعقبا وفاة شارلمان احلك فترات التاريخ الاوربي ، حـ[illegible] انها سميتُ بالعصور المظلمةُ فقد سادت فيها الفوضى السياسية والتفكك الاجتما[illegible] والانحطاط الثقافي . وتعرضت اوربا خلالها لغزوات فاقت في ضراوتها الغزوات [illegible] قامت بها القبائل الجرمانية والهون في القرنين الرابع والخامس . فقد هاجم السـ[illegible] والهنغاريون والبلغار اوربا من الشرق ، وهاجمها العرب من الجنوب ، وهاجمهـ[illegible] الشماليون القايكنك (Vikings) من الشمال والغرب ، ولم يكـــن من هؤلاء المهاجمين يكن في نفسه شيئا من الاحترام والود للمؤسسات القائمـ[illegible] والمسيحية ، كما كان الامر بالنسبة الى القبائل الجرمانية عندما اكتسحـــت جحا[illegible] الامبراطورية الرومانية . (٤٠)

الشماليون القايكنك :

كانت هجمات الشماليين اعنف الهجمات التي تعرضت لها اوربا واكثـــ[illegible] تدميرا . والشماليون او القايكنك هم مجموعة شعوب شبه جزيرة اسكندنافية و[illegible] بحر البلطيق . وهم ينتمون الى العنصر التيتوني او العنصر الجرماني ، ولكنهـــ[illegible] يختلفون عن القبائل الجرمانية التي سبق الكلام عنها في امور كثيرة منها : ان القايكـ[illegible] احتفظوا بالطابع الجرماني البربري ، واحتفظوا بعاداتهم ونظمهم البدائية . وذلـ[illegible] بسبب عزلتهم عن العالم اللاتيني ، فلم تؤثر فيهم الحضارة الرومانية . كما انهـــم [illegible] يعتنقوا المسيحية وبقوا على دياناتهم الوثنية . واثرت فيهم [illegible] بلادهم القاسية فجعـ[illegible] منهم محاربين اشداء ، ودفعت بهم الى البحر ليكونوا بحارة وتجارا مهرة وقرا[illegible] خطريـــن .

بدأت غارات القايكنك على اوربا في اواخر القرن الثامن ، واتخذت شكـــلا خطيرا في القرن التاسع . ولعل الزيادة الكبيرة في السكان جعلت بلادهم الفقيرة تضيق بهم وتعجز في اعالتهم ، فلم يكن لهم من مخرج سوى الاندفاع الى الخارج لغزو ونهب الشعوب المجاورة . ولعل ضعف هذه الشعوب وارتباك احوالها من ناحيـــة . وجسامة الغنائم التي كان القايكنك يتوقعون الحصول عليها من ناحية اخرى هي التي شجعتهم على الاندفاع والغزو . يضاف الى ذلك القسوة التي عاملتهم بها القوات الغازية المسيحية ، والبعثات التبشيرية التي كانت تسندها القوة الحربية .

وقد توجه السويديون في اندفاعهم الى سهول روسيا الحالية ، في حيـــن اتجـــه النرويجيون والدانيون الى اوربا الغربية . وبينما اهتم السويديون بالتجارة . كـــان السلب والنهب رائد النرويجيين والدانيين الرئيس . وبنى السويديون محطات تجاريـــة مهمة بين منابع الفولجا والدنيبر . واتخذوا من هذين النهرين طريقا للتنقل والتجارة . ووصلوا شواطئ بحر قزوين والبحر الاسود . وعرف السويديون هنا باسم (الروس Rus) وهو اسم كان يطلقه الفلنديون على القايكنك . وسيطر السويديون علـى طرق التجارة بين بحر البلطيق والبحر الاسود ، وكانت روسيا في هذا الوقت عبـارة عن مجموعة من الدويلات السلافية خضعت الواحدة بعد الاخرى الى سيطرة السويديين وصار احد رؤساء السويديين المسمى (روك) (Rurik) امير على(نوفكورود) (Norgorod) سنة ٨٦٢ واسس احد اقربائه (كيف) (Kiev) على نهر الدنيبر . وقدر لكيف ان تصبح الدولة الروسية الرئيسية خلال العصور الوسطى .

اما النرويجيون والدانيون فقد هاجموا الجزر البريطانية وسواحل القارة الاوربية على المحيط الاطلسي . واعتاد القايكنك القيام بهجمات سنوية ، حتى قبل نهايـــة القرن الثامن ، وفي القرن التاسع هاجموا كل جزء من اجزاء ايرلندة وانكلترا . وقـــد حرقت المدن واحرقت الكنائس والاديرة والمدارس الارلندية والانكلوسكسونية في كل مكان واكتسحت تماما الممالك الانكليزية الثلاث : نورثمبريا Northumbria وشرق انكليا (East Anglia) ومارسيا (Marcia) ولم تنج المدن [illegible]

التخريب . وبعد سنين طويلة من القتال العنيف توصلُ الفرد العظيم (Alfred
the Great) ٨٧١ – ٩٠١ الى عقد اتفاق مع ملك الدانيين كاثروم (Guthr
um) اعطى بموجبه جميع نصف انكلترا الشمالي الشرقي الى الدانيين
واحتفظ الفرد بالقسم المتبقي من انكلترا . وقد عرف ذلك القسم الذي اعطى ال
الى الدانيين باسمُ دانلو (Dan elaw) ، وفي خلال القرن التا
استرجع السكسون هذا الجزء من بلادهم وانصهر الدانيون بسكان البلاد .

ولم تكن القارة الاوربية باحسن حال من انكلترا وارلندة . فقد تعرضت ال
الفرنسية وسواحل اسبانيا على البحر الابيض وايطاليا الى غارات الشماليين وانخ
هؤلاء من مجاري الانهر طرقا توصلهم الى داخل البلاد .

ولعل من اهم الهجمات التي قام بها الشماليون ، حصارهم لباريس س
٨٨٥ – ٨٨٦ حيث دافع كونت اودو (Count Odo) دفاعا مجيدا عن
واستطاع تخليصها منهم . وعلى الرغم من هذا النجاح ، فقد اضطر ملك فرن
شارل السمينُ الى مهادنتهم ودفع الجزية لهم . وتوصلُ شارل البسيط الى عق
اتفاق مع زعيم الشماليين (رولـــو) وعقد معه معاهدة سنت كالير (Clair
سنة ٩١١ . وسمح للشماليين بموجب هذه المعاهدة الاحتفاظ بساحل فرنسا ال
بين الاراضي المنخفضة وبريتاني وقد عرف هذا القسم باسمُ نورمانــــــــ
(Normandy) واعتنق رولو مقابل هذا المسيحية واصبح تابعا لشارل ملك
ولعبت نورمانديا دورا هاما في تاريخ انكلترا وفرنسا ومنها انطلق دوقها ولي
النورماندي لغزو انكلترا عام ١٠٦٦ .

السلاف والبلغار والمجريون : (٤١)

قام السلاف بمهاجمة مملكة الفرنجة الشرقية ، وكانوا يمثلون خطرا كب
الامبراطورية الكارولنجية . واستطاع الفرنجة بشيء كثير من الصعوبة مقاوم
الدويلات السلافية البدائية في بولندة ومورافيا وبوهيميا وسرعان ما تعرض الجن
السلاف معا الى موجة جديدة من ... قام بها شعوب اسيوية هم البلغار والمجري

والبلغار شعب اسيوي ، وهم اقرباء الهون اكتسحوا شبه جزيرة البلقان فـــي
منتصف القرن التاسع واحتلوا القسطنطينية لفترة قصيرة . وتأثر البلغار بجيرانهـــم
البيزنطيين بسرعة . واخذوا بالثقافة البيزنطية واعتنق ملكهم بورس الاول (Boris)
الديانة المسيحية على مذهب الكنيسة الشرقية عام ٨٧١ . واتخذ ملكهم كاسم لقـــب
قيصر (Caesar) البيزنطي . اما لغتهم فقد تحولت تدريجيا الـــى
اللغة السلافية .

والمجريون شعب اسيوي ايضا ، من اصول تركية ، اكتسحوا في النصف الثاني
من القرن التاسع الافار واحتلوا مورافيا وعملوا على فصل سلاف البلقان في الجنـــوب
عن اقربائهم سلاف الشمال في بوهيميا ومورافيا وبولندة ، الامر الذي له ابلغ الاثر
في فصم عرى الوحدة السلافية . وبث المجريون الرعب في قلوب الناس في مملكة
الفرنجة الشرقية وايطاليا ، وواصلوا توغلهم نحو الغرب حتى وصلوا الى اللوريـــن
وبرغنديا . واستطاع اوتو الاول ، دحرهم عام ٩٥٥ وان يوقف زحفهم مما اضطرهم
الى الاستقرار ، وتأسيس دولة مستقرة ، واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية في عهد ملكهم
ستيفن ، واندمج المجريون في الحياة الاوربية وتأثروا بالحياة الثقافية فيها .

العـــرب : (٤٢)

وهاجم العرب اوربا من ناحية الجنوب طوال القرنين التاسع والعاشر وكــانت
ايطاليا والجزر الايطالية في البحر الابيض المتوسط من بين الاهداف المباشـــرة
للهجمات العربية . فقد قام الاغالبة في شمال افريقيا بعدة حملات بحرية ضد ساحل
جنوب ايطاليا وصقلية وسردينيا وكورسيكا .

وقد اسس العرب لهم قواعد في نفس شبه الجزيرة الايطالية بين روما ونابلي .
وهاجموا روما نفسها عام ٨٤٣ . واضطر كثير من الامراء ، بل البابا نفسه ، الـــى
دفع الجزية للمسلمين . وبقي النفوذ العربي في جنوب ايطاليا الى ان جاء النورمانديون
وانهوا دولتهم في ايطاليا في القرن الحادي عشر .

(1) Peters, op. cit., pp 151–158.
(2) I bid.
(3) Thompson, op. cit., pp. 229–234.
(4) I bid.
(5) O.m. Dalton, The History of the Franks 2 vols 1927, Vol. 11, p. 302.

(6) Thompson, op. cit. p. 236.
(7) Dalton, op. cit., p. 310
(8) O' Sullivan, op. cit., p. 183.
(9) The Shorter Cambridge History Vol. I, pp. 300–303
(10) I bid.

(11) I bid.
(12) I bid.

(13) I bid, p 301
(14) Thompson, op. cit., p. 240.
(15) I bid.

(16) Ibid
(17) Ibid, pp. 241–242.
(18) Ibid,
(19) R.H.C. Davis, Atistory of Medieval Europe London, 1970. pp. 136–153.
(20) Pirenne op. cit., pp. 88–94.
(21) Ibid.

(24) Thompson, op. cit., p. 247.
(25) C.R.L. Feltcher, The Making of western Europe, 2 vols. London. 1912 Vol. 1, pp. 236–270.

(26) I bid.
(27) Thompson, op. cit., pp. 248–252.
(28) I bid.
(29) The Shorter Cambridge Medieval History Vol. 1, pp. 335–3–42.

(30) I bid.
(31) I bid.
(31) Robert Ergang, Emergence of the National State, New yerk: 1971, pp. 195–196.

(33) Pierenne, op. cit., pp. 114–120.
(34) I bid.
(35) Davis, Atlisory of Medieval Europe p. 154
(36) Pirenne, op. cit., p. 109.

(٣٧) دوسن ، نفس المصدر ، ص ص . ٣٢١ – ٣٢٥ .

(38) Thompson op. ci.t., pp. 248–252
(39) O. Sullivan, op. cit., pp. 384–388



نمو الدول الاوربية الرئيسية

بين القرن الحادي عشر واواخر القرن الخامس عشر

انكلترا :

١ . مقدمة : انكلترا قبل الفتح النورماندي .

٢ . الفتح النورماندى – وليم الفاتح

٣ . تطور الاجهزة الادارية والقضائية في القرن الثاني عشر .

هنري الاول ١١٠٠ – ١١٣٥ .

هنري الثاني ١١٥٤ – ١١٨٩ .

٤ . انكلترا في القرن الثالث عشر .

الطريق الى الماكنا كارتا .

٥ . الصراع بين جون الاول والبارونات .

٦ . استمرار الصراع في عهد هنري الثالث .

٧ . ادوارد الاول ١٢٧٢ – ١٣٠٧ .

٨ . تدهور المؤسسات الاقطاعية ونمو البرلمان .

٩ . انكلترا في اواخر القرن الخامس عشر

مقدمة : كان يسكن انكلترا قبل الغزو الروماني ، الذي حدث في القرن الاول قبل الميلاد ، اقوام تعرف بالكلتيين . ويعتقد ان اصول الكلتيين ترجع الى منطقة حوض البحر الابيض المتوسط . وقد جاءوا اليها عبر المانش . وكان قد حل الايبريون بالجزيرة قبل الكلت ، فلما جاءهم الكلت فرضوا عليهم لغتهم ونظمهم ثم انهضم الكلت انفسهم في الايبريين على مر العصور . ثم غزت الجيوش الرومانية انكلترا في القرن الاول قبل الميلاد . واحتفظ الرومان بنوع من السيطرة على البلاد الى اوائل القرن الخامس حيث اضطروا الى سحب حاميتهم منها نتيجة للاخطار المحدقة بالامبراطورية الرومانية ولغزو القبائل الجرمانية لايطاليا . ولم تتأثر انكلترا كثيرا بالحضارة الرومانية وذلك لبعدها عن المراكز الرئيسة لتلك الحضارة من جهة ، ولبدائية الشعوب التي كانت تقطنها من من جهة اخرى . وهاجمت القبائل الجرمانية البربرية ، وخاصة قبائل الانكلز والسكسون انكلترا بعد انسحاب الرومان منها ، وقد نجح هؤلاء في احتلالها وفي اقامة عدد من الممالك الصغيرة فيها ، كانت في حالة حرب مستمرة مع بعضها البعض . وخلال تلك العصور من الفوضى السياسية نجحت الديانة المسيحية في شق طريقها الى الجزر البريطانية . واستطاع القديس اوغسطين نشر المسيحية في اواخر القرن السادس . وقد عمت الكنائس والاديرة اجزاء من انكلترا وغيرها من الجزر البريطانية وقام رجال الدين من اساقفة وقس ورهبان في نشر الثقافة الرومانية وفي نشر نوع من التعليم .

واستمر الصراع بين الممالك الجرمانية الصغيرة مدة تزيد على قرنين وفي اوائل القرن السابع برزت سبع ممالك كبيرة متميزة هي كنت Kent في الجنوب الشرقي واسكس (Essex) وسسكس (Sussex) و ويسكس Wessex وكان هذه الممالك كلها من السكسون ونورثمبريا (Northumlria) ومرسيا (Mercia) وانجليا (Anglia) . وكان هذه الممالك الثلاث من الانكلز وفي اوائل القرن التاسع استطاعت احدى هذه الممالك السبع وهي ويسكس

الواقعة في اقصى الجنوب الغربي من انكلترا ، بسط سيطرتها على بقية الممالك ، فالأ

بذلك ، نوعاً من الوحدة السياسية في البلاد . وتعتبر هذه هي نقطة الانطـلاق لـ

التاريخ الانكليزي (٢)

وتعرضت انكلترا خلال القرنين التاسع والعاشر الى هجمات الفايكنك ، و
شملت هجماتهم مختلف اجزاء الجزر البريطانية فالحقوا الخراب والدمار فيها و
ويلز وايرلندة واسكوتلندة . واستطاع الملك الفريد العظيم ملك ويسكس
المقاومة فـــي
حرا ضد الغزاة . وبعد حروب طويلة توصل الى اتفاق معهم يقضي بتقسيم ال
الى قسمين اخذ هو احدهما ، واستولى الفايكنك على الاخر . ونجح خلفاء الفر
في استخلاص ذلك القسم الذي اخذه الفايكنك وبهذا توحدت انكلترا

وفي عهد الملك ادوارد المعترف Edward the Confessor اصبحت ا
كلها تحت سيطرة النبلاء الاقوياء . وعندما توفي ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ . ثـ
صراع حول العرش وهاجم احد قادة الفايكنك انكلترا من ناحية الشمال بحجـ
ادوارد وعده بالعرش من بعده كما اغار وليم دوق نورمانديا من الجنوب بـ
احقيته في ان يخلف ادوارد في الحكم وانتخب نبلاء البلاد هارولد كردوبـ
ملكا . وانتصر هارولد على المهاجمين الفايكنك ، وسار الى الجنوب لملاقات و
النورماندي عند بلدة هستنج Hastings ووقعت معركة عرفت بهـ
الاسم ، انتصر فيها الفرسان النورمان الذين كانوا يحاربون بالرماح والسيوف تساند
ثلة من رماة النبال على مشاة الانكليز الذين كانوا يحاربون بالطبرات والفؤوس و
هارولد نفسه في ساحة المعركة فتمت سيطرة وليم الفاتح

وتعتبر معركة هستنج من المعارك الفاصلة في التاريخ وذلك انها انهت ع
انكلترا وربطتها ربطا محكما بمجرى الاحداث السياسية في القارة الاوروبـ
وبالتيارات الثقافية والحضارية لتلك القارة . كما انها أخضعتها لحكم قوي
بشكل متميز وقد حقق ذلك الحكم خلاله ليس فقط تغيرا سياسيا واقتصاديا

واجتماعيا جذريا في الحياة الانكليزية وطور من المؤسسات والانظمة ما ان اصبحت انكلترا معها تسبق بقية الاقطار الاوروبية بمراحل كثيرة بعد ان كانت متخلفة عنها . كما ان تلك المؤسسات والمنظمات تمثل الجذور البعيدة للاجهزة السياسية والادارية للبلدان الناطقة باللغة الانكليزية في الوقت الحاضر .

وقبل الكلام عن الحكم النورماندي لانكلترا ، يحسن بنا اعطاء نبذة عـــن المؤسسات والاوضاع التي كانت سائدة فيها قبل ذلك ، اذ ان هؤلاء ابقوا على الكثير من تلك المؤسسات والاوضاع التي كانت سائدة في عهد الانكلو سكسون بعـد ان حوروها بالشكل الذي يتلائم مع مصالحهم من ناحية ويتمشى مـع الظروف والاحوال المتطورة من ناحية اخرى .

فانكلترا التي كان يحكمها ملوك ويسكس في القرن العاشر تتألف اداريا مـن اربع وثلاثين ولاية تسمى الواحدة منها شاير اوكاونتي (County) وقد وضعت كل واحدة منهـا تحت اشراف مشترك من اسقف (Bishop) ونبيل (ايرل) (Earl) وشرف ((Sheriff)) يمثل الاول الكنيسـة يمثل الثاني النبلاء ويمثل الثالث الملك والنبلاء . وكان في كل كاونتي محكمـة تسمى محكمة الكاونتي (County Court) ويحضر اصحاب الاراضـي جميعا إجتماعات هذه المحكمة . وهي هيئة قضائية بالدرجة الاولى مع قيامهـا بالاشراف على بعض الامور الادارية احيانا . اما القانون الذي كان يحكم به فهـو القانون الجرماني من حيث الاساس ذلك القانون الذي يستند على العرف والتقاليـد الموروثة . وكانت وسائل الاثبات بدائية وكانت المحاكمة بواسطة المحنة هـي السائدة (٣) وهذه المحاكم تنظر في جميع القضايا المدنية والجنائية الدينية والدنيوية . وتنقسم كل كاونتي الى وحدات اصغر منها تعرف بالمئات (hundreds) وكل مئة تقسم بدورها الى وحدات صغيرة تعرف بـ هايد (Hides) او قرية . . كل قرية تقرب مساحتها من ١٢٠ ايكر .

كانت المدن قليلة في انكلترا في عهد الانكلو سكسون ولعل اهمها لنـدن

[illegible] هذه ... في ... الامصار

وبيرك وبرستول . وهناك مدن اخرى اصغر من هذه ... ولكن الحياة كانت ريفية بحتة . وينقسم المجتمع في عهد الانكلوسكسون الى طبقات اجتماعية عديدة وهذا التقسيم مماثل بشكل عام ما كان سائدا بين الشعوب الجرمانية في القارة الاوربية . فكان هناك : المحاربون والفلاحون والعبيد .

وعندما جاء النورمنديون قسموا المجتمع الى طبقتين فقط هما الاحرار والعبيد (ا)

اما الجهاز الاداري والبلاط ، فكان بسيطا جدا ، ويشبه الى حد كبير الملكية عند الكارولنجيين . اذ يتألف من بضعة موظفين منهم رئيس الخدم والمسؤول عن الاسطبل والحاجب وبعض المستشارين (Chancellers) .

وهناك مجلس كبير يضم مستشاري الملك وكبار نبلاء المملكة يعرف بـ (وايتان) وهو اكبر مجلس في البلاد ، يدعى من قبل الملك للتشاور . ولكن عضوية هذا المجلس ووظائفه كانت غامضة وغير محددة .

وتعتمد موارد الملك المالية على دخله من اراضيه الخاصة ومن الضريبة المعروفة باسم (الدانكل (Dangeld) . ومن الغرامات التي تفرضها المحاكم حيث يحصل الملك على ثلثي تلك الغرامات . ومن ضريبة تعرف بضريبة حق الطعام، وكانت هذه الضريبة تدفع عينا في عهد الانكلو سكسون ، ولكن النورمانديين حولوها الى ضريبة نقدية . (٥)

٢ . الفتح النورماندى – وليم الفاتح :

وبالنسبة الى وليم الفاتح نفسه فهو من الشخصيات المهمة في تاريخ العصر الوسطى وهو في الاساس تابع اقطاعي (Vassal) لملك فرنسا وذلك بعد حاكما لنورمانديا وقد ابقى وليم على الكثير مما خلفه الانكلوسكسون من ترتيبات رأى فيها تعزيزاً للسلطة الملكية ، وادخل ترتيبات اخرى تأكيدا لهذا الاتجاه . لقد وضع وليم نصب عينه هدفا مهما وهو تقوية السلطة الملكية على حساب نبلاء المملكة الدينيين منهم والدنيويين . لقد اعتبرت جميع القلاع في انكلترا منذ البداية قلاعا

ملكية ، ومنع بناء اية قلعة جديدة الا بموافقة الملك . ومنع وليم منعا باتا الحروب الخاصة . وهي تلك الحروب التي اعتاد ان يشنها النبلاء ضد بعضهم البعض واعتبر سك النقود من امتيازات الملك الخاصة لايجوز التجاوز عليها

اما الاقطاع الذي طبقه وليم في انكلترا فقد كان نموذجا لمفهوم الاقطاع في العصور الوسطى ، فبحق الفتح اعتبرت جميع اراضي انكلترا ملكا للملك ومن ثم بدأ بتوزيعها على كبار اعوانه او مايعرفون بالاتباع المباشرين (tencnt-in-Chief) وكان عددهم مائة وسبعين نبيلا .وقام هؤلاء الاتباع المباشرون بتوزيع مالهم من اراضي على اتباعهم وهكذا ، ولكن وليم الزم الجميع باداء يمين الولاء المباشر له دون سواه .وهذه سابقة وميزة تميزت بها الملكية في انكلترا عما سواها في الاقطار الاوربية الاخرى خلال العصور الوسطى .

وابقى وليم على ضريبة الدانكل والضرائب الاخرى التي كانت موجودة في عهد الانكلوسكسون كما ابقى على محاكم الولايات ولكنه زاد من سلطة الشرف ، فصار هذا موظفا حكوميا ممثلا الملك فقط وتحت اشرافه المباشر (٦)

وعلاقة وليم بالكنيسة لها هي الاخرى اهمية خاصة ، فقد منع الاخذ باي امر بابوي دون مصادقة الملك عليه ، كما منع تطبيق عقوبة الحرمان على اي موظف في انكلترا دون موافقة الملك والاكثر اهمية من هذا ان الكنيسة الانكليزية لا تعترف باي بابا دون مصادقة الملك .وعندما طلب غريغوري السابع حق السيادة البابوية على انكلترا ، رفض طلبه ، ولم يكتف وليم بتعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة فحسب ، بل انه رسم لهم واجباتهم الدينية والدنيويه .

واجرى وليم اصلاحات كثيرة في الكنيسة في انكلترا ، فقد فصلت المحاكم الدينية عن الدنيوية ، واكد الحفاظ على المستوى الخلقي الرفيع لرجال الدين . وشجع على الاكثار من عقد المجامع الدينية ، واكثر من بناء الكنائس والاديرة والكاتدرائيات .

ويبدو ان الكنيسة في انكلترا شهدت في عهد وليم الفاتح اصلاحات شاملة ، شأنها بذلك شأن الاجهزة الادارية والحكومية الاخرى (٧) .

وحل في عهد وليم مجلس الملك (Curia regis) محل الوايتان ، الانكلوسكسوني ومجلس الملك هذا هو مجلس اقطاعي يتألف من كبار

الاقطاعيين او الاتباع المباشرين للملك وكبار الموظفين . ويجتمع مجلس الم
ثلاث مرات في العام . ويمكن ان يدعى الى الاجتماع في اى وقت يشاؤه الملك
اجتماع طارى من هذا النوع في سالسبري عام ١٠٨٦ فرض وليم الاول على جـ
الحاضرين اداء يمين الولاء الاقطاعي له (٨) .

لقد كان مجلس الملك هذا يعمل كمجلس استشاري للملك في الوقت
كان يعالج امورا وقضايا خاصة بكبار الاقطاعيين او الاتباع المباشرين . وفـ
الحالة يصدر الحكم باسم المجلس وليس باسم الملك (٩) .

ولعل من اهم انجازات وليم الفاتح الاخرى قيامه باجراء مسح شامل لـ
لانكلترا البشرية والاقتصادية في كتاب دومزدي (Domesday book)
وهذا المسح الذي قام به وليم الفاتح هو الاساس للتنظيمات الادارية التي وضعـ
الملوك النورمانديون . والحقيقة انه مفخرة من مفاخر انكلترا في العصور الوسطى
جاء فيه تقدير لموارد البلاد المالية واحصاء لسكانها وما يملكون من اراضي زراعـ
وانتاج تلك الاراضي . وما لديهم من حيوانات . كما كان فيه تقدير لما كان يدفـ
الناس من ضرائب قبل مجيء النورمانديين وما كانوا يدفعونه بعد الفتح النورماندي .
المؤرخ أ . ل . راوس عن هذا الكتاب بانه اعظم سجل وصفي في اوربا في العصـ
الوسطى ، ولا سيما اذا اعتبرنا الظروف التي تم فيها ، ولما يمضي على فتح انكلـ
سوى عشرين سنة . واعتبرنا ايضا مبلغ ما فيه من دقة وتفصيل .

س - تطور الاجهزة الادارية والقضائية في القرن الثاني عشر .

توفي وليم الفاتح عام ١٠٨٧ وخلفه ابنه الاكبر روبرت في حكم نورماند
وابنه الاصغر وليم الثاني في حكم انكلترا . وقد حكم الاخير ثلاث عشرة سنة وتمـ
حكمه بالقسوة وسوء المعاملة للنبلاء ورجال الكنيسة . وقتل بطريقة
يكتنفها الغموض وخلفه اخوه الصغير هنري الاول .

أ - هنري الاول (١١٠٠ - ١١٣٥) .

وفي عهد الملك هنري الاول ، خطا النظام الاداري والقضائي خطوات مهمـ

نحو الامام . فقد ازدادت اهمية المحاكم الملكية وقل شأن المحاكم الاقطاعيـة .
وكثر عدد الحالات والقضايا التي تعرض امام مجلس الملك . وكانت العادة في عهد
وليم الفاتح ان ينتقل هذا المجلس مع الملك اينما ذهب . فصار يرسل وكلاء عنـه
كقضاة متنقلين للاستماع الى دعاوى قضائية في اماكن لا يصل اليها الملك (١١) .

لقد ظهرت المحاكم الملكية في طول البلاد وعرضها للنظر في القضايا المدنيـة
والجنائية المعرضة امامها وشاع استخدام ما يسمى بالرث (Writ) وهذا
امر ملكي خاص يحصل عليه المرء فيستطيع بموجبه سحب قضيته المعروضة امام
المحكمة الاقطاعية وعرضها امام محكمة ملكية .

ومن الامور البالغة الاهمية التي برزت للوجود في عهد هنري الاول تطور
ما يعرف بالقانون العام The Common Law والمقصود بـه ،
مجموعة القوانين السارية في انحاء المملكة عامة . والقانون العام بهذا يختلف عن
القوانين المحلية والمراسيم المؤقتة والعرف المحلي كما يختلف عن القوانين الكنسية
THe CanOn LOW انه قانون الملك الذي يتجاوز الطبقات ، ويتجاوز العادات
والتقاليد المحلية . فهو ينطبق على جميع سكان البلاد بصرف النظر عن انتماءاتهم
العنصرية والطبقية . انه في الاساس يستند على القوانين المحلية والعرف والتقاليد ، ولكنه
حور ليتلاءم مع مقتضيات تطور المجتمع الانكليزي . وصار في نهاية الامر مصدرا
للسلطة بدلا من ان يكون معبرا عن رغبات الملوك (١٢) .

لقد ساد الامن والعدل ارجاء انكلترا في عهد هنري الاول حتى اطلق عليه
اسد العدالة وقيل ان المرء يستطيع ان يسافر من محل الى اخر ومعه كيس كبير من
الذهب دون خوف او وجل . وهذا امر لم يكن اعتياديا خلال العصور الوسطى في
اوربا .

وطرأ تغير على الجهاز الاداري ايضا . فقد صار اكثر تعقيدا . فالى جانب مجلس
الملك الذي كان يضم كبار رجال البلاد وكبار الاقطاعيين والذي يجتمع ثلاث مرات
في العام او عندما يـ من قبل الملك . ظهر الان مجلس آخر مصغر يتألف من

مستشاري الملك ورجال النبلاء فقد كان هذا ملازما للملك بشكل دائم . ومن
المجلس الصغير بالذات تطور الجهاز الاداري والجهاز القضائي في انكلترا فق…
تشعبت اختصاصاته ومن تلك الاختصاصات برزت الوزارات المختلفة . واخذ…
الوظيفي في النمو والسعة والتعقيد منذ ذلك العهد والى يومنا هذا . والحقيقة ان…
المجلس الصغير يمثل الاصول البعيدة للوزارات والانظمة الادارية…
نراها الان ليس في انكلترا فحسب ، بل في جميع الاقطار الناطقة بالانكليزية (…

واعقبت وفاة هنري الاول حالة من الفوضى وفقدان الامن استمرت لمدة…
عشرة سنة . كادت ان تبعثر خلالها وتضيع جهود وليم الاول وهنري الاول…
بناء البلاد . ولم يكن لهنري الاول ولد ليخلفه على العرش ، فاوصى بالعرش لا…
ماتلدا (Mtilda) واخذ كل العهود اللازمة من نبلاء المملكـ…
بالاخلاص لها . ولكن اغلب اولئك النبلاء خشوا بعدوهـ…
وفاة هنري فتنكروا لابنته ماتـ…
وايدوا ستيفن Stephen ابن اخت هنري ، الذي استطاع دحر ماتلدا والاسـ…
على العرش . ولكن الامر لم يستقر للملك الجديد فقد تمرد عليه عدد من نبـ…
المملكة مدافعين عن حق ماتلدا بالعرش الانكليزي . فنشبت من جراء ذلك حـ…
اهلية مدمرة استمرت حتى عام ١١٥٣ حيث تم التوصل الى وضع اتفاقية بين الاط…
المتنازعة اقتضت باحتفاظ ستيفن بالعرش على ان يخلفه هنري الثاني ابن ماتل…
وتوفي ستيفن بعد عام واحد فقط من عقد الاتفاقية فاعتلى هنري الثاني العرش
الانكليزي .

ب – هنري الثاني (١١٥٤ – ١١٨٩)

وهو من اعظم ملوك انكلترا ، بل واوربا في العصور الوسطى . وهو ابن ما…
بنت هنري الاول ، وابوه كونت جيفري أمير انجو في فرنسا . ورث هنـ…
الثاني انكلترا ونورماندیا ومين من امه وورث دوقيتي انجو وتورين من ابيه . و…
عام ١١٥٢ تزوج هنري الثاني من اليانور وريثة عرش اوكتين . وهكذا امتدت الا…
واملاك زوجته عبر انكلتـ… ـا من حدود اسكوتلندة الى جبال البرنس …

هذا فقد كان هنري الثاني تابعا اقطاعيا لملك فرنسا بصفته دوق نورماندیا تميز عهد
هنري الثاني بازدياد السلطة الملكية على حساب النبلاء وتطور الادارة والقضاء ومن
ناحية القضاء يلاحظ ان هنري الثاني عزز المحاكم الملكية ووسع مجالات اختصاصها
على حساب المحاكم الاقطاعية التي كان يسيطر عليها النبلاء (او البارونات كما
يسمون في انكلترا واكثر هنري من اصدار الاوامر الملكية القضائية – الرت
التي سبق الكلام عنها .

ومنذ عهد هنري صار استخدام المحلفين (juries) من الامور الشائعة
في انكلترا . ويعتبر نظام المحلفين حتى وقتنا الحاضر من الامور الاساسية والمميزة
للقضاء في كل البلدان الناطقة بالانكليزية .

وجذور المحلفين البعيدة قد ترجع الى عهد الامبراطورية الرومانية اما اصوله
الحديثة فتعود الى النورمانديين والى هنري الثاني بالذات وقد يكون اخذه
هؤلاء عن الفرنجة . ونظام المحلفين بعبارة مختصرة نوع من التحقيق الجنائي يستند
الى القسم والواقع ان حالة الفوضى التي سادت انكلترا قبل مجئ هنري الثاني وانتشار
الجرائم ، والقتل والنهب وقطع الطرق التي شهدتها انكلترا في عهد الملك ستيفن السابقة
لهنري الثاني ، دفعت الاخير الى محاولة ارجاع النظام ومطاردة المجرمين وقطاع
الطرق . ففي عام ١١٦٦ اصدر هنري اوامره بجمع اثنا عشر رجلا من كل مئة واربعة
رجال من كل قرية ، على ان يؤدي كل هؤلاء اليمين امام محكمة الملك المتجولة ثم
يخبروها باسماء جميع المشتبه بهم من اولئك الذين سبق ان عكروا صفو الامن في
الماضي ، او من المحتمل ان يعكروه في المستقبل (١٦) . هذه هي البداية لنظام المحلفين
في عهد هنري الثاني ثم تطور النظام فصار يشمل النظر في القضايا المدنية كمشكلات
الاراضي والنزاع حولها . ففي هذه الحالة بجمع اثنا عشر رجلا فيؤدون اليمين ، ثم
يدلون بآرائهم في القضية المطروحة امام المحكمة ، على ان يكونوا على المام كبير بها .

وفي البداية الامر لم يكن الامر واضحا بين المحلف ((Jurar). وبمرور الزمن صار هناك تميز واضح بين ال...

والشاهد (witness) فصار المحلف الذي يختار من اواسط الناس في المنطقة ، يجلس في المحكمة و... ينطق بالحكم ولا يقرر العقوبة فهذه امور يختص بها القاضي ، كمـــا ان المـ... لا يدلي بشهادة خلال المحكمة . ان عليه ان ينصت ليستمع الى ادلة الاتهام والـ... المطروحة امام المحكمة . واخيرا يدلي باستنتاجه بناء على كل ما سمع ورأى خلال المحاكمة ، فيما اذا كان المتهم بريئا ام مذنبا .

والحقيقة ان انتشار نظام المحلفين كان كسبا للمحاكم الملكية وهذا يعـ... فيه تعزيز للسلطة الملكية واضعاف لسلطة البارونات الانكليز . وفي عهد هنري ... ازداد استخدام القانون العام ، والرجوع اليه واعتماده .

الخلاف مع الكنيسة :

وادي اصرار هنري الثاني على تأكيد وتعزيز السلطة القضائية الملكية الى ... صراع خطير بينه وبين الكنيسة والحقيقة ان الفتح النورماندي لانكلتـــــرا قـ... ادى الى تقارب اكثر بين هذه البلاد وروما . وازداد عدد وتأثير المحاكم الكنسية ... يستند القضاء فيها الى القانون الكنسي العام The Conon Law وهكـ... بمرور الزمن صار لانكلترا نظامان قضائيان رئيسان الاول يستند الى القوانين والمحاكم الـ... والثاني يستند الى القوانين والمحاكم الكنيسية وكان هناك مجال كبير للاختلاف والتـ... بين هذين النظامين خـــاصة حول القضايـــا ذات الطبيعـــة المتداخلة ومن الا... على ذلك قضية معاقبة رجال الدين المحكومين او الذين تثبت ادانتهم امام المحاكـ... الكنسية . فقد رأى هنري الثاني ان رجال الدين المدانين امام محكمة كنسية . يـ... احالتهم مرة اخرى الى محكمة ملكية لتقرر هذه بدورها العقوبة اللازمة . ورفـ... الكنيسة تقديم رجالها الى محكمة دنيوية (١٨) .

كان توماس بيكيت ((Thomas Becket)) على رأس الكنيـ... الانكليزية ، اذ كان يشغل منصب رئيس اساقفة كينتربري و... في الاصل صد...

حبيبا للملك هنري واحد مستشارية المقربين . وقد رفعه هنري نفسه الى منصب رئيس اساقفة كنتر بري . وقد ظن الملك انه يستطيع تسخير بيكيت لتحقيق اهدافه وتنفيذ سياسته . ولكن بيكيت كان نموذجا خاصا من الرجال يتميز بالتفاني المطلق والاخلاص في كل عمل يعهد به اليه . لقد وافق بيكيت في البداية على مشروع الملك الخاصـــــ بتقديم رجال الدين الى المحاكم الملكية ؛ بعد ان وضع تحفظات كثيرة . ثم عـــاد وسحب موافقته . وعندما اضطهد فر الى فرنسا . وقضى سنوات عدة في المنفـــى . وتحسنت العلاقات ظاهريا بين الملك وبين رئيس اساقفته ، فرجع الاخير الى انكلترا ولكنه سرعان ما لقي حتفه على يد اربعة من فرسان الملك .

لقد هزت هذه الجريمة انكلترا واوربا عامة . واحرج موقف هنري الثاني وقد اقسم امام مندوب البابا بانه برئ من الجريمة وانه لم يكن له ضلع فيها باي شكل من الاشكال . واضطر هنري الثاني وهو امام هذا الهياج العام الذي سببه مصرع بيكيت الى التنازل عن مشروعه الخاص في محاكمة رجال الدين امام المحاكم الملكية (١٩) لقد كرم بيكيت بعد وفاته واعتبرته الكنيسة قديسا من قديسي المسيحية وبنـــي لـــه ضريح كبير يحج اليه الناس من كل انحاء انكلترا وهكذا حقق بيكيـــت فـــي مماته ما عجز عن تحقيقه في حياته .

لم يكن هنري الثاني سعيدا في اواخر عمره فقد ساءت علاقاته مع اغلب النــاس المحيطين به خاصة مع زوجته اليانور ومع ولديه ريشارد وجون . اللذين لم يترددا في التعاون مع ملك فرنسا في التآمر ضد ابيهما .

توفي هنري الثاني عام ١١٨٩ وورثه ابنه الاكبر ريشارد الاول الـــذي اشتهــر باسم قلب الاسد . ولم يقض ريشارد في انكلترا سوى ستة اشهر فقط من فتـــرة حكمه التي بلغت عشر سنوات ، فقد كان مشغولا في مشاريعه السياسية في القــــارة الاورية وفي مساهمته في الحروب الصليبية .

٤ . انكلترا في القرن الثالث عشر :

الطريق الى الماكنا كارتا – نمو البرلمان :

ان ملوك انكلترا منذ الفتح النورماندي في الاساس هم اتباع اقطاعيون لملك فرنسا . فوليم الفاتح الذي غزا انكلترا واستولى عليها كان في الاصل دوق لنورمانديا وهذه ولاية اقطاعية فرنسية والواقع ان وليم الفاتح وابناءه واحفاده كانوا يملكون ثلثي ارض فرنسا . بل انهم كانوا يملكون من القوة والنفوذ ما يفوق كثيرا ما كان يملكه ملك فرنسا المغلوب على امره مع انه سيدهم من الناحية النظرية فهم لا يعدون ان يكونوا تابعين اقطاعيين له طالما كانوا يملكون ولاياتهم الاقطاعية في الارض الفرنسية (٢٠) .

ولكن الوضع اخذ في التغير منذ اوائل القرن الثالث عشر . اذ لم يستطيع خلف هنري الثاني الحفاظ على املاكهم في القارة الاوربية واخذوا يخسرون تلك الاجزاء واحدا بعد آخر . ولم يخسر ملوك انكلترا وحدهم املاكهم في فرنسا والقارة الاوربية بل ان البارونات الانكليز خسروا هم ايضا اقطاعياتهم والكثيرة هناك . وذلك بزوال نفوذ ملوكهم منها . وهذه التغييرات في وضع ملوك انكلترا وباروناتها في القارة الاوربية ادت الى حدوث تطورات سياسية ودستورية مهمة في انكلترا نفسها فقد جعلت من الفريقين . الملوك والبارونات . اكثر تعلقا بانكلترا وفي كل ما لهم فيها من حقوق وامتيازات مصممين في الحفاظ عليها وعدم السماح بتجاوزها من قبل الفريق الاخر .

وهذا الموقف المتشدد لكل من الملك والباروناب في الحفاظ على ما في يدية ادى في نهاية الامر الى مجابهة عنيفة بينهما وذلك عندما رأى الملك جون الاول ١١٩٩ – ١٢١٦ في تصرفات بارونات مملكته تحديا للسلطة الملكية . وعندما اعتقد اولئك البارونات في الوقت نفسه ان في سياسة الملك تعسفا وتجاوزاً لامتيازاتهم وحقوقهم الموروثة .

الصراع بين جون الاول والبارونات :

٥ . اقترن اسم الملك جون الاول ١١٩٩ – ١٢١٦ بالطغيان والاستبداد ووصف بالعجز والضعف . وقد يكون هناك الشيء الكثير من الصواب في كل ما قيل عنه ووصف به . ولكن في الوقت نفسه قد تكون هناك بعض المبررات لتصرفاته . لقد اتهم جون بالتعسف والابتزاز ومحاولة الحصول على المال بكل الطرق .. وكان هذا الاتهام صحيحا من غير شك . ولكن جون كان بحاجة ماسة الى المال فكان لا بد له من توفيره بكل الوسائل . لقد كان الجهاز الاداري في توسع مستمر ، ويعني هذا زيادة مستمرة في النفقات ثم ان الحروب التي كان جون متورطا بها في فرنسا وفي القارة الاوربية ضاعفت من احتياجاته المالية وكانت مدخولاته من اراضيه ومن الضرائب القديمة لا تفي بالغرض ولا تتلائم مطلقا مع الاحتياجات المالية الجديدة . فلا بد له والحالة هذه ان يفرض ضرائب جديدة .

اما الكلام عن ضعفه وعجزه ، فقد يكون من الانصاف القول ان حظه السيء جعله في حالة صراع وخلاف مع اقدر رجلين في اوربا في عصره هما فليب اوغسطس ملك فرنسا والبابا انوسنت الثالث وكان عجزه يبدو واضحا فعلا اذا ما قورن بهذين الشخصين المتميزين بالكفاءة والقوة .

لقد كانت الضرائب هي الموضوع الرئيسي للصراع بين الملك جون الاول والبارونات الانكليز . وبينما كان النزاع على اشده بين الطرفين ، تورط الملك بصراع اخر مع البابا انوسنت الثالث . وكان هذا بسبب اقدام البابا المذكور على اختيار ستيفن لانكتون (Stephen Langton) لمنصب رئيس اساقفة كنتربرى . وكان الاختيار بحد ذاته جيدا ، نظرا لما عرف عن لانكتون من كفاءة واستقامة ، ولكن جون اعتقد ان فيه تجاوزا على السلطة الملكية ، اذ جرت العادة ان يقوم الملك في انكلترا باختيار الاساقفة للكنائس الانكليزية . وهكذا رفض جون تعين ستيفن لانكتون ، وبادر الى مصادرة املاك الكنيسة متجاهلا قرار الحرم الذي اصدره البابا ضده ، بل ذهب الى ابعد من هذا فعمد الى الانتقام من جميع البارونات الذين انصاعوا الى قرار الحرم البابوي واحتجز ابناء وبنات البعض منهم كرهائن لضمان ولاء الابناء

وطاعتهم (٢١) . واخذ البارونات بطبيعة الحال يكيدون للملك ويتآمرون ... واستغل البابا هذه الظروف فاعلن خلع الملك جون واحل البارونات من كل عهد اعطوه له (٢٢) .

واضطر جون ، وقد احاطت به المصاعب من كل جانب الى التراجع امام البابا انوسنت الثالث عام ١٢١٣ . لقد قبل الملك ستيفن لانكتون رئيسا لاساقفة كنتربري ، وذهب الى ابعد من هذا فقبل اعتبار مملكته كلها اقطاعا بابويا واعتبر نفسه تابعا اقطاعيا للبابا . وتعهد بدفع ١٠٠٠ مارك سنويا الى البابا . وكان جون يرمي من وراء كل هذا مهادنة البابا للتفرغ للحرب مع ملك فرنسا ولتأديب البارونات الانكليز المتآمرين (٢٣) . ولكن جون اندحر اندحارا شنيعا امام فيليب اوغسطس ، فتحطمت قواته في القارة الاوربية ، وضاع ما تبقى من ممتلكاته هناك ، واضطر الى الرجوع الى انكلترا يجر وراءه ذيول الخيبة والخسران (٢٤) .

وتلقى البارونات الانكليز سيدهم وقد رصوا صفوفهم واجمعوا امرهم . وانضم اليهم تجار المدن ورجال الدين . فلم يعد باستطاعة جون ان يعمل شيئا سوى الخضوع لهم والاستسلام لمطالبهم . وضمن البارونات مطالبهم كلها في وثيقة مهمة اشتهرت في التاريخ باسم الماكنا كارتا او العهد الاعظم (magna-carta) وقد وقع الملك جون هذا العهد في عام ١٢١٥ .

كثر الكلام عن الماكنا كارتا ، وقد تناولها الباحثون والمؤرخون في التحليل والتعليق من كل زاوية منذ صدورها والى يومنا هذا . وتحتوي الوثيقة على ثلاث وستين فقرة اكثرها تخص امتيازات النبلاء وهناك فقرات قليلة تخص رجال الدين ومثلها لتجار المدن . ولكن فيها عشر فقرات جاءت لتحدد وتوضح صلاحيات المحاكم الملكية (٢٥) .

فقد نصت المادة ١ على ان تحتفظ الكنيسة بحقوقها وامتيازاتها كاملة وكان هذا يعني منع الملك من التدخل في انتخاب الاساقفة والرهبان . ونصت المواد : ٢ و ١٢ و ٤٣ على عدم انتهاك القوانين الاقطاعية وفي جمع المال . ونصت المواد ٣ - ٦ على

احترام اموال واقطاعيات الارامل والايتام . ونصت المادة ٤١ على حماية التجار . ونصت المواد ٤٤ و ٤٧ و ٤٨ على ايقاف استغلال الملك السيئ للغابات ونصت المواد ٤٩ و ٥٠ و ٥١ على تسريح الملك لجميع جنوده المرتزقة ، وارجاع جميع الرهائن التي يحتفظ بها الملك جون الى اهليهم وذويهم ونصت المادة ١٣ على احترام الملك لجميع الامتيازات والحقوق التي كان يتمتع بها سكان لندن وغيرها من المدن الانكليزية . ونصت المواد : ١٨ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٨ ، و ٣٠ و ٣٨ و ٤٥ على قيود خاصة للسيطرة والاشراف على رجال الملك وموظفي البلاط .

لقد اعتبرت الماكنا كارتا من قبل الكثيرين الاساس للحقوق والحريات السياسية وفي هذا الشيء الكثير من الصحة . ولكن الشيء الذي يجب ان لا يغرب عن البال . ان الماكنا كارتا وثيقة اقطاعية في جوهرها . صاغها سادة اقطاعيون للمحافظة على حقوقهم ضد تجاوزات الملك . انها في الواقع ليست وثيقة ثورية ، كما يصورها البعض ، انها وثيقة اقطاعية ، بل انها وثيقة رجعية ، طالما انها اكدت حقوق البارونات اكثر من تأكيدها اي شيء آخر . وهي قد جسدت الذهنية الاقطاعية والنظام الاقطاعي القائم على العلاقات الاقطاعية التعاقدية . فالامر بالنسبة الى البارونات لا يعدو ان يكون سيدهم الملك او المتبوع قد اخل بشروط التعاقد التي تربطه بهم وهم التابعون . فكان عليهم ايقافه عند حده ومنعه ومن يأتي من بعده من الملوك ، من التجاوز على حقوقهم الاقطاعية التعاقدية (٢٦) . اما حقوق الشعب وحرياته فلم تكن تخطر ببال اولئك الذين صاغوا عبارات الماكنا كارتا ، على ان الاجيال التالية اخذت تفسر الوثيقة تفسيرا تفيد منه الطبقات الصاعدة في المجتمع ، ومن ثم ابناء الشعب عموما .

على اية حال فان الماكنا كارتا ذات اهمية كبيرة من نواح عدة فهي من ناحية تجسد مشاكل العصر الذي صدرت فيه ، وتمثل الوسيلة التي فكر بها المعاصرون لمعالجة تلك المشاكل . ثم ان الظروف التي كتبت فيها الوثيقة والكلمات التي صيغت بها قرنتها اعطتها اهمية خاصة بالنسبة للاجيال اللاحقة . فمثلا التأكيد بان الملك

عرضه الى المحاسبة والسؤال من قبل اتباعه البارونات قد تكون الاساس لفكرة الـ... المقيدة كما ان هذه الفقرة لا يجوز توقيف احد من الرجال الاحرار وسجنه وعزله واعلان خروجه على القانون او معاقبته او الاساءة اليه او استدعائه الا بمحاكمة عادلة ... يجريها نفر من انداده الاحرار وفقا للقوانين السائدة في البلاد (٢٧) تكفي هذه ... لاظهار اهمية الماكنا كارتا علما ان كلمة الرجل الحر التي وردت فيها كانت ... للبارون في ذلك الوقت ، ولكنها صارت تعني على مرور السنين كل الناس ... ان كلمة الحريات LiberTies التي ترددت كثيرا في ثنايا وثيقة الماكنا كارتا ... كانت تعني امتيازات النبلاء على وجه التحديد ولكنها خلال القرون التالية اخذت ... الحريات بمعناها الواسع الحالي .

٦ . استمرار الصراع في عهد هنري الثالث :

لقد اعاد ملوك انكلترا تأييدهم للماكنا كارتا مرارا وتكرارا خلال القرون التالية فاصبحت من الوثائق الرئيسة المكونة للدستور الانكليزي . وقد اكد الملك هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) على سبيل المثال هذه الوثيقة سبع مرات خلال عهده (٢٨) كان هنري الثالث لين العريكة متسامحا . وقد تزوج هنري من اميرة فرنسية جاء بها الى انكلترا ، وجاء معها عدد من اقربائها ، الذين خصهم الملك بالوظائف الدينية والدنيوية الامر الذي اغاض البارونات الانكليز كما اغاضهم تورط الملك بمشاريع سياسية وعسكرية باهضة التكاليف في القارة الاوربية .واخيرا تمرد النبلاء ضد الملك وقادهم في تمردهم هذا سيمون دي مونتفورت وهذا نبيل اقطاعي فرنسي مرموق وقد تزوج من أخت الملك هنري الثالث وطمع في فرض سيطرته على الاخير وعلى رجال الحاشية وعندما عجز عن تحقيق ذلك لجأ الى تزعم البارونات الانكليز في تمردهم على الملك واضطر الى قبول تأليف مجلس استشاري من اربعة وعشرين عضوا مهمته مراقبة تصرفات الملك واجراءاته وفي عام ١٢٥٨ وافق الملك على مايعرف بشروط اكسفورد تعهد الملك بمقتضاها بتصحيح ماارتكب من اخطاء وبالاستماع الى نصائح البارونات وبايقاف التجاوزات على الكنيسة .وادعى هنري الثالث بعد مدة انه انما وقع شروط اكسفورد تحت الضغط وأنه يسحب موافقته

...ها الامر الذي ادى الى تجدد الصراع وانتصر مونتفورت على قوات الملك في معارك مهمة اعقبها وضع قيود مهمة على سلطة الملك منها اقامة هيئة خاصة لها صلاحية الاشراف على التعيينات التي يجريها الملك في بلاطه ... هذا المشروع بموت مونتفورت عام ١٢٦٥ .

ادوارد الاول (١٢٧٢ - ١٣٠٧) :

ادوارد الاول من اقدر ملوك انكلترا خلال العصور الوسطى .وعلى النقيض من ... فقد ركز جهوده على الجزر البريطانية فكان مهتما باحتلال ويلز واسكوتلنده وضمهما الى انكلترا اكثر من اهتمامه بالمشاريع التوسعية الباهضة التكاليف وغير المجدية في القارة الاوربية . ونجح ادوارد في اخضاع ويلز لهيمنته وفي عام ١٢٨٢ احضر ادوارد ولي عهده الى ويلز كأمير لهذه البلاد .وقد صار هذا تقليدا حتى يومنا هذا ان يحمل ولي عهد انكلترا لقب امير ويلز (٣٠) (Prince of wales).

ويلقب ادوارد الاول بجستيان انكلترا ، وذلك للتشريعات القانونية المهمة الكثيرة التي شهدها عهده .وفي خلال حكم ادوارد عقد البرلمان النموذجي وسمي بهذا الاسم للعدد الكبير من الحاضرين فيه ، ولوجود جميع الطبقات المهمة في المجتمع الانكليزي ممثلة فيه .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا نشوء البرلمان الانكليزي يعتبر من غير شك : من اهم التطورات السياسية والدستورية التي حدثت في انكلترا خلال العصور الوسطى والبرلمان الانكليزي في الاساس هيئة تمثيلية شأنها شأن نظيراتها في الاقطار الاوربية التي خضعت للهيمنة الجرمانية . فالواقع كانت هناك في كل تلك الاقطار مجالس تمثيلية اقطاعية تعود نشأتها الى عهود قديمة وتمتد جذورها الى التقاليد القبلية الجرمانية والمؤسسات التيتونية في اطوارها الاولى .فالبرلمان الانكليزي بهذا يرجع الى اصول بعيدة وعند الكلام عن البرلمان الانكليزي فمن المهم ان نعرف ان هذه المؤسسة مرت بتطورات كثيرة واللفظة نفسها اتخذت لها معاني عديدة خلال القرون الطويلة وفي بداية الامر كانت لفظة برلمان تعني اجتماعا من اي نوع وعلى اي مستوى .ثم صارت تعني اجتماع مجلس الملك (Curia Regis) خاصة

اذا كان قد حضر عدد كبير من الاشخاص وبشكل غير اعتيادي وفي مثل تلـ
الاجتماعات تطرح العرائض والشكاوي ضد الملك وموظفيه ومن الامثلة على ذ
ماحدث في برلمان اكسفورد عام ١٢٥٨ وفي اواخر القرن الثالث عشر اتخذ الا
شكلا جديدا آخر .فصار البرلمان يعني ذلك الاجتماع الكبير الذي تعرض فيـ
المشاريع الكبيرة واعمال الملك المهمة للمصادقة عليها .ويضـم مثـل هـ
الاجتماع مجلس الملك الكبير وموظفي الملك ومستشاريه وممثلين عن تجار المد
البرجوازيين – هذا بالاضافة الى النبلاء الذين يألفـون فـي الاسـاس
مجلس الملك الكبير وهيئة موظفيه ومستشاريه وكثر عقد مثل هـذه الاجتماعات
طيلة القرن الثالث عشر ثم جاء اجتماع ١٢٩٥ والذي اطلق عليه اسم البرلمان
النموذجي وكان ادوارد قد دعي للاجتماع في برلمانه هذا اثنيـن مـن الفرسان
(صغار النبلاء) من كل كاونتي واثنين من البيروجوازيين – التجار من كل قصبة وا
اضافة الى كبار نبلاء مملكته من الدنيويين والدينيين (٣٢) . لقد كان هذا هو اوسع
اجتماع يعقده ملك من ملوك انكلترا . انقسم الممثلون في البرلمان النموذجي الى اربع
جماعات منفصلة عن بعضها البعض – ومن المهم ان نذكر انه حتى عند الوقت الذي
عقد فيه البرلمان النموذجي فان البرلمان كان هيئة استشارية ولم يكن يمثل هيئة تشريعية

٨ . تدهور المؤسسات التشريعية الاقطاعية ونمو البرلمان :

اهم ما يميز تاريخ انكلترا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر هـ
تدهور المؤسسات الاقطاعية وتطور البرلمان وونمو التجارة والصناعـة وازدياد اهمية
الطبقة البرجوازية نتيجة لذلك

لقد حل الموت الاسود (الطاعون) في انكلترا ، كما حل في الاقطار الاوربية
الاخرى وترك اثاره الاجتماعية والاقتصادية العميقة فيها .
نجت انكلترا من الاثار المباشرة لحرب المئة عام (١٣٣٧-١٤٥٣) حيث ان الحروب
جرت على الارض الفرنسية ، الا ان الاثار الغير المباشرة للحرب كانت كبيرة ، خاصة
بالنسبة لتطور المؤسسات السياسية وفي تحديد السلطة الملكية ، فبينما نرى ان حرب
المئة عام انتهت بتأكيد السلطة الملكية المطلقة في فرنسا ، فانها انتهت فـي انكلتـرا

بشكل خاص .
عهد ادوارد الثاني ١٣٠٧ – ١٣٢٧ خطا البرلمان خطوات مهمة في طريق
زيادة السلطة وكان ادوارد الثاني قد دحر امام الاسكوتلنديين واستعادت اسكوتلندة
في عهده . الامر الذي اضعف موقفه من البرلمان وفي عام ١٣١١ اضطر الى
على المراسيم الجديدة
البرلمان بموجبها نوعا من الاشراف على التعيين للوظائف الكبيرة في البلاد وعندما
ادوارد الثاني التراجع والتنكر للبرلمان ادى تالف من زوجته والبارونات الـى
واعدامه . (٣٣)
وفي عهد خليفته ادوارد الثالث ١٣٢٧ – ١٣٧٧ كان نجاح البرلمان اكثر
. لقد كان ادوارد الثالث مثالا للرجل الفارس في القرون الوسطى فقـد تميز
بالفطنة والشجاعة والطموح . دحر الاسكوتلنديين والويلزيين والحق بلادهـم
بانكلترا . ثم قام بمغامرة غزو فرنسا مدعيا حقه بالعرش الفرنسي الامر الذي اجـج
تلك الحرب الطويلة والمريرة بين انكلترا وفرنسا والتي عرفت بحرب المئة عام
(١٣٣٧ – ١٤٥٣) . حقا لقد احرزت الجيوش الانكليزية بقيادته انتصارات رائعة
فرنسا . واسر الملك الفرنسي في احدى الحالات وبقي في الاسر سنوات عدة ..ولكن
ادوارد الثالث المتواصلة والباهضة التكاليف جعله بحاجة دائمة الى المال وكان
البرلمان على استعداد لقبول ضرائب جديدة لقاء تنازلات وامتيازات يمنحها له الملك
حساب السلطة الملكية (٣٤).

وقد اصبح واضحا في اواخر عهد ادوارد الثالث ان الملك فقد بشكل عملـي
في فرض الضرائب . كما صار واضحا ان المراسيم (Ordinance) التي
يصدرها الملك هي اقل شأنا من القوانين (Statutes) التي يشرعها البرلمـان
واظهر البرلمان في عهد ادوارد الثالث رغبة اكيدة للاشراف على امر تعيين موظفـي
الملك وعلى محاسبتهم ومعاقبتهم اذا اقتضى الامر (٣٥) .

وفي عهد ادوارد الثالث ايضا تبلور تركيب البرلمان الانكليزي بمجلسيه الاعلى
او مجلس اللوردات والادنى او العموم . وكان مجلس اللوردات في القرن الرابع عشر
يضم كبار النبلاء (tenants-in -Chief) وهؤلاء كانوا في الاساس يؤلفون
مجلس الملك الكبير (Curia Regis) وكبار النبلاء في انكلترا لم يؤلفوا
فئة كبيرة في المجتمع الانكليزي مثل بقية الاقطار الاوربية . اذ ان المقاطعة (the
estate) يرثها الابن الاكبر فقط .

ومع كبار النبلاء يجلس في المجلس الاعلى مجموعة من الاساقفة ورؤساء الاديرة
واغلب هؤلاء ينتمون الى الطبقة النبيلة ايضا . وتعرف هاتان المجموعتان باللوردات
الدنيويين (Lords temporal) واللوردات الروحانيين (Lords
Spiritual) .

اما المجلس الادنى (The Lower House) فنجد فيه ملاكي الاراضي
من صغار النبلاء ومن البرجوازيين وممثلي المدن . وكلا هاتين الفئتين -- ملاكي
الاراضي والبرجوازيين -لهما مصالح مشتركة في انتاج الصوف وتجارته وصناعته
ومن الضروري القول ان هذا المجلس لم يكن في البداية هيئة للتشريع . كما هو
الحال في الوقت الحاضر . كما ان المبادرات السياسية كانت في البداية بيد مجلس
اللوردات ولكن اهمية مجلس العموم كانت اخذة في الازدياد . اذ ان البرجوازيين
كانوا يملكون المال اكثر من سواهم . ولم يترددوا في اثبات وجودهم واهميتهم
عن طريقة . وذلك بموافقتهم أو بعدم موافقتهم على فرض ضرائب جديدة .

لقد نظر الملوك الانكليز الى البرلمان على انه الوسيلة للحصول على المال . وادرك البرلمان
خاصة مجلس العموم ان حاجة الملك الشديدة الى المال تدفعه الى الموافقة على اعطاء
تنازلات جديدة . وازدادت حاجة الملوك الى المال خلال حرب المئة عام . وكان وضع
مجلس الطبقات في فرنسا في هذه الناحية بالذات يختلف عن وضع البرلمان الانكليزي
فقد كان مجلس الطبقات يصوت عن طيب خاطر لاى طلب مالي يتقدم به الملك
الفرنسي اليه ؛ وذلك لرغبة الفرنسيين الشديدة لتخليص بلادهم من الانكليز الغزاة .
وعلى النقيض من هذا الموقف كان البرلمان الانكليز يؤيد على مضض الحرب خارج
الجزر البريطانية . وهكذا فقد تبلور اتجاه خاص في انكلترا يتلخص في اعتماد الملك

... عهد ادوارد الثالث ... عام ١٣٤٠ ...
بها اجبر البرلمان الملك على الموافقة بانه لن يقوم بجباية اية ضريبة بدون موافقة
البرلمان . وفي عام ١٣٤٣ وعد كذلك بعدم اجراء اى تبديل في الضرائب على التجارة
الخارجية دون تصديق مسبق من البرلمان . وهكذا كانت اى موافقة يقوم بها البرلمان
على ضرائب جديدة . يصحبها عادة تنازل خاص من جانب الملك عن بعض امتيازاته
وحقوقه الملكية .

وحاول ريشارد الثاني ١٣٧٧ – ١٣٩٩ استعادة السلطة والنفوذ اللتين خسرهما
اسلافه والحد من صلاحيات البرلمان ، ولكنه جوبه بالمشكلة الأساسية التي واجهت
سابقيه من قبل وهي الحاجة الى المال فلجأ ريشارد الثاني الى وسائل مبتكرة للحصول
على المال متجاهلا البرلمان في ذلك ففرض الغرامات الكبيرة وصادر الاملاك بحجج
واهية وارغم الاثرياء على تقديم الهدايا والقروض وانشأ قوة عسكرية خاصة لاسناده
في هذه المجابهة مع البرلمان . وادت سياسة الملك التعسفية هذه الى نشوب ثورة كبيرة
ضده في عام ١٣٩٩ وقد نجح الثوار في تنحية ريشارد الثاني عن العرش . وعلى اثر
ذلك قام البرلمان الانكليزي باختيار هنري من عائلة لانكستر الى العرش الانكليزي
وقد اعتلى ذلك العرش باسم هنري الرابع ١٣٩٩ – ١٤١٣ .وتعتبر هذه التطورات بحد
ذاتها مظهرا مهما من مظاهر ازدياد سلطة البرلمان . فهذه اول مرة يستطيع فيها البرلمان
التدخل في امر هام كولاية العهد وتقرير مصير الحكم واختيار الحاكم

انكلترا في القرن الخامس عشر :

وفي عهد ملوك لانكستر هنري الرابع (١٣٩٩ – ١٤١٣) وهنري الخامس
(١٤١٣ – ١٤٢٢) وهنرى السادس (١٤٢٢ – ١٤٦١) استمرت سلطة البرلمان في
التوسع . فأول هؤلاء الملوك هنري الرابع واجه تحديات كثيرة وكان يحيط به الاعداء من
كل مكان الامر الذي اضطره الى طلب مساعدة البرلمان وتاييده . اما ابنه هنرى الخامس
فقد كان شخصا عنيفا وصعب المراس وقد جدد الحرب ضد الفرنسيين . وفي اب
١٤١٥ غزا فرنسا وانتصر في معركة أجنكورت (AGINCOURT) .
وفرض على الفرنسيين عام ١٤٢٠ صلح تروي . وتوفي هنري الخامس ولم يكن قد

تجاوز الخامسة والثلاثين عاما ,وخلفه ابنه هنري السادس ولم يتجنوز التسعة أشهر من العمر . فوضع تحت الوصاية . وقد استغل النبلاء فترة الوصاية هذه فاخذ بعضهم يحارب البعض الآخر ,وانتشرت العصابات في كل مكان واضطرب جبل الامن فسادت الفوضى وانهارت السلطة الملكية في اغلب انحاء البلاد ,وفي مثل هذه الظروف التي كانت تمر بها انكلترا ظهرت جان دارك في فرنسا فجلبت الهزائم والنكبات على الجيوش الانكليزية فزوادت من سوء الوضع وتفاقم المشاكل بالنسبة للملكة الانكليزية

وبلغ هنرى السادس سن الرشد وتولى السلطة في البلاد في عام ١٤٣٧ . وكان ضعيفا متردداً تعوزه الكثير من صفات الملك الجيد والقوي ,وتزوج مرغريت اميرة انجوا . وكانت هذه على النقيض من الزوج ذكية وطموحة وقاسية وذات شخصية مهيمنة ,وقد استفزت هذه الصفات الكثيرين من النبلاء وادت الى ثورات مستمرة ضد السلطة الملكية .

وزاد اعتلال قوى الملك العقلية في ثعام ١٤٥٣ الامر اخطورة ,وقد اقيم ريشارد دوق يورك وصياً على الملك المعتل . وكان ريشارد هذا شخصا كفوءاً ومحبوبا وطموحا وكان يأمل ان يوول العرش اليه بعد هنرى السادس الذى لم يكن له من وريث . ولكن مرغريت انجبت ولدا ثم ان الملك استعاد فجأة قواه العقلية فعملت مرغريت على التخلص من ريشارد دوق يورك الضمان العرش لابنها ,ونجحت فعلا في ابعاده وانصاره عن السلطة . فما كان منه الا واعلن الحرب على عائلة لانكستر مدعيا ان هذه الاسرة لم تعد مؤهلة للحكم بعد ان عانت البلاد من حكمها الامرين . وعرفت هذه الحرب بين عائلتي يورك ولانكستر (بحرب الوردتين) وذلك ان شعار عائلة لانكستر كان الوردة البيضاء بينما كان شعار آل يورك الوردة الحمراء ,وتميز الصراع بالقسوة والضراوة . وراقب عامة الشعب الانكليزي هذه الحرب بقليل من المبالاة . اما النبلاء فقد أفنى بعضهم بعضا خلالها وكانوا ينتقلون من فريق الى آخر ,وقد ادت الحرب الى تقليل عدد أفراد الطبقة النبلة والى التقليل من نفوذها كذلك .

... عائلة يورك ,وقد قتل الآلاف من افراد ... لانكستر ... عام ١٤٦١ ... وكل من نجوا منهم في المعركة كان مصيرهم الاعدام . وقد توجه ادوارد ابن ريشارد دوق يورك بعد المعركة الى لندن ليتوج هناك باسم ادوارد الرابع وبه يبدأ حكم عائلة يورك الذي استمر اربعة وعشرين عاما .

حكم آل يورك (١٤٦١ - ١٤٨٥) .

ادوارد الرابع (١٤٦١-١٤٨٣) اول ملوك عائلة يورك ,وكان ذكيا وسيما ومحبوبا من الآخرين . ولكن اهتمامات الملك الخاصة لم تكن مركزة للحكومة التي كان على راسها ، بل كانت موجهة للافراط بالشراب والطعام والعلاقات الغرامية . ولعل السنوات الاخيرة من عهده تميزت بشيء كثير من الهدوء والاستقرار والامن الذي افتقدتها البلاد سنين طويلة .

توفي ادوارد الرابع فجأة عام ١٤٨٣ ، وقد خلفه ابنه ادوارد الخامس البالغ من العمر اثني عشر عاما فقط ,واعلن ريشارد عم الملك القاصر نفسه وصياً على العرش ووضع الملك ادوارد الخامس واخاه الاصغر تحت حمايته ,ثم ادعى ان الاخوين ابنين غير شرعيين وارغم على تجاوزهما واعلانه ملكا على انكلترا باسم ريشارد الثالث .

وقتل ادوارد الخامس واخوه في قلعة لندن ولا يوجد اي شك في ان ريشارد الثالث الذي لايعرف الرحمة كان هو المسؤول عن هذه الجريمة البشعة ,وحتى في ذلك العهد الذي عرف بالعنف والقسوة أستنكر هذا القتل خاصة وان ريشارد اقدم على قتل صبيين قاصرين كانا تحت حمايته وهو عمهما وليس عنهما ببعيد لقد ادت هذه الجريمة الى تجدد الصراع بين عائلتي لانكستر ويورك . وقد انضم الكثيرون من انصار عائلة يورك الى عائلة لانكستر للانتقام من ريشارد الثالث وتولى احد اقرباء عائلة لانكستر وهو هنرى تيودور زعامة حزب لانكستر . وعزز هنرى تيودور

مرَّكزه بزواجه من اليزابث ال يورك بنت ادوارد الرابع . وفي اب عام ١٤٨٥ وقعـ
معركة بوسورث بين جيشي رشارد الثالث وهنرى تيودور وانتهت بهزيمة الاول وقتلـ
وبهذا انتهت حرب الوردتين وبقيت ذكرياتها المريرة .وقد اعتلى هنـــري العـرشـ
باسم هنرى السابع .

ومع ان البرلمان ضعف شانه خلال بعض فترات الحرب الاهلية وفي خضـ
الفوضى التي صحبتها فكان لا يدعى الا قليلا ، فقد بقيت له من القوة والنفوذ ما مكـ
من اجتياز محنة الحرب الاهلية ، بل قدر له ان يجتاز استبدادية آل تيودور كذلك

(1) I. A. Richmond, Roman Britain, Pengnin books, 1955

(٢) ا . ل . راوس ، التاريخ الانكليزى . نقله الى العربية . محمد مصطفى زيادة كذلك عبد القادر اليوسف القاهرة ١٩٤٦ . ص ٣٥ .

... المصدر ص . ١٦٧ .

(3) Thompson. op: cit., p. 435.

(4) I bid, p. 43 .

(5) I bid.

(6) C. Smith, A Constitutional and Legal History of Enghand, New York: 1955. PP. 39–58.

(7) I bid.

(8) I.bid.

(9) I bid.

(١٠) راوس ، نفس المصدر : ص ص ٤٠ – ٤١ .

(11) Thompson, op. cit., pp. 440–445.

(١٢) راوس . نفس المصدر ، ص ٤٣ .

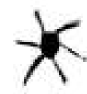
(13) Smith, op. cit., pp. . 39–58

(14) The Shorter Cambridge Medieval History Vol. 1, p. 599.

(15) I bid.

(16) Smith, op. cit., pp. 105–110

(17) I bid.





فرنســـا

١ - فرنسا بعد معاهدة فردان - ظهور اسرة آل كابيه .
١ - نمو السلطة الملكية خلال القرن الثاني عشر .
٢ - فليب الثاني (١١٨٠ - ١٢٢٣) .
٤ - لويس التاسع ، او القديس لويس ، (١٢٢٦ - ١٢٧٠)
٥ - فرنسا بعد لويس التاسع
٦ - نهاية آل كابيه .
٧ - حرب المئة العام (١٣٣٧ - ١٤٥٣)
مقدمة في احوال انكلترا وفرنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .
٨ - اسباب حرب المئة العام .
٩ - تزايد قوة بر غنيديا ودورها في الحرب
١٠- جان دارك .
١١- فرنسا في اواخر القرن الخامس عشر .
١٢- لويس الحادي عشر .

O'Sullivan, op. cit., pp. 400-401.
(18) Ibid.
(19) Hayes, op. cit., pp. 266-265.
(0) Ibid.
(21) Ibid.
(22) Ibid.
(23) Ibid.
(24)
(25) J. H. Rolinson. Readings in European History LondoP 1904, Vol. I, pp. 233-239.
Ibid.
(26) Ibid.
(27) The Shorter Cambridge Medieval Histary Vol. 11,
(28) P. 723.
Ibid.
(29) Ibid, p. 818
(30) K.R. Macken ie, The English parliament, Penguin
(31) boaks, pp. 2-14.
Ibid.
(32) A. R. Myers, England in the 2ate Middlo Ager (1307-..
(33) 1536) pp 1-23.
(34) Ibid.
(35) Ibid.
(36) Hayes, op. cit., pp. 351-356.
(37) Ibid.
(38) Myers, op. cit., pp. 99-116
(39) Ibid, p. 181.

فرنسا بعد معاهدة فردان – ظهور اسرة آل كابيه

كانت احدى النتائج المهمة لمعاهدة فردان لعام ٨٤٣ ظهور دولتين ... الى الوجود . وهما دولة الفرنجة الغربيين ودولة الفرنجة الشرقيين ... عرفتا فيما بعد على التوالي بفرنسا والمانيا . وضعفت سلطة الملوك الكارولنجيين بسرعة في الدولتين بعد المعاهدة المذكورة . وفي خضم الفوضى التي سادت اوربا في القرنين التاسع والعاشر . وهجمات الشماليين – الفايكنك – العنيفة والمدمرة على ... اوربا . اثبت عدد من الدوقات والكونتات كفاءة اكبر في مقاومة الاخطار المحدقة بهم من الملوك الكارولنجيين الضعفاء . وقد استطاع ادو . كونت باريس ... ٨٨٦ من رد الغزاة الشماليين عن باريس .واعترف له نبلاء فرنسا بالجميل ... وملكا لفرنسا . ولكن السلطة لم تستقر في اسرته . ولمدة قرن من الزمن ... تلك الاسرة تتنازع الحكم مع افراد من الاسرة الكارولنجية . واخيرا في عام ... استطاع احد احفاده وهو (هيو كابيه Odo Hugh Capet) ... في عرش فرنسا ويكون اسرة مالكة جديدة حكمت فرنسا لمدة تزيد على ... قرون .

ولكن فرنسا في عام ٩٨٧ لم تكن بلدا موحدا بل مجموعة من الدويلات الاقطاعية الصغيرة ومنها الكبيرة ، من اهمها اكوتين وأنجو ، وبلوا وبرتاني وبرغنديا ... ومين وتولوز و نورماندبا . وبوتو وكل من هذه الدويلات الاقطاعية يحكمها امير اقطاعي هو في واقع الامر حاكم مستقل بامره يؤدي له النبلاء في دولته الاقطاعية يمين الولاء بصفته سيدهم الاقطاعي المباشر . وهو بدوره يؤدي هذا اليمين لملك فرنسا . بصفته السيد الاقطاعي الاعلى . وكان حكم آل كابيه الاوائل ... في الواقع على النوايا الحسنة لاتباعه الاقطاعيين سواء ... من رجال الدين ام من الدنيويين ، دون ان تكون له سيطرة فعلية عليهم

يملك فرنسا ، شأنه شأن بقية امراء فرنسا الاقطاعيين ، دويلته الخاصة به

تسمى هذه عادة بالارض الملكية ، وتعرف كذلك بجزيرة فرنسا . وتقع هذه في وسط البلاد تحيط بها الدويلات الاقطاعية الاخرى من كل جانب . والحقيقة أن جزيرة فرنسا تضم من حيث المساحة والسكان اقل مما تضمه اغلب تلك الدويلات وتاريخ فرنسا خلال القرون الثلاثة ؛ التاسع والعاشر والحادي عشر ، ما هو الا تاريخ الامارات الاقطاعية (١) .

وعلى الرغم من ضعف آل كابيه خلال تلك القرون الثلاثة المذكورة فان عوامل عدة كانت تعمل لصالحهم ، منها :

١) الخلافات والمنازعات المستمرة بين تلك الامارات المحيطة بجزيرة فرنسا ، ولعل تلك الخلافات اوالمنازعات هي التي ابقت على الملكية في فرنسا وهي التي مكنت السلطة الملكية في نهاية الامر في فرض سيطرة ملكية فعالة عليها جميعا .

٢) وامر آخر مكن ملوك فرنسا في نهاية المطاف من بسط نفوذهم على فرنسا كلها ، هو ما اعتاده ملوك آل كابيه ، منذ بداية عهدهم في الحكم ، في تنظيم امر ولاية العهد . فقد سار ملوكهم ابتداء من هيو كابيه على طريق تعيين الولد الاكبر لولاية العهد . وكان يتم هذا التعيين والاب لا يزال على قيد الحياة بل ويشرك الابن معه في الحكم .

لقد رس آل كابيه هذا التقليد لمدة مائتي سنة فاسسوا بذلك مبدأ وراثة الابن الاكبر ، الامر الذي جنب البلاد الكثير من المتاعب وحفظ الحكم في الاسرة الى عام ١٣٢٨ .

٣) ثم ان الارض الملكية او جزيرة فرنسا على صغرها كان لها ميزة خاصة بالنسبة لبقية الامارات الاقطاعية هو موقعها في وسط فرنسا بين نهري السين واللور على الطريق التجاري المهم بين البحر الابيض المتوسط والقنال الانكليزي عبر الرون . ان هذا الموقع يمثل قلب فرنسا وفي ظروف مواتية انطلق منه آل كابيه لبسط نفوذهم وسيطرتهم على بقية انحاء البلاد .

ت الكنيسة المسيحية بثقلها الى جانب آل كابيه اذ ان سلطتهم تمثل السلطة المركزية الوحيدة في فرنسا ، ونجاحهم يضمن الوحدة السياسية لتلك البلاد . ونظرت الكنيسة دائما الى الوحدة السياسية على انها الاساس للوحدة الدينية ارات أن في قوة السلطة المركزية وفي نمو السلطة الملكية ضمانا لمصالح الكنيسة ووحدتها . وافضى تأييد الكنيسة لآل كابيه مهابة وشرعية على حكمهم . كان يفوق البهما حكم بقية الامراء الاقطاعيين . وقد عزز هذا مكانتهم وشد ازرهم في صراعهم ضد اعدائهم في داخل البلاد وخارجها .

١) واخيرا فآل كابيه ، على الرغم من كل شئ ، من الناحية النظرية على الاقل ، هم ملوك فرنسا . والملك بالعرف الاقطاعي ، هو السيد الاعلى ، وجميع الامراء مهما علت منزلتهم وبلغت قوتهم اتباع له ، وعليهم تأدية يمين الولاء والتبعية الاقطاعية له . وفي ظروف ملائمة قد يستطيع ملك كفوء تحويل تلك السيادة النظرية الى واقع ملموس ، وهذا ما حدث بالفعل .

نمو السلطة الملكية خلال القرن الثاني عشر :

حدثت خلال القرن الثاني عشر تطورات داخلية وخارجية كانت ملائمة لتعزيز السلطة الملكية ولتقوية الحكومة المركزية ، وظهر ، لحسن حظ فرنسا ، عدد من الملوك الاكفاء النابهين الذين استفادوا من تلك التطورات واستغلوها لبناء صرح وحدة سياسية ، جعلت من فرنسا حتى يومنا هذا نموذجا للدولة القوية والمتماسكة والمركزية في اوربا .

التطورات الداخلية :

وبالنسبة لهذه التطورات شهد القرن الثاني عشر تعزيز سلطة آل كابية على حساب سلطة النبلاء الاقطاعيين . ولعل لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) هو اول ملوك آل كابية الذين ساروا في هذا الاتجاه . وقد بدأ عمله بتصفية نفوذ النبلاء في الارض الملكية نفسها ، اى جزيرة فرنسا ، ونجح خلال فترة حكمه في اخضاع

جميع النبلاء الاقطاعيين في تلك الارض الى السلطة الملكية (٢). ثم شرع لويس السادس ومن جاء بعده من الملوك ، في مد سيطرتهم وتوسيع نفوذهم الى خارج حدود الارض الملكية . وشجعت التطورات الاقتصادية والاجتماعية ، التي حدثت في فرنسا في هذا الوقت بالذات ، الملوك الفرنسيين على السير قدما في تعزيز سيطرتهم الملكية .

ومن هذه التطورات نمو المدن وازدهار التجارة وبروز الطبقة البرجوازية (٣) ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر نمت مدن شمال فرنسا واصبح لها كيانات خاصة وصار سكانها البرجوازيون يناضلون للحفاظ على تلك الكيانات ويقاومون الفوضى الاقطاعية والنبلاء . ولجأ البرجوازيون الى الملكية طالبين منها العون والحماية فاستجاب لهم الملوك . فقد ادرك هؤلاء ان لهم مصلحة مشتركة مع البرجوازيين وتتمثل هذه المصلحة في ازدياد قوة السلطة المركزية على حساب الاقطاعيين . لقد كانت الملكية موفقة في اختيار البرجوازية حليفة لها . فقد كانت هذه طبقة ناشئة طموحة وغنية وكان بامكانها ان تشد ازر الملكية بما تملكه من مال وماصار لها من نفوذ والى جانب ظهور البرجوازية ، ادى ازدهار التجارة الى تطورات اقتصادية واجتماعية مهمة اخرى منها زيادة كمية النقود المتداولة ، وقد وجد الملوك فائدة كبيرة فيها . فصاروا يتسلمون النقود ذهبا وفضة بدل الخدمات الاقطاعية القديمة والسلع العينية . ثم التحسن الذى طرأ على سك النقود والفوائد التي كان يجنيها [illegible] من هذه العملية . كل هذا وفر المال للملوك فامتلأت خزائنهم بالنقد الامر الذي سهل لهم التعامل ووفر لهم اداة مرنة يستطيعون تسخيرها بأى شكل يشاؤون لقد صارت خزانة الملك ركنا مهما من اركان الادارة الملكية ومظهرا من مظاهر قوته

وبتوفر النقود ، اصبح باستطاعة الملك استئجار الجنود وتكوين جيوش خاصة به ، واغناه هذا عن الاعتماد على الفرسان والمحاربين التابعين للنبلاء الاقطاعيين ثم صار باستطاعته كذلك استخدام الموظفين لقاء ما يدفع لهم من اجور وقد اغناه هذا كذلك عن ذلك النفر القليل من النبلاء الذين كانوا يقومون على خدمته ويتولون شؤون بلاطه . لقد صار بامكان الملك تطوير جهاز اداري ملائم ، مستعينا

بموظفين يختارهم على اساس القدرة والكفاءة وهم يدينون له دون سواه بمناصبهم وبامكانه الاستغناء عنهم متى شاء . (٤)

وفي عام ١١٧٣ على وجه التحديد يرد لاول مرة ذكر مثل هؤلاء الموظفين وحدث تطور ايضا في المجالس الاقطاعية ، فقد كانت هناك جمعية ترجع اصولها الى عهد الكارولنجيين تضم السادة الاقطاعيين من النبلاء والكنسيين ، تجتمع بالملك في فترات معينة . ولم تكن تلك الجمعية ذات معالم واضحة من حيث التركيب والصلاحيات . وغالبا ما كانت عنصرا معرقلا لتطور ونمو السلطة الملكية . وفي القرن الثاني عشر طرأ تبدل على هذه الجمعية فقد صارت تضم مجلسين الاول يسمى مجلس الملك ، ومهمته النظر في الامور العامة ، والثاني البرلمان ، ومهمته النظر في الامور القضائية . وكان كلا المجلسين يتألفان في البداية من النبلاء ، ولكن الملك اخذ بشكل تدريجي يعين فيهما موظفين له ينتمون الى طبقات أخرى . فكانوا اكثر طاعة واشد ولاء له من اولئك النبلاء . (٥)

الخلاصة ان القرن الثاني عشر شهد تطورات داخلية مهمة تتلخص في احكام هيمنة الملكية على جزء مهم من البلاد ، ونمو التجارة ، وظهور الطبقة البرجوازية وتوفر النقود التي ساعدت الملوك على الاحتفاظ بجيوش خاصة بهم كما ساعدتهم على تطوير اجهزة ادارية جديدة . وهذه التطورات الداخلية بجملتها ساهمت في تعزيز السلطة الملكية وتأكيد السيطرة المركزية .

التطورات الخارجية :

اما التطورات التي ساهمت ، هي الاخرى في بناء الحكومة المركزية ، وادت الى تعزيز السلطة الملكية في فرنسا خلال القرن الثاني عشر فتتلخص في امر واحد هو ازدياد قوة الملوك النورمانديين في انكلترا واشتداد اطماعهم التوسعية في الاراضي الفرنسية الامر الذي دفع آل كابيه الى شد الامارات الاقطاعية اليهم والى تأكيد سيطرتهم الملكية وذلك للوقوف في وجه الخطر الخارجي .

لقد سبق القول ان وليم الفاتح دوق نورمانديا ، هو في الاساس تابع اقطاعي

... ملك فرنسا ... وذلك بحكم كونه حاكم لنورمانديا . وهذه اهم المقاطعات الاقطاعية الفرنسية . وصار وليم بعد احتلاله انكلترا عام ١٠٦٦ اوسع املاكا واقوى نفوذا من سيده ملك فرنسا ، بل انه صار اقوى حاكم في غرب اوربا لقد اثارت قوته وطموحه مخاوف ملك فرنسا ، كما اثارت بقية الامراء الاقطاعيين الفرنسيين . وتمكن لويس السادس ، بما اوتي من ذكاء وفطنة ، اثارة اهتمام اولئك الامراء وتحذيرهم من الخطر النورماندي المحتمل .

وازداد خطر ملوك انكلترا في عهد حفيد وليم الفاتح ، هنري الثاني فقد ورث هذا عن ابيه دوق انجو وامه ماتلدا املاكا واسعة جدا في فرنسا شملت نورمانديا وانجو ومين وتورين . ثم تزوج هنري الثاني من اليانور وريثة اوكوتين فضم الى املاكه نتيجة لهذا الزواج اكوتين وكاسكونيه ونظرة واحدة الى خارطة فرنسا عند مفتتح القرن الثالث عشر ، تظهر بوضوح ان ملك انكلترا كان يملك اكثر من ثلثي الارض الفرنسية (٦) . ولم يكتف هنري الثاني بكل هذا ، بل كان يحاول ضم برتاني في شمال فرنسا وتولوز في جنوبها .واذا تذكرنا بعد كل هذا انه كان يحكم انكلترا وارلندة ،وكان يدعي السيادة على اسكوتلندة وبلز . تصورنا سعة ملكه ومدى قوته ونفوذه .لقد اطلق المؤرخون على املاكه اسم الامبراطورية الانجوية ، وربما كان هنري الثاني يفكر في الاستيلاء على المملكة الفرنسية كلها .

وسياسة هنري الثاني العدائية التوسعية هي التي استفزت آل كابية ، فقد كانت تمثل تحديا لهم وكان لابد لهم من الاستجابة ، لذلك التحدي .

ومن حسن حظ ملك فرنسا ، ان هذا التحدي لم يكن مقتصرا عليه ، بل شمل بقية الامراء الاقطاعيين في البلاد . وكل ما كان على ملك فرنسا ان يفعله في هذه الحالة هو ان يروض اولئك الامراء المتمردين ويدلهم على مكامن الخطر ويوحدهم تحت قيادته لمواجهة العدو المشترك . وقد نجح لويس السابع ١١٣٧ – ١١٨٠ وخليفته فيليب الثاني (١١٨٠ – ١٢٢٣) نجاحا باهرا في تحقيق كل ماذكر .

لقد اظهر اغلب الامراء الاقطاعيين استعدادهم للتعاون مع لويس السابع ضد هنري الثاني .ولجأ لويس السابع الى بث الشقاق وأثارة الخلافات بين افراد اسرة هنري الثاني ...

... ولكن هنري الثاني القى القبض عليها واودعها السجن ، واعقب هذا تمرد ... قام به ولداه المذكوران ولم يكتف لويس السابع بكل هذا ، بل عمد الى ... الاسكتلنديين ضد هنري الثاني وتشجيعهم على الثورة عليه (٧) .

... فيليب الثاني (١١٨٠ – ١٢٢٣) :

وهو اقدر ملوك فرنسا في العصور الوسطى ، ويعرف عادة بفليب اوغسطس ، وكان فليب اكثر عزما وتصميما من ابيه ليس في دفع خطر هنري الثاني واولاده ، بل وفي تصفية املاكهم وطردهم من فرنسا ، وواصل جهوده في توحيد المقاومة ضد ملوك انكلترا وفي بث بذور الشقاق بين افراد الاسرة المالكة الانكليزية ، وقد نجح في مسعاه هذا . وفي عام ١١٨٩ توفي هنري الثاني وكان متعبا ومسنا ومدحورا امام ولده المتمرد ريشارد .

واعتلى هذا العرش من بعده باسم ريشارد الاول وقد لقب بقلب الاسد . وما ان توج ريشارد ملكا على انكلترا حتى رحل الى الارض المقدسة للمساهمة في الحرب الصليبية . وعندما كان في عكا تشاجر مع احد القادة الصليبيين هو الامير ليبولد امير النمسا . وفي عودة ريشارد الى اوربا استطاع ليبولد القبض عليه واسره . ولم يطلق سراحه الابعد دفعه فدية ضخمة بلغت ١٥٠ر٠٠٠ مارك . وعندما كان ريشارد في الاسر ، اعلن فليب اوغسطس فسخ يمين الولاء الاقطاعي لريشارد وقرر انتزاع املاكه في الارض الفرنسية ومنحها الى اخيه جون وتقدم هذا بقسم يمين الولاء الاقطاعي الى سيده فليب اوغسطس لقاء ذلك . وهكذا نجح ملك فرنسا مرة اخرى في اثارة الشقاق بين افراد العائلة المالكة في انكلترا (٨) .

وما ان استعاد ريشارد حريته حتى شن حربا لا هوادة فيها ضد فليب اوغسطس . وقد وجد له في كونت الفلاندرز حليفا قويا .

لقد هاجم ريشارد فليب من الغرب بينما شن كونت الفلاندرز هجومه على فليب من الشمال . وهنا تدخل البابا انوسنت الثالث واقنع الجميع بعقد هدنة لمدة خمس سنوات يتفرغون لمواصلة الحرب الصليبية في الارض المقدسه . وفي القتال الذي نشب بين ريشارد وبعض النبلاء في جنوب فرنسا اصيب بجرح مميت توفي على اثره عام ١١٩٩ وخلفه اخوه جون على عرش انكلترا وعلى املاكه في الاراضي الفرنسية .

ونشبت الحرب بين فليب اوغسطس وجون ، وحقق الاول انتصارات حاسمة .

ووضع فليب نصب عينه هدفين رئيسين هما : (١) طرد الانكليز نهائيا من ا...
...مرنسيه . (٢) تعزيز السلطة الملكية وتوحيد فرنسا في ظل آل كابيه .

وكانت نورمانديا هي الهدف المباشر لمشاريع فليب . وبحلول عام ١٢٠٤ ... فليب قد نجح فعلا في بسط سيطرته عليها . ثم أتبع ذلك في ضم انجو وتور... ومين وبريتاني وكاسكوني . وما ان حل عام ١٢٠٦ ، الا وفليب قد حقق ... طرد الانكليز من فرنسا (٩) . ولا يعود هذا النجاح الى قدرة فليب اوغسطس ... بل تضامن النبلاء الفرنسيين ورغبتهم في التخلص من النفوذ الانكليزى كما يعود الى قدرة خصمه جون الرائعة في تحويل اخلص الاصدقاء واحسنهم الى اعداء متآمرين .

ولم ينته الصراع بين فليب اوغسطس وجون ، بل تحول بعد سنوات الى ... اوربية شاملة . فقد كان جون يريد استعادة املاكه في فرنسا ووفر له الوضع ... حلفاء جدد . هكذا ظهرت جبهة مؤلفة من الامبراطور الالماني اوتو وكونت الفلا... تقابلها جبهة اخرى تضم فليب اوغسطس وفردريك الثاني الذى كان ينافس الا... اوتو في اللقب الامبراطورى . وفي اوائل عام ١٢١٤ نزل جون على الساحل الغربي مع جيش صغير فقط ، حيث رفض اغلب البارونات الانكليز الوقوف الى جا... وتجمعت في الوقت نفسه في الشمال قوات كبيرة من الفلاندرز وقوات الامبرا... او وقوات انكليزية ، كان هدفها الزحف على باريس ومحاصرتها . ولكن فليب ... في دحرها جميعا

واستئصالها في معركة بوفين . لقد كان انتصاراً فرنسيا رائعا قل نظيره في تار... العصور الوسطى . لقد جاء نتيجة تعاون النبلاء الفرنسيين ورجال الدين و سكان المد... انهت معركة بوفين الخطر الانكليزى على فرنسا واوقفت اى تدخل الماني في الشـ... الفرنسية وكانت حقا بداية لسيادة فرنسية وتفوق فرنسي على كل مـن انكلتـ... والامبراطورية الرومانية المقدسة . ويرى الكثير من المؤرخين انه لا توجد معركة ... تضاهي معركة بوفين في الاهمية الامركة واترلو التي حدثت بعدها بستمائة عام (...

وبالنسبة الى المانيا انهت معركة بوفين عهد اوتو وحل محله فردريك الثاني ... وبالنسبة الى انكلترا ، اضطر جون الى الخضوع لارادة البارونات ووقع العهد الاعظـ...

وتهيأت لفليب اوغسطس بعد سنوات قليلة من بوفين فرصة لضم كونتية تو... في جنوب فرنسا الى املاكه . وكانت كونتية تولوز تنعم برفاه اقتصادي نتيجة ل... اراضيها ولتطور التجارة فيها . وقد ظهرت فيها حركة ادبية وثقافية متميزة ... بلاط امير تولوز يضاهي بلاط ... في اوروبا ، وكما اتخذ كلوفس قبل ما ير...

...مائة عام خلافاته الدينية مع بقية الممالك الجرمانية حجة لاعلان الحرب على تلك الممالك وضم اراضيها اليه ، فقد اتخذ فليب اوغسطس من ظهور الهرطقـة الالبوية أو الالبيجنسية ( ) في تولوز ذريعة لشن الحرب على ... الكونتية وضمها الى املاكه .

لقد انتشرت الهرطقة الالبيجنسية بسرعة في تولوز ، بل ان حاكمها كونت تولوز كان من بين معتنقيها . واعلنت البابوية حربا عليها ، بالوعظ والارشاد تارة وبالسلاح تارة اخرى ، وساهم فليب اوغسطس في تلك الحرب الصليبية واتسمت سياسته وسياسة ابنه لويس الثامن بالقسوة والعنف تجاه اهل تولوز (١١) . لقد انتهت الحرب بالقضاء على الهرطقة الالبيجنسية على استقلال تولوز معا .

لويس التاسع ، القديس لويس (١٢٢٦ – ١٢٧٠) :

بلغت الملكية الفرنسية اقصى قوتها وهيبتها خلال العصور الوسطى في عهد لويس التاسع اوكما يعرف بالقديس لويس . وكانن قد آل اليه الحكم وهوصغير فاصبحت امه بلانش القشتالية وصية على العرش ، وحاول النبلاء الفرنسيون التمرد على السلطة الملكية وتآمـروا مـع هنرى الثالث ملـك انكلتـرا . ولكن كفـاءة الوصية الأم وفطنتهـا احبطت مؤمـرات النبلاء وحفظت للملك الصغير ملكه .

كان القديس لويس طيلة فترة حكمه مثالا للملك العادل والفارس الشجاع والحاكم الزاهد . لقد اجتمعت فيه الكثير من الصفات الحميدة والخصال الكريمة التي كانت تبعث الثقة والاحترام له في نفوس معاصريه ، وهو كثيرا ما يقارن بلويس الرابع عشر . فكل من هذين الملكين يمثل عصره خير تمثيل . فلويس الرابع عشر يمثل عصر الملكيات المطلقة . اما لويس التاسع الذي عاش في العصور الوسطى عصور الدين ، فكان خير ممثل لتلك العصور . انه نموذج للمثل المسيحية .والحقيقة انـه كان يمثل تلك المثل اكثر ممّا كان يمثلها البابا انوسنت الثالث ، والبابا انوسنت الرابع المعاصرين . ربما لم يكن لويس التاسع سياسيا عظيما ولاقائدا عسكريا متميزاً ، ولكنه كان رجلا جيدا ، بكل تأكيد . وقد يكون الحظ ساعده لتطبيق افكاره المثالية فقد ورث مملكة قوية تتمتع بالاستقرار الداخلي والسلام الخارجي . لقد كان عليه توطيد دعائم السلم والاستقرار اللذين ورثهما عن اجداده بوجد الطريق ممهدا امامه لتنظيم الادارة ونشر العدل . اهتم بالتفتيش والرقابة ، فارسل المفتشين والرقباء الى ...

كل جزء من اجزاء مملكة ليراقبوا موظفيه وليرفعوا التقارير المفصلة عن سير اعمالهم (١)

لقد حرمت الحروب الخاصة في جميع الاراضي الملكية وأوقفت المحاكمات بالمحنة والمبارزة ، واقام النظم المالية ورتب امور الضرائب . وشعر الناس لاول مرة في تاريخ العصور الوسطى في اوربا ان الحكومة ليست جهاز لاضطهادهم ولابتزازهم والموظف الحكومي ليس هو السيد بل هو الحامي والمعين . لقد شعر الناس ان الملك هو حليف العدالة . فصارت الملكية شعبية ، وادى هذا الشعور الى خلق احساس قومي يتلخص في تعلق الناس بتربة الوطن ولعل ما عرف عن الفرنسيين في العصور الحديثة من حب عظيم للوطن واستعداد للتضحية من اجله تعود جذوره الى ذلك العهد البعيد .

ولعل من اهم انجازات القديس لويس في مجال السياسة الخارجية توصله الى عقد معاهدة باريس مع ملك انكلترا هنرى الثالث في عام ١٢٥٩ تنازل الاخير بموجبها عن حقوقه الوراثية في نورماندیا وانجو وبوتوا ومين لقاء بعض التنازلات الاقليمية حصل عليها هنرى الثالث .

كانت معاهدة باريس تمثل تغلب العقل والحكمة على التعصب والانانية وقد انهت العداء بين انكلترا وفرنسا الذى ترجع جذوره الى عهد وليم الفاتح ، فساد السلام بين هاتين المملكتين حتى قيام حرب المئة العام ١٣٣٧ .

واعترف الملوك والامراء المعاصرون بمنزلة القديس لويس وبعدله فقبلوا به حكما بينهم . ودعاه البارونات الانكليز والملك هنرى الثالث لحسم النزاع الذى حدث بينهم . ولم يتردد القديس لويس في اعطاء حكمه لصالح الملك عندما اعتقد ان البارونات قد تجاوزوا الحد المعقول في مطالبهم (١٣)

وفي خلال الصراع بين الامبراطورية والبابوية التزم القديس لويس الحياد . على الرغم من ان الامبراطور فردريك الثاني طلب منه التدخل في حسم النزاع . ورفض كذلك السماح لابنه روبرت في قبول عرش المانيا . لقد عرض على البابا انوسنت الرابع الحماية عندما تعرض هذا للخطر ولكنه في الوقت نفسه لم يعترف بعزل البابا لفردريك الثاني .

وكان من دواعي اسفه وامتعاضه ما شهده من ترف واسراف البلاط البابوى ومن قلة اكتراث كبار رجال الدين بالامور الدينية واهتمامهم بالمظاهر الكاذبة .

لقد جسد القديس لويس المثل المسيحية في العصور الوسطى لذا لم يكن من الغريب ان يحافظ على السلم في اوربا ، ويتحرج من الحرب مع اخوانه المسيحيين هناك ، وفي الوقت نفسه يشن الحرب على غير المسيحيين في الشرق ويساهم مساهمة



... الا يرى المساهمة ... في شن الحرب واجبا ... ورئيسا وحيدا

... الوحيد في زمانه من بين كبار رجال الكنيسة والامراء كان يحارب باخلاص وبدوافع دينية بحتة .

لويس والحروب الصليبية :

حاول مستشارو القديس لويس المخلصون ردعه عن المساهمة في الحرب الصليبية محاولا تحذيره من المخاطر والمصاعب التي سيلقاها من جراء تلك الحرب ... كان راسخ العقيدة بأن التاج الذي يكلل رأسه هو من نعم الله ... من واجبه لقاء ذلك اطاعة الله واعلاء كلمته عن طريق المساهمة بالحرب المقدسة في الارض المقدسة .

لقد قام القديس لويس بحملتين صليبيتين الاولى عام ١٢٤٨ والثانية عام ... وكلا الحملتين فرنسية بحتة تبع بها الفرسان الفرنسيون ملكهم بروح من ... الشخصي له والحب والرغبة في المغامرة والكسب اكثر مما كانوا مدفوعين بروح ... الدينية والتقوى الحقيقية ، وكلا الحملتين فشلتا فشلا ذريعا . فبعد ست سنوات ... الجهود ١٣٤٨ – ١٢٥٤ وقع القديس لويس خلالها في الاسر ، ورأى فيها ... مرافقيه صرعى ، قرر الملك العودة الى فرنسا ، واظهر الاصرار نفسه في ... الثانية عام ١٢٧٠ التي وجهها لاحتلال تونس ، ولكنه في هذه المرة ما كاد ... رحاله في تونس الا وتمرض وتوفي (١٤) . لقد مات كما كان يتمنى ، مات ... يحارب من اجل الدين والعقيدة . وبموته انتهت تلك المشاريع الصليبية التي لم ... احد من معاصريه ليأخذها مأخذ الاخلاص والجد الا هو .

... ما بعد لويس التاسع :

حتى وفاة لويس التاسع او القديس لويس ، كانت سياسة ملوك فرنسا تتلخص ... زيادة وحدة فرنسا وتقوية السلطة المركزية وتعزيز قوة الملكية على حساب الامارات ... الاقطاعية ، ومقاومة السياسة التوسعية العدائية لملوك انكلترا في الاراضي الفرنسية . ... لما كان الملوك الفرنسيون يبحثون لهم عن حلفاء في اوربا ، فقد كان دافعهم ... ليس الاستعانة باولئك الحلفاء ضد الملوك الانكليز والحفاظ على وحدة وسلامة ... فرنسا . وقد نجح الملوك الفرنسيون في كل ما سعوا اليه . ولكن خلفاء القديس لويس ، ... فيليب ... الثالث لم يكتفوا بما سبق ، بل اتبعوا سياسة توسعية (١٥) .

لقد وقع فليب بالذات تحت تأثير عمه الطموح شارل دوق انجو ...
١٢٧٢ سمح لهذا العم ان يكون مرشحا للعرش الامبراطوري الالماني ...
الحظ لم يتم انتخابه للمنصب الامبراطوري . ولو تم ذلك لتورطت فرنسا ...
مع المانيا منذ ذلك التاريخ . لقد فاز بالترشيح الامير رودلف من آل هبسبرج ...
رغبة رودلف هذا في ارضاء الفرنسيين دفعه للتنازل عن جميع حقوقه في ...
شارل دوق انجو .

وفي عام ١٢٨١ حصل فليب الثالث على اسقفية تول ثم اخذ في التوسع ...
الارض المنخفضة ، فعبر الحدود التي كانت قد رسمتها معاهدة فردان عام ...
ولعل السبب الذي شجع فليب على هذا التوسع هو ضعف الالمان في هذا الوقت ...
واذا كان توسع الفرنسيين المذكور في الشمال والشرق يبدو مقبولا ...
للتقارب الجغرافي والثقافي والسكاني والمصالح الاقتصادية المشتركة فان ...
عبـــر جبال البرنس ليس كذلك . لقد خلق فليب المبررات للتدخل فـــي ...
الاسبانية كانت في بداية الامر لنصرة عمه شارل الذي صار ملكا لصقلية ...
وهكذا فبعد التورط في صقليا جاء الآن دور التورط في اسبانيا .

وكان البابا قد اعلن الحرم على ملك الارغون ، وكانت هذه الامارة ...
الكنيسة . وعرض البابا عرشها على ملك فرنسا ، واختار فليب الثالث ابنه شارل ...
فالوا ليكون حاكما لها . فعبر الحدود ، ولم يحقق شيئا ومات في خلال حملته ...
هذه . وعند وفاة فليب الثالث في عام ١٢٨٥ كانت فرنسا متورطة في صقليا و...
ايطاليا وفي اسبانيا ، وبينما كانت انكلترا في عهد هنري الثالث تسترجع قوتها تستنزف ...
حيويتها ونشاطها كانت فرنسا بالشكل الذي وصفناه .

على اية حال ، بقيت فرنسا سيدة الموقف في اوربا خلال القرن الثالث عشر ولم ...
يكن لها منافس في هذا المجال . فلم تكن هناك دولة اوربية واحدة تضاهيها في ...
مساحة وكثرة سكان ، والموقع الجغرافي للبلاد بين بحر الشمال والبحر الابيض ...
المتوسط ، وتطور المؤسسات الادارية والسياسية والنمو الاقتصادي .

نهاية آل كابية :

خلف فليب الرابع (١٢٨٥ – ١٣١٤) اباه فليب الثالث وتميز عهده باستمرار ...
التورط الفرنسي في اجزاء كبيرة من اوربا ، وقد حلت الهزائم بالجيش ...
في كثير من الحالات (...) . وبعد فليب الرابع كان يبدو ان اسرة كا... الاقرب ...

... على التوالي ... لويس العاشر ...
١٣١٤ – ١٣١٦) وفليب الخامس (١٣١٦ – ١٣٢٢) وشارل الرابع (١٣٢٢ –
١٣٢٨) ولم يعقب اي منهم مولودا (١٧) . وكان الهدوء يسود فرنسا بشكل عام في عهد هؤلاء الملوك الثلاثة . بل ان وفاة الاخير وانتهاء حكم آل كابيه الذي استمر ثلاثة قرون ، لم يثر في حينه اية مشكلة . فقد اختير فليب دي فالوا ملك لفرنسا وارتقى العرش باسم فليب السادس . وكان هذا اقرب الذكور الى الملك المتوفى وهو ابن اخ فليب الرابع . اما القريبات الاناث للملك المتوفي فقد تجاوزهن الفرنسيون وذلك تمشيا مع التقاليد الموروثة للبلاد التي لا تجيز تولي المرأة العرش .

حرب المئة العام (١٣٣٧ – ١٤٥٣)

مقدمة في احوال انكلترا وفرنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر :

يمكن القول بشكل عام ، ان تاريخ انكلترا وفرنسا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر يتميز باشتداد ساعد السلطة الملكية وتدهور المؤسسات الاقطاعيـــة . علما ان الطبقة النبيلة لم تختف من الميدان . انما الذي حدث هو ضعف سلطتها . وتقلص املاكها ، وان قوى اخرى ظهرت للوجود . لقد زادت سيطرة الحكومة الملكية ومدت هذه الحكومة نفوذها الى مختلف المجالات التي كان الكثير منها تحت هيمنة الارستقراطية . وقوة الحكومة المركزية يعني بالضرورة قوة السلطة المركزية علــى حساب السلطات المحلية . وازداد عدد المدن زيادة كبيرة في كل من انكلترا وفرنسا وازداد الدور الذي اخذ يلعبه سكانها البرجوازيون في المجالين السياسي والاقتصادي . ان ازدياد السلطة الملكية من ناحية وبروز البرجوازيين من ناحية اخرى هز كيان الطبقة الارستقراطية وزعزع نفوذها السياسي ومنزلتها الاجتماعية . لقد كان هنـــاك تشابه كبير بين انكلترا وفرنسا في كل هذه التطورات والواقع ان هذين القطريـن بينما كانا نموذجا للملكية الاقطاعية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر صارا نموذجا للملكية القوية في اواخر القرن الخامس عشر . وكلاهما سارتا بسرعة نحو تكوين الدولة القومية . ونعني بهذا ازدياد الحس الوطني العام في هذين البلدين . لقد اصبحت اللغة الانكليزية لغة قومية في كل انكلترا ، وحلت بذلك محل اللغـة الفرنسية كلغة للبلاط وللطبقة العليا في المجتمع . وفي فرنسا سادت اللغة الفرنسيـة على جميع اللغات المحلية ، واصبحت اللغة الشائعة الاستعمال في كل المملكة الفرنسية .

لقد جاءت الحرب بين القطرين والتي تعرف بحرب المئة العام لتبلور كل ما ذكر من مظاهر ولترسم مستقبلهما وتحدد مسيرتهما عند اجتيازهما العصر الوسيط وولوجهما العصر الحديث .

سميت هذه بحرب المئة العام ليس لان القتال فيها استمر متواصلا مئة عام فعلا ، ولكن لان الاسباب التي اندلعت من اجلها الحرب قد استغرقت تسويتها كل تلك المدة .

اما تلك الاسباب فهي كثيرة يعود البعض منها الى عهود بعيدة وربما الى الفتح النورماندى لانكلترا عام ١٠٦٦ ومما لاشك فيه ان الانكليز هم الذين اشعلوا حرب المئة عام وان الملك ادوارد الثالث هوالذى اجج نيرانها . متخذا من ادعائه بالعرش الفرنسي ذريعة وحجة معلنة لخوض غمار تلك الحرب .

لقد سبق الكلام عن اختيار فيليب دى فالوا عام ١٣٢٨ ملكا لفرنسا فاعتلى العرش باسم فيليب السادس ، ذلك انه اقرب الذكور الى الملك المتوفي شارل الرابع متجاوزين الاناث وذلك طبقا للقوانين والتقاليد الموروثة التي لا تجيز تولي المرأة العرش كما لا تجيز انتقاله عن طريقها الى ابنائها . وعلى هذا استبعد ادوارد الثالث ملك انكلترا وهو حفيد فيليب الرابع من ابنته ازابيلا . ولعل المهم في الامر ان ادوارد الثالث لم يثر اى اعتراض في حينه . والواقع حتى لو اخذ بمبدأ وراثة المرأة للعرش الفرنسي فان هناك من هو اقرب من ادوارد واحق منه بالعرش . فهناك على سبيل المثال جيني [Geanne] بنت لويس العاشر اى ابنة اخ الملك المتوفي . والاكثر من هذا اهمية ان ادوارد الثالث نفسه كان قد ادى في عام ١٣٢٩ يمين الولاء الاقطاعي امام فيليب السادس بصفته سيده الاقطاعي ، وذلك لاحتفاظ ادوارد الثالث ببعض الاراضي الاقطاعية على الارض الفرنسية من هذا يتضح ان قضية وراثة العرش لم تكن الا مبررا للحرب . اضف الى هذا ، قد لا يمكن للمرء ان يتصور الانكليز يندفعون وراء ملكهم الشاب فيخوضون غمار تلك الحرب المدمرة والباهضة التكاليف لمجرد ارضاء الطموح الشخصي لذلك الملك ، دون ان تكون لهم اهداف ومصالح اساسية . ان الاسباب الحقيقية لحرب المئة عام ، هي بكل تأكيد غير ذلك السبب المعلن عنه ، اى وراثة العرش الفرنسي . ويمكن اجمال تلك الاسباب بما يأتي : (١٧).



١- المسألة الاسكوتلندية هي اخطر المشاكل التي كانت تعاني منها انكلترا فقد كان الانكليز يحاولون منذ الفتح النورماندى مد نفوذهم الى اسكوتلندة . ولكن مقاومة الاسكوتلنديين كانت شديدة دائما . وتلقى الاسكوتلنديون في نضالهم ضد الانكليز العون من الفرنسيين وصار من سياسة ملوك فرنسا التقليدية اثارة الاسكوتلنديين ودفعهم الى محاربة الانكليز ، واخيرا وفي عهد ادوارد الاول استطاع الانكليز فرض هيمنتهم على اسكوتلندة . ولكن الاسكوتلنديين ثاروا في عهد ادوارد الثاني بقيادة ملكهم روبرت بروس ورفضه التبعية لملك انكلترا ، والحق بالجيوش الانكليزية هزيمة ساحقة اضطر معها ادوارد الثالث الى الاعتراف باستقلال اسكوتلندة . ومن حسن حظ الانكليز ، قامت ثورة مضادة في اسكوتلندة ضد ديفيد بن روبرت بروس وهرع ادوارد الثالث لنجدة الثوار والحق هزيمة ماحقة بديفيد بروس في ... الذي هل عام ١٣٤١ وارغمه على الفرار الى فرنسا . لقي الترحيب الحار من فيليب السادس . واعتبر الانكليز ذلك الترحيب اهانة لهم والاهم من هذا انهم اعتبروا وجود ديفيد بروس في فرنسا تهديدا دائما لسيطرتهم ونفوذهم في اسكوتلندة .

٢- ومن الاسباب المهمة لحرب المئة العام هي الممتلكات العائدة الى ملوك انكلترا في الارض الفرنسية ، وقد استعاد الملوك الفرنسيون اغلب تلك الممتلكات ولكن بقيت هناك بعض الجيوب في جنوب فرنسا منها غوين (Guieme) وكاسكوني وان احتفاظ ملوك الانكليز بهذه المناطق ، بل وادعاؤهم بحقوقهم في مناطق اخرى ... كانت تحت سيادتهم سببا دائما للنزاع ومصدرا مهما للاحتكاك .

٣- ثم هناك مشكلة الفلاندرز وهي تشبه المشكلة الاسكوتلندية من الجانب الآخر. كانت الفلاندرز مقاطعة لملك فرنسا ولكن اميرها كان يطمع بالسيادة الكاملة وكان في صراع دائم مع ملك فرنسا سيده الاقطاعي ، من اجل الاحتفاظ بكيان امارته ... وكما كان الاسكتلنديون يتلقون العون والتحريض من ملوك فرنسا ، كان امراء الفلاندرز يتلقون مثل ذلك من ملوك انكلترا (١٨) . وكان هدف الملوك الانكليز ... لذلك اضعاف وتفتيت السلطة الملكية الفرنسية .

ومما زاد الامر خطورة وتعقيدا بالنسبة لمشكلة الفلاندرز : ظهور كثير من

جميعا طبقة برجوازية غنية وقوية وطموحة ارتبطت مصالحها بالانكليز اكثر من ارتباطها بالفرنسيين . وذلك ان الصناعة في كل مدن الفلاندرز تقريبا كانت تعتمد على الصوف الخام المستورد من انكلترا . لقد كانت مدن الفلاندرز حريصة في الحفاظ على استقلالها ، حذرة من امتداد الهيمنة الفرنسية عليها اذ قد تفقدها تلك الهيمنة امتيازاتها الموروثة من جهة وتعيق اتصالاتها التجارية مع انكلترا من جهة اخرى .

لقد استاء سكان الفلاندرز عندما حاول فليب الرابع بسط نفوذه عليهم . والان عندما اراد فليب السادس اتباع نفس السياسة ثارت مخاوفهم . وقد دفع هذا بادوارد الثالث الى استغلال الفرصة للتدخل ، ولجأ ادوارد الثالث في بداية الامر الى منع تصدير الصوف الخام الانكليزي الى مدن الفلاندرز . وكان غرضه من ذلك تعريض تجارة الصوف وصناعة النسيج في تلك المدن الى الدمار ، وذلك لدفع السكان الى الثورة ضد الفرنسيين . وقد نجح ادوارد الثالث في تحقيق هدفه هذا ، ففي اثناء انشغال ملك فرنسا بتمرد الفلاندرز ، شن الحرب على فرنسا .

ونزل ادوارد الثالث مع عشرة آلاف جندي على ساحل نورمانديا واتجه نحو الشرق عبر السين ، وكان يدمر في زحفه كل ما يستطيع تدميره . وسارع ملك فرنسا لمواجهته بقوات هي أضعف من القوات الانكليزية ، واستطاع ادوارد خوض نهر السوم واتخاذ موقع اكثر ملائمة للمعركة عند مرتفع كريسي (CReCY) وهنا وقعت اول معركة برية كبيرة سميت بموقعة كريسي انتهت بانتصار واضح للانكليز . وقد اظهرت المعركة كفاءة الاساليب الحربية الجديدة التي كان قد طورها الانكليز خلال حروبهم مع الاسكتلنديين والولزيين . لقد كان الجيش الفرنسي لا يزال يعتمد بدرجة رئيسية على الفرسان الاقطاعيين ، وقد حصدوا خلال المعركة بوابل من سهام الانكليز المجهزين بالاقواس الطويلة . لقد كانت معركة كريسي موشرا لا نحطاط اسلوب الحرب الاقطاعية .

على اية حال ، لا تصح المبالغة في قيمة معركة كريسي واهميتها ، فلم تترتب عليها نتائج عسكرية خطيرة . وكان لا يزال باستطاعة الفرنسيين ، بما لهم من موارد بشرية واقتصادية كبيرة ، وبما يملكون من شعور وطني ، ان يردوا الغزاة الانكليز على اعقابهم اذا ما توفرت لديهم القيادة السياسية والعسكرية الكفوءة ولم تحدث معركة اخرى طيلة العشر سنوات القادمة .

وقام الامير الاسود ، وهو الابن الاكبر لا دوارد الثالث ، بهجوم جديد على الفرنسيين وأوقع بهم هزيمة ما حقة عند بوانيه ، وقد وقع الملك الفرنسي جون الثاني الملقب بجون الطيب ، في الاسر .

ومن حسن حظ الفرنسيين ان انتظارهم لقيادة شجاعة وكفوءة لم يطل فقد وفر الامير شارل ابن الملك الاسير مثل تلك القيادة .

لقد اخذ الامير شارل بيده زمام تلك المملكة المهزومة وحكومتها المفككه ، وابدى من الشجاعة والقدرة ما حمل ادوارد الثالث على قبول الصلح وعقدت معاهدة بريتاني عام ١٣٦٠ ، بموجبها تنازل ادوارد الثالث رسميا عن ادعائه بالعرش الفرنسي مقابل تنازل ملك فرنسا له عن اكوتين واجزاء اخرى من الارض الفرنسية . كما وافق ادوارد الثالث على اطلاق سراح جون الثاني على ان يقدم له بعد ذلك فدية مالية كبيرة . وعندما عجز الفرنسيون عن تقديم المبلغ المطلوب ، فضل ذلك الفارس الشهم الرجوع للاسر وقد توفي في اسره في انكلترا عام ١٣٦٤ (١٩) .

واعتلى الامير شارل العرش الفرنسي باسم شارل الخامس وخلال عهده ١٣٦٤ – ١٣٨٠ سارت الحرب في صالح الفرنسيين . لقد جمع شارل الخامس او شارل العاقل كما كان يلقب ، في شخصه الحصافة السياسية والحذر والكفاءة وقد مكنته هذه الصفات من تهدئة الاوضاع وارجاع الثقة في نفوس الفرنسيين ، واستعادة هيبة الحكومة . وكانت كل هذه قد فقدت بعد الانتكاسات والهزائم التي احاقت بالفرنسيين وقام شارل بتنظيم الشؤون المالية كما انجز بعض الاصلاحات العسكرية المهمة كان في مقدمتها القضاء على ما يعرف بالكتائب الحرة وهذه عبارة عن عصابات تضم جنودا سابقين يقودهم بعض المغامرين كانت تجوب القطر تنهب وتدمر القرى والمدن . لقد خلص شارل فرنسا من شر هذه العصابات وضم الى جيشه ما استطاع أن يستخلصه منها . ونتيجة لا صلاحات شارل العسكرية ظهرت في ساحات القتال لاول مرة منذ بدء الحرب قوة فرنسية كفوءة ، كانت جديرة بمقارعة الانكليز ومنازلتهم (٢٠) .

واستمرت الحرب بين الفرنسيين والانكليز على الرغم من معاهدة بريتاني اذ لم ير شارل في تلك المعاهدة تسوية نهائية طالما انها انتزعت ارضا فرنسية ابقتها تحت السيطرة الانكليزية . وبرز في هذا الوقت قائد فرنسي محنك هو برتراند دي غوبسكلين ، كان حقا ابرز قائد فرنسي ابان حرب المئة العام ، قدر له قيادة

وكانت خطط برتراند دى غويسكلين العسكرية تتلخص في تجنب المعارك الكبيرة مثل كريس وبواتية واستدراج الانكليز ودفعهم الى التوغل في الاراضي الفرنسية ، حيث يستنزف السكان الفرنسيون المعادون قوتهم فيسهل على الجيش الفرنسي مهاجمتهم واستئصالهم . ومما ساعد الفرنسيين على تنفيذ هذه الخطة العسكرية الجديدة ضعف القيادة العسكرية الانكليزية في هذا الوقت بالذات فقد لقي الامير الاسود ، وهو اشهر القادة الانكليز ، حتفه . ولقي والده العجوز الملك ادوارد الثالث معارضة متزايدة من شعبه المتبرم بالحرب . وهكذا وبحلول عام ١٣٨٠ اصبحت للفرنسيين ، بقيادة شارل وضابطه الشجاع برتراند غويسكلين ، اليد العليا في الحرب ولم يبق في يد الانكليز من الارض الفرنسية الى الشيء القليل (٢١) .

وادركت المنية في العام المذكور كلا من شارل الخامس وقائده غويسكلين . وبموتهما ضاع امل الفرنسيين في النصر الحاسم السريع ، بل حلت بفرنسا النكبات والهزائم من جديد . ولا يعود هذا الى قوة الانكليز بقدر ما يعود الى ضعف الفرنسيين وتفرق كلمتهم كما يعود الى تزايد قوة دوق برغنديا ومحاولته تحطيم السلطة الملكية في فرنسا .

(٩) تزايد قوة برغنديا ودورها في الحرب :

وبرغنديا هذه هي احدى الامارات الاقطاعية المهمة التابعة للتاج الفرنسي . وكانت محتفظة بكيانها الذاتي ، دون ان تخضع بشكل تام للسيطرة الملكية . وبرزت قوتها بشكل خاص في اواخر القرن الرابع عشر تحت قيادة الدوق فيليب (١٣٦٣ - ١٤٠٤) . وفيليب هذا هو الاخ الاصغر لشارل الخامس ملك فرنسا . وقد اعطى هذه الامارة لضمان ولائه للاسرة الفرنسية ثم ان الملك شارل الخامس شجع اخاه الدوق فيليب على الزواج من مركريت وريثة عرش الفلاندرز وذلك للقضاء على ذلك التحالف التقليدى بين انكلترا والفلاندرز والذى سبق الكلام عنه . واستطاع الدوق فيليب مد نفوذه هنا وهناك واستولى على مناطق هي في الاساس جزء من الامبراطوريه الرومانية المقدسة اخيرا ضم اليه جميع الاراضي بين برغنديا والفلاندرز . وهكذا ضم اليه المدن التجارية الغنية في هولندة وجزء مهما من ساحل فرنسا الش[illegible]

[illegible] الحفاظ على سيادتها وتوسيع نفوذها في هذه الاجزاء [illegible]

ولفترة من الزمن مارس الدوق فيليب نفوذه على ابن اخيه الضعيف شارل ١٣٨٠ – ١٣٩٢ الذى خلف اباه شارل الخامس على عرش فرنسا واثار نفوذ[ه] استياء الكثير من الفرنسيين منهم دوق اورليان شقيق الملك . وفي عام ١٣٩٢ اصيب الملك شارل السادس باختلال في قواه العقلية . فنشب صراع بين [illegible] عائلته وانحصر ذلك الصراع بين معسكرين الاول بزعامة العم دوق فيليب والثاني بزعامة الاخ دوق اورليان وتوفي دوق فيليب عام ١٤٠٤ وخلفه ابنه جون الشجاع . ودبر هذا مؤامرة لاغتيال دوق اورليان الامر الذى أجج نيران حرب اهلية خطيرة في فرنسا بين المعسكرين البرغندي والاورلياني وفي خضم هذه الحرب الاهلية والفوضى التي صحبتها وقعت باريس بالذات ضحية لعصابات مخربة يقودها من يدعى سيمون كابوجي .

وبينما كانت فرنسا تعاني كل هذا التمزق والمحن ، كانت الملكية الانكليزية في ظل هنرى الرابع قد اظهرت حيوية وقدرة متميزتين . لقد استغل هنرى الرابع وابنه هنرى الخامس ١٤١٣ – ١٤٢٢ اوضاع فرنسا فقاما بغزو جديد لنورماندىا ودحر القوات الفرنسية في معركة اجنكورت (Agin Court) في عام ١٤١٥ . ومكنت هذه المعركة الانكليز من السيطرة على جميع نورماندىا وحاول البرغنديون والاورلياتيون تسوية خلافاتهما لمواجهة الخطر الانكليزى ، ولكن المحاولات فشلت عندما اغتيل زعيم البرغنديين دوق جون . وانتقاما لهذا الحادث اعلن البرغنديون تحالفهم مع الانكليز ضد العرش الفرنسي وبقية الفرنسيين (٢٢) . وامام التحالف الانكليزى – البرغندى القوى قبل الفرنسيون الصلح وعقدت معاهدة تروى عام ١٤٢٠ التي كانت مذلة ومهينة للفرنسيين ولملكهم بكل معنى الكلمة . فقد اجبر شارل السادس على قبول انتقال العرش الفرنسي من بعده الى هنرى الخامس ملك انكلترا بدلا من انتقاله الى ابنه ، على ان يتزوج هنرى الخامس اخت شارل السادس . كما اعترف هذا بالسيادة الانكليزية على اجزاء كبيرة من فرنسا . وفي عام ١٤٢٢ مات كل من هنرى الخامس وشارل السادس وانتقل عرش انكلترا الى هنرى السادس وهو من الناحية الرسمية كان ملكا لفرنسا ايضا بموجب معاهدة تروى الانفة الذكر . وصار دوق بدفورد وصيا على عرش فرنسا اثناء [illegible] الانكليزية في

فرنسا خاصة القسم الشمالي منها . وتعاون مع البرغنديين للقضاء على جيوب المقاومة الفرنسية .

على اية حال . كان وضع الانكليز في فرنسا اسوء مما قد يتصوره المـــرء لاول وهلة كان الفرنسيون جملة يناصبونهم العداء ، وينظرون لهم على انهم غرباء يختلفون عنهم في اللغة القومية . هذا وان الدوفين ابن شارل السادس رفض الاعتراف بما ورد في معاهدة تروى فيما يخص حرمانه من حقه في العرش الفرنسي . لقد تلقب بشارل السابع واقام له عاصمة مؤقتة واحتفظ له ببعض القوات العسكرية (٢٣) .

ولم يكن شارل يتميز بشيء يبشر بخير كثير الا ان كان يملك موهبة اختيار المساعدين والانصار ومن هؤلاء فتاة ريفية بسيطة اسمها جان دارك .

جان دارك :

صارت حياة جان دارك وسيرتها تشكل قصة عالمية . اثارت اهتمام الناس وشحذت قرائحهم عبر العصور . ونسبت لها امور كثيرة . قد يكون اكثرها من نسج الخيال . ومن الحق ان يقال انها لم تقم وحدها في طرد الانكليز من فرنسا . حقا لقد كانت انجازاتها العسكرية رائعة . ولكنها لم تكن حاسمة . ودورها الرئيس يتلخص في شيء واحد هو انها بلورت الشعور الوطني الفرنسي . يظهر ذلك في هذه العبارة الرائعة التي قالتها : ما رأيت دما فرنسيا يسيل الا وشعرت ان دمي انا هو الذي يسيل .

وجان دارك فلاحة بسيطة . كانت تعيش في قرية صغيرة تقع على حدود اللورين . وشهدت تلك المنطقة حربا عنيفة بين البرغنديين والاورليانيين . وكانت هي نفسها تكره البرغنديين . فهي على علم بما سببه هؤلاء لفرنسا من مصائب ومحن . ولم تكن جان دارك مثقفة ولكنها كانت ذكية وفطنة . والاهم من هذا وذاك انها تملك شعورا وطنيا وقادا . كانت متدينة تؤمن بالعذراء وبالقديسين خاصة ميخائيل والقديستين كاترين ومركريت (٢٤) .

وبدأ يخيل لها انها تسمع اصوات القديسين والعذراء وكانوا كلهم يطلبون اليها الذهاب الى الملك لتقنعه بالمجيء الى ريمس ليتوج فيها . وعندما الحت عليها الاصوات اتصلت باحد ضباط الملك شارل السابع . القريب من قريتها وقصت عليه قصة الاصوات التي تسمعها فاقتنع ... جهزها بما تحتاج اليه وارسلها الى الملك .

والبرغنديون معظمها .. وتشكك رجال الملك وحاشيته في امر هذه الفتاة التي ترتدي ملابس الرجال وتدعي ان هناك اصواتا تناديها . ولكن الملك اقتنع بها وربما كان يرى ان اي شيء خير من لا شيء . لقد جهزها شارل بفرس وسلاح ووضعها على رأس قوة صغيرة من الرجال .

واثار ظهور جان دارك حماس الفرنسيين واعاد الى الجنود الفرنسيين المتخاذلين ايمانهم وثقتهم المفقودتين . لقد حثت مواطنيها على الحرب ودفعتهم للتقدم . آمن الجنود بها واعتقدوا انهم انما يقاتلون الان مع قديسة وان النصر لابد منه . وكان اول انتصار حققته جان دارك هو رفع حصار الانكليز عن مدينة اورليان في عام ١٤٢٨ . وزاد هذا الانتصار من ايمان الجنود بها حتى انهم اعتقدوا بانها بعثت اليهم من السماء ، في حين اثار ذلك الانتصار الرعب في قلوب الجنود الانكليز الذين اعتقدوا انها ساحرة رمى بها الشيطان اليهم .

وفقد شارل السابع الكثير من حماسة بعد تحرير اورليان ، ولكن جان دارك لم تترك له مجالا . لقد اصرت انها لا تزال تستمع الى الاصوات وهي تناديها وتلح عليها بضرورة ذهاب الملك الى ريمس ليتوج هناك . ومن وجهة نظر عسكرية صرفة ، ربما كان الهجوم على باريس في تلك اللحظة افضل من الذهاب الى ريمس . ولكن رحيل الى ريمس والتتويج بالطريقة التقليدية القديمة كان رمزا لنجاح الفرنسيين فشارل السابع الذي كان موضع سخرية الانكليز والبرغنديين قبل زمن قصير هو الان بعد التتويج ملكا شرعيا لفرنسا .

ولم يكن شارل السابع على استعداد للسير قدما في الحرب على الرغم من نجاح جان دارك وتوسلاتها . ولم تعط الا عدد قليل من الجند وشيء قليل من السلاح لمواصلة القتال . ووقعت جان دارك اسيرة بيد البرغنديين . فسلمها هؤلاء بدورهم الى الانكليز .

واودعت جان دارك السجن لمدة تسعة اشهر قدمت بعدها الى المحاكمة في عام ١٤٣١ لتحاكم امام احدى محاكم التفتيش بتهمة السحر والهرطقة . ولعل محاكمة جان دارك هي من اهم المحاكمات في التاريخ . لقد كان اعتقاد القضاة انها فتاة مسحورة . لقد سألوها فيما اذا كانت ترغب او تقبل ان تقرر الكنيسة طبيعة الاصوات التي تدعي انها تسمعها . فهل هي اصوات سماوية قدسية ام انها اصوات شيطانية شريرة . كان رفض جان دارك الاجابة وعدم قبولها قرار الكنيسة بشأن طبيعة تلك الاصوات

لقد بقيت جان دارك صامدة امام قضاتها القساة المتحاملين وحاولت تجنب الاسئلة الكثيرة والمحرجة التي كانوا يمطرونها بها . وعندما هددت بالتعذيب قبل الاعتراف بان ما كانت تسمعه كان هذيانا وهجرا . وعندما رجعت الى زنزانتها ندمت على ذلك الاعتراف ورجعت عنه . وعلى هذا توصل قضاتها الى قرار مصيرها ليس لكونها متهرطقة وساحرة بل لانها متهرطقة ومرتدة . وتستحق مثل هذه المجرمة اقصى العقوبات . وهنا احيلت جان دارك الى محكمة مدينة انكليزية اصدرت عليها حكما بالحرق وتم ذلك في مدينة روان (٢٥) . وماتت جان دارك على المحرقة وهي لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها ، فقد ولدت سنة ١٤١٢ واحرقت سنة ١٤٣١ .

انتهت قصة جان دارك ولم تنته قصة فرنسا وقصة نضال الفرنسيين من اجل تحرير بلادهم . وبلغ الحماس الوطني اشده بحرق الانكليز لجان دارك . ولم يعد باستطاعة شارل السابع التواني . بل اندفع في خوض معركة التحرير بحماس وفاوض البرغنديين وتوصل الى عقد اتفاق معهم في مؤتمر آراس عام ١٤٣٥ . قبل بموجبه التنازل لهم عن بعض الاراضي لقاء فك ارتباطهم وتحالفهم مع الانكليز . واستمر القتال مع الانكليز عشرين سنة اخرى ، كان للفرنسيين خلالها اليد العليا . وحصل شارل السابع على المال اللازم من مجلس الطبقات كما حصل على كثير من القروض من البنوك ومن اصحاب الاموال البرجوازيين . واعاد تنظيم جيشه وزاد من عدد جنوده . وكان البارود معروفا في هذا الوقت فمكنه هذا من صنع نوع من المدافع البدائية . وفي عام ١٤٥٣ طرد الانكليز من نورماندیا ولم يبق في ايديهم سوى كالية على الساحل وبقيت هذه في يدهم لقرن آخر وهي كل ما تبقى لهم من اراضي وادعاءات في الارض الفرنسية . لقد بدأت حرب المئة عام كحرب اقطاعية وانتهت كحرب قومية . ومن اهم نتائجها الفصل النهائي بين انكلترا وفرنسا واثارة الروح الوطنية في كلاهما . وهذه الحرب التي بدأت دون اعلان حرب انتهت دون عقد معاهدة .

فرنسا في اواخر القرن الخامس عشر :

انتهت حرب المئة العام بانتصار فرنسا . وكان على حكامها ازالة الاثار السيئة التي خلفتها الحرب واعادة بناء البلاد وتعزيز الوحدة الوطنية وتقوية السلطة المركزية . و... المهمة الاولى امام الفرنسيين هي الحد من قو... ...يا . فدوق برغنديا جون ... (١٤٠٤ – ١٤١٩) مثلا ، لم يكن يحكم بر...يا فقط بل كان يحكم ايضا

دوق فيليب الطيب (١٤١٩ – ١٤٦٧) ليضيف الى املاكه نامور ولكسمبرج ويمارس نفوذا كبيرا على اترخت وليج وكمباري . والواقع كان هدف فيليب وخليفته دوق شارل (١٤٦٧ – ١٤٧٧) بناء دولة وسط قوية بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة .

ولتحقيق الهدف المذكور ولضمان وحدة املاكه الجغرافية اضاف اليها عن طريق الشراء اراضي جديدة في اللورين واعالي الالزاس ولاقناع اوربا كلها بدولة برغنديا القوية المستقلة اهتم دوق شارل اهتماما بالغا ببلاطه واحاطه بكل مظاهر الابهة الملكية . والف كوكبة من الفرسان تحيط بمقرة ليس لها نظير في اوربا كلها . وكان يصرف بسخاء فأم بلاطه الادباء والفنانون .

لويس الحادى عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣) :

ولكن جهود دوقات برغنديا وطموحاتهم تحطمت امام لويس الحادى عشر ملك فرنسا بل اقدر ملوك اوربا في القرن الخامس عشر . ولويس الحادي عشر هو ابن شارل السابع . وبالاضافة الى كفاءته وقدرته الشخصية التي لم تكن لتباري احد معاصريه فانه احاط نفسه بمجموعة من الرجال ذوى السمعة الطيبة والكفاءة المتميزة . واغلبهم من الطبقة العامة . وكان هو نفسه يفضل دائما الاختلاط بابناء هذه الطبقة وبسكان المدن مفضلا اياهم على النبلاء والطبقة الارستقراطية . كانت بعض اطواره غريبة وكانت الملابس التي يرتديها اكثر غرابة من اى شئ . لقد كان صغير الجسم قبيح المنظر ولكنه كان فطنا يتوقد ذكاء كان دبلوماسيا حاذقا واداريا ماهرا لم يكن ليضاهيه احد من معاصريه في هذا وذاك .

حاول دوق شارل تكوين حلف من النبلاء الفرنسيين المتبرمين من ازدياد السلطة الملكية الفرنسية والوجلين من سياسة لويس الحادى عشر العدائية . فقامت بذلك عصبة الارادة العامة . والواقع ان هذه العصبة تمثل الرجعية الاقطاعية . وكانت عصبة قوية فعلا . وقام لويس الحادي عشر بمقاومتها بما عرف عنه من حذق وفطنة فقدم الرشاوى الكبيرة لبعض النبلاء المساهمين فيها من جهة وحرض سكان الالزاس الخاضعين لدوق برغنديا والسويسريين الساخطين على البرغنديين على الثورة . وعندما حاول الدوق شارل غزو سويسرا دحر وقتل هناك في عام ١٤٧٧ . وبموته انتهى امر العصبة المذكورة . وانتهز لويس الحادى عشر هذه الفرصة لكسر شوكة دوقية

برغنديا وللهيمنة على اجزاء مهمة من املاكها . ولم تستطع مارى التي خلفت اباها دوق شارل مقاومة لويس الذى ضم فعلا اليه كونتية برغنديا الاصلية والجزء الجنوبي من الفلاندرز . ولم يبق لماري سوى الاراضي المنخفضة وجزءا من الفلاندرز . ولم يكن بمقدورها الحفاظ على هذه ايضا لولا زواجها من مكسمليان آل هبسبرغ ارشدوق النمسا ووريث عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وما ان حلت نهاية القرن الخامس عشر الا وكانت جميع الاقطاعيات والامارات الاقطاعية التي كانت قد احتفظت باستقلالها الكامل او بنوع من ذلك الاستقلال لقرون طويلة ، قد ادمجت بالمملكة الفرنسية (٢٧) . واخضعت بشكل مباشر للسلطة المركزية . ومع هذا فقد بقي هناك عدد كبير جدا من النبلاء الصغار منتشرين في انحاء فرنسا لا يزالون محتفظين بشيء من الاستقلال يتمتعون بقدر من الامتيازات الاقطاعية .

لقد خطت فرنسا خلال القرن الخامس عشر خطوات مهمة في الابتعاد عن الحياة الاقطاعية وفي الاقتراب من نظم الحياة الحديثة . على الرغم مما سببته حرب المئة عام من ردة اقطاعية . فان الفوضى التي ولدتها الحرب وفقدان السلطة الملكية وانتشار العصابات والمحاربين الغير نظاميين . قد مكن النبلاء من استعادة الكثير من هيمنتهم الاقطاعية السابقة . ولكن انتصارهم كان محدودا ومؤقتا . فقد استعادت الحكومة المركزية سيطرتها بعد انتهاء الحرب لتثبيت وجودها ولتمارس ضغطها على رجال الاقطاع والمؤسسات الاقطاعية .

وكان مجلس الطبقات (Estate General) قد استفاد من اسر الملك جون ومن سجنه في انكلترا ومن الفوضى السائدة في فرنسا ليعزز سلطته في الاشراف على الايرادات المصروفات لمراقبة اعمال موظفي الملك . ولفترة ما في اواسط القرن الرابع عشر كان يبدو وكأن مجلس الطبقات سيحتل منزلة مهمة في الحياة السياسية في فرنسا شبيهة بتلك المنزلة التي يحتلها البرلمان الانكليزى في انكلترا . ولكن لم يحدث هذا لاسباب عدة منها سوء تصرف بعض اعضاء مجلس الطبقات فقد حدث ان احد زعماء هذا المجلس اتين مارسل ، وكان من ممثلي الطبقة العامة البرجوازية ، قد استغل وجوده في المجلس المذكور وقام باغتيال مجموعة من وزراء الملك غير المرغوب فيهم وتآمر مع شارل نافارا الملقب بالرديء والمدعي بالعرش الفرنسي . والواقع ان مارسل قد اغضب الجميع حتى اهل باريس الذين ناصروه في بداية الامر ، وذلك بسبب تعاونه مع ... رجية .

كل انحاء فرنسا من تزايد سلطات هذا المجلس المركزى .

وفي خلال السنوات الاخيرة من حرب المئة العام ، ولغرض اعادة تنظيم الجيش الفرنسي لوضع حد ونهاية للحرب وفي غمرة الحماس الوطني ، خول مجلس الطبقات الملك حق فرض ضريبة مباشرة على الارض . وقد صارت هذه الضريبة وطنية ، عملت الى حد كبير في جعل الملك مستقلا ماليا . وعلى هذا الاساس لم يعد لمجلس الطبقات . كما كان الحال بالنسبة للبرلمان الانكليزى . سلطة فعلية ورقيبة على سياسة الملك الفرنسي بل اصبح مجلس الطبقات في الواقع لا فائدة فيه وقلما عمد لويس الحادى عشر الى عقده . اذ ان من اهم اسباب قوة البرلمان الانكليزى هو ان الضرائب لا تصبح شرعية دون موافقته عليها .

ورعى لويس الحادى عشر مصالح الطبقة البرجوازية . فرأت هذه الطبقة القوية ان لا حاجة لها بكل المؤسسات الاقطاعية ومن جملتها مجلس الطبقات . وان باستطاعة الملكية القوية ان توفر لها ما تشاء من رعاية وحماية وبحلول عام ١٥٠٠ كان ملوك فرنسا قد نجحوا في اخضاع كل الامراء الاقطاعيين وبسطوا سيطرتهم على المدن . والى حد كبير اخضعوا الكنيسة للسيطرة الملكية . اذ ما بدأه ملوك فرنسا في القرن الثالث عشر اتمه لويس الحادي عشر ولكن فرنسا لم تصبح ذات حكومة مركزية بالمقاييس الحديثة . فقد بقيت هناك فروق محلية في العادات والقوانين وحتى في اللغات واللهجات وفي المقاييس والمكاييل والاوزان . ولكن السلطة الملكية كانت قوية بكل تأكيد . هذا هو المؤشر لما سيكون عليه الحال في المستقبل .

G.B. Adams, Groth of the French Nation, Chapters. VI VII.

I bid.

I bid.

Thompson, op. cit., pp. 463–489.

I bid.

The Shorter Cambridge MedieVal History vol., 11 pp. 703.

I bid.

(9) Thompson, op. cit., pp. 495–500.

(10) I bid, pp. 495–500.

(11) Davis, p. cit., pp. 382–391

(12) O' Sullivan, op. cit., pp. 413– 415., Thompson, op. cit., p. 507.

(13) The Shorter Cambridge History Vol. 11, pp. 714–715

(14) I bid.

(15) McDonald, J. R. History of France Vol. 1 Chapter VII–VIII.

(16)

(17) Myers, A.R. Enghand in the Late Middle Ages (1307–1536) pp. 7–13

(18) I bid.

(19) Hayes, op. cit.,

(20) I bid.



(21) ... p. cit., ... 208–240

(22) T. F. Tout, France and England Their Relati Os in the Middle Ages and now. Manchester: 1922.

(23) I bid.

(24) Hayes p. cit., pp.

(25) I bid.

(26) The Shorter Cambridge Medieval History Vol. 11, pp. 1126–1135.

(27) I bid.

(28) I bid.

١ - مقدمة فى تطور الامبراطورية .
٢ - المانيا بعد معاهدة فردان (٨٤٣ - ٩١٩)
٣ - المانيا في عهد الاسرة السكسونية (٩١٩ - ١٠٢٤)
قيام الامبراطورية
١ - هنرى الاول (٩١٩ - ٩٣٦)
٢ - اوتو الاول - الكبير (٩١٩ - ٩٧٣)
٣ - خلفاء اوتو الكبير من الاسرة السكسونية
٤ - المانيا في عهد الاسرة الفرانكونية - بدايات الصراع مع البابوية
١ - كونراد الثاني (١١٢٤ - ١١٣٩)
٢ - هنرى الثالث (١١٣٩ - ١٠٥٦)
٣ - هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦)
آ - مقدمة في حركة الاصلاح الديني
ب - الصراع مع البابوية
٥ - المانيا في عهد هوهنشتاوفن - استمرار الصراع مع البابوية
١ - فردريك بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠)
٢ - هنرى السادس (١١٩٠ - ١١٩٧)
٣ - الامبراطورية الالمانية بعد هنرى السادس
٤ - فردريك الثاني (١١١٥ - ١٢٥٠)
٦ - المانيا بعد عام ١٢٥٠ .

١ – مقدمة في تطور فكرة الامبراطورية :

انتهت الامبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦ ، وذلك بقيام ادواكر بعزل الامبراطور الضعيف روميليوس اوغسطولس وارساله شعار الامبراطورية الى القسطنطينية اشارة الى اعترافه بالامبراطور هناك . ومهما تكن ضيعة ذلك الاعتراف فانه بحد ذاته دلالة على عمق فكرة الامبراطورية ورسوخها حتى بالنسبة الى اولئك الجرمان المتبربرين .

ولم تكن هناك من الناحية العملية . للامبراطور البيزنطي اية سيطرة او نفوذ فعلي على ايطاليا او اى جزء من اجزاء الامبراطورية الرومانية القديمة في الغرب . هذا وان تكن قد راودت بعض الاباطرة الشرقيين فكرة احياء الامبراطورية الرومانية القديمة واعادة الهيمنة على ايطاليا . وغيرها من الاقاليم الغربية . وقام الامبراطور جستنيان بتنفيذ مثل هذا المشروع فعلا في القرن السادس وبسط حملاته الى ايطاليا وشمال افريقيا . وقد سبق الكلام عن تلك الحملات . ويخيل الى معاصري الامبراطور جستنيان انه نجح في اعادة الامبراطورية الرومانية . ولكن الواقع لم يكن كذلك . وكانت الاسس التي اشاد عليها جستنيان امبراطوريته الجديدة في الغرب ضعيفة وواهية . وسرعان ما انهارت من بعده فاستولى اللومبارديون على ايطاليا . واحتل العرب شمال افريقيا .

وتباعدت الشقة بين الشرق والغرب ، وجلبت الحركة اللا ايقونية في الشرق وتبني الامبراطور ليو الايسوري لتلك الحركة فازدادت الشقة اتساعا . واعترض البابوات بشدة على اللا ايقونية . واتخذوا منها مبررا للتخلص من نفوذ الاباطرة الشرقيين في ايطاليا . بل عمد البابا غريغوري الثاني (٧١٥ – ٧٣١) الى اصدار قرار بحرمان الامبراطور اللاايقوني ليو الايسوري . ورد الامبراطور على قرار الحرمان بمصادرة املاك البابوية في صقلية وجنوب ايطاليا . وهكذا استحكم العداء والبغض بين مسيحيي الشرق والغرب . ولم يعد هناك من الناحية العملية امبراطور معترف به في الغرب ولكن فكرة الامبراطورية لم تمت .

وقامت مملكة الفرنجة في اوروبا ، وحظيت منذ البداية بتأييد البابوية ومؤازرتها واستطاع شارلمان بسط نفوذه في اغلب الاجزاء التي كانت تضمها الامبراطورية

الرومانية في الغرب . وناصر شارلمان الكنيسة في كل شأن من شؤونها ، ودفع
البابوية خطر اللومبارديين ، وحارب المسلمين والبيزنطيين ، واعطى جزءاً من ا
هؤلاء في ايطاليا الى البابا . وعندما تعرض البابا ليو الثالث (٧٩٥ – ٨١٦) ش
للمهانة والاذى من خصومه الكثيرين وقف شارلمان الى جانبه ، واعترافا بـ
شارلمان وتحقيقا للفكرة الامبراطورية التي قلنا انها لم تمت ، قام البابا خلال الا
بعيد الميلاد في روما عام (٨٠٠) بوضع التاج على رأس شارلمان محققا بذلك
ببعث الامبراطورية الرومانية الغربية .

ويرى بعض المؤرخين ان هذه كانت البداية للامبراطورية الرومانية ا
التي ظهرت وتمت في العصور الوسطى والتي استمرت بشكل او بآخر الى
١٨٠٦ حيث الغيت نهائيا . كما يرى هذا الفريق من المؤرخين انه وجدت
تتويج شارلمان عام ٨٠٠ امبراطوريتان مسيحيتان واحدة شرقية واخرى غر
ويعتقد فريق اخر من المؤرخين غير ذلك ، فيرى انه لم تكن هناك سوى امبرا
واحدة فقط ، هي الامبراطورية الرومانية التي كانت قائمة فعلا والمقصود بـ
الامبراطورية البيزنطية في الشرق . وان تتويج شارلمان لم يكن المقصود به
امبراطورية جديدة في الغرب ، بل انتخاب امبراطور آخر في نطاق الامبر
القائمة . وذلك ان وجود امبراطوريتين يتنافى من حيث الاساس مع
الامبراطورية . تلك الفكرة التي تستند اساسا الى الوحدة (١)

وعمق تتويج شارلمان امبراطورا الخلاف وسعض بين الشرق والغ
لقد نظرت القسطنطينية الى المنافس الغربي الجديد في انفة وازدراء ، وانكر
عليه هذا الادعاء . ولم يكن في نظرها يعدو ان يكون ملكا جرمانيا بربريا ،
ليس امبراطورا ولا رومانيا . ولم تكن الظروف السياسية والعسكرية المحيط
بالامبراطور الشرقي في تلك الفترة تؤهله لمواصلة الجدل في هذا الموضوع ولا
الاعتراض عليه . بل اضطر الامبراطور البيزنطي في عام ٨١٢ الى الاعتـ
بالامبراطور شارلمان ، ودفع ضعف الامبراطورية الكارولنجيه بعد شارل
وتفتت اجزائها بالاباطرة الشرقيين الى تجاهل اعترافهم الانف الذكر (٢) .

جاءت معاهدة فردان عام ٨٤٣ لتقسيم امبراطورية شارلمان وكانت ابطـ
واجزاء اخرى من تلك الامبراطورية من تصيب لوثر الابن الاكبر للويس
كما احتفظ لوثر باللقب الامبراطوري ، وتعرضت مملكة لوثر الى تقسمات
بين الابناء والاحفاد . . . تبعا لتقاليد الفرنجة الخاصة بالوراثة وصار . . .
ذلك الشخص الذى . . . ل لقب الامبراطور من الارض ونصيبه من . . .

. . . في . . . الا . . .
ايطاليا ، ثم تلاشت هذه نهائيا في عام ٩٢٤ . ولكن فكرة الامبراطوريـة
. . . لبثت ان انبعثت من جديد بعد فترة قصيرة من الزمن لتكن المانيا مجالها هذه المرة
. . . الملوك الالمان ابطالها والباعثين لها .

المانيا بعد معاهدة فردان (٨٤٣ – ٩١٩)

كانت المانيا – وهي مملكة الفرنجة الشرقية – من حصة لويس الالماني ،
وقد خلفه ثلاثة من افراد عائلته كان آخرهم لويس الصغير (٨٩٩ – ٩١١) وبوفاته
انتهى حكم الاسرة الكارولنجيه في المانيا . وقد تميز حكم الملوك المتأخرين منهم
بظاهرتين ، الاولى منها اشتداد الخطر الثاني من ناحية الشرق والمتمثل بهجمات
السلاف والهنغاريين ، والظاهرة الاخرى ، ازدياد نفوذ امراء الاقطاع الالمان او
الدوقات ورسوخ نفوذهم في دوقياتهم . وعند انتهاء حكم الكارولنجيين في عام
٩١١ كانت هناك اربع دوقيات كبيرة في المانيا هي سكسونيا في الشمال الشرقي
بافاريا في الجنوب وسوابيا في جهات الراين العليا وفرانكونيا في جهات الرايـن
الوسطى . وكان مبدأ الانتخاب هو السائد في المانيا ، وعلى هذا فقد انتخب الدوق
كونراد (٩١١ – ٩١٨) دوق فرانكونيا ملكا على المانيا ، ولكن حكمه كان قصيرا ،
وعهده لم يكن مهما باى شكل من الاشكال (٤) . وعند وفاته انتخب الدوق هنرى
دوق سكسونيا ملكا . وبه يتخذ التاريخ الالماني مجرى جديدا متميزا .

وقبل الافاضة في تاريخ المانيا في العصور الوسطى ، نقتبس هذا التلخيص
الرائع لتاريخ المانيا للبروفسور جيمس و . تومبسون ، احد كبار المختصين بتاريخ
العصور الوسطى والمهتمين بالتاريخ الالماني بشكل خاص (٥) :

لقد كانت المانيا خلال القرون الثلاثة : العاشر والحادى عشر والثاني عشر
اقوى دولة في اوربا . وقد ارست الاسرة المالكة الاولى وهي الاسرة السكسونية
بين عامي ٩١٩ و ١٠٢٤ اسس تلك القوة . وفي عهد الاسرة الثانية وهي الاسرة
الفرانكونية (١٠٢٤ – ١١٢٥) حققت المانيا انتصارا وجيزا في منتصف القـرن
الحادى عشر تلته المرحلة الاولى من مراحل الهبوط . وفي عهد اسرة الهوهنشتاوفن
(١١٣٨ – ١٢٥٤) ، سمت المانيا الى اعلى درجات القوة ، لتنحدر منها بسرعة
الى ادنى درجات الهبوط ، وقد اخذت مكانتها فرنسا . ولم تستطع المانيا استرجاع
مركزها ابدا الا في عام ١٨٧١ . وهذا ان اصح القول انها استرجعتها او ستسترجعها

على الاطلاق . وقصة ارتقاء المانيا ما هي الا قصة معاركها الظافرة ضد الاقطا
وتاريخ سقوطها وهبوطها ما هو الا تاريخ نجاح الاقطاع وانتصار البابوية .

٣ - المانيا في عهد الاسرة السكسونية :

١ - هنري الاول - هنري فاولر - (٩١٩ - ٩٣٦)

وهو اول الملوك السكسون ، بل ان هنري الاول هو الذي اسس كثيرا القواعد الخاصة بالسياستين الداخلية والخارجية والتي سار عليها ملوك الا كسونية الذين جاءوا من بعده . ففي مجال السياسة الداخلية ركز هـــري الا جهوده على سكسونيا مكتفيا من بقية الامراء الالمان بالاعتراف بسيادته التدخل في شؤونهم ، بل ان سياسته في هذا المجال تتلخص بالمبدأ القائل - عش ودع الاخرين يعيشوا - . اما في مجال السياسة الخارجية ، فقد كانت حد المانيا الشرقية مهددة بشكل خطير ، خاصة من الهنغاريين ، واعتاد الملوك ال سبقوه اعطاء الجزية للهنغاريين ابتغاء وقف هجماتهم . واستطاع هنري الا الوقوف في وجه الهنغاريين وذلك بما اعده من جيش وبما بناه من قلاع . وعن جاء وفد من الهنغاريين اليه عام ٩٣٣ لاستلام الجزية المعتادة ما كان منه الا ان اعط جثة كلب ميتة بدلا من الجزية المطلوبة (٦) وكان هذا ايذانا بالحرب بطبيع الحال ، حيث دحر الهنغاريين شر اندحار . ودحر هنري السلاف كذلك عا ٩٢٨ ، بل واخضع هؤلاء للنفوذ الالماني ، واوقع الهزيمة بالدنماركيين في منط شلزفيك . وهكذا كانت فترة حكم هنري الاول التي امتدت ثماني عشرة س مليئة بالانتصارات العسكرية .أوتو الاول -الكبير - (٩٣٦ - ٩٧٣)

اوتو الاول - الكبير - (٩٣٦ - ٩٧٣)

اذا اعتبرت الاسرة السكسونية اعظم الاسر المالكة الالمانية خلال العصـــ الوسطى فان اوتو هو اعظم ملوك تلك الاسرة . واذا كانت المانيا قد بلغت اقصى درجات القوة والنفوذ في اوربا خلال القرنين العاشر والحادي عشر فان لجهود هذا الملك الفضل الاول في ذلك (٧) . لم يتبع خطى ابيه في الاكتفاء من الامراء الالمان بالاعتراف الاسمي له ، ولم تقتصر جهوده على ولاية سكسونيا بل لم يقبل من اولئك الامراء الا الخضوع التام للسلطة الملكية ، كما انه اراد فرض تلك السلطة علـــى المانيا كلـــها . وقد يقـــال بشئ قليـــ مـــن التردد ان اوتو كـــان اشـــد المتحمـــسين لبنـــ

في التاريخ الالماني ومن هنا جاء لقبه الكبير

وحقق اوتو الكبير نجاحا كبيرا في حفظ حدود المانيا وفي مد تلك الحدود في اتجاه الشرق . وكان اوتو قد قضى السنوات الاولى من عهده في ضرب الامراء المتمردين ثم شرع في تنظيم شؤون مملكته . وتميز باتباعه سياسة خاصة تجـــاه الاساقفة تتلخص في مساندتهم والاعتماد عليهم من جهة واحكام السيطرة الملكية عليهم من جهة اخرى . لقد منح اوتو الاساقفة ورؤساء الاساقفة الاراضي والامتيازات بل وخولهم في بعض الحالات الصلاحيات القضائية التي كان يمارسها عادة الكونتات . والحقيقة ان مثل هذه السياسة ناجحة ما دام الملك قويا محتفظا بسيطرته على الكنيسة نفسها . وهذه كانت الحالة في عهد اوتو وخلفائه المباشرين ، فكان الاساقفة ينتخبون رسميا ولكن المرشحين الملكيين هم عادة الذين ينجحون في مثل تلك الانتخابات . ونتيجة لتلك السياسة كان الاساقفة الالمان خلال القرن العاشر خدامـــا امناء للملك ، فكانوا يواظبون على الحضور الى بلاطه ويتولـــون ادارة الاراضي الملكية ويهيئون له اماكن الاقامة خلال رحلاته ويقومون بدور السفراء والمندوبين له (٨) .

حروب اوتو الكبير :

لقد اصاب اوتو الكثير من النجاح في حماية المملكة الالمانية من الخطـــر الخارجي وفي توسيعها . وقد بنى اوتو كثيرا من القلاع في شرق سكسونيا وعبـــر حدود المانيا المجاورة للسلاف بين نهري الالب (Elba) والاودر (Oder) ، ودفع بحدود مملكته شمالا على حساب الدانماركيين ، واقام ماركا جديدا هو مـــارك شلزفيك . وقام اوتو بقيادة حملة بنفسه لمحاربة السلافيين الجيك في بوهيميـــا ومورافيا . وقد اعترف الجيك نتيجة لتلك الحملة في عام ٩٥٠ بسيادته ووعدوه بدفع جزية سنوية وصارت بذلك دوقية بوهيميا السلافية ، التي ضمت مارك مورافيـــا دولة الطاعية ضمن المملكة الالمانية ، ولعل اعظم انجازات اوتو العسكريـــة انتصاره الحاسم على المجريين في عام ٩٥٥ في معركة لخفيلد (Lechfeld)

التدخل في ايطاليا والحصول على اللقب الامبراطوري :

كانت لاوتو طموحاته الكبيرة ، بل كان يرى نفسه اجدر الملوك المعا
ليكون خليفة لشارلمان الكبير . ودفعه ذلك الطموح الى التدخل في الشؤون الا
تماما كما فعل شارلمان من قبل . وكانت الاوضاع في ايطاليا تغرى بالتدخل
كانت ابعد ما تكون من الاستقرار ، ففي وسط وشمال ايطاليا كانت الفوض
سائدة وانقسمت البلاد الى امارات اقطاعية صغيرة . وكان الشمال بشكل خا
خاضعا اسميا الى ملك هو من بقايا العهد الكارولنجي ، وفي روما نفسها ك
العوائل الرومانية العريقة ذات اليد العليا في حكم هذه المدينة ، والى الجنوب تا
دويلات شبه مستقلة منها سبوليتو ، وبنفنتو وغيرها . كما كانت هناك ا
للامبراطورية البيزنطية . وفي هذا الوقت اقدم برنجر ملك ايطاليا بسجن اد
ارملة احد منافسيه . وكانت هذه بنت دوق برغنديا واخوها كونراد من اتباع
المقربين . وقد استنجد هذا باوتو لتخليص اخته من السجن .

عبر اوتو الحدود الى ايطاليا عام ٩٥١ وخلص ادليدى من السجن وتزو
وبعبور اوتو الحدود الى ايطاليا هذه المرة والمرات التالية وبانغماسه في الش
الايطالية ، وتتويجه في روما على يد البابا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ افت
صفحة جديدة في تاريخ المانيا وايطاليا والبابوية على حد سواء . فقد ارتبط تا
المانيا منذ الان ، خيرا كان ذلك ام شرا ، بتاريخ ايطاليا والبابوية (١

ولم يتوجه اوتو هذه المرة الى روما ، بل رجع الى المانيا بعد ان اعلن بر
ولائه لاوتو ، واعتبر نفسه تابعا اقطاعيا للملك الالماني . واعتبر شمال ايطاليا
اقطاعا لذلك الملك . وسرعان ما وجد اوتو نفسه متورطا مرة اخرى في ايطاليا
اذ لم يكن برنجر ذلك التابع المخلص . كما ان برنجر كان على خلاف مع البا
يوحنا الثاني عشر السيء السمعة . وعندما طلب هذا البابا العون من اوتو خف
الى مساعدته فعبر الحدود الى ايطاليا عام ٩٦١ . ودخل روما هذه المرة وتوج ليه
عام ٩٦٢ امبراطورا رومانيا كما توج شارلمان من قبل . وظهرت نتيجة لـ
التتويج الامبراطورية الرومانية المقدسة التي قدر لاسمها البقاء حتى عام ١٨٠٦

ووضع اوتو في هذا الوقت سياسته الخاصة تجاه البابوية . فهو اقر الاملا
البابوية من ناحية . ولكنه اكد حقه في الاشراف على مدينة روما على الرغم
اعترافه باستقلالها . وكان هذا الاشراف يتم عن طريق رفع مفتشيه التقارير
الاوضاع في المدينة المقدسة . كما تم الا ... على انه بعد ان يتم انتخاب الب

... الولاء للامبراطور او امام احد مفتشيه ، وهكذا وجد يوحنا الثاني انه ما كاد يتخلص من تعسف برنجر حتى وقع تحت هيمنة الامبراطور .

وعندما ترك اوتو روما عائدا الى المانيا ، اخذ البابا يتآمر مع أدلبرت ابن برنجر ، فرجع اوتو الى روما وعزل البابا هذا وعين بابا جديدا . وفي عام ٩٦٣ اصدر اوتو منشورا خاصا اصبح له بموجبه نفوذ اكبر على المرشح للكرسي البابوي . فقد صار على المرشح للكرسي البابوي قسم اليمين للامبراطور قبل ان يتولى مهام منصبه ويصبح بابا بشكل رسمي . وهكذا اكد الامبراطور اوتو بشكل لا يقبل الشك ، تفوق سلطته على السلطة الدينية .

ولم تستقر الاوضاع في ايطاليا ، فقد استمر البابا المعزول في نشاطه المعادى للامبراطور . وفي عام ٩٦٥ كانت هناك ثورة في لومباردیا في شمال ايطاليا واخرى في روما . فعبر اوتو الحدود الى ايطاليا للمرة الرابعة وقمع الثورات واراد اخضاع ايطاليا كلها لسلطانه بما في ذلك الجنوب ، الذى كان قسم منه تابع للامبراطور البيزنطي ، فساد التوتر لفترة بين الامبراطور الشرقي والامبراطور اوتو ، ثم سويت الخلافات عام ٩٧٢ عندما تزوج ابن اوتو من ثيوفانو ابنة زوجة الامبراطور البيزنطي .

وهكذا امتد النفوذ الالماني الى الايطاليين ، كما كان امتد الى الدانماركيين والسلاف والبولنديين والهنغاريين . وقد اقيمت الماركات – دويلات الحدود – واسندت ادارتها الى محاربين اشداء . وساعدت هذه الماركات على تغلغل النفوذ الالماني في مناطق جديدة ثم اعقب ذلك التغلغل تنظيم شؤون تلك المناطق وتلاه انتشار المسيحية . وفي عام ٩٤٨ اسست اسقفية هامبرغ وصارت العاصمة الدينية للدانماركين والنرويجيين والسويديين . كما صارت كنيسة ماجدبرغ عام ٩٦٢ عاصمة دينية للسلاف واسقفية بوهيمين (اسست عام ٩٧٢) عاصمة دينية للبوهيميين . وكانت كل هذه رؤوس رماح للتغلغل الالماني . وقد زادت عمليات التعميد والزواج ورحلات التبشير من انتشار المسيحية بين تلك الشعوب ، وهكذا فان دور الالمان في نشر المسيحية بين الشماليين – للدانماركين والسويديين والنروجيين – والسلاف – الجيكيين والبولنديين – والهنغاريين ، امر له غاية الاهمية ولا يمكن تجاهله (١١) .

توفى الامبراطور ... اوتو عام ٩٧٣ ، بعد حكم استمر سبع وثلاثين سنة ...

خلالها امبراطورية بلغت سعتها امبراطورية شارلمان ، ونشر المسيحية بين شعوب كانت وثنية وساعد على قيام دويلات وامارت مستقلة ضمن الكيان الالماني وكان المانيا عند وفاته اقوى دولة في اوربا .

خلفاء اوتو الكبير من الاسرة السكسونية :

خلف اوتو الكبير ثلاثة من افراد الاسرة السكسونية هم على التوالي اوتو الثاني (٩٧٣ – ٩٨٣) واوتو الثالث (٩٨٣ – ١٠٠٢) وهنري الثاني (١٠٠٢ – ١٠٢٤) (١٢) . واتبع هؤلاء الملوك الثلاثة بشكل عام الاسس التي وضعها اوتو الكبير فوفر الاول منهم حماية افضل لبوهيميا وجعل شمال بافاريا ماركا خاصـــا ، كما حاول دون جدوى احتلال جنوب ايطاليا .

اما اوتو الثالث ، وكانت امه اميرة بيزنطية – ثيو فانو – متدينة فتأثر بها وقد كانت له رغبة في اصلاح الكنيسة ، فجعل ابن عمه بابا باسم غريغوري الخامس وعند وفاته رفع صديقه ومربيه سلفستر السادس الى كرسي البابوية . وكان يحلم في اعادة الامبراطورية الرومانية تحت رعايته ورعاية هذا البابا الذى كانت له نزعة خاصة للاصلاح . وكان اوتو الثالث معجبا بالحياة البيزنطية بتأثير امه . وقد بنى له بلاطا فخما في روما على غرار البلاط البيزنطي وادخل الكثير من مراسيم ذلك البلاط .

وهنري الثاني هو اخر الملوك السكسون . وتطلب منه الامر في البداية صرف جهود كبيرة لاعادة الهيمنة الالمانية على ايطاليا . وبعد ان حقق ذلك ، تفرغ الى المانيا خاصة . وان اوتو الثاني واوتو الثالث كانا قد اهملاها وركزا جهودهما على ايطاليا عزز هنري الثاني تحالفه مع رجال الدين الالمان . وكان هو شخصيا متدينا وقد اطلق عليه اسم (القديس هنري) وبموته انتهت الاسرة السكسونية .

٤ – المانيا في عهد الاسرة الفرانكونية (١٠٢٤ – ١١٢٥) .

وهكذا رأينا ان الملوك السكسونيين نجحوا في ايجاد اسس لدولة المانيـــة قوية وبحوا في الوقت نفسه فكرة الا... رية الرومانية المقدسة بشكلها الالماني

تفكيك المملكة الالمانية والامبراطورية معا . وقد سبق القول ان القوى المدمرة الرئيسة في المانيا هو الاقطاع . ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن ايطاليا . اضافة الى هذا فقد شهدت ايطاليا ، خاصة القسم الشمالي منها نمو مدن جديدة خلال القرنين الحادى عشر والثاني عشر وكان شأنها شأن امراء الاقطاع تبغي مزيدا من الاستقلال والسيادة وقد برهنت تلك المدن على انها عقبة اخرى في وجه المملكة الالمانية .

ومع كل هذا فقد يكون باستطاعة الملوك والاباطرة الالمان مواجهة امراء الاقطاع والمدن الايطالية لولا وجود قوى اخرى قد تكون اكثر خطورة منهما ، هي الكنيسة . وكان ملوك السكسون قد هيمنوا على الكنيسة في المانيا ، بل بسطوا نفوذهم على البابوية نفسها واصبحت هذه في وقت من الاوقات مؤسسة تابعة للمملكة الالمانية يرفع الامبراطور من يشاء من البابوات ويعزل من يشاء .ولكن الكنيسة المسيحيـــة كانت تمر في حركة اصلاحية مهمة خلال القرن الثاني عشر . وكان من اهداف تلك الحركة ، الحفاظ على استقلال الكنيسة ومنع تدخل السلطة الزمنية في شؤونها . وعند ما كادت الكنيسة ان تحقق هدفها هذا دفعها طموحها الى الادعاء بالسيادة والسمو على سلطة الاباطرة والملوك . فكانت المجابهة بين البابوية والامبراطورية . وخلال الصراع المرير بين الاباطرة والبابوات ، وجد اولئك البابوات في امراء الاقطاع الالمان المتبرمين والمدن الايطالية الطموحة خير حليف ومعين . هـــذه هي الظروف التي واجهت الاسر المالكة الالمانية التي تلت الاسرة السكسونية .

كونراد الثاني (١٠٢٤ – ١٠٣٩)

وهو واحد من اقدر الملوك الالمان في العصور الوسطى . ومن اكثرهم بعد نظر وحصافة سياسية (١٣) . تميز باحكام سيطرته على الاساقفة الالمان . وحد من منح الاراضي والامتيازات لهم . كما حاول كونراد الحد من سلطة الدوقات – كبار النبلاء – وذلك بالاستعانة بصغار النبلاء . وقد كسبهم الى جانبه باعطائهم الحق

توريث اقطاعياتهم ونقلها الى ابنائهم . وقد يكون بهذا قد عزز مركزه في
النبلاء ولكنه في المدى البعيد خلق مشاكل خطيرة للملكية الالمانية . فقد
زاد من اضعاف السلطة المركزية وركز التجزأة . والسياسة الاخرى التي اتبعها
كونراد الثاني لاضعاف نفوذ كبار النبلاء هي عدم اسناد حكم الدوقيات الى ا
المحلية القوية . فقد اعتاد اعطاء كل دوقية تشغر بوفاة الدوق فيها الى ابنه هنري
فكان هذا عند وفاة والده دوقا لجميع الدوقيات الالمانية عدا اللورين وسكسونيا

هنري الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦)

ويعتبر هنري الثالث هو الاخر من ملوك المانيا الاقوياء في العصور الوسطى
لقد نجح الى حد كبير في الحد من نفوذ الدوقات الالمان وعزز السلطة الملكية في
كل جزء من المانيا . كما انه هيمن على الكنيسة بل جعل البابوية نفسها مؤسسة
المانية ففي عام ١٠٤٦ عزل ثلاثة من البابوات المتنافسين وعين خمسة بابوات ال
على التوالي (١٣) . وسياسته هذه تجاه الدوقات الالمان وتجاه الكنيسة عززت
السلطة الملكية ولكنها خلقت المتاعب لمن جاء من بعده . فعند وفاته عام ١٠٥٦
ترك الطبقة النبيلة الالمانية متبرمة ، كما ترك الكنيسة في حالة تململ واضحة وكان
ابنه وخليفته هنري الرابع صغير السن ومرّ بفترة وصاية طويلة استغلها النبلاء واستغلتها
الكنيسة للتجاوز على الامتيازات والسلطة الملكية . وعند ما بلغ سن الرشد عام
١٠٦٥ ومارس سلطاته الملكية رأى النبلاء في حالة تمرد سافر وكنيسة قد خطت
الخطوات الاولى في الاصلاح وفي تعزيز مكانتها على حساب الملكية ، فكان عليه
مواجهة هذا الوضع الصعب والدقيق .

٣ - هنري الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦)

آ - مقدمة في حركة الاصلاح الديني :

في القرنين التاسع والعاشر تأثرت الكنيسة والبابوية بشكل عميق بالوضع الاقطاعي
والظروف الاقطاعية التي كانت تعيشها اوربا . (١٤) فكثير من اراضي الكنيسة

كانت تدار على اساس ... اقطاع (Fief) ... كثيرا من رجال ال... مة كانوا
من رجال الدين وكانت لهم وظائف مزدوجة (دينية ودنيوية حكومية) . فهم
تابعون للكنيسة ومسؤولون عن تأدية واجباتهم الروحية وهم موظفون في الوقت نفسه
عند الملك او الدوق او الكونت للقيام بالاعمال الادارية .

والمساوئ التي نتجت عن مثل ذلك الوضع كثيرة . فانشغال رجال الدين
بوظائفهم الدنيوية ، صرفهم بكل تأكيد عن القيام بواجباتهم الدينية على الوجه
الصحيح . وهكذا نرى ان كثيرا من الاساقفة والرهبان كانوا رجال دولة وسياسة ودنيا
اكثر منهم رجال دين وكنيسة وكان مبدأ الانتخاب للمناصب الدينية لا يزال متبعا
طبقا للقوانين الكنسية . ولكن الذي حدث هو ان مرشح الملك او الدوق او الكونت
هو الذي يقع عليه الاختيار . ولم يكن اشغال المنصب الديني يقتضي تأهيلا خاصا
وكثيرا ماكان ابناء النبلاء ، الذين لم يكن لهم نصيب في اقطاع ابيهم ، يحصلون على
منصب ديني تعويضا لهم دون ان يكونوا مهيئين ومناسبين له . ولم يكن مثل هؤلاء
ليتركوا مجالا لوظيفتهم الدينية للتدخل في طريقة حياتهم الخاصة . وكان محضورا
على رجال الدين حمل السلاح ولم يكن يفترض بهم تأدية الخدمة العسكرية
شخصياً ولكن اغلبية رجال الدين كانوا يحملون السلاح ويحاربون شأنهم شأن اي
نبيل وفارس (١٥) .

وفي مثل تلك الظروف نشأ ما يعرف بالتقليد العلماني والمقصود به قيام الملك
او الدوق بتعيين رجال الدين وتخويلهم القيام بسلطاتهم الدينية وتسليمهم الحلقة
او الخاتم والعصا — رمزا لتلك السلطة . فالحلقة ترمز الى زواج رجل الدين من الكنيسة
والعصا ترمز الى انها عصى رعي عباد الكنيسة وتابعيها . والخلاصة انه صار للملوك
والامراء هيمنة على امور هي من صميم اختصاص الكنيسة .

وجميع تلك المساوئ لم تكن الا نتيجة لا بد منها للنظام الاقطاعي ، كما
نتجت عنه امور اكثر خطورة منها انحلال النظام في المؤسسات الكنسية وانتشار
انواع الفساد والفوضى والمتاجرة بالمناصب الدينية من بيع وشراء لها ، او ما يسمى

بالسمعانية (simouuy) وزواج رجال الدين ، وهو محرم تماما عليهم بموجب القانون الكنسي ، والانحلال الخلقي بين رجال الدين عامة حتى الرهبان منهم .

ولم تقتصر تلك المساوى على الافراد فحسب ، بل تعدتها الى النظام الكهنوتي كله والى مؤسسة الكنيسة نفسها ، فطغيان السلطة الدنيوية وهيمنتها على السلطة الدينية والفوضى التي كانت سائدة في اوربا خلال القرنين التاسع والعاشر والغزوات والاقطاع كان لها كلها انعكاساتها على الكنيسة . فكثير من المؤسسات الدينية المحلية قد اتخذت طابعا شبه مستقل . ولم تعد هناك كنيسة عامة واحدة خاضعة لسلطة مركزية عليا متمثلة في البابوية . ومما زاد في خطورة الوضع ، الفوضى والاضطراب في ايطاليا بعد معاهدة فردان عام ٨٤٣ . فلم تكن هناك سلطة فعالة مطلقا . وقد تحولت شبه جزيرة ايطاليا الى وحدات وكيانات سياسية هزيلة ومتنافرة كانت الولاية البابوية واحدة منها . ومع ان البابوية قد تخلصت في هذه الفترة بالذات من نفوذ الامبراطورية ، الا انها سرعان ما وقعت تحت نفوذ النبلاء الرومان الاقوياء في تلك الولاية البابوية . وصار من الامور الاعتيادية تدخل اولئك النبلاء في اختيار رجال الكنيسة بل وفي اختيار البابا نفسه . وبطبيعة الحال كان اختيارهم يقع في اغلب الاحيان على اشخاص غير جديرين بالمناصب الروحية التي يشغلونها .

وبلغت الحالة في نهاية القرن التاسع حدا من السوء ، ظهر معها وكان النظام الكنسي والبابوية على وشك الانهيار والانحلال تماما . وفي مثل تلك الحالة لم يعد باستطاعة البابوية توفير الزعامة المطلوبة .

ولكن البابوية استطاعت رغم كل تلك الصعاب الصمود واجتياز تلك المحن وذلك بما كان لها من بقايا تأثيرات وتقاليد ، مكناها من الاستمرار ، بل مكناها على المدى البعيد من التأثير في المجتمع نفسة . لقد بذلت البابوية نفسها جهودا خالصة لاصلاح ذاتها ، وقام بعض من الاساقفة والرهبان بجهود شخصية مخلصة لاصلاح كنائسهم واديرتهم . كما ان بعض الملوك والنبلاء على الرغم من حرصهم على الاحتفاظ بسلطانهم السياسي ، كانوا مدفوعين بدوافع دينية صادقة لاصلاح بعض

الامبراطرة [illegible] شارلمان واوتو الثالث وهنري الثالث خير امثلة على ذلك .

ثم كانت الحركة الاصلاحية التي قام بهـا دير كلوني (١٦)

وكان هذا الدير اقيم في عام ٩١٠ من قبل وليم دوق اكوتين . وكان هذا الدوق الغيور قد سن نظاما منح هذا الدير بموجبه الحرية المطلقة فيما يخص انتخاب رجاله وفي ادارة شؤونه الدينية . وحافظ الرهبان الاوائل لهذا الدير على التقيد باحكام الرهبنة البندكتية الا في امر واحد وهو تأكيدهم على المركزية .

وانتشرت اخبار هذا الدير في اوربا وسرعان ما اقيمت اديرة اخرى مماثلة ، اقامها رهبان كانوا قد خدموا في دير كلوني وتميز دير كلوني بالمركزية التامة . فجميع الاديرة التي اقيمت احتفظت برابطتها مع الدير الكلوني الاب - الاصلي - كل واحد منها كان في رعاية راهب هو ذاته تحت رعاية راهب دير كلوني الاب . وفي خلال فترة قرن من الزمن اسس ما يقرب من ثلثمائة دير كلوني في فرنسا والمانيا وبرغنديا وانكلترا واسبانيا ، احتفظت كلها برابطتها القوية مع دير كلوني الاب ، واعترفت بزعامة راهب ذلك الدير .

لقد برهنت تلك المركزية انها العلاج الناجع للتجزأة الاقطاعية ، فالبندكتية بافتقارها الى المركزية كانت خير مشجع لتدخل السلطة الدنيوية في شؤونها الدينية وحيثما انتشرت حركة دير كلوني جاءت معها بدعوة قوية للاصلاح ، ثم صارت لدعوة الاصلاح اهداف محددة تتلخص في منع السمعانية اي المتاجرة بالمناصب الدينية ، ومنع زواج رجال الدين واعادة هيبة البابوية ونفوذها ، والحد من تدخل السلطة الدنيوية في الشؤون الدينية .

كان ليو التاسع (١٠٠٩ - ١٠٥٤) هو اخر البابوات المعينين من قبل سلطة دنيوية ، فقد دفعه هنري الثالث الى الكرسي البابوي ، ولكن ليو التاسع نفسه كان من المتحمسين للاصلاح واحاط نفسه بكثير من الراغبين في الاصلاح . وبعد سنوات قليلة من وفاته شرع في عهد نيقولا الثاني (١٠٥٨ - ١٠٦١) اول قانون من سلسلة قوانين اصلاحية مهمة كان لها اعمق الاثر في مستقبل الكنيسة المسيحة والبابوية .

وجاء القانون المذكور في عام ١٠٥٩ ليصون عملية انتخاب البابا من التل والتلاعب ، فقد نص على ان عملية الانتخاب تقتصر على كبار رجال الكنيسة اوال في مدينة روما وحدهم دون سواهم .وقد حدد عددهم بسبعة .ويقوم جمع من الكرادل والقس والشماسين في ابرشية روما وفي المناطق المحيطة بها في التصديق على ذ الانتخاب اما عامة الناس الذين جرت العادة في اشراكهم في عملية الانتخاب ، حرموا من اى دور واقتصر عملهم على التهليل والهتاف للبابا الجديد .

ولم يذكر القانون المذكور شيئا عن تصديق الامبراطور للانتخاب . وكان قد جرت العادة ان تتم تلك المصادقة قبل اعتلاء البابا المنتخب للعرش البابوى . و يتجاهل مشرعو القانون هنرى الرابع تماما (وكان لما يبلغ سن الرشد بعد ولم يش السلطة) . فقد جاء في احدى الفقرات (انه لا شئ في هذا القانون يلحق الضر ويقلل الاحترام لولدنا الحبيب هنري).(١٧) وقد يعني هذا الاعتراف بحق هن في المصادقة على انتخاب البابا الجديد . ولكن خلفاء هنري حرموا بكل تأكيد ما الحــــق .

على اية حال ، كان القانون الانف الذكر انذارا للملوك الالمان ، فان عل الاصلاح هذه اذا ما استمرت بهذا الشكل فسوف تمس نقاطا حساسة اخرى وسو تكون المجابهة امر لامفر منه .وجاءت المجابهة فعلا وكان مجالها التقليد العلماني وبطليها الامبراطور هنرى الرابع والبابا غريغورى السابع .

ب – الصراع بين هنرى الرابع وغريغورى السابع :

تولى هنري الرابع السلطة الفعلية عام ١٠٦٥ .وهومن غير شك مـــن اكفـــا الملوك الالمان ومن اسوأهم حظا في الوقت نفسه . جاء والنبلاء الالمان في حالة تمرد سافر والكنيسة وقد شرعت في شق طريقها للتحرر من اية سيطرة دنيوية ، بل ولفرض سيادتها على كل سلطة اخرى في العالم المسيحي الغربي . واستغل النبلاء فترة الوصاية الطويلة للتجاوز على الاراضي الملكية والحقوق الملكية ، وما ان تسنم الحكم الا واخذ في استعادة تلك الأراضي والحقوق ، فكان صراعا عنيفا ومريرا تطلب منه الجهـــ

الكثير وانتهى ... . وقد وصف بالاستبداد والطغيان . وما كان يكبح جماح الدوقات والنبلاء الالمان الا وواجهته الكنيسة باصرارها على الغاء التقليد العلماني .

ارتقى هلد براند كرسي البابوية عام ١٠٧٣ باسم غريغوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) وهومن دون شك من ابرز واهم البابوات في تاريخ الكنيسة المسيحيه كله .وهوينتمـــي الى اسرة فلاحية ايطالية ، لم يكن في مظهره الخارجي شئ يلفت النظر اليه ويثير الاعجاب به ، ولكنه كان من اولئك الرجال الذين يملكون سمات الزعامة مـــن ارادة وشجاعة وتصميم وايمان مطلق بعدالة القضية التي يناضل من اجلها .

بدأ غريغورى مشاريعه الاصلاحية بتأكيده بناء السلطة المركزية للكنيســة وخلق سلطة بابوية قوية . لقد شرع في ارسال مندوبين اغلبهم من كبار رجال الكنيسة الى انحاء اوروبا بعد ان خولهم صلاحيات دينية واسعة لدراسة الاوضاع واصلاح مـــا يمكنهم اصلاحه ولعقد مجامع محلية لتطبيق القانون الكنسي ومعاقبة اولئك المتزوجين من رجال الدين .

كان غريغورى مؤمنا بسمو السلطة الدينية المتمثلة بالبابا على ما سواها مـــن سلطات الاباطرة والملوك والامراء . ونظرته بالنسبة للسلطة نظرة ثيوقراطية والعالم بالنسبة له لا شئ سوى (مدينة الله) التي تكلم عنها القديس اوغسطين . (١٨) والنظـــرة الثيوقراطية ليست جديدة بالنسبة الى عالم العصور الوسطى ، فامبراطورية شارلمان كانت ثيوقراطية كان فيها شارلمان ممثلا لله ، وكانت الكنيسة فيها احدى اجهزتها ، ولكـــن الجديد في الامر ان غريغورى كان يرى ان البابا هو الامبراطور الوحيد . وكـــان مفهومه للحكومة العالمية مفهوما اقطاعيا بحيث يتلخص في ان الله هو السيد الاعلى بل هو سيد الجميع وهو يمارس سلطته خلال المسيح وهذا يمارسها خلال القديـــس بطرس وهذا يمارسها خلال البابا . البابا هو تابع لله وجميع الاباطرة والملوك والامراء هم تابعون للبابا ، وانهم انما يحكمون بلادهم ويتصرفون بها وهي اقطاع من عنده . هذه كانت افكار غريغورى بل احلامه ، والخطورة في الامر ان هذا الرجل كان يمتلك الارادة والتصميم والرغبة لتحويل تلك الاحلام الى واقع .

واذا كانت هذه هي نظرة غريغوري الى السلطة ، فمن البديهي ان يحاول ، اول ما يحاول ايقاف تدخل السلطة الدنيوية في الامور الدينية ، هذا التدخل المتمثل في ممارسة الامبراطور للتقليد العلماني . لقد كان الامبراطور هنري الرابع حريصا من الناحية الاخرى ، على الاحتفاظ بحقه في هذا التقليد . انه ورث هذا الحق من الاسلاف وهو لا يفرط فيه . واذا صح له التراجع امام البابوية في امر خطير كهذا الا يعني هذا تراجعه امامها في امور اخرى ، بل قد يؤدي الى تراجعه امام الامراء الالمان كذلك ، وبهذا تفقد الملكية الالمانية منزلتها ويتبخر سلطانها .

وعقد غريغوري مجمعا دينيا في روما عام ١٠٧٥ . وفي هذا المجمع منع التقليد العلماني . وكان هنري الرابع قد فرغ لتوه من اخماد ثورة كبيرة في سكسونيا ووجد في نفسه القدرة على تحدي البابا غريغوري . لقد عمد الى تعيين بعض الاساقفة في الاسقفيات الشاغرة خاصة في اسقفية ميلانو المهمة (١٩) متجاهلا بذلك قرار منع التقليد العلماني . ولجأ البابا الى تهديد هنري الرابع بالحرمان واصفا اياه بـ"الملك الفخور المتعالي العاصي" . وعقد هنري من جانبه عام ١٠٧٦ مجمعا دينيا من الاساقفة الالمان اعلنوا فيه ولاءهم لهنري وخلعهم للبابا غريغوري واصفين اياه "بالمجرم" ، الذي تجاوز كل صلاحياته .

ولم يكن من البابا غريغوري السابع الا ونفذ تهديده ، فاعلن حرمان هنري الرابع واحل رعاياه من كل طاعة له عليهم . وهذا يتضمن الخلع بطبيعة الحال ، طالما يتطلب من جميع المسيحيين مقاطعة الشخص المحرم وعدم التعامل معه او الاتصال به باي شكل من الاشكال ، ولا يستثنى من ذلك اهله واولاده وزوجته . وهذه هي المرة الاولى التي يقدم فيها البابا على حرم امبراطور . وقد اثار القرار مخاوف الملوك في كل اوربا .

واستغل النبلاء الالمان الوضع الحرج الذي كان فيه هنري الرابع ، فوثبوا عليه ، وعقد كبار النبلاء الالمان مؤتمرا حضره مندوبون عن البابا في شباط عام ١٠٧٧ تقرر فيه اعطاء الامبراطور فرصة عام كامل ليصحح موقفه من البابا ولرفع عقوبة

الحرم عنه والا سوف يخلع وينتخب ملك آخر . ولاجراء الانتخاب المذكور دعي الامراء الى مؤتمر آخر يعقد في شباط ١٠٧٨ في اوغسبرج بالمانيا برئاسة البابا وتقرر ايضا سد الممرات المؤدية الى شمال ايطاليا للحيلولة دون وصول هنري الرابع الى هناك . كما تقرر ضمان حراسة كافية للبابا خلال رحلته من روما الى اوغسبرج .

وسدت جميع الممرات والمنافذ فعلا الى ايطاليا ، وبعد صعوبة كبيرة وجد هنري احد الممرات مفتوحا فاستطاع اجتيازه . وفي شتاء قارص البرد كثير الثلوج سار هنري لمقابلة البابا ، وكان هذا في طريقه الى المانيا . وهناك امام قلعة كانوصا (Cononsa) حيث كان البابا ، وقف هنري حاسر الرأس حافي القدمين باكيا مسترحما خليفة القديس بطرس ، وقد اشفق عليه الجميع ، وبعد ثلاث ايام من تلك المذلة سمح له بالمثول بين يدي البابا غريغوري السابع (٢١) . لقد ترك هذا المشهد ذكريات لم تنس على مدى العصور ، انه شاهد على خضوع السلطة الدنيوية لسلطة الدين في العصور الوسطى .

لقد نال هنري الغفران ، ورفعت عنه العقوبة ورجع الى المانيا كملك شرعي . وسرعان ما بدأ حملته على خصومه الذين ظاهروا البابا واستطاع ضربهم واخضاعهم وعندما تم له ذلك انكر على البابا منعه للتقليد العلماني . وكان قد مضت اربعة سنوات على كانوصا واعلن البابا حرمان هنري للمرة الثانية ، ولكن الاخير كان في وضع افضل هذه المرة ، بل انه غزا ايطاليا واختار بابا جديدا هو كلمنت الثالث وحوصر غريغوري في قلعة سنت انجيلو (Angels) واستعان البابا المحاصر بالنورمان في جنوب ايطاليا لانقاذه فجاؤوا الى روما . ولكن النورمان داهموا المدينة ودمروا معالمها واستباحوا حرماتها والحقوا بها من الخراب والدمار ما فاق كل ما شهدته هذه المدينة في عهد الغزوات الجرمانية الاولى . وعندما علم النورمان ان جيش هنري في طريقه الى روما تركوها مسرعين حاملين معهم البابا غريغوري . ومات هذا كسير القلب مهيض الجناح في سالرينو في عام ١٠٨٥ ، دون ان يحقق شيئا من الذي ناضل من اجله . ولكن القضية التي ناضل من اجلها لم تمت .

شهدت السنوات القلائل التي اعقبت وفاة غريغوري المفجعة رد فعـــل قــ...
في صالح البابوية وحركة الاصلاح . لقد استقر البابا كلمنت الثالث صنيعة الامبراطو...
في روما . ولكن لم يعترف به الا عدد قليل من الاساقفة اغلبهم من الالمان . وانتشر...
بابا اخر في المنفى اعترفت به اوربا كلها . وبينما كانت هيبة هذا البابا ونفوذه...
تزايد كان الامبراطور هنرى الرابع يعاني المتاعب والخذلان من الجميع وحتى م...
افراد عائلته ، وادركته المنية في عام ١١٠٦ وهوفي وضع محزن وكئيب .

وورثه ابنه هنرى الخامس (١١٠٦ - ١١٢٥) على العرش . وتوصل من...
الى عقد معاهدة (وورمز) مع البابا في عام ١١٢٢. ووفرت هذه المعاهدة حلا جزئيا...
للتقليد العلماني . . وقد بقيت المشكلة مثار خلاف ومصدر للاحتكاك والصراع
لفترة طويلة قادمة . وتضمنت معاهدة وورمز كذلك قبول الامبراطور هنرى الخامس
بمبدأ الانتخاب الحر للمناصب الدينية (٢٢) . وهكذا نجحت البابوية في الحد
من تدخل السلطة الزمنية في الشؤون الدينية .

٥ - المانيا في عهد الهوهنشتاوفن (١١٢٥ - ١٢٥٤)

استمرار الصراع مع البابوية :

توفي هنرى الخامس دون ان يترك ولدا يرث العرش من بعده ، فنشب صراع بين عائلتين كبيرتين على الملكية الالمانية . كانت الاولى عائلة هوهنشتاوفن من سوابيا وعرفت انصارها بجماعة الجبلينيين ؛ وعائلة الفولفز او ما تعرف بجماعـــة الولفيين من بافاريا . وبعد سبع وعشرين سنة من ذلك الصراع استقر الحكم فـــي الهوهنشتاوفن . وكان من اوائل ملوك هذه الاسرة ومن اشهرهم فرديريك الاول المشهور بـــ "فردريك بربروسا".

فردريك بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) :

يعتبر فردريك بربروسا (فردريك ذو اللحية الحمراء) من الملوك الالمان المتميزين في تاريخ العصور الوسطى . كان طويل القامة قويا شجاعا فطنا . وكـان

... لتحقيق حلم الامبراطورية . وعلى هذا الاساس اراد مصالحة خصومـــة ...ة الولفيين واعطى هنري الاسد اقوى الامراء الالمان بافاريا وارضى بقية ...اء الالمان كما حاول ان تكون علاقاته طيبة مع البابا .

وعبر فردريك بربروسا الى ايطاليا عام ١١٥٤ حيث توج هناك امبراطورا . ...ا كان في ايطاليا راودته فكرة الاستيلاء على صقليا المملكة النورماندية الغنية ...الجنوب وضمها الى املاكه . وهنا نشب اول خلاف بين البابا وفردريـــك . صقليا كان يعتبر تابعا اقطاعيا الى البابا ، وكانت صقليا نفسها تعتبر اقطاعا ...ا كما ان ضم صقليا الى املاك الامبراطور الالماني ستكون له عواقب وخيمة على ...ن البابوية في وسط ايـطاليا ، اذ انها ستكون محاطة بتلك الاملاك في الشمال ...جنوب . على اية حال رفض الامراء الالمان المساهمة في مغامرة ملكهم فـــي ...ب ايطاليا واضطروه الى الرجوع الى المانيا وهكذا لم يعد مجال للخلاف بين ...والامبراطور حول هذه المسألة بالذات .

وفي عام ١١٥٧ ثار جدل علني بين انصار الامبراطورية وانصار البابوية حول ...ر السلطة وفي احدى المناسبات اثار احد المتحمسين لقضية البابوية هـــو ...ردينال رولاند هذا السؤال : اذا لم يكن الامبراطور قد استلم امبراطوريته من ...ا فمن من استلمها اذن ؟ لقد اغضب هذا الجدل الامبراطور بطبيعة الحال الامر ...ى دفعه الى تعميم بيان جاء فيه : ان الامبراطور يملك ويحكم امبراطوريتـه ...فضل من الله وارادته اللتين اعلنهما عن طريق انتخاب الامراء واختيارهم له .(٢٣) ...هى الجدل بتراجع البابا حيث اعتذر للامبراطور موضحا ان كل ماحدث كان ...نتيجة لسوء فهم وهو لا ينوي تحدى سلطة الامبراطور ولا الحط من منزلته .

وعبر فردريك مرة اخرى الحدود الى ايطاليا عام ١١٥٨ . وكانت لومبارديا ...شمال ايطاليا هي الهدف هذه المرة . لقد نمت المدن التجارية هنا وكونت لـــها ...كومونات - حكومات محلية - كانت تمارس سلطة مستقلة بشكل متزايد ، الامر

الذي اثار غيرة الامبراطور فردريك وزاد من مخاوفه ، من احتمال فقدان سيطرة له على شمال ايطاليا ومن احتمال اقتداء بقية الولايات الايطالية التجارية في الشمال فترمي عن كاهلها نير الحكم الالماني . وعقد الامبراطور مجلسا في رونسا جليا اكد فيه حق الامبراطور في الاشراف على شؤون الحكومات المحلية في شمال ايطاليا . وعندما حاولت ميلانو التمرد لم يتردد الامبراطور في تدميرها .

لقد اثارت سياسة الامبراطور في شمال ايطاليا البابا ادريان الرابع واعتقد ان الولايات البابوية قد تكون الهدف التالي له ، فبدأ يعزز مركزه وسعى الى عقد تحالف مع صقليا في الجنوب والمدن الايطالية في الشمال لمواجهة الامبراطور . وتوفي البابا عام ١١٥٩ ، وحدث خلاف بين الكرادلة حول انتخاب خليفة له فكان هناك فريق معاد للامبراطور وآخر مؤيد له وانتخب الفريق الاول الكاردينال رولاند باسم الاسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١) وانتخب الفريق الثاني بابا باسم فيكتور الرابع .

وعقد الامبراطور مجلسا عاما في عام ١١٦٠ في بافيا لم يحضره ممثل عن البابا الاسكندر الثالث . واعلن في هذا المجلس ان فكتور الرابع هو البابا الشرعي ولكن اوربا كلها اعترفت بالاسكندر دون سواه . ولعل نصيحة رئيس اساقفة كنتربري الى هنري الثاني ملك انكلترا خير مايوضح الموقف في هذا المجال انه من الافضل لك ان تنتظر اى من البابوين اختاره الالمان ومن ثم تعترف انت بالاخر[(١)]

وشرع الاسكندر الثالث في جمع انصار وحلفاء لتكوين جبهة متماسكة في وجه الامبراطور الالماني . وباغت هذا روما واحتلها عام ١١٦٧ ولكن الطاعون فتك بجيشه واضطره الى الانسحاب نحو الشمال . وفي نفس العام نجحت البندقية في تكوين عصبة من المدن الايطالية باسم العصبة اللومباردية وعندما هاجمها الامبراطور دحر في معركة ليناتو الى الشمال من ميلان في عام ١١٧٦ . وعقد بعد تلك المعركة صلح البندقية في عام ٧٧ . بين البابا والاسكندر الثالث والامبراطور

بين المدن اللومباردية والامبراطور قبل الاخير بموجبه تمتع المدن المذكورة باستقلالها الذاتي واقر لها جميع ما كان لها من امتيازات .

انتهت سياسة فردريك في شمال ايطاليا وسياسته العدائية ضد البابا الاسكندر الاول الى الفشل . ولتعويض فشله في الشمال اتجه الى الجنوب الى مملكة صقلية الغنية المزدهرة . وبعد مفاوضات طويلة مع حكامها عقد صفقة زواج مربحة لابنه هنري من الاميرة كونستانس الصقلية في عام ١١٨٦ .

وساهم فردريك بربروسا في الحملة الصليبية الثالثة حيث غادر اوربا الى آسيا الصغرى في عام ١١٨٨ . وفي طريقه الى الارض المقدسة غرق عندما كان يستحم او عندما كان يعبر نهرا . وكذلك كانت نهاية هذا الرجل الذي بهر اسمه الانظار خلال فترة من فترات التاريخ الالماني ، وكذلك كانت نهاية احلامه حول الامبراطورية في الشرق .

هنري السادس (١١٩٠ – ١١٩٧)

كان انشغال فردريك بربروسا الشديد بالشؤون الايطالية قد ادى الى تركه الشؤون الالمانية ، وكانت النتيجة ان انتهز الامراء الاقطاعيون والنبلاء هذه الفرصة لزيادة نفوذهم وتقوية سلطانهم . وكان هنري الاسد قد احكم سيطرته على كل من بافاريا وسكسونيا ، الامر الذي دفع فردريك بربروسا الى محاربته وتجريده من املاكه ونفيه الى خارج المانيا . وهناك في انكلترا ، حيث كان منفيا ، كان يتآمر ضد فردريك . وعند وفاة الاخير وتولى ابنه هنرى السادس الحكم من بعده عاود هنري الاسد نشاطه وقيادته لجماعة الولفيين . واضطر هنرى السادس الى مهادنة هنري الاسد ليتفرغ الى مشكله صقليا . ففي عام ١١٨٩ توفي ملك صقليا وليم الثاني بدون وريث واختير تنكرد ، وهو اقرب الذكور الى الملك المتوفي ، ملكا لصقليا باسم تنكرد الثاني ، على الرغم من ادعاء كونستانس زوجة هنرى السادس بعرش صقليا المتوفي وليم الثاني .

وكان تنكرد حاكما قديرا وسياسيا بارعا وقد نال تأييد واعتراف ملك فرنسا فيليب الثاني وريتشارد الاول ملك انكلترا وهنري الاسد وحزب الولفيين عامة . وتجاهل هنرى السادس السيادة البابوية على صقليا وساند بقوة ادعاء زوجته بالعرش الصقلي . وعبر الحدود الى ايطاليا ليحسم الامر بحد السيف . وفي روما توج من قبل البابا كلستين الثالث ثم واصل زحفه نحو الجنوب ولكن هجومه على نابلي انتهى بالفشل الذريع وتفشى وباء الطاعون في جيشه واضطر الى التراجع بعد ترك زوجته اسيرة بيد تنكرد .

وعند عودته الى المانيا جوبه بثورة الولفيين بقيادة هنرى الاسد . وشاءت الصدف في هذه الظروف الحرجة ان يحقق الامبراطور هنري السادس نصرا على احد خصومه وهو ريتشارد الاول ملك انكلترا وحليف تنكرد وهنرى الاسد . فقد وقع هذا في اسر دوق النمسا وسلمه هذا الى الامبراطور في عام ١١٩٣ ولكسب حريته اضطر ريتشارد الى دفع دية كبيرة والاعتراف بمطالب هنرى السادس في صقليا وباعلان انكلترا اقطاعا لهنرى السادس وهو تابع له . بل ووعد بارسال جيوشه الى ايطاليا لمساعدة هنرى السادس في مشاريعه . لقد حطم هذا الحادث التحالف ضد الامبراطور . وعقد هذا اخيرا في ١١٩٤ صلحا مع هنرى الاسد . وتوفي هذا المحارب المتمرس بعد هذا بعام واحد .

وبدت الظروف اكثر ملاءمة الان للعودة للساحة الايطالية . وتوفي تنكرد في عام ١١٩٤ تاركا طفلا باسم وليم الثالث واكتسح الامبراطور هذه المرة صقليا واحتل عاصمتها بالرمو وارسل وليم الى المانيا واخذ الامبراطور في تنظيم مملكته الجديدة في صقليا على الطراز الالماني . وهكذا حقق هنري السادس حلم ابيه في السيطرة على صقليا . وقد يكون هنرى السادس عقد العزم على القفز من صقليا الى الشرق والاستيلاء على القسطنطينية ، فقد عقد صفقة زواج لاخيه فيليب من ابنة الامبراطور الشرقي (٢٥) .

واراد هنرى ضمان اعتلاء ابنه العرش من بعده بطريقة سلمية ، وذلك عندما

بتركه المانيا وفرنسي الاراضي [illegible] ، حيث كان [illegible] العزم على المساهمة في الحرب الصليبية . واعطى النبلاء تنازلات كثيرة لقاء تعهدهم بالولاء لابنه من بعده .

وبينما كان هنرى السادس يتأهب للحملة الصليبية التي ينوي قيادتها الى الشرق ، وربما الى القسطنطينية بالذات وليس الى القدس ، وافته المنية وهو في شرخ الشباب اذ لم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين عاما .

الامبراطورية الالمانية بعد هنرى السادس :

اذنت وفاة هنرى السادس بنهاية النفوذ الالماني في ايطاليا ، بل ربما اذنت بنهاية الملكية القوية في المانيا . والواقع ان وفاته لم تبدد احلام الامبراطورية بل بددت الامل في قيام دولة مركزية قوية في المانيا على غرار تلك الدولة التي تطورت في مثل هذا الوقت في انكلترا وفرنسا . ولاعجب ان وصف بعض المؤرخين الالمان وفاة هنرى السادس وهو في مقتبل العمر بانها اعظم كارثة مخيفة حلت بالمانيا خلال العصور الوسطى . (٢٦)

ايطاليابعد هنرى السادس :

تنفس الايطاليون الصعداء بموت هنري السادس واعلنت مدن شمال ايطاليا استقلالها واستعدت انحاء ايطاليا الاخرى لطرح النير الالماني عنها . وفي هذا الوقت جاء للعرش البابوي شخص قدر له ان يلعب دورا هاماً في رسم معالم تاريخ العصور الوسطى في اوربا . وهذا هو البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) . ارتقى الى الكرسي البابوي وهو لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين من عمره . كان انوسنت الثالث قد درس في جامعة باريس وكان متبحرا بعلوم اللاهوت ، كما كان فيلسوفا وقاضيا ورجلا ذا قابليات ادارية وسياسية نادرة . كما وكان سياسيا بارعا ومصلحا دينيا كبيرا .

وفي الجنوب حيث مملكة صقليا لجأت كونستانس زوجة هنري السادس الى ابعاد جميع الالمان من صقليا وفي الوقت نفسه حرصت على حفظ العرش لابنها

الصغير فردريك الثاني . ولم تستطع ذلك الا بالسماح للبابا بفرض سيطرته ونفـ[illegible]

على صقليا .

وعندما توفيت كونستانس في عام ١١٩٨ تركت ابنها الصغير برعاية البابا الذكـ[illegible]

ووصاية رجال الكنيسة . وكان الاوصياء مشغولين بامور كثيرة انستهم ذلك الصبـ[illegible]

فعاش كما يعيش الصبيان المشردين متسكعا في شوارع بالرمو وفي اسواقها وازقتهـ[illegible]

المانيا بعد هنرى السادس :

تجدد الصراع بين الهوهنشتاوفن والولفيين بعد وفاة هنري السادس . وتجاهـ[illegible]

الفريقان ابن هنرى السادس (فردريك الثاني) وتقدم كل فريق بمرشح للعرش

فكان فليب دوق سوابيا مرشح الهوهنشتاوفن ، وكان اوتو ابن هنرى الاسد مرشـ[illegible]

الولفيين . ولمدة اربعة عشر عاما كان الصراع حادا وعنيفا ومدمرا وكان يشبه ذلـ[illegible]

الذي نشب بين ابناء لويس التقي في القرن التاسع وادى الى تمزيق الامبراطوريـ[illegible]

الكارولنجية .

ووفرت الحرب الاهلية فرصة للنبلاء الالمان من دينيين ودنيويين لتركيز نفوذ[illegible]

وكان كل فريق من الفريقين المتصارعين يسارع في مرضاتهم وفي كيل العطاء لهم لكـ[illegible]

تأيدهم . وكانوا هم يتنقلون من جانب الى آخر طمعا في فوائد اكبر . اما البابـ[illegible]

انوسنت الثالث فقد استغل الصراع الى ابعد الحدود ، وربما كان هو السبب في اطالـ[illegible]

امده . فهو بما عرف عنه من دهاء لم يعط كلمته وتأييده الى اى من الفريقيـ[illegible]

المتصارعين وتركهما يستنفذان قوتهما وطاقاتهما . واخيرا في عام ١٢٠٠ اتخـ[illegible]

قراره بتأييد اوتو ولكن هذا دفع الثمن غاليا . فقد اعترف باستقلال الولايات البابو[illegible]

في ايطاليا . وحرر الكنيسة الالمانية من سيطرة الدولة . وصار الاساقفة الالمـ[illegible]

ينتخبون بنفس الطريقة التي ينتخب فيها البابوات دون ان يكون هناك مجال لتدخـ[illegible]

الامبراطور او غيره من الامراء وهكذا انتزع من الملكية الالمانية اقوى نصير لها

وهي الكنيسة الالمانية وحلت مشكلة التقليد العلماني بشكل قاطع في صالح الكنـ[illegible]

وهكذا نجح انوسنت في جعل رجال الدين الالمان يشخصون بابصارهم نحو روما

[illegible] ة للبابا (٢٨) .

وتوج اوتو امبراطورا في روما عام ١٢٠٩ . وما كاد اوتو يطمئن الى مركزه في المانيا الا والتفت الى ايطاليا شأنه شأن ملوك الهوهنشتاوفن . واراد اوتـــــــر احتلال جنوب ايطاليا . وعندما عارضه البابا هاجم الولايات البابوية ، فانضمـــت المدن الايطالية الى البابا واعلن هذا حرمان اوتو . واستغل النبلاء الالمان هذه الفرصة فخلعوا اوتو ورجعوا الى فردريك الثاني ملك صقليا ووريث آل هوهنشتاوفن وابـــن هنرى السادس واعترفوا بفردريك ملكا على المانيا وايدهم البابا في ذلك . واضطـــر اوتو على ترك ايطاليا والتوجه الى المانيا لمعالجة الموقف هناك .

وكان لفردريك الثاني والبابا في هذه المرحلة مصلحة مشتركة في محاربة عدو مشترك هو الامبراطور اوتو . واتخذ الصراع طابعا دوليا شاملا ، فقد انضم جـون الاول ملك انكلترا الى اوتو وساند فيليب الثاني ملك فرنسا فردريك ووقعت معركة بوفين الفاصلة في الفلاندرز في تموز عام ١٢١٤ حيث انتصر فيها فيليب الثاني ملك فرنسا وانصاره .

وهكذا صار فردريك ملكا لالمانيا وتوج امبراطورا ، وشهد عهده هو الاخر فصلا جديدا من فصول الصراع بين الامبراطورية والبابوية .

فردريك الثاني (١٢١٥ – ١٢٥٠)

بقت العلاقات بين فردريك والبابا جيدة لسنوات عدة . فقد اقر فردريك جميع التنازلات التي أعطاها اوتو للبابوية . كما اكد للبابا ان صقليا ستبقى اقطاعا بابويا (٢٩) . وشرع قانونا امبراطوريا ضد الهراطقة . وعلى الرغم من كل هذا فقد كانت هناك امور كثيرة تدعو الى الا حتكاك والتصادم . فقد بقيت حقيقة واحدة علـى الاقل ، ماثلة امام البابا ان ملك المانيا وامبراطور ايطاليا يحكم الان صقليا في الجنوب وبعبـــــارة اخرى انه كلا [illegible] العرش الالمانـــــي والعرش الصقلي يشغلها رجـــــل واحـــد وفي حالة تجـــــــدد الصراع بين الولايات البابوية في الوسط وهذا الرجل فيستطيع هذا الاطباق على دولة الكنيسة البابوية من الشمال والجنوب . وامتعض البابا من اصرار فردريك على

ترك الكثير من الاسقفيات في صقليا شاغرة من اساقفتها . والامر الاكثر
هو تباطؤ فردريك ومماطلته في الاشتراك بالحرب الصليبية . واعلن البابا غري
التاسع حرمان فردريك في عام ١٢٢٧ وذلك بسبب تلك المماطلة . ولكن فرد
رحل الى الشرق على الرغم من قرار الحرم ، ولم يبق هناك الا اشهرا رجع
الى اوربا . وكان البابا والعصبة اللومباردية قد هاجموا صقليا خلال غياب فرد
وعند رجوعه دحرهم جميعا وعقد صلح سنت جرمانو عام ١٢٣٠ بين الطرفين
ولكن هذا الصلح لم يكن الا هدنة قصيرة .

كانت صقليا موضع الاهتمام الاول بالنسبة الى فردريك ، واما الماني
تركها لابنه هنري السابع . ولكن النبلاء الالمان كانوا في حالة تمرد مستمر ،
فردريك تعزيز موقفه من النبلاء وذلك بالتحالف مع المدن الالمانية ، ولكن ابن
هنري كان يرى غير ذلك بل انه منع المدن الالمانية من القيام باى تحالف في
بينها على غرار العصبة اللومباردية في ايطاليا ، كما اصدر في عام ١٢٣٢ تشري
خاصة احتوت على كثير من الضمانات لحقوق النبلاء الالمان ولا متيازاتهم
والواقع ان السلطة الامبراطورية في المانيا كانت تسير بسرعة نحو التجزأة لصا
الامراء والنبلاء الالمان . واشتد الخلاف بين فردريك وابنه الأمر الذى دفع الا
الى التمرد السافر . وسرعان ماظهر فردريك في المانيا والقى القبض على ابنه واو
السجن حيث توفي عام ١٢٤٢ ، وقد يكون قد انتحر في اغلب الاحتمالات . و
ان نصب ابنه كونراد ملكا على المانيا انحدر هو بجيشه الى ايطاليا لمحاربة الع
اللومباردية ، ودحر جيوش هذه العصبة في عام ١٢٣٧ (٣٠) . ودفعه هذا النصر
الشمال الى توسيع اطماعه في الجنوب فقد ادعى هذه المرة بسردينيا التي كانت
تابعة للبابوية . وادى هذا الادعاء الى حرب سافرة بين الامبراطور والبابا . و
انضمت كل من البندقية وجنوة الى الاخير .

واعلن الامبراطور ان البابا وحلفاؤه متمردون وان اى تعامل معهم خيا
لاتغتفر ، لقد ادت هذه الحرب بين البابوية والامبراطورية الى تعقيدات سياس

... كثير ... من الاطراف المتحاربة ... انتخب ... عام
١٢٤٢ انوسنت الرابع للعرش البابوى وكان هذا من اشهر خصوم الامبراطور
فردريك ، وسار هذا في طريق مناقض للامبراطور . وكانت النتيجة ان الهوهنشتاوفن
لم يخسروا عرش المانيا فحسب بل خسروا كيانهم كأسرة حاكمة اوربية .

ففي عام ١٢٤٤ عبر البابا انوسنت الرابع الحدود الى فرنسا حيث عقد مجلسا
في ليون ، وهناك اعلن خلع الامبراطور فردريك من العرش على اساس انه غير
صالح للحكم . وسبب هذا الاعلان حربا وصراعا مريرين ، فنشبت الثورات في
المانيا وايطاليا وحيكت المؤامرات ضد فردريك وجرت عدة محاولات لاغتياله .
وحاول اللحاق بالبابا في ليون للدفاع عن نفسه ولكن الثورة في ايطاليا اضطرته
الى البقاء هناك . وازدادت مصاعب فردريك وحاول طبيبه الخاص سمه . وانتحر
اقرب اصدقائه ومستشاريه ، واسر خصومه احد ابنائه المحببين اليه . لقد احاطت به
المصاعب من كل جانب وكثر اعداؤه ، وقل انصاره ، وادركته المنية في عام ١٢٥٠
وهو في ذلك الوضع الدقيق . وهكذا حققت البابوية نصرا آخر في عالم العصور
الوسطى ، وتبددت احلام امبراطور آخر من آل هوهنشتاوفن .

ادت وفاة فردريك الى تفاقم الفوضى في كل انحاء الامبراطورية . فالاوضاع
في المانيا ارغمت ابنه وخليفته كونراد على الفرار الى ايطاليا ، وهنا كانت الفوضى
ضاربة اطنابها في كل جزء ، وكان كل حاكم محلي منهمكا في تعزيز موقفه
وضمان استقلاله ، توفى كونراد عام ١٢٥٤ بعد اربع سنوات من المتاعب والضياع
تاركا وراءه ابنا في الثانية من العمر .

المانيا بعد عام ١٢٥٠

كانت المانيا اقوى دولة في اوربا خلال القرنين الحادى عشر والثاني عشر ،
وتلاشت قوة المانيا في القرن الثالث عشر . وبينما شهد القرنان الرابع عشر والخامس
عشر ظهور الملكيات القوية في انكلترا وفرنسا ، وتطور السلطة المركزية فيهما ، فقد

شهد هذان القرنان كذلك اختفاء مثل تلك الملكية في المانيا وتبعثر السلطة المركزية

فيها . ولعل قصور المانيا في مجاراة كل من انكلترا وفرنسا في مضمار تطورهما

السياسي يعود الى الاسباب التالية :

١ - استمرار مبدأ الانتخاب للملكية بدلا من مبدأ الوراثة الدقيق والصريح .

وقد عرض هذا المانيا من وقت لاخر الى الخلاف والنزاع والحروب الاهلية

المدمرة .

٢ - قوة الاقطاع في المانيا وتركز هيمنة الامراء الاقطاعيين والنزعة القبلية التي

لم تصقل في المانيا كما صقلت في كل من فرنسا وانكلترا .

٣ - التورط في الشؤون الايطالية ، وانصراف جلّ اهتمام الملوك الالمان في

القرنين الثاني عشر والثالث عشر الى ايطاليا بدلا من المانيا .

٤ - التورط في الصراع مع البابوية . لقد شهد ذلك الصراع جولات كثيرة

وكانت الملكية الالمانية تخرج من كل جولة بجرح دام وبضربة قاصمة

لهيبتها ومكانتها .

والواقع ، ان الملوك الالمان ، لم يكونوا ملوكا لالمانيا فحسب ، بل كانوا اباطرة للامبراطورية الرومانية المقدسة . وبصفتهم هذه وجدوا انفسهم متورطين بشكل او بآخر بالشؤون الايطالية وبالصراع مع البابوية .

لقد اهمل الملوك الالمان المانية ، وفسح هذا الاهمال المجال امام الامراء والنبلاء الالمان لزيادة نفوذهم وسلطانهم على حساب السلطة الملكية . والواقع ان الملوك الالمان انفسهم كانوا في حالات كثيرة يغدقون على النبلاء الالمان لكسب ودهم وتعاونهم لتحقيق مشاريعهم الامبراطورية .

ونفض الملوك الالمان ايديهم من ايطاليا بعد عام ١٢٥٠ واتجهوا الى المانيا . ولكن هذه الخطوة جاءت متأخرة ، فقد تمكن الامراء الإلمان خلال الفترات السابقة وفي عهد الهوهنشتاوفن واثناء الصراع مع البابوية والحروب الاهلية الايطالية من تثبيت كياناتهم . لم يعد من السهولة زحزحتهم عن مواقعهم . وكان

ابية ودنيوية ، صغيرة وكبيرة ، تحكمها مجموعة كبيرة من الحكام باسماء والقاب متنوعة : اركدوق ، دوق ، كونت ، فيكونت ، مارغريف ، فارس ، رئيس اساقفة ، أسقف ، راهب ... الخ . اضف الى هذا ، شهد القرن الثالث عشر والرابع عشر ظهور كيانات سياسية جديدة متمثلة في المدن . وقد حصلت كل مدينة على كيان سياسي شبه مستقل وامتيازات كثيرة تضمنتها وثيقة امتياز خاصة بها .

ولجأ الملوك الالمان في حالات كثيرة الى منح رجال الدين اقطاعيات ، وذلك لخلق توازن مع الحكام والنبلاء ، فتكونت بذلك دويلات دينية كبيرة مثل كولون ، ميتز ، ترير ، ليج ، مانجدبرغ ، سالسبرغ . وتاريخ المانيا بعد ١٢٥٠ في الواقع ليس الا تاريخ الامارات الالمانية وليس تاريخ الدولة الالمانية ولا تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة (٣١) . فلم يكن هناك قانون عام ولا جهاز مالي او اداري عام وربما يمكن وصف المانيا بانها عدد كبير من اجزاء لايمكن ان تجتمع لتكون كيانا واحدا متماسكا . ومقارنة بانكلترا وفرنسا كان وضع المانيا يبدوشاذا وغير معقولا وغير منطقي .

هذا هو واقع المانيا ولكن على الرغم من هذا الواقع فان العادات والتقاليد المتأصلة في النفوس والمتغلغلة في الجذور كانت تابى الا ان تكون هناك امبراطورية المانية يرأسها ملك الماني ، او بعبارة اخرى ان الامبراطورية الرومانية المقدسة يجب ان تستمر بشكل او باخر مهما كان كيان تلك الامبراطورية مفككا ووهميا في واقع الحال .

وبهذا الشكل استمرت الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فبعد فترة خلو العرش (The Interregnum) (١٢٥٦ - ١٢٧٦) والتي اعقبت سقوط الهوهنشتاوفن والتي كان فيها عدد من الملوك المتنافسين ، لم يكن اى منهم قد حظى باعتراف الجميع بعد هذه الفترة انتخب رودلف من آل هبسبرج امبراطورا (١٢٧٣ - ١٢٩١) . ولم يقدم هذا لالمانيا شيئا يستحق الذكر . وكان مهتما بمصالح مالك ومستقبلها اكثر من اهتمامه باى شئ آخر .

ونظرا لاهمية تلك العائلة والدور الذى الذي قدر لها ان تلعبه في تاريخ المانيا
(٣٢) .
واوربا فان اعطاء نبذة عنها امر ضرورى
قال هبسبرج في الاصل من الالزاس وسويسرا . وعندما اصبح رودلف امبراطورا
لم يعترف به اوتوكار الثاني امير بوهيميا وكان هذا يحكم اجزاء مهمة ايضا من
المانيا منها النمسا . ونشب صراع بين رودلف وهذا الامير . انتهى بهزيمة الاخير
واستيلاء رودلف على املاكه وفي مقدمتها النمسا . وقد صارت هذه لآل هبسبرج
ومنها بسطوا نفوذهم خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على اجزاء مهمة من
من اوربا واستمر حكمهم الى نهاية الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٨ .

على اية حال ، اثار ازدياد قول الامبراطور رودلف غيرة الامراء الالمان وخوفهم
فاصروا على مراعاة مبدأ الانتخاب لابعاد آل هبسبرج الاقوياء من الاحتفاظ باللقب
الامبراطورى . وهكذا صار تقليدا سياسيا لا يحيد عنه الامراء الالمان ، وهو تجنب
حصر اللقب الامبراطورى في عائلة واحدة ، بل تجنب ضمه الى اية عائلة قوية
خشية ان تستطيع كبح جماحهم واخضاعهم . وهكذا عبثا حاول آل هبسبرج الاحتفاظ
باللقب بعد وفاة رودلف ، فقد تحول الامراء الالمان الى عائلة لكسمبرغ واختير هنرى
السابع امبراطورا في عام ١٣٠٨ . وكان شأنه شأن رودلف اهتم بمصالح عائلته
وعقد صفقة زواج مربحة لابنه على وريثة عرش بوهيميا تلك الولاية المهمة
والغنية . وازدادت قوة آل لكسمبرغ فعلا نتيجة لهذا الزواج . فما كان من الامراء
الالمان الا وتحولوا عنها الى اسرة فيتل بخ (wittellach) البافارية
فانتخبوا زعيمها لويس (١٣١٤ - ١٣٤٧) امبراطورا ، وهكذا كان الامراء الالمان
يتعمدون نقل اللقب من عائلة الى اخرى لتضييع الفرصة على اى واحد منها في
تثبيت كيانها .

وعاد الامراء الالمان الى عائلة لكسمبرغ فانتخبوا شارل (١٣٤٧ - ١٣٨٨)
امبراطورا . وهناك شئ مهم قد يذكر لهذا الامبراطور ، وهو انه اقر واقع المانيا
واراد تنظيم طريقة الانتخاب للعرش الامبراطورى ، واصدر لذلك في عام ١٣٥٦

(...) ، وبه ... عدد الناخبين
بسبعة : ثلاثة منهم دينيين هم : اسقف كولون ، واسقف ترير واسقف منز . واربعة
منهم دنيويين هم : كونت البلاتين ، ودوق سكسونيا ، ومازكريفز براندنبرغ ، وملك
بوهيميا ويجتمع هؤلاء الناخبون السبعة خلال شهر من وفاة الامبراطور في مدينة فرانكفورت
وخلال شهر من بدء اجتماعهم عليهم ان ينتخبوا امبراطورا جديدا . واذا
لم ينجحوا في انتخاب امبراطور خلال الشهر المحدد فيحرموا من الطعام والشراب الا
من الخبز والماء الى ان تتم عملية الانتخاب . وتضمن المرسوم الذهبي شرطا مهما
انه لا يجوز تبديل الوضع الاقليمي لولايات الناخبين السبعة في اى حال من الاحوال
فلا يسمح بتقسيم اى منها ، وعلى هذاالاساس يراعي مبدأ الوراثة بشكل دقيق فينقل
العرش في الولايات الدنيوية الاربعة من الاب الى الابن الاكبر ثم الى من يليه حسب
درجة القرابة . انها خطوة لحفظ التوازن والاستقرار ضمن المانيا المجزأة شبه الاتحادية
واخذ اجتماع الناخبين السبعة يعرف بـ (كلية الناخبين) وهو عبارة عن مجلس
اعلى لاتحاد الماني . والى جانب هذا كان هناك الدايت وهو شبيه بالبرلمان
الانكليزى وبمجلس الطبقات الفرنسي . وكان الدايت الالماني يتألف في البداية
من كبار النبلاء وكبار رجال الدين اللذين يجتمعون في مجلسين منفصلين . ولازدياد
اهمية المدن استدعى بمرور الزمن وجود ممثلين عنهم في الدايت . ولم يكن
عدد الممثلين في الدايت الالماني محدودا ولم تكن صلاحياته واضحة . ولم يكن
يجتمع الا قليلا ولم يتخذ قرارا مهما الا نادرا .

وباستثناء المرسوم الذهبي لم يظهر شارل الا اهتماما ضئيلا في المانيا ، فكان اهتمامه
الاول في بوهيميا وفي توسعها وتقدمها الثقافي والاقتصادى . لقد كان يحسن تفهم
الجيكيين ويتكلم لغتهم السلافية ، بل ويتعاطف معهم ضد التغلغل الالماني في
منطقة السوديت . وفي عام ١٣٤٤ نجح في فصل اسقفية براغ من مجدبرغ الالمانية
حيث كانت تابعة لها . وفي عام ١٣٤٧ اسس جامعة براغ الشهيرة . وكل هذه
الاجراءات بعثت الشعور القومي الجيكي وانعشت الادب الجيكي ، الامر الذي

زاد من حدة الصراع السياسي والثقافي بين الجيك والالمان .

وفي عام ١٤٣٧ عاد الناخبون الى عائلة هبسبرج فانتخب حاكم النمـ
البرت هبسبرج امبراطورا (١٤٣٧ - ١٤٣٩) ، وتلاه فردريك الثالث (١٤٣٩ - ١٤٩٣)
من نفس العائلة . واحتفظ آل هبسبرج باللقب الامبراطوري حتى عـ
١٨٠٦ حيث الغيت الامبراطورية الرومانية المقدسة . وربما كان السبب في تر
الامراء الالمان حصر الانتخاب بآل هبسبرج يرجع الى ان املاك آل هبسبرج الخاصة
حول فينا شرق الدانوب تضمن لالمانيا كلها حماية من الخطر التركي الذي كـ
ماثلا خلال القرنين الخامس والسادس عشر .

ولعل من اهم انجازات فردريك الثالث السياسية زواج ابنه مكسمليان مـ
ماري بنت شارل الجسور دوق برغنديا . وورث ابنهما فيليب املاك آل هبسبرج
الخاصة في المانيا اضافة الى جزء مهم من املاك دوق برغنديا . وتزوج فيليب هذا
جوانا وريثة العرش الاسباني فورث ابنها شارل املاك آل هبسبرج الواسعة في اوروبـ
واسبانيا بل الاراضي الاسبانية الشاسعة في العالم الجديد . والواقع ان زواج مكسمليان
من ماري يعتبر من اشهر الزيجات السياسية في التاريخ الاوربي .

وربما تجدر الاشارة قبل الانتهاء من الحديث عن المانيا الى ولاية براندبـرغ ،
حيث ان هذه الولاية كانت النواة لمملكة بروسيا المهمة . وهذه بدورها كانـ
النواة للامبراطورية الالمانية التي ظهرت للوجود في عام ١٨٧٢ . وتقع براندبرغ
في شمال المانيا . وقد اعتبرت منذ البداية كأحد الماركات - ولاية حدود - وكانت
ذات اهمية عسكرية كبيرة في وجه التهديد السلافي . وكان حكامها يحملون لقب
ماركريفر . وفي عام ١٤٥١ منح الامبراطور هذه الولاية الى فردريك من آل
هوهنزلرن . وهذه عائلة من سوابيا في الاصل ، وقد اشتق اسمها من احد القلاع
القائمة في مرتفعات زولرن .

وصار لهذه العائلة اهمية كبيرة خلال القرون التالية من تاريخ المانيا واوربا بل في
تاريخ العالم ايضا .

(١) - هارتمان ، الدولة والامبراطورية ، ص ص ١٨٣ - ١٨٦ .
(٢) - نفس المصدر .
(٣) - انظر الفصل الخامس ، الامبراطورية الكارولنجية .

(4) William Stubbs, Germany in the Middle Ages 1908, 2 vok. vol. 1, p. 330.

(5) Thompson, op. cit., pp. 352–353.

وللبروفسور ثومبسون كتاب آخر خاص بتاريخ المانيا في العصور الوسطى ويعتبر من احسن ما كتب في الموضوع . هو

J. W. Thompson, Feudal Germany, 1928.

(6) O' Sullivan, op. cit., p. 420.
(7) Thompson, Feudal Germany.
(8) Hayes op. cit., p. 188.
(9) Thompson, Feudal Germany. p. 120
(10) See J. Bryce. The Holy Roman Empire, 1904
(11) O' Sullivan, op. cit., p. 423
(12) I bid.
(13) Thompson, An Introduction to Medieval Europe p. 365.
(14) Hayes, op. cit., pp. 168–170
(15) I bid.
(16) See Cluny in Catholic Encyclopedia (1908–1914)
(17) Thompson, An Introduction to Medieval Europe p. 366.
(18) I bid.

The Shorte Cambridge History Vol. 1, pp. 490-492
I bid.
I bid.
O' Sullivan, op. cit., 434-435.

I bid, p. 439.
I bid, p. 440.
I bid,
Thompson, Introduction to Medieval Europe, p 411
A. C. Flick, The Rise of Medieval Church, 1909, pp. 201-210.
Thompson, Introduction to Medieval Europe p. 415
J. P. Trevelyan, Ashort History f the Italian people. 1926.

I bid.

Hayes, op. cit., pp. 360-366.
I bid.
I bid.

الحروب الصليبية دوافعها . تطورهـــا
واثرها فــــي اوربـــا

مقدمة
١ -دوافع الحروب الصليبية
١ -الدوافع الدينية
٢ -الدوافع الاخرى

٣ -تطور الحروب الصليبية
أ - الحملة الصليبية الاولى
أ - الحملة الشعبية
ب - حملة الامراء

٢ -الاحتلال الصليبي - قيام الدويلات الصليبية
٣ -المقاومة الاسلامية العربية
٤ - الحملة الصليبية الثانية
٥ - الحملة الصليبية الثالثة
٦ - الحملة الصليبية الرابعة
٧ - حملة فردريك الثاني
٨ - حملة القديس لويس
٩ - نهاية الصليبيين
١٠- اثر الحروب الصليبية في اوربا

مقدمة

الحروب الصليبية هي تلك السلسلة من الحروب التي شنتها اوربا المسيحية على البلاد العربية والتي بدأت في العقد الاخير من القرن الحادى عشر وامتدت فترة قرنين تقريبا ١٠٩٦ - ١٢٩١ . وهي نموذج للتوسع الاقطاعي الاوربي الذي بدأ في القرن العاشر واستمر خلال القرون الثلاثة التالية بل وامتد الى العصر الحديث حيث كانت الحركة الاستعمارية الاوربية حلقته الختامية فقد شهد القرن العاشر توسع المانيا الاقطاعية شرقا على حساب السلاف والمجريين والبلغار كما شهد القرن الحادى عشر توسع النورمان في انكلترا وجنوب ايطاليا وصقليا (وهي تحت حكم العرب) ، وتوسع الدويلات المسيحية الاسبانية في شبه جزيرة ايبرية على حساب العرب والمسلمين .

ولكن التوسع الاوربي في الارض المقدسة تميز في بعض اوجهه من ذلك الذي حدث في شرق اوربا وايطاليا وصقليا واسبانيا (١) .

١ - ان احتلال القدس والاماكن الاخرى في سوريا وفلسطين يجسد في الظاهر بشكل تام فكرة الحرب الدينية . لقد كانت الكنيسة تشجع اتباعها دائما على محاربة المسلمين والهراطقة المسيحيين ، ولكنها في حالة الحروب الصليبية لم تكتف بالتشجيع بل تعدته الى تنظيم تلك الحرب والى الاشراف عليها وتوجيهها .

٢ - والدويلات المسيحية التي اقامها الصليبيون في سوريا وفلسطين لم تكن امتدادا للدول الاقطاعية الاوربية ، كما هي الحال في شرق اوربا وجنوبيها ، بل ان تلك الدويلات كانت محطات ومراكز اوربية زرعت في محيط شرقي بعيدة جدا من مناطق انطلاقها ومفصولة عنها . ويصح وصفها بالمستعمرات ، فهي لا تختلف كثيرا عن المستعمرات الاستيطانية الاوربية في العصر الحديث ولا غرابة ان قال بعض المؤرخين انها اول عمل جدي للاستعمار الاوربي .

وفي الكلام عن الحروب الصليبية ، يجب الاخذ بنظر الاعتبار ، ان هذه الحروب لم تكن الا جزء من هجوم اوربي شامل على الوطن العربي والعالم



الاسلامي . وقد بدأ هذا الهجوم قبل الحروب الصليبية واستمر بعدها …

لقد قام النورمان خلال النصف الاول من القرن الحادي عشر بالهجوم … معاقل العرب في جنوب ايطاليا . كما هاجموا صقليا بصورة مستمرة بين … ١٠٦٠ و ١٠٩٠ واحتلوها وبذل الجنويون والبنادقة جهوداً متواصلة لتصفية … الاسلامية في البحر الابيض المتوسط

اما في اسبانيا فقد شرعت القوى المسيحية في التوسع على حساب العرب … كل اتجاه . فبعد وفاة الحاجب المنصور عام ١٠٠٢ اخذت الدويلات المسيحية … شمال اسبانيا (ليون وكاستيل (قشتالة) واراغون ونافار تدخل في دور توسع … فسقطت طليطلة بيد الفونسو السادس القشتالي عام ١٠٨٥ واستولت الاراغون … سرقسطة عام ١١١٨، واستمرت حركة التصفية للوجود العربي في اسبانيا خـ… القرون الثلاثة التالية .

وشملت هذه الحرب الشاملة ضد العالم الاسلامي اسيا الصغرى ايضا . لقد كانت الحرب سجالا بين المسلمين والبيزنطيين منذ ظهور الاسلام ، ا… الجديد في الامر هو مساهمة المسيحيين الغربيين في هذه الحرب . فقد عرض … من الفرسان الاوربيين خدماتهم على الامبراطورية البيزنطية . وجاء متطوعون للخ… في الجيش البيزنطي من اقطار اوربية كثيرة ومتباعدة . فكان هناك متطوعون م… اسكندنافية وايطاليا وانكلترة وفرنسا . وهكذا نرى ان الحروب الصليبية لا يمكـ… ان تفهم الا في اطار هذا الهجوم الاوربي الشامل على الوطن العربي والعالم الاسلامي وسوف نتناول الحروب الصليبية من حيث هي حركة اوربية وتؤلف فصلا من تاريخ اوربا في العصر الوسيط ، ولهذا سيكون كلامنا عن المقاومة العربية وردود الفعل الاسلامية وحركات التحرير العربية ، موجزا ، فمجال ذلك في دروس التاريخ العربي الاسلامي

أ- الدوافع الدينية

دوافع الحروب الصليبية كثيرة ومتنوعة منها ما هي دوافع روحيـة ومنها ما هي مادية دنيوية .

وبالنسبة للدوافع الدينية فأن الكنيسة الغربية شجعت اتباعها بصورة مستمرة لمحاربة المسلمين ، وقد اعتبرت القتال ضدهم حربا مقدسة يثاب عليها المسـ…ـرء … البابوات اتباعهم لطرد المسلمين من ايطاليا واسبانيا وصقلية . بل ان غريغوري السابع طالب بطردهم من اسيا الصغرى . واثار البابوات حماس الاوربيين بمـا اغدقوه لهم من وعود واماني . فعندما سأل بعض الاساقفة البابا جون الثامن فيما اذا كان اولئك الذين سقطوا في ساحة المعركة مؤخرا دفاعا عن كنيسة الله المقدسة ومن اجل سعادة وخير الديانة المسيحية والدولة المسيحية ، واللذين سيسقطون في ساحات القتال في المستقبل لنفس الغرض . سيحصلون على الغفران اقتبس البابا فـــي اجابته عن هذا السؤال نصا من الكتاب المقدس يتعلق بغفران الذنوب - لاولئـك الذين تمت توبتهم . واضاف مؤكدا ان اولئك الذين يموتون في سبيل الكنيسة ومن اجل تعاليمها ستغفر لهم الذنوب جميعا (٣) .

ووفرت المتاعب التي يتعرض لها الحجاج المسيحيون الى بيت المقدس خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر مبررا قويا للبابوات للدعوة الى حرب مقدسة . والحج تقليد مسيحي قديم . فقد اعتاد المسيحيون منذ عهـــود المسيحية الاولى شد الرحال الى القدس والى اماكن معينة ذات صلة خاصة بحياة السيد المسيح او الحواريين او القديسين . والحج مظهر من مظاهر التقوى والصلاح . ووسيلة لنيل التوبة والغفران من خطايا معينة وذنوب عامة . وكانت روما من اماكن الحج المهمة ، ولكن الاهم منها بيت المقدس . فهنا قبر السيد المسيح ، وهنا الصليب الذي سمر عليه ، حسب الرواية المسيحية ، وهنا المواقع ذات الصلة بحياته مثل الناصرة وبيت لحم .

الثاني من القرن الحادي عشر . ويرجع ذلك الى عوامل كثيرة منها الحماس الذي ولدته حركة الاصلاح الديني في اوربا في هذا الوقت والذي اجهز بين البابوية والامبراطورية . ومنها الهدوء والاستقرار النسبي الذي ساد اوربا بعد تلك الفوضى التي سادت اوربا خلال القرنين التاسع والعاشر . ثم سلامة المؤدية الى الشرق . فقد اعتنق المجريون المسيحية حديثا وبذلك فتح طرق اوربا ، كما تمكن الفاطميون من حماية الملاحة في البحر الابيض المتوسط خطر القراصنة وشجعوا الحج الى بيت المقدس لما يدره عليهم من ارباح طائلة تماما كما تشجع الحكومات في هذه الايام السياحة الى بلادها .

ولكن طريق الحج مالبث ان تعرض للمخاطر والمصاعب منذ اواخر الحادي عشر بعد ان سيطر السلاجقة الاتراك على الطرق المؤدية الى الارض المقدسة ففي معاملتهم للحجاج الغربيين خالف السلاجقة نـ العرب الذين جبلوا على التسامح والود تجاه جميع الديانات والفئات . لقد اتخذ البابوية من معاملة السلاجقة - السيئة للمسيحيين ذريعة للدعوة الى الحرب الصليبية ووسيلة لاثارة حماس الاوربيين .

ثم جاء التهديد المباشر للدولة البيزنطية ، بل ولشرق اوربا بعد ان الحـ السلاجقة هزيمة ساحقة بجيوش تلك الدولة في عام ١٠٧١ في معركة ملازكرد فقد خسر البيزنطيون نتيجة للمعركة كل اسيا الصغرى تقريبا وامتدت املاك السلاجقة حتى بلغت بحر مرمره . وازاء تقدم السلاجقة البيزنطيين الاوربيين على حد وتقدم الامبراطور ميخائيل السابع الى البابا غريغوري السابع طالبا المساعدة واظهر البابا استعداده لنجدة الامبراطور البيزنطي . وخطط لحملة عسكرية تقوم باسترداد اسيا الصغرى واعادتها الى البيزنطيين مقابل قبول هؤلاء بدمج الكنيسة الشرقية بكنيسة روما (٤) . واعد غريغوري السابع فعلا جيشا لهذا الغرض . ولكن موته

الامبراطور هنري الرابع [illegible] مشكلة التقليد العلماني [illegible] حال دون اتخاذه خطوة فعالة في هذا المضمار .

وواصل الامبراطور الكسيوس كومنين جهود سلفه ، فتقدم في عام ١٠٩٥ بطلب للمساعدة الى البابا اربان الثاني . وكان هذا البابا فرنسي . وسبق له ان كان راهبا في ديركلوني ، وساهم مساهمة فعالة في الحرب ضد المسلمين في اسبانيا وكان متحمسا لمواصلة الحرب ضد المسلمين في كل وقت وفي كل بقعة . وفي شهر تشرين الثاني عام ١٠٩٥ حل البابا في كليرمونت في جنوب فرنسا . وفي اجتماع كبير ضم كبار رجال الدين والنبلاء ، القى خطابا هاما دعا فيه الى القيام بحرب صليبية . وطلب من الحاضرين بذل جهد فعال ومشترك لمواجهة خطر المسلمين ولحماية الاماكن المقدسة لقد كان البابا حاذقا في اثاره حماس مستمعيه . وكان اغلب الحاضرين من الفرنسيين لذا فقد كلمهم بلغتهم . كانت دعوته ذات صبغة دينية بطبيعة الحال . فدعاهم الى نبذ الحروب الاقطاعية والتفرغ لما هو اهم واسمى . حثهم على نصره اخوانهم في الدين في الشرق فلتجر مراعاة هدنة الله في ارض الوطن ، وينبغي تجريد جيوش المسيحيين في حملة لقهر المسلمين ، ابتغاء الحصول على التوبة الكاملة التامة (٥) . ووعد البابا اربان الثاني جميع المساهمين في الحرب بالثواب والغفران . ولم يكتف البابا بكل هذا بل اثار اطماعهم بما قدمه لهم من صورة جذابة للارض التي سيقدمون عليها فقد وصفها ببلاد العسل واللبن (٦) وتحمس الحاضرون لدعوة الحرب وهتفوا جميعا هكذا اراد الله واندفع الكثيرون معلنين استعدادهم للمساهمة في تحرير الارض المقدسة . وحدد يوم ١٥ تموز عام ١٠٩٦ موعدا لرحيل المحاربين ، كما عينت القسطنطينية مكانا لالتقاء جميع الصليبيين . ووضعت الشروط الكفيلة بحماية املاك الراحلين وعوائلهم طيلة فترة غيابهم . ومنعت النساء من المساهمة في الحرب الا اذا كن في صحبة ازواجهن . اما القس والرهبان فقد تطلبت مشاركتهم موافقة رؤسائهم (٧) .

٢ – الدوافع الاخرى

ان ماذكر حتى الان يوضح دور العامل الديني في قيام الحروب الص
وفي الوقت الذى لايمكن نكران دور العاطفة الدينية خاصه ونحن نبحث ‍
العصور الوسطى ، عصور العقيدة والايمان وعصور القسس والاساقفة والرهب
الا ان هذا العامل وحده لا يكفي لتفسير هذه الحروب المتطاولة . والحقيقة
عوامل مهمة اخرى الى جانب ذلك العامل الديني . فالعاطفة الدينية كثير
ما استغلت لاثارة حماس الناس العاديين . وكثيرا ما اتخذت المظاهر الدينية
على اطماع لا تمت الى الدين بصلة . ومع ان الصبغة الدينية كانت بارزة في ال
الصليبية الاولى . الا ان تلك الصبغة صارت اقل وضوحا في الحملات الصلي
التالية ففي الحملة الصليبية الرابعة على سبيل المثال تناس الصليبيون الارض ال
التي جاءوا في الاصل لتخليصها من ايدى المسلمين . وتوجهوا الى القسطنطي
المسيحية ليحتلوها ولينتزعوها من يد اهلها البيزنطيين الذين قامت الحروب الصل
في الاساس لنجدتهم ولدفع خطر المسلمين عنهم .

وحتى بالنسبة للحملة الصليبية الاولى ذات الصبغة الدينية الاكثر وضو
فان تلك الحملة تمخضت عن تحقيق مآرب واطماع فئتين من فئات المجتم
الاوربي هما الاقطاعيون الفرنسيون والتجار الايطاليون ولم يكن الدين بالنسـ
لكلتا الفئتين الا وسيلة لتحقيق اغراض تجارية واقتصادية وسياسية . لقد حصـ
الاقطاعيون الفرنسيون على اراضي جديدة اقاموا لهم فيها ممالك ودويلات في
الشرق . وحقق التجار الايطاليون مكاسب وارباح تجارية جسيمة من جراء مساهمته
في الحرب .

وهكذا كانت الرغبة في الحصول على اقطاعات جديدة لدى النبلاء والامـ
الاوربيين . والرغبة في الهيمنة على تجارة الشرق ومّوانيه لدى التجار الايطاليـ
من الدوافع الرئيسية لقيام الحروب الصليبية ولاستمرارها تلك المدة الطويلة .

وبالاضافة الى ماذكر ... كانت هناك اسباب ودوافع اخرى للحروب
الصليبية منها الضائقة الاقتصادية التي كان يمر بها الاوربيون ؛ اذ ان لاقتصـاد
الريفي البسيط الذى كان سائدا في اوربا ، لم يعد باستطاعته مواجهة ازدياد السكان
هذه الظاهرة التي اصبحت واضحة المعالم خلال القرن الحادى عشر. وقيل ان البابا
اربان الثاني خاطب المجتمعين في كلير مونت قائلا من الصعب عليكم ان تعيلوا
السكان في هذه البلاد وهذا ما يدفعكم لشن هذه الحروب الكثيرة فيما بينكم (٨) .

ثم ان الحروب الصليبية جاءت لتلبية حاجة ملحة هي اشباع روح المغامرة عنـد بعض الاوربيين ونخص بالذكر منهم النورمان والنبلاء الفرنسيين فبعد ان اتم اولئك النورمان – فتوحاتهم في اوربا ، وبعد ان منع ملوك فرنسا الاقوياء النبلاء الفرنسيين من شن الحروب على بعضهم البعض . راى اولئك وهؤلاء في الحروب الصليبيـة متنفسا واشباعا لروح المغامرة والشهرة والمكاسب الاقتصادية والسياسية . والخلاصة ان الحروب – الصليبية كانت حروبا استعمارية قامت بها اوربا ضد الوطن العربي الاسلامي واضفت عليها طابعا دينيا في الظاهر لخداع جماهير الشعب واستثارة حماستهم

٣ – تطور الحروب الصليبية

آ – الحملة الصليبية الاولى

أ– الحملة الشعبية

ويمكن تمييز حركتين لهذه الحملة – الاولى ممثلة في الحملة الشعبيـة – والثانية ممثلة في – حملة الامراء – وضمت الاولى مجموعات كبيرة من الفلاحين واناس اخرين مع بعض صغار النبلاء وعدد قليل من الفرسان ، من ابرزهم ولتـر المفلس ، وكانت تنقصهم جميعا الخبرة والقيادة والنظام والتجهيزات . وكـان

بطرس الناسك بدفع تلك الجموع بخطبة ومواعظه . وهو شخص متعصب ل...
الدينية الى الحد الذي افقده اتزانه وبصيرته . جمع بطرس الناسك اتباعه من ...
والمانيا واماكن اخرى من اوربا . وكانت دعوته تلقى قبولا حيثما سار ، و...
بكولون بالمانيا في نيسان عام ١٠٩٦ كان معه ١٢٠٠٠ رجل (٩) .

وفي كولون اختلف بطرس مع ولتر المفلس ، الامر الذى دفع الاخير ...
الرحيل مع مجموعة من الاتباع في حين استمر بطرس في دعوته للحرب وجمع الرجا...
وفي مسيرته الى القسطنطينية كان ولتر بحاجة الى الطعام والسلاح وقد نجا
بصعوبة من هجمات المجريين . واتبع بطرس الطريق نفسه وهوجم هو الاخر ...
المجريين فما كان منه ومن اتباعه الا ووقعوا ذبحا وتقتيلا بهولاء حتى انهم قتل...
٤٠٠٠ مجرى في سملن (Semlin) ونهبوا في طريقهم بلغراد ونيـ...

وما ان وصل بطرس وجيشه الى القسطنطينية الا وحاول الامبراطور الكسيوس ...
منهم ودفعهم بعيدا عن عاصمته ، فوفر لهم وسائل النقل عبر البسفور . وقد وصلـ...
اسيا الصغرى . وهم في حالة شديدة من الفوضى ونقص الطعام والسلاح فأستصلـ...
الاتراك ولم يرجع منهم الى القسطنطينية الا نفر قليل .

وظهرت الدعوة مرة اخرى لجمع انصار جدد للحملة الشعبية وجال بطر...
الراهب واتباعه بلاد الراين لهذا الغرض . وسارت جموع كبيرة الى القسطنطي...
وكانت هذه تنهب في طريقها كل ما يقع بين ايديها وتقتل كل من يتصدى لهـ...
وقد خصت اليهود باعمال القتل والنهب وعندما وجد اولئك اليهود ملجا وملاذا له...
في الكنائس والاديرة لم يتورع الصليبيون من مهاجمتها وحرقها . وفي الوقت نفـ...
سارت جماعات مماثلة من شمال ايطاليا وجنوبها متوجهة الى الشرق . ولكن كـ...
هؤلاء لم تثمر جهودهم العسكرية – شيئا .

ب- حملة الامراء

قامت هذه الحملة في صيف عام ١٠٩٦ . كان اغلب رجالها من الفرنسيـ...
فقد كانت المانيا في هذا الوقت تمزقها الخلافات مع البابوية حول التقليد العلماني...

...صارت كلمة (Frank) ... وبواسم الفرنسيين مرادف للصليبيين .
...لم يعين البابا اربان الثاني قائدا عاما للجيش الاقطاعي الراحل الى الشرق . لذا كان
هناك العديد من القادة . والواقع ان هذه الحملة كانت عبارة عن عدد من الفرق
العسكرية كل فرقة منها تحت قيادة امير من امراء الاقطاع . ولم يتفق اولئك الامراء
على شئ فيما بينهم سوى الالتقاء في القسطنطينية . ومن امراء الاقطاع البارزين
في الحملة الصليبية الاولى جودفرى دى بوايون الذى تولى مع اخيه بلدوين قيادة
الصليبيين القادمين من اللورين . وريموند امير تولوز ، بوهيموند وابن اخيه تانكرد
اللذين قادا جيشا من النورمان . واجتمع في القسطنطينية في ربيع عام ١٠٩٧ حشد
من الصليبيين بلغ على اقل تقدير مئة وخمسين الف من الرجال الاشداء ومن الفرسان
المشهورين بالحرب والنزال (١٠) .

وما ان حل الصليبيون في القسطنطينية الا وظهرت التناقضات والخلافات –
وتضاربت الاهداف بين الصليبيين انفسهم من جهة وبينهم وبين الامبراطور الكسيوس
كومنين من جهة اخرى . فالامبراطور البيزنطي الذي كان طلبه المساعدة من العوامل
المباشرة للحملة الصليبية الاولى ، لم يكتف بالمطالبة باستعادة الاقاليم البيزنطية
التي انتزعها المسلمون منه ، بل اصر على اعتبار كل فتوحات الصليبيين المقبلة ملكا
له . وطلب من الامراء الاقطاعيين تأدية يمين الولاء الاقطاعي له بصفته سيدهم
الاعلى في الشرق . ولم يوافق الامراء على طلبات الامبراطور .
فقد عقدوا العزم منذ البداية على الاحتفاظ بكل ما سيكسبونه من ارض (١١) .
وعلى اقل تقدير تلك التي سيحتلونها في سوريا وفلسطين . والحقيقة ان وجود
الصليبيين بهذه الاعداد الكبيرة في الاراضي البيزنطية سبب كثيرا من القلق لدى
الامبراطور ، الامر الذى دفعه الى توفير الوسائل لنقلهم من اراضيه الى اسيا الصغرى .
لقد غادر الامراء الصليبيون القسطنطينية بعد ان بلورت بذور العداء وسوء الظن بينهم
وبين البيزنطيين والواقع كانت هناك في الاساس فروق – وخلافات عميقة بين
المسيحيين في الغرب والنصارى في الشرق ولم يكن من السهولة رأبها وتسويتها

فبالاضافة الى الانشقاق الديني بين الكنيستين الغربية والشرقية كانت هناك خلافات في اللغة والعادات . لقد جاء الاحتكاك الاخير ليزيد في – الخلافات القديمة ويعمقها وكان هذا عاملا هاما من عوامل فشل الحروب الصليبية في نهاية الامـــر

٢ – الاحتلال الصليبي – قيام الدويلات الصليبية

لقد كانت الحالة العامة في العالم الاسلامي مؤاتية لتقدم الصليبيين فقد كانت تنقص الوطن العربي والعالم الاسلامي في هذا الوقت بالذات الوحدة السياسية والقيادة الحكيمة والكفوءة . ففي آسيا الصغرى لم تكن سيطرة السلاجقة محكمة فكانت الحاميات العسكرية في كثير من المناطق ضعيفة . لم يكن باستطاعتها صد التقدم الصليبي ، كما كانت هناك مناطق مهمة ليس بها حاميات على الاطلاق . ولم تكن علاقات السلاجقة مع السكان حسنة ، ويفسر هذا الوضع سرعة تقدم الصليبيين في آسيا الصغرى وسقوط المعاقل الاسلامية هناك في ايديهم الواحد تلو الاخر .

ولم يكن وضع السلاجقة في بقية انحاء دولتهم باحسن حال . فبعد وفاة ملك شاه (عام ١٠٩٢) اخر سلاطين السلاجقة الاقوياء ، لم تعد في سوريا سلطة قوية ، وكثرت النزاعات والحروب بين الحكام المحليين . وكان الاخوان رضوان ودقاق قد توليا حكم حلب ودمشق . الا ان الخلاف سرعان ما نشب بينهما . واتفق رضوان مع باغي سيان امير انطاكيا على مهاجمة دقاق . كل هذا ولم تكن اي من الدولتين الفاطمية في مصر والعباسية في العراق في وضع تستطيع معه قيادة العالم الاسلامي ودفعه للصمود في وجه الزحف الصليبي . وذلك لما كانت تعانيه من ضعف وانحـــلال هذا هو الوضع الذي كان عليه المسلمون عندما شرع الصليبيون زحفهم (١٢) .

عبر الصليبيون البسفور في اوائل عام ١٠٩٧ واحتلوا نيقية بعد ا ن اكتسحوا حاميتها السلجوقية . وبعد احتلالهم نيقية بفترة قصيرة انزلوا هزيمة ساحقة بالجيش السلجوقي في دور يليوم (اسكي شهر) وفتح بذلك امامهم الطريق للتقدم في آسيا الصغرى . وواصل الصليبيون زحفهم حتى وصلوا شمال سوريا . وهناك ضربوا الحصار على مدينة انطاكيا المهمة وكانت تنقصهم التجهيزات ومستلزمات الحصار . فانتظروا وصول الاسطول الايطالي لاحكام عملية الحصار والشروع بالهجوم على المدينـــة

ودخول السفن الايطالية في العمليات الحربية يعتبر بحد ذاته من التطورات المهمة في الحروب الصليبية . فمن ناحية لم يعد الصليبيون بحاجة الى الاعتماد كليا على مواصلاتهم البرية عبر الاراضي البيزنطية للوصول الى سوريا وفلسطين فقد صار بامكانهم الان الاعتماد على المواصلات البحرية .

ثم ان وصول الاسطول الايطالي الى موانئ الشرق كان باعثا على نشاط التجارة بين الشرق واوربا عبر البحر المتوسط الامر الذي كان له اعمق الاثر في تطور اوربا السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

وصارت الخدمات التي تقدمها السفن الايطالية ، امرا له بالغ الاهمية للصليبيين وادرك اصحاب تلك السفن هذه الحقيقة فأشتطوا في طلباتهم وفي ثمـــن خدماتهم وكثيرا ما استغلوا حاجة الصليبيين الى سفنهم فوجهوا الحرب بجعلها لخدمة مصالحهم الخاصة ولم تمض مدة طويلة على قيام الحروب الصليبية الا ووطدت المدن التجارية الايطالية اقدامها في مدن سوريا وفلسطين .

وخلال حصار الصليبيين لا نطاكيا ، اشتدت الخلافات بينهم فغادرت فئة منهم بقيادة بلدوين ساحة الحرب ، وتوجهت الى اعالي الفرات ، وادت عملياتها الحربية الى سقوط مدينة الرها واقام بلدوين لنفسه امارة فيها (١٣) .

واستمر حصار انطاكيا مدة ثمانية اشهر ، حيث سقطت في حزيران عام ١٠٩٨ واتخذ بوهيموند من مدينة انطاكية مقرا لامارته التي عرفت بامارة انطاكيـــا واثار سقوط انطاكيا حماس الصليبيين وتناسوا لفترة قصيرة خلافهم وتوجهوا الـــى بيت المقدس . وبعد حصار استمر اكثر من شهر سقطت المدينة المقدسة في ايديهم في ١٥ تموز عام ١٠٩٩ .

وقام الصليبيون بمذبحة كبيرة فيها حتى ان الدماء سالت في الشوارع وسار

وهكذا اقام الصليبيون لانفسهم اربع دويلات صليبية في قلب الوطن العربي هي – كونتية الرها وامارة انطاكيا وكونتية طرابلس ومملكة القدس . وشملت الاخير بالاضافة الى المدينة المقدسة والمواقع المقدسة الاخرى (الناصرة وبيت لحم) موانى بيروت وعكا وصيدا وصور وحيفا وعسقلان . وكان حاكمها جود بوايين [illegible] اكتفى بلقب الحامي للقبر المقدس . وعند وفاته اخذ اخوه بلدوين لقب الملك . واعترف بسيادة القدس على بقية الدويلات الصليبية ، ولكن ذلك الاعتراف كان مؤقتا واسميا . فقد تمتعت كل واحدة منها بالسيادة والاستقلال الكاملين .

وقسمت كل واحدة من الدويلات الاربع بين الاتباع بشكل ينسجم مع الذهنية والتقاليد الاقطاعية . فكان الملك او الكونت السيد الاقطاعي الاعلى ويليه الاتباع الاقطاعيون لكل منهم اقطاعه الخاص . وقد ارتبط بيمين الولاء الاقطاعي تجاه سيده الاعلى . وفي اسفل هذا البناء الاقطاعي الاوربي الذي لم يكن يمثل الا فئة حاكمة صغيرة عاشت جموع الناس من مسلمين ومسيحيين . وتأثر المسيحيون الاوربيون كثيرا بسكان البلاد فاخذوا عنهم عاداتهم وملبسهم وما كلهم . واستخدموا الاطباء العرب وتكلموا اللغة العربية .

واقيم في كل الدويلات الصليبية نظام كهنوتي ذو صلة وثيقة بروما . وادخل نظام الاديرة الغربي الى الشرق . وتطورت في الشرق مؤسسات دينية خاصة عرفت بالفرق الدينية العسكرية . وهذه في الاساس تكونت من رهبان ركزوا جهودهم لحماية الحجاج والمسافرين الى بيت المقدس . ثم صاروا يتسلحون ويتدربون جيدا على حمل السلاح . وازداد عددهم واهميتهم فاودعت لهم تدريجيا حماية الدويلات الصليبية في الشرق . ومن اشهر هذه الفرق فرقة الداوية Knight of Temple وفرقة الفرسان الاسبتالية knight of Hospitallir وكان معظم الاعضاء في هذه الفرق من صغار النبلاء مزجوا الحماس الديني بحب القتال والمغامرة . وقد منحوا قلاعا واراضي في الدويلات الصليبية وصاروا في نهاية الامر يملكون اوسع الاراضي

واقوى القلاع (١٥) .

وتركز النشاط الاقتصادى في المدن الساحلية وقد حصل التجار الايطاليون على امتيازات خاصة بل واعطوا جزء من كل ميناء . ولما كانت خدماتهم لا يستغنى عنها . فقد تسابقت السلطات الدينية والدنيوية في منحهم الامتيازات وتوفير التسهيلات وهكذا فقد كان التجار الايطاليون من اكثر المنتفعين من الحروب الصليبية .

لقد عاش الصليبيون في محيط غريب ومعاد ، لذا فقد اهتموا بمؤسساتهم الدفاعية . وكانت هجمات المسلمين مستمرة على معاقلهم . وكان لزاما على كل نبيل تقديم عدد من الفرسان والمشاة للخدمة في الجيش الرئيسي . وينسجم هذا تماما مع التقاليد الاقطاعية الاوربية . ومن حيث تركيب الجيش تعلم الصليبيون ان الخيالة الثقيلة التي لا تسندها قوة من المشاة المدربة ، خاصة من رماة النبال ، عديمة الفائدة وقليلة الجدوى امام الفرسان المسلمين ذوى الاسلحة الخفيفة ورماة النبال . وعمد الصليبيون الى بناء قلاع قوية على طول حدود دويلاتهم . وحدث تطور هام في طريقة بناء القلاع وفي تحصين الحدود .

ونقاط الضعف في كيان الصليبيين كثيرة – منها قلتهم العددية وهم في محيط غريب ومعاد ، فقد رجع كثيرا من الصليبيين الاصليين الى ديارهم اما القادمون الجدد فكانوا قليلي العدد تنقصهم الخبرة ويعوزهم الحماس لحياة الشرق . وكثيرا ما كانوا مصدرا للمتاعب للدويلات الصليبية .

ونقطة الضعف المهمة الاخرى هي النزعة الاقطاعية المتمثلة في اللامركزية . فلم يكن هناك ما يجمع شمل هذه الدويلات ويوحد كلمتها ويدفعها لا تخاذ عمل مشترك الا في حالة الازمات الكبرى ، وحتى في مثل هذه الحالات ، لم تنجح الدويلات الصليبية في تكوين قيادة موحدة . ولم تعش تلك الدويلات المتناثرة والمتنافرة مدة طويلة الا بسبب الخلافات بين المسلمين انفسهم وتفرق كلمتهم وعندما ضم العرب والمسلمون شملهم وتوحدت قيادتهم تهاوت القوى المسيحية بسرعة وسقطت الامارات الصليبية الواحد بعد الاخرى .

انهارت دولة السلاجقة في اوائل القرن الثاني عشر . واستطاع اتباع السلاجقة المعروفون بالاتابكة انتزاع ما تبقى لامرائهم من سلطة وتكوين امارات خاصة وكان اهم الا تابكة واشهرهم اتابكة الموصل واعظم هؤلاء جميعا الاتابك عماد الدين زنكي الذى حكم الموصل منذ ١١٢٧ . واخذ زنكي في مد حدود امارته فضم اليها حلب وحلوان ونصيبين ومناطق اخرى . وفي عام ١١٤٤ نجح عماد الدين في تحرير الرها من ايدى الصليبيين والقضاء على امارتهم . وهكذا انهارت اول دولة صليبية بعد خمسين عاما فقط من قيامها وبدأ المسلمون يجمعون طاقتهم ، ويوحدون قواتهم ، ويرصون صفوفهم تحت قيادة مؤمنة مخلصة .

٤ -- الحملة الصليبية الثانية

ووصلت انباء سقوط الرها الى اوروبا فـــاثـــارت جزع الاوروبيين وتمخضت الدعوة للقيام بحملـــة جديدة فاستجاب لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك المانيا لهذه الدعوة وأتخذا طريقهما الى الشرق . هذه هي الحملة الصليبية الثانية وتتألف في جملتها من جيشين نظاميين يقودهما ملكان اوربيان كبيران . واتبعت الحملة الطريق البرى وسار كل من لويس السابع وكونراد الثالث مستقلا عن الاخر وفي وقت مختلف تجنبا - للاحتكاك بين جيشيهما . وخسر كونراد اغلب جيشه في اسيا الصغرى فاضطر الى الرجوع الى القسطنطينية . ثم حاول الملكان الفرنسي والالماني بالاتفاق مع ملك بيت المقدس على مهاجمة دمشق ، ولكن الهجوم الذى قاموا به فشل فشلا ذريعا . فعاد كونراد الى القسطنطينية في خريف عام ١١٤٨ ورجع لويس بحرا الى فرنسا وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية (١٦) .

وازدادت المقاومة الاسلامية صلابة وايمانا بعد فشل الحملة الثانية . ففي عهد نور الدين زنكي الذي خلف اباه عماد الدين زنكي تمت وحدة الموصل وحلب

وازداد ضغط القوى الاسلامية على مملكة القدس فهاجمها صلاح الدين الايوبي من مصر وهاجمها نور الدين زكي بجيش قاده من الشام .

وبوفاة نور الدين زنكي عام ١١٧٤ صار صلاح الدين الحاكم الوحيد لسوريا ومصر وبهذه الوحدة المتينة بين مصر وبلاد الشام حقق صلاح الدين انتصاراته وقد تمت منذ البداية على تحرير بيت المقدس . وكانت الحرب سجالا بين صلاح الدين والصليبيين وفي عام ١١٨٥ و ١١٨٦ حقق صلاح الدين عديدا من الانتصارات وفي تموز عام ١١٨٧ حدثت معركة حطين الفاصلة . حيث استؤصل الجيش الصليبي . وخسر الصليبيون ١٥٠٠ فارس ، ٢٠٠٠٠ مقاتل من المشاة وحاصر صلاح الدين القدس بعد هذه المعركة التاريخية ، حيث حررتها الجيوش الاسلامية في الثاني من تشرين الاول من العام نفسه ، ولم يبق بيد مملكة القدس سوى مدينة صور . وبقي للصليبيين في شمال مملكة القدس انطاكيا وطرابلس وحصن المرقب . وقد عامل صلاح الدين الصليبيين المتحصنين في القدس بغاية الرأفة والرحمـــة مما يظهر تفوق العرب المسلمين الحضارى والاخلاقي على الصليبيين الذين لــــم يرحموا احدا من سكان القدس العربية عندما احتلوها .

٥ - الحملة الصليبية الثالثة

اثار سقوط القدس موجه عارمة من الغضب في اوربا فدعي الاوربيون للقيام بحملة صليبية جديدة فجهزت الحملة الصليبية الثالثة (١٧) والتي تسمى بحملـــة الملوك لقد قامت الكنيسة بجهود مكثفة لا قناع ملوك اوربا للمساهمة في الحرب الصليبية . فقبل كل من فردريك الاول امبراطور المانيا وريشارد الاول ملك انكلتــرا وفيليب اوغسطس ملك فرنسا المساهمة ورحلوا الى الشرق لاستعادة بيت المقدســـ . ومات الاول غريقا في اسيا وتشتت جيشه . واستولى ريشارد على جزيرة قبرص وهو في طريقه الى الشرق وذلك بحجة ان - اهلها قد تعرضوا للسفينة التي كانت تحمل ضيرها اخته وخطيبته . ووصل الملكان ريشارد وفيليب الى فلسطين وقد تقـــلا

ترك فيليب اوغسطس الشرق وعاد الى فرنسا وبقي ريشارد وحده في الشرق
وكان هذا فارسا شجاعا اعجب به المسلمون - والمسيحيين ورأوا فيه ، ...
البطل صلاح الدين الايوبي خير نموذج للرجولة والفروسية في العصر الوسيط
كانت هناك صلات ودية بين هذين الفارسين على الرغم من الحروب التي كانت
مستعرة بينهما . وذهبت عبثا جميع محاولات ريشارد لاسترجاع بيت المقدس
واخيرا غادر الشرق الى اوربا في تشرين الاول ١١٩٢ وهكذا جاءت حملة
الملوك وعادت ادراجها دون ان تحقق شيئا من مطامحها في اعادة السيطرة على
فلسطين العربية .

وظهر خلال القرن الثالث عشر شعور متنام معاد للحروب الصليبية في اوربا
وكان عدد المتحمسين لها في تناقص مستمر . والاكثر اهمية من هذا ان البابوات
انصرفوا عنها ووجهوا جهودهم وحماستهم لمحاربة الخصوم في اوربا فنزلوا
على الهراطقة في جنوب فرنسا ، وتورطوا في صراع طويل ومرير مع ...
حكام الامبراطورية الرومانية المقدسة . والخلاصة فان المصالح السياسية والاقتصادية
والاجتماعية جعلت الاوربيين يهتمون باوربا ، فانصرفوا عن الاهتمام بالشرق
وقد اقتنع الملوك والامراء الاوربيون ان مشاريع الشرق غير مثمرة وهي لا تستحق
كل هذا العناء . وكان للصمود العربي الاسلامي ولبطولات المقاتلين العرب ...
الاثر في وصول الاوربيين الى هذه النتيجة .

(٦) الحملة الصليبية الرابعة

لقد تلاشى الحماس الديني للحروب الصليبية . وبرزت المصالح الاقتصادية
للاوربيين بشكل واضح وجلي ، ولعل خير دليل على هذا هو ما حدث في الحملة
الصليبية الرابعة (١٨) فهذه الحملة تثبت بوضوح ان الدافع الاكبر للحروب الصليبية
هو المصالح الاقتصادية والسياسية والمطامع التوسعية ، وما كانت الحملة الا ...

ستار لاخفاء هذه النوايا والمطامع .

ودعا الى هذه الحملة واحد من اعظم البابوات في العصور الوسطى وهو البابا
انوسنت الثالث . واتجهت الحملة الى الشرق في مفتتح القرن الثالث عشر . كان قادة
الحملة قد تعاقدوا مع البنادقة على نقلهم الى الارض المقدسة . ولكن الاموال التي
استطاع الصليبيون دفعها لم تكن لتغطي ما طلبه البنادقة فاقترح هؤلاء على الصليبيين
مهاجمة (زارا) في دلماشيا (وكانت هذه مركزاً تجاريا مهماً منافساً للبندقية)
تعويضا لهم عن المبلغ المتبقي الذي لم يستطع الصليبيون دفعه . وهكذا هوجمت
زارا وحقق البنادقة ما ارادوا . ثم تقدم البنادقة بمشروع الى الصليبيين كان اكثر
خطورة - واكبر نفعا للجانبين وهو مهاجمة القسطنطينية واعترض البابا على هذا
الانحراف للحملة الصليبية . ومنع الصليبيين من مهاجمة العاصمة البيزنطية . ولكن
... الهجوم وسقطت القسطنطينية بيد الصليبيين عام ١٢٠٤ . واستاء البابا انوسنت
... لما حدث - ولكن سرعان ما قبل بالامر الواقع ، بل واستغل الفرصة لفرض
سيادة روما على الكنيسة في القسطنطينية . وهكذا نجحت الحملة الصليبية في اقامة
دولة صليبية في القسطنطينية وليس في القدس . وقد بقيت هذه الدولة حتى عام
١٢٦١ . حيث استطاع البيزنطيون استرجاع عاصمتهم .

- حملة فردريك الثاني

قام فردريك الثاني ملك صقليا وامبراطور المانيا بحملة صليبية في عام
١٢٢٨ - ١٢٣٩ وحملته هذه تختلف عن الحملات الصليبية السابقة حيث لم
يباركها البابا ، بل ان فردريك الثاني كان تحت الحرمان الكنسي عند ذهابه
الى الشرق . لقد قال القديس لويس وهو الملك الصليبي المتعنت ، مرة " ما كان للمسيحي
الا يجادل الكافر بالشريعة المسيحية الا بأن يجرى سيفه فيه (١٩) . لقد كان
فردريك على النقيض من ذلك تماما . فقد كان حاكما مستنيرا متسامحا ، تربى
وعاش في صقلية حيث كانت الحضارة والثقافة والتقاليد العربية ما تزال مزدهرة
وكانت من احب الامور اليه مناقشة غير المسيحيين . وكان مثقفا واسع الاطلاع ، يجيد
لغات عدة ومنها اللغة العربية . لم يكن فردريك راغبا في الذهاب الى الشرق ولكن
الحاح البابا وتهديداته دفعته للقيام بذلك وقد اعلن البابا حرمانه فعلا وبهذا كانت

حرمانه وشن حربا صليبية على املاكه في اوربا .

لم يحارب فردريك المسلمين ، بل عقد معاهدة مع الملك الكامل ايوبي عشر سنوات اعترف الاخير بموجبها بمملكة بيت المقدس واضاف اليها الناصرة وبيت لحم . ولم يبق فردريك في الشرق الا اشهرا قليلة رجع بعدها ولم تستطع مملكة بيت المقدس الاحتفاظ بهذه الاماكن المقدسة . لان المس يعترفوا بالمعاهدة ، ووجهوا للصليبيين الهجمات المستمرة والمركزة ، فانهارت مق وضعف جانبهم ، وبقوا منعزلين في قلاعهم وحصونهم .

٨ – حملة القديس لويس

القديس لويس ملك فرنسا ، من الملوك والامراء القلائل الذين كانوا لا يزال تتحكم فيها عاطفة دينية صادقة . وقد دفعته تلك العاطفة الى الذهاب بحملتين صليبيتين الى الشرق . الاولى قام بها في عام ١٢٤٨ . وقد وصلت هذه دمياط واحتلتها . ولكن محاولته للتقدم داخل الارض المصرية بات بالفشل بسبب ... المسلمين واخلاصهم في الدفاع عن الوطن ، ووقع الملك الفرنسي اسيرا هو واعـ من قواده وجيشه بعد معركة المنصورة التاريخية واطلق سراحه بشرط تسليم دمياط و فدية مالية كبيرة . وفي عام ١٢٧٠ قام بحملة صليبية اخرى توجهت الى تونس ، وافته المنية بعد فترة قصيرة من وصوله الى هناك . (٢٠)

وقد تصدى الشعب العربي في تونس لهذه الحملة ، واضطر قادتها على عقد الصلح فعادت ادراجها الى فرنسا تجر اذيال الخيبة والفشل . والواقع ان حملة القديس لويس ملك فرنسا على تونس كانت اخر الحملات الصليبية على البلاد البلاد العربية

٩ – نهاية الصليبيين

اهمل الاوربيون بصورة متزايدة الدويلات الصليبية في ســـوريـا . وكانت الخلافات الداخلية تمزق الصليبيين المتبقين في الشرق . وكانت هجمات المسلمين

عليهم متواصلة ومستمرة فلم يتركوا لهم مجالا لجمع شتاتهم واستعادة ...

وانتعشت امال الصليبيين بازدياد قوة المغول وتوغلهم في العالم الاسلامـي اذ رأوا فيهم حلفاء ضد القوى الاسلامية .

وحاول المغول بعد احتلالهم بغداد اكتساح سوريا ولكن السلطان بيبرس اعظم – سلاطين المماليك سحق محاولتهم تلك واتخذ السلطان المذكور دمشق عاصمة له في عام ١٢٦٠ . وسحق امارة انطاكيا وضمها الى مملكته في عام ١٢٦٨ . واستولى السلطان قلاوون على طرابلس عام ١٢٦٩ . واستطاع ابنه خليل الاستيلاء على مدينة عكا اخر معاقل الصليبيين في عام ١٢٩١ . وهكذا تمكن العرب والمسلمـــــون بعد ان وحدوا – انفسهم وجمعوا طاقاتهم من تصفية الوجود الصليبي الدخيل مــــن كل بقعة من اقطار – الوطن العربي .

اثر الحروب الصليبية في اوربا

للحروب الصليبية نتائج هامة على اوربا من النواحي السياسية والاقتصاديـة – والاجتماعية والثقافية .

فمن الناحية الاقتصادية عملت الحروب الصليبية على تنشيط التجارة الاوربيـة مع الشرق واستفادت المدن التجارية الايطالية اكثر من سواها من تلك الحروب واستمرت تجارة تلك المدن مع الشرق حتى بعد زوال الدويلات الصليبية . فقد قام الايطاليون بنقل البضائع الشرقية الى اوربا مثل التوابل والسكر والانسجة الشرقية الثمينة والعطور وبمرور الزمن اعتاد الاوربيون هذه الحاجات وصارت سلعا اساسية بعد ان كانت ثانوية . تحرصوا على الحصول عليها . وبدأوا في البحث عن الطرق التي تؤديهم فـــــي الشرق للوصول اليها . وهذهي بداية حركة الاستكشافات الجغرافية التي – احدثت من غير شك ثورة في التاريخ البشري كله . ويرى البعض ان اكتشاف اواسط اسيا في القرن الثالث عشر على يد الاوربيين يضاهي في اهميته اكتشاف امريكا في اواخـــر القرن الخامس عشر .

لقد انهت الحروب الصليبية عزلة الاوربيون ووسع الاختلاط بالشعوب العربيـة – والاسلامية افق معرفتهم . ... اهتمام الاوربيين بالشعوب العربية والشرقيــة

وفي مقدمتها اللغة العربية وتجمعت نتيجة للحروب الصليبية معلومات كثيرة
شرق اوضعت كثير من كتب الأرشاد للارض المقدسة خلال الحروب الصليـ
كما الفت الكتب الخاصة بتاريخ تلك الحروب وقد يكون اثر الحروب الصليـ
محدودا من النواحي الثقافية وذلك لان القائمين بها والوافدين الى الشرق بموجبها
يكونوا على جانب من الثقافة والعلم وكان اهتمامهم بالمعرفة ضيقا ومحدودا .

ومن الناحية الاجتماعية فان ازدهار التجارة ادى الى تطور الفئات البرجـ
وازدياد نفوذها على حساب الطبقات الارستقراطية في اغلب الاحيان . وللمدا
خاصة ودور كبير في اضمحلال نظام الاقطاع . وساندت الفئات البرجوازية الملـ
المطلقة في صراعها ضد الاقطاع والارستقراطية .

وازدادت اهمية الكنيسة وازداد نفوذ البابوات في بداية الحروب الصليـ
وعلى اثر النجاح الذي حققته تلك الحروب في مراحلها الاولى ، ولكن تعثرها وانقلا
وتحول الصليبيين عن اهداف الحرب الاساسية كما هي الحال في الحملة الرابـ
واستغلال البابوات للحرب المقدسة لاغراضهم الخاصة حط من منزلة الكنيسة وقـ
من هيبتها .

ولعل النواحي العسكرية هي ابرز النواحي التي ترك المسلمون اثرهم فيها . فـ
تعلم الاوربيون من المسلمين استخدام الاسلحة الخفيفة والاعتماد على المشاة ، واتـ
منهم طرقا جديدة لبناء القلاع والتحصينات .
ان اتصال اوربا بالبلاد العربية والاسلامية طوال الحروب الصليبية كان من اهم عوا
نهضتها وتقدمها . فقد بهرت الحضارة العربية الاسلامية المتقدمة عقولهم – واستحوذ
على انفسهم ، وفتحت آفاق تفكيرهم . وقد تعلم الاوربيون من العرب – والمسلمـ
صناعات كثيرة ، وطرقا جديدة في الزراعة والرى والملاحة والبحرية ، وتنظيم المد
وادارتها ونظافة شوارعها وحماماتها ومرافقها العامة ، ان اتصال الاوربيين – البلا
بالحضارة العربية الإسلامية كان من اهم عوامل انطلاق الحضارة الاوربية الحديثة في
مختلف مجالاتها .

(1) Hayes, op. cit., pp. 229–230.

٢) جمهرة من المستشرقين باشراف سير توماس ارنولد . تراث الاسلام عربـــة جرجيس فتح الله ، بيروت دار الطليعة ، ١٩٧٢ ، ص . ٧٨

(3) O' sullivan, Medieval Europe, pp. 589–590.

٤) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، نقله الى العربية الدكتور السيد البـــاز العريني ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص . ١٨

٥) نفس المصدر ، ص ٢٣٠

(6) Hayes, op. cit., p. 230
(7) I bid.

٨) ستيفن رانسيمان ، الحروب الصليبية ، محاضرات القيت في كلية الاداب والعلوم ترجمة صالح احمد العلي ، بغدادا ، ١٩٥٦ ، ص ١٩٣

(9) O' Sullivan, Medieval Europe, pp. 591.

١٠) باركر ، نفس المصدر ، ص . ٣٠ .
— حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٧
ص ٣٤ ، ٤٨ .
١١) نفس المصدر .
١٢– حسن حبشي . الحروب الصليبية الاولى . دار الفكر العربي . ١٩٤٧
ص ٣٤ ، ٤٨ .
١٣) نفس المصدر .
١٤) ستيفن رانسيمان . تاريخ الحروب الصليبية نقله الى العربية للدكتور السيـــد الباز العريني .

١٦) باركر ، نفس المصدر ص ص ٩٥ ، ٩٦

١٧) سعيد عبد الفتاح عاشور ، نفس المصدر ، ص . ٤٥٤

O'Sullivan, op. cit., p. 595.

١٩) باركر ، نفس المصدر ، ص ص ١٤٢ – ١٥٢

٢٠) نفس المصدر ص ص ، ١٥٢ – ١٩٩

المراجع العربية المختـــارة

١) دوسن ، كرستوفر ، تكوين اوربا ، ترجمة ومراجعة الدكتور محمـــد مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٩٦٧

٢) راوس ، ا . ل ، التاريخ الانكليزى ، نقله الى العربية ، محمد مصطفـــى زيادة القاهرة ، ١٩٤٦ .

٣) كرامب ، ج و ا . جاكوب : تراث العصور الوسطى ، ترجمة ومراجعـــة مجموعة من اساتذة الجامعات المصرية ، ح ٢ .

٤) هارتمان ، ل . م و ج . باركلاف ، الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ترجمة الدكتور جوزيف نسيم ، ١٩٧٠

٥) اليوسف ، عبد القادر احمد ، العصور الوسطى الاوربية (٤٧٦ – ١٥٠٠)

(1) Abbot, F.F., History and Describition f Roman Political Institution (3ed. 1911)

(2) Adams, G.B., Growth f the French Nation.

(3) Boak, E.R., AHistory of Rorne to 565 A.D 1922.

(4) Bury, J.B., Later Roman Empire, 2vols. (London: 1953

(5) Dalton, O.M., The History of the Franks 2vols. (1927).

(6) Davis, R.H.C., A History of Medieval Europe (1970).

(7) Dollinger, J.J.I. The First Age of Christianity and The Church 4 ed Trans. (1906).

(8) Ergang, Robert, Emergence of the National State (New york: 1971).

(9) Feltcher, C.R.L., The Making of Western Europe 2vols. (London: 1912)

(10) Hayes, Carlton J. H., & Marshall w. Baldwin 8 c.w cole, History of Europe, (1955).

(11) Hoyt, Robert S., & Rupert H. Davis, Europe in the Middle Ages, 1957.

(12) Ker, W.P., The Dark Ages, Amentor Book, 1955.

(13) Mackenzie, K.R., The English Parliament, (Penguin books).

McDonald, J.R., History of France.

(15) Mourret, Ferdinand, The Papacy, tran. by R. Eaton (1931).

(16) Myers, England in the Late Middle Ages (1307–1536)

(17) O' Sullivan, Jeremiah, & John F. Burns Medieval Europe, (1946).

(1977).

(19) Richmond, I.A., Roman Britain Benguin books (1955).
(20) Robinson, J. H., Reading in European History, (London: 1904)
(21) Rostovtzef, M., The Social and Economic History of the Roman Empire 2 vols. (1926).
(22) Sawyer, p. H., The Age of the Vikings, (London, 1962)
(23) Smith, G. A Constitutional and Legal History of England, (New york: 1955).
(24) Shorter Cambridge Medieval History 2vols. (1952)
(25) Stubbs, William Germany in the Middle Ages 2 vols. (1908).
(26) Thompson, J.W., Feudal Germany. 1928.
(27) Thompson J.W., & E.N. Johnson. An Introduction to Medieval Europe (300-1500) 1937.
(28) Tout, T.F., France and England Their Relations in the Middle Ages and Now (Manchester: 1922).
(29) Trevelyan, J.P., A short History of the Italian People. 1920.

محتويـات الكتاب الثانـي

الفصل الاول : الكنيسة الغربية .

١ . نشوء المسيحية ٢ . تنظيم الكنيسة وادارتها في طور نشوئها ٣ . ظهور البابويـة ٤ . ظهور الرهبنة والحركة الديرية ٥ . دور الرهبان في نشر المسيحية في ارلندا وانكلترة ٦ . الرهبنة البندكتية ٧ . اعتناق الفرنج للمسيحية ٨ . دولة الكنيسة ٩ . النزاع بين الكنيسة والحكام الزمنيين ١٠ . مساهمة الكنيسة في اقرار الامن في اوربا ١١ . اصلاحات دير كلوني ١٢ . تنظيم الكنيسة في طور اكتماله ١٣ . الحركة الديريـة في القرن الثالث عشر ١٤ . الحركة الكاثارية او حركة المتطهرين ١٥ . محاكـم التفتيش ١٦ . الرهبنة الدومينيكانية ١٧ . الرهبنة الفرنيسكانية ١٨ . انحلال وحـدة الكنيسة وضعف سلطتها . مراجع الفصل الاول .

الفصل الثاني : الاقطـاع

١ . تعريف الاقطاع ٢ . عوامل نشوء الاقطاع ٣ . الارستقراطية الاقطاعية ٤ . الملك والنبيل الاقطاعي ٦ . قوة النبيل الاقطاعي ٦ . القضاء ٧ . اكتمال المؤسسات الاقطاعية ٨ . ظهور السلطة الملكية ٩ . النظرية السياسية للنظام الاقطاعي ١٠ . اساس الاقطاع مبدأ التعاقد ١١ . الفروسية ١٢ . مراتب الناس في العصور الوسطى . مراجع الفصل الثانـي .

الفصل الثالث : الحياة الزراعية وتطورها .

١ . الفلاحون ٢ . حقول القرية ٣ . الدورة الزراعية ٤ . الحصص المبعثرة ٥ . طرق الزراعة ٦ . المؤاجرة ٧ . وكلاء النبيل الاقطاعي ٨ . موارد النبيل ٩ . وسائل الخلاص من القنانة ١٠ . الغابات . مراجع الفصل الثالث .

الفصل الرابع : التجارة والصناعة

١ . انحطاط التجارة في العصر الاقطاعي الاول ٢ . انتعاش التجارة في القرنيـن الحادي عشر والثاني عشر ٣ . اهم الاقطار التجارية ٤ . الاتحادات التجارية ٥ . طرق

الكتـاب الثانـي

حضارة اوربا في العصـور الوسطـى

قوة الماء والريح ١٠ . الحديد والتعدين ١١ . صناعة النسيج ١٢ . تنظيم الصناعة مراجع

الفصل الرابع .

الفصل الخامس : المدن وتطورها

١ . نشوء المدن ٢. تأسيس المدن الجديدة ٣. تنظيم المدينة ٤. توسع المدن ٥. البيوت والشوارع ٦. النقابات وصعود البرجوازية . مراجع الفصل الخامس.

الفصل السادس : الحياة الفكرية

١ . ركود الحياة الفكريه في اوائل العصور الوسطى ٢ . النهضة الكارولنجية ٣ مدارس الكنائس ٤ . النهضة الثقافية في فرنسا ٥ . مدرسة باريس ٦ . الفلسفة واللاهوت ٧ . الاسميون والواقعيون ٨ . الفلسفه المدرسيه ٩ . الطب والقانون ١٠. ظهور الجامعات ونموها ١١ . تنظيم الجامعة وادارتها ١٢ . المناهج ١٣ . اثر العرب على النهضة العلمية باوربا ١٤ . روجر بيكون ١٥ . الطب ١٦ . الادب ١٧ . اللغة ١٨ . الشعر ١٩ . القصص النثرية ٢٠ . تأثير الفرنسيين على الانكليز ٢١ . المسرح ٢٢ . تقويم نهضة القرن الثاني عشر ٢٣ . دانتي . مراجع الفصل السادس .

الفصل السابع : عصر النهضة

١ . النهضة عصر انتقال ٢ . النهضة حركة برجوازية ٣ . حكم الاستبداد في المدن ٤ . فن الرسم ٥ . روح عصر النهضة ٦ . الفردية وتقدير الطبيعة ٧ . الحركة الانسانية ٨ . احياء العلوم القديمة ٩ . بترارك ١٠ . بوكاشيو ١١ . التاريخ ١٢ . النحت ١٣ . ليوناردو دافنشي ١٤ . ميخائيل انجلو ١٥ . فن البندقية ١٦ . النحت ١٧. الهندسة المعمارية ١٨ . بنفينيوتو تشيليني ١٩ . آريستوتاسو ٢٠ . العلاقة بين التحولات الاقتصادية وازدهار العلوم والفنون ٢١ . انحطاط حركة النهضة الايطالية ٢٢ . الفن والادب في المانيا ٢٣ . ايرازموس ٢٤ . اختراع المطبعة ٢٥ . العلماء الالمان ٢٦ . تشوسر ٢٧ . فرانسوا فيون ٢٨ . الادب الاسباني مراجع الفصل السابع.

الفصل الثامن : الاستكشافات الجغرافية ونمو الدول الحديثة

١ - الاستكشافات الجغرافية والتوسع الاوربي ٢ . البرتغال واسبانيا تبدآن حركة الريادة والاكتشافات الجغرافية ٣ . كولمبوس يكتشف اميركا الشمالية ٤ اكتشاف اميركا الجنوبية ٥. انكلترة ٦ . فرنسا ٧ . الاستعمار الاسباني في اميركا ٨ . اثر الاستكشافات الجغرافية على اوربا والعالم ٩ . نمو الدول الحديثة ١٠ . فرنسا وانكلترة ١١ . اسبانيا تصبح دولة اوربية عظمى ١٢ . البرتغال تصبح قوة بحرية كبرى

١٣ . الاراضي الواطئة ١٤ . المانيا ونمو قوة ال هبسبورغ ١٥ . ايطاليا .

مراجع الفصل الثامن .

مراجع الكتاب .

الفصل التاسع

١ . تأسيس القسطنطينية وقيام الامبراطورية البيزنطية واهم سمات التاريخ البيزنطي .

٢ . عصر جستنيان ٥٢٧ – ٥٦٥

٣ . الاسرة الهرقلية ٦١٠ – ٧١٧

٤ . الحركة اللايقونية

٥ . استيلاء اللاتين على القسطنطينية

٦ . اسرة باليولوجوس وسقوط الامبراطورية البيزنطية في قبضة العثمانيين ١٤٥٣

الفصل الاول

الكنيسة الغربية

١ نشوء المسيحية ٢ تنظيم الكنيسة وادارتها في طور نشوئها ٣ ظهور البابوية ٤ . ظهور الرهبنة والحركة الديرية ٥ . دور الرهبان في نشر المسيحية في ارلندة وانكلترة ٦ . الرهبنة البندكتية ٧ . اعتناق الفرنج للمسيحية ٨ . دولة الكنيسة ٩ . النزاع بين الكنيسة والحكام الزمنيين ١٠ . مساهمة الكنيسة في اقرار الامن في اوربا ١١ . اصلاحات دير كلوني ١٢ . تنظيم الكنيسة في طور اكتماله ١٣ . الحركة الديرية في القرن الثالث عشر ١٤ . الحركة الكاثارية او حركة المتطهرين ١٥ . محاكم التفتيش ١٦ . الرهبنة الدومينيكانية ١٧ . الرهبنة الفرنسيسكانية ١٨ . انحلال وحدة الكنيسة وضعف سلطتها .

١ ـ نشوء المسيحية :

نشأت المسيحية حركة دينية اصلاحية بين اليهود في فلسطين ، فلقيت منهم رفضا ، واضطهادا ، ومقاومة . ولهذا اضطر المؤمنون الاولون على التبشير بهـا في المدن الكبرى في سوريا ومصر وآسيا الصغرى واليونان ، وغاليا ، وفي رومـا عاصمة الامبراطورية الرومانية . وخلال ثلاثة قرون اصبحت هذه الحركة المحلية الصغيرة داخل اليهودية ، حركة كبرى ، جيدة التنظيم ، متميزة العقائد والشعائر ، تحتفها امم وشعوب عديدة .

ولم تنتشر المسيحية دون عقبات ، وصعوبات ، ومقاومة شعبية وحكوميـة كانت تصل احيانا الى حد الاضطهاد الفردي والجماعي . وكانت الاضطهادات تشتد احيانا ، وتخف احيانا ، فيعيش المسيحيون في حرية وامان . وبين حكم سفيروس سنة ١٩٣ واضطهادات عهد ديكيوس سنة ٢٥٠ ، نعمت الكنيسة المسيحية بسلـم كاد يكون دائما . وفي مطلع القرن الرابع كثر عدد المسيحيين وازداد نشاطهـم ، واصبحت الدولة امام خيارات متضاربة تجاههم : ان تصبح الدولة علمانية دون دين وهذا امر لم يكن ليفكر به احد ، او ان يكون للدولة ديانة واحدة عامة وهـذا امر رفضه المسيحيون . او القضاء على المسيحيين وهذا مالم تستطع الدولة ان تنجح في تحقيقه ، او ان تتبنى الدولة الديانة المسيحية على امل ان تصبح هي الديانة العامة لجمهور الشعب . وقرر الامبراطور دقلديانوس اعادة امجاد روما القديمة تحـت حماية الآلهة ، وعزم على القضاء على المسيحيين وبدأ اضطهاد المسيحيين عام ٣٠٣ حيث اصدر الامبراطور مرسوما يقضي بهدم كنائس المسيحيين وحرق كتبهـم الدينية علنا . وفقد المسيحيون وضعهم المدني وحقوقهم القانونية وصدر مرسوم ثان ضد رجال الكنيسة ، ومرسوم ثالث يدعو المسيحيين الى التوبة ، ومرسوم رابـــع يقضي بقتل جميع المسيحيين . وانسحب دقلديانوس من الحكم سنة ٣٠٥ ، فخفت ملاحقة المسيحيين في الغرب . وفي الصراع الذي كان يخوضه الامبراطور قسطنطين ضد منافسيه على السلطة اراد ... المسيحيين ليقوى بهم ، مع ان عددهم لم يكـن

[illegible]

بجعل المسيحية دين الدولة الرسمي ، ولكنه كان الخطوة الاولى لذلك ، حيث جعل الديانات جميعا متساوية في نظر الدولة ، اى جعل المسيحيين احرارا في ممارسة طقوسهم الدينية ، آمنين على انفسهم واموالهم ومعابدهم . ولهذا يعتبر مرسوم ميلانو الصادر سنة ٣١٣ نقطة تحول كبرى في تاريخ المسيحية .

وفي سنة ٣٢٤ انتصر قسطنطين على آخر خصومه تحت راية الصليب . ومن هذا التاريخ يبدأ اعتناق الدولة للمسيحية . وفي سنة ٤٣٨ صدرت مجموعة قوانين الامبراطور ثيودوسيوس واعلنت المسيحية فيها الديانة الوحيدة الشرعية في سائر انحاء الامبراطورية . واصبحت العقائد المسيحية هي العقائد الوحيدة الصحيحة ، واصبح من لايؤمنون بها كفارا ، مهددين بملاحقة السلطات الحكومية ، عرضة للعقوبات القانونية . وبحسب هذا القانون صار الكهان المسيحيون طبقة خاصة معفوة من الخدمة العسكرية والواجبات المدنية ، ودعي الناس لتقديم نسبة من املاكهم وثرواتهم عند وفاتهم الى الكنيسة الكاثوليكية المقدسة . وحرّم الامبراطور جميع الطقوس الوثنية ، ولاحق الوثنيين ، وصادر املاكهم ، واغلق معابدهم (١) .

٢ . تنظيم الكنيسة وادارتها في طور نشوئها :

كانت المسيحية في اول نشأتها عقيدة بسيطة للايمان والعمل والسلوك ، تقوم على محبة الله ، والايمان بالمسيح باعتباره وسيلة الخلاص ، والاحسان للناس ، والتقوى وفعل الخير وتجنب الشر . ولكنها عندما انتشرت في اقاليم الامبراطورية الرومانية تأثرت بالعقائد والطقوس والممارسات المحلية ، وبالفكر الاجنبي وخاصة بالفكر الفلسفي اليوناني فتحولت الى عقيدة وطقوس دينية معقدة . وحدث مثل هذا التعقيد في التنظيم الاداري للكنيسة ولجماعة المؤمنين . (٢) نشأت الكنيسة نشأة بسيطة دون رسوم محددة ، ولا تنظيمات معقدة ، ولا وظائف معينة . وكان لكل جماعة من المؤمنين كنيسة يديرونها بانفسهم ، ويحلون ما يواجههم من مشكلات

بالاجتماعات يعقدها شيوخهم وكبار السن والعقلاء فيهم . ثم اصبح لكل كنيسة رئيس يكرس وقته لخدمة الكنيسة يسمى اسقفا ويعاونه عدد من القسيسين بحسب الحاجة . واتبعت الكنيسة نظام الادارة الامبراطوري . فالاقليم الاداري في الامبراطورية اصبح هو نفسه منطقة الاسقفية الدينية . وكما كان الكاهن الاعظم في الامبراطورية يشرف على الشؤون الدينية في جميع الاقاليم ، اصبح رئيس الاساقفة ، او الحبر الاعظم ، يشرف على شؤون جميع الاساقفة ، ويوجهها .

٣ . ظهور البابوية :

في البدء كانت كنائس الاقاليم متساوية في المنزلة . ولكن كنيسة روما ما عتمت ان اصبحت هي الكنيسة الاولى في البلاد بحكم كونها كنيسة عاصمة الامبراطورية . واخذت كنيسة روما تدعم مركزها بالنصوص الدينية ، والمأثورات حتى استقر اخيرا انها هي الكنيسة الام التي انشأها الرسول بطرس استنادا الى ما ورد في انجيل متى حيث يقول السيد المسيح لبطرس : انت بطرس . وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي وابواب الجحيم لا تقوى عليها . واعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الارض يكون مربوطا في السموات . وكل ما تحله على الارض يكون محلولاً في السموات . (انجيل متى ١٦ : ١٧ - ٢٠) . واستنادا الى هذا النص فان سلطة الكنيسة تستمد اصلا من السيد المسيح ، عن طريق الرسول بطرس ، ومن بعده انتقلت الى خلفائه الواحد بعد الاخر ، وهم البابوات في روما ، ومنهم الى الاساقفة في الاقاليم . وزيادة في الافادة من النص السابق زعمت كنيسة روما بان الرسول بطرس تولى رئاستها مدة خمس وعشرين سنة حتى قتل شهيدا سنة ٦٧ ، وان رئيس اساقفة روما ، اى البابا ، هو الوريث الشرعي المباشر لبطرس . وهذا هو السند العقائدي لسيادة بابا روما على سائر الاساقفة . وهكذا اصبح الاساقفة وعلى رأسهم البابا ، هم الكنيسة ، وادعوا بان السلطة الدينية بكاملها لهم ، وان خلاص المؤمن الروحي لا يتم الا داخل الكنيسة ، فخارج الكنيسة لا يجد المؤمن اى خلاص .

وابتداء من سنة ٤٥١ استمر اطلاق لقب بابا على اسقف روما . وقد عملت على ترسيخ سلطة اسقف روما عوامل عديدة منها اقرار تفسير النص السابق ذكره من انجيل متى ومنها التقاليد المتصلة بروما نفسها . وكان لنقل العاصمة من روما الى القسطنطينية اثر كبير في تأسيس قوة البابوية في اوربا الغربية . فلو بقيت الامبراطورية في روما لطغت سلطة الامبراطور على سلطة رئيس الاساقفة ، ولما كان الاخير ليكون الا تابعا للامبراطور ، يخدم مصالحه ، وينفذ اوامره . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية افاد البابوات من امجاد روما التاريخية فاضافوها الى امجادهم ، والى امجاد الكنيسة . كان من المستحيل على الامبراطور قسطنطين ان ينقل الى القسطنطينية التي انشأها ، ووصفها بانها روما الثانية ، تقاليد روما المدينة الخالدة وشهرتها الواسعة ، وذكرياتها التاريخية . لقد بقي هذا التراث الروحي والذكريات التاريخية في روما فزادت في سلطة البابوات واعلت من هيبتهم . وكان للمدينة الخالدة تأثير سحرى عظيم على عقول الناس بحيث انه بعد زوال الامبراطورية الرومانية استمرت روما تمارس سيادتها الدينية والخلقية . وحافظت روما الكاثوليكية ، الى حد ما ، على الاستمرارية بين روما الوثنية وروما المسيحية . فقد اتخذ البابا لقب « الحبر الاعظم » وهو اللقب الروماني القديم لرئيس الكهنة . وكانت اللغة اللاتينية لغة الكنيسة الرسمية . وحولت الاحتفالات الوثنية الى اعياد مسيحية . وكانت ملابس رجال الدين المسيحي شبيهة بملابس كهنة الرومان القدماء . واستمر البابوات يؤرخون وثائقهم الرسمية حسب التقويم الامبراطوري لا بحسب التقويم المسيحي . وبعد ان نقل هونوريوس العاصمة الى رافينا سنة ٤٠٢ اصبحت للكنيسة السيادة السياسية على روما وما يجاورها من المناطق . هذا بالاضافة الى ما كان قد تجمع لدى الكنيسة من اموال طائلة منقولة وغير منقولة . ويجب ان يحسب في عداد العوامل التي عملت على تقوية نفوذ البابوية واعلت من شأنها شخصيات عدد من البابوات الاوائل الاكفاء المقتدرين المؤهلين لقيادة الناس مثل : كلمنت الاول ، وكورنيليوس ، وسيلفستر الاول ، وداماسوس الاول ، وليو الاول ، وجيلسيوس .

كانت سلطة البابوية تنمو شيئا فشيئا . ويمكن القول بان تثبيت سيادة البابوية على الكنيسة المسيحية في الغرب انما تم في عهد البابا غريغورى الاول ، الملقب بالكبير ، (٥٩٠ – ٦٠٤) ، ويعتبره الكاثوليك واحدا من اعظم ابطال المسيحية في العصور الوسطى . فقد تصدى لغزو اللمبارديين لايطاليا ، الذى ابتدأ سنة ٥٦٨ ، وخفف من مآسيه . وكان لغريغورى تأثير عميق على الفكر الديني في العصور الوسطى ؛ وهو لا يقل عن القديس اوغسطين اثرا كمعلم للعصور الوسطى (٣) .

٤ . ظهور الرهبنة والحركة الديرية :

كان البابا غريغورى الاول اول راهب يعتلي كرسي البابوية . وكان اول بابا يتبنى حركة التبشير الكبيرة لتحويل الجرمان الوثنيين الى المسيحية ، هذه الحركة التي بدأت ببعثة اوغسطين التبشيرية الى انكلترة سنة ٥٩٦ ، ولم تنته الا بتحول بلاد السكسون الى المسيحية في عهد شارلمان بعد قرنين من الزمن . واذا كانت الاقطار الغربية الاخرى قد اصبحت كاثوليكية قبل ظهور البابوية ، فان انكلترة في عهد الانكلوسكسون مدينة بعقيدتها المسيحية وحضارتها وثقافتها اللاتينية الى روما مباشرة . كان هؤلاء المبشرون رهبانا . ولهذا يحسن ان ندرس هنا ظهور الرهبنة وانتشارها وعلاقتها الوثيقة بالبابوية . والرهبنة ، باعتبارها شكلا من اشكال الحياة الدينية ، شرقية الاصل ، وسابقة على ظهور المسيحية . فقد عرفت العصور القديمة ، وخاصة في الهند ، جماعات الرهبان المتزهدين . ونشأت الرهبنة المسيحية ، اول مانشأت ، في مصر ، حيث كان المسيحيون يفرون من الاضطهاد الى الصحراء ليعيشوا عيشة الزهد والتقشف . واغلب الظن ان الحركة بدأت اثناء الاضطهاد الشديد في عهد الامبراطور دقلديانوس ، اى في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع . وقد مرت الرهبنة في مصر في دورين متميزين . فلم يكن الزهاد الاولون رهبانا ، لان الرهبان يعيشون عيشة جماعية ، وانما كانوا زهادا منفردين ، يحيا الواحد منهم حياة وحدة تامة ، وعزلة مطلقة عن الناس . وتطرفوا في ممارسة الزهد والعزلة

ففرضوا على انفسهم الحرمان التام من الاطعمة . الا ما يســـد الرمـــق ، ومن العلاقات الانسانية الضرورية . بل ومارس بعضهم تعذيب الجسد بالجلد والحرق والعيش في القذارة . ونظر الاساقفة الى هذه الحركة بعين الشك والريبة ، وخشوا ان تكون شكلا من اشكال الهرطقة ، وبدعة خارجة عن الايمان القويم . وزاد الشك في حركة قديسي الصحراء هؤلاء حين انظم اليهم اعداد كبيرة مـــن المجرمين الهاربين من العدالة ومن الممتنعين عن اداء الضرائب ، والمتخلفين عـــن الجندية ، والمتشردين والمتشردات ، مدفوعين بدوافع لا تمت الى الدين بصلة . وحاول القسس المصريون ، والشرطة المصرية ، ان يحدوا من الحركة فلم يفلحوا . وكان على الحركة ان تصلح نفسها من الداخل اصلاحا ذاتيا ، والا الحقت بالكنيسة العار ، وجلبت على البلاد الخراب والدمار .

وفي النصف الاول من القرن الرابع انقذ الوضع جندى مصرى مسيحي يدعى باخوم ، حيث اسس هو وجماعة صغيرة من الاصدقاء مجتمعا صغيرا على احدى جزر النيل ، واخذوا يتعبدون سوية ، ويعيشون سوية ، ويعملون مشتركين فـــي الزراعة او النسيج ، او صنع الفخار مما الغى البطالة والكسل من حياتهم . وكانـــوا يتناولون طعامهم مجتمعين في غرفة طعام عامة ، وينامون في غرفة عامة مشتركة . ولكن كان لكل واحد منهم قلاية ، او صومعة ، يعتكف فيها للدرس او الصـــلاة والتعبد ، بضع ساعات في اليوم . ووضع باخوم عدداً قليلا من القواعد البسيطـــة لتنظيم هذا المجتمع الصغير ، فالغى النواحي السيئة في طريقة الزهاد المتوحدين المتعزلين ، واقام توازنا بين ما هو ضرورى للحياة المشتركة وبين التطرف فـــي العزلة والزهد ، وابدل حياة الرهبان المتعزلين بحياة الدير . وبهذا كان باخوم المصرى هو مبتكر فكرة الحياة الديرية في المسيحية . ومن هذا الوقت اصبح لكل طائفة من طوائف الرهبان قواعد او نظام . ومن هنا يطلق على الرهبان الذين يعيشون فـــي الاديرة اسم القسس النظاميين لانهم يتبعون نظاما رهبانيا معينا ، تمييزا لهم عن غيـــر الرهبان من رجال الدين الذين يطلق عليهم اسم الكهان [illegible]

والقسيسين والخوارنة وغيرهم .(*)

وسرعان ما انتشرت حياة الرهبنة خارج مصر في الاقاليم الشرقية مـــن الامبراطورية الرومانية . واصبحت كابادوكيا في اسيا الصغرى ، بسبب طبيعـــة المنطقة الجبلية المنعزلة ، موطنا مفضلا للرهبان اليونان . واتخذ القديس باسيل المتوفى سنة ٣٧٩ ، الاجراءات الصارمة لضبط جماعة الرهبان . ووضع لتنظيمهم قـــواعد تسمى نظام باسيل او قاعدة باسيل . وقد اصبحت هذه القاعدة دستور الرهبنـــة الديرية في الكنيسة الارثوذكسية ، ومازالت حتى يومنا هذا .

وانتشرت الرهبنة الديرية في شمال افريقيا حيث نشأت اديرة منعزلة فـــي ضواحي قرطاجة وغيرها من بلاد تونس والجزائر . وعمل القديس اوغسطين على ضبطها ، والحد من تطرفها ، ووضع القواعد لها .

وامتدت الحركة الديرية الى اوربا فنشأت اديرة في بروفانس ، وفي الجزر القريبة من سواحل الريفييرا الفرنسية والايطالية ، وفي وادى نهر اللوار حيث المناخ مساعد ، وحيث يمكن نقر الصوامع بسهولة في الضفاف الكلسية للنهر . وهنا نظم القديس مارتن التورى حوالي سنة ٤٠٠ جماعة من الرهبان كانوا يعيشون كالغربان على ضفاف النهر (٤) .

٥ - دور الرهبان في نشر المسيحية في ايرلندا وانكلترا :

ورحل بعض هؤلاء الغاليين (*) الى بريطانيا قبل ان ينسحب منها الجيش

(*) سوف نستعمل في كتابنا هذا كلمة راهب للدلالة على رجل الدين المسيحي الذي يعيش في الدير وينتمي الى طائفة نظامية من الرهبان بدلا من كلمة "قس نظامي" ونستعمل كلمة قس ، او قسيس او كاهن ، لغير الرهبان من رجال الدين المسيحي .

(*) غاليا اسم البلاد التي تسمى الان فرنسا ، والنسبة اليها غالي . ومن امتزاج سكان غاليا الاصليين المنحدرين من اصل كلتي والرومان الفاتحين تكون شعب يسمى : الشعب الغالي الروماني ومن امتزاج هذا الشعب بالشعب الجرماني ، الفرنج وشعوب جرمانية وشمالية اخرى ، تكون ما يعرف الان بالشعب الفرنسي

الروماني . واغلب الظن ان بعضهم رحلوا الى ارلندا . ويبدو ان غزوات الجرمان لغاليا ، في القرن الخامس ، وخاصة غزوات الفندال ، اجبرت عددا كبيرا من الغاليين الرومان ، وبعضهم من ذوى المعرفة والثقافة ، على اللجوء الى ارلندا .

كانت ارلندا يومئذ بلادا بدائية جافية ، وكان الارلنديون يعيشون على الرعي والقرصنة اكثر مما يعيشون على الزراعة . وكانت الحروب بينهم متواصلة تكاد لا تنقطع وكان للقرصنة الارلندية هذه اثر عميق على تاريخ ارلندا ، لان القديس باتريك كان اشهر ضحاياها وابطالها . ولد باتريك حوالي سنة ٤٠٠ في جنوبي ويلز . وكان والده ضابطا في الجيش الروماني في بريطانيا ، وجده قسيسا مسيحيا . وقد اختطفه القراصنة وباعوه عبدا لرجل ارلندى . ومثل العديد من اهل الرؤى المتدينين كان باتريك يرى رؤى ، ويسمع اصواتا تأمره بالذهاب الى غاليا للتفقه بالدين المسيحي والعودة الى ارلندا لنشر المسيحية فيها . وهرب على مركب تجارى . وبعد تطواف طويل ومشقات هائلة ، وجد نفسه بين مجموعة من الرهبان في جزر البحر التيراني ، وهنا درس مدة من الزمن . واقام مدة طويلة في اوكسير بصحبة القديس جرمانوس ، وهناك اصبح راهبا .

وعاد باتريك الى ارلندا لينشر المسيحية فيها . وكتب في سيرة حياته الذاتية يقول : انا باتريك ، الخاطئ ، العبد في المسيح ، قررت العودة الى الشعب الارلندى الذى استرقني واستعبدني ، لا هديه الى المسيحية . عاد باتريك الى ارلندا سنة ٤٣٢ وتوفي فيها سنة ٤٦١ .وقد اختلطت اعماله الحقيقية بالاساطير والحكايات الخيالية . ولكن مما لا ريب فيه انه نجح في تحقيق هدفه نجاحا عظيما قلما كان له مثيل في تاريخ التبشير الديني . وهو وان لم يكن اول من ادخل المسيحية الى ارلندا فلا شك في انه هو الذى جعل ارلندا مسيحية . وتختلف الكنيسة التي انشأها القديس باتريك في ارلندا اختلافا كبيرا ، من حيث البنية ، عن كنائس القارة الاوربية ، لانها تقولبت بالنظام القبلي ، ففي ارلندا كانت كل قبيلة تحتل منطقة معينة ، وكان لها رئيس من نفسها يحكمها . وكان يقف على رأس رؤساء القبائل الرئيس الاعلى في تارا وهو ملك يسود بلده ولا يحكم .

كان للكنيسة المسيحية قابلية ممتازة على التكيف للظروف والعادات المحلية المختلفة . وهذا امر يجدر بنا ان نؤكده . ففي معظم اقاليم اوربا الغربية كيفت الكنيسة نفسها للاوضاع الاقطاعية ، واحتذت في تنظيمها النموذج الاقطاعي . وفي ارلندا نظمت نفسها على اساس النظام القبلي . واغلب الظن انه كان لكل قبيلة اسقف بعينه رئيس القبيلة . وكان عدد القسس كبيرا جدا . وكانت الكنيسة الارلندية تمارس طقوسا خاصة ، تختلف عما كان يتبع في روما ، في بعض الشؤون الدينية ، كتعيين موعد الفصح ، وحلق شعر الرأس ، اى فحص الرأس ، وتحديد شكل ملابس القسس ورجال الدين . وكذلك عانت الكنيسة كثيرا من الحروب القبلية التي كانت منتشرة في البلاد . وكان الشكل الحقيقي للكنيسة الارلندية هو الرهبنة الديرية . وقام الرهبان في تثبيت المسيحية في ارلندا ونشرها في الاقاليم والمناطق المجاورة . فقد كانت لهم اليد الطولى في نشر المسيحية في ويلز واسكتلندا وانكلترة . وعلى يد الرهبان الارلنديين ازدهرت الثقافة ، حيث احيوا الادب اللاتيني بل وحتى الادب اليوناني الذي كاد يزول من الوجود وتطمس معالمه في اوربا الغربية . واخذ الطلاب يتوافدون على ارلندا من انكلترة وغاليا الفرنجية ليتعلموا في مدارسها . وفي هذا العصر بلغ فن تحلية المخطوطات وتزيينها بالصور ، في ارلندا ، درجة رفيعة من الجمال ، ودقة الصنعة .

٦ . الرهبنة البندكتية :

ظهرت الرهبنة الديرية في روما في منتصف القرن السادس ، اى بعد قرن من نشوء الرهبنة في غاليا وارلندا . ومؤسس اول رهبنة في الكنيسة الكاثوليكية في روما هو القديس بندكت الذي ولد حوالي سنة ٤٨٠ في اسرة نبيلة في قرية تقع على واد منعزل في جبال الابنين على بعد ثمانين ميلاً من روما . وكان بندكت ما يزال صبيا حين اسس ثيودوريك مملكة القوط الغربيين . وارسله اهله ليتعلم في روما ، ولكنه صدم بما شاهده في هذه المدينة من اقبال على الدنيا وانغماس في اللهو والملذات ففر الى التلال طلبا للعزلة ، وابتعادا عن السقوط في الغواية . ورويدا رويدا ذاع اسمه في البلاد ، فاخذ الناس يتوافدون عليه باعداد كبيرة . واختار مونت كاسينو في

متصف الطريق بين روما ونابولي ، فانشأ فيها ديرا . وكان انشاء هذا الدير ، الذي ما يزال قائما مزدهرا الى يومنا هذا ، فاتحة عهد جديد في تاريخ الرهبنة خاصة والكنيسة عموما . اذ كان ديرمونت كاسينو هو الاصل الذي انحدرت منه طائفة الرهبان البندكتيين . وقد وضع القديس بندكت قواعد نظمت حياة الرهبان اليومية تنظيماً دقيقا مفصلا ، بحيث اصبحت الصلاة والعبادة والعمل تستغرق جميع ساعات يقظة الرهبان . كان بندكت يعتقد بان البطالة شر بحد ذاتها ، وكثيرا ما تدفع المرء الى الرذيلة . وعلى هذا فقد تعين على كل راهب ان يقوم بأعمال يومية معينة داخل الدير او خارجه ، في الحديقة او بستان الفاكهة او الحقل ، او حفر الترع ، وردم المستنقعات ، او قطع الاشجار ، وتمهيد الغابات . وكان الدير ، في العصور الوسطى مركزا لحقل كبير او لمجموعة من الحقول يسكنها المئات من الفلاحين الاحرار والاقنان وهكذا كان كل دير وحدة دينية واقتصادية واجتماعية قائمة بذاتها

وفي نفس الفترة التي عاش فيها بندكت ساهم نبيل آخر من ابناء روما يدعى كاسيو دوروس في تأسيس الحركة الديرية الكاثوليكية ، التي تميز عن الحياة الديرية في غاليا وارلندا . كان كاسيو دوروس سكرتيرا لاتينيا لثيودوريك . وقد اعتزل العمل الرسمي اثناء الحروب التي شنها الامبراطور جستنيان لاستعادة ايطاليا وأنشأ ديرا دعاه « فيفا ريم » اي « بركة السمك » في مقاطعة اجداده في جنوب ايطاليا ولم ينم هذا الدير كما نمت الرهبنة البندكتية ، ولكنه ترك اثرا باقيا في حياة الرهبنة . فقد كان القديس بندكت ، مثلا ، يكره الادب الكلاسيكي ، اي الادب اليوناني والروماني القديم ، لانه ادب وثني ، وكان يخشى ان تؤثر افكاره الوثنية على الرهبان تأثيرا سيئا . وعلى هذا لم يكن يسمح في اديرة البندكتيين بغير الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة الاولين ، والمواعظ الدينية الخ . واما كاسيو دوروس فكان احكم عقلا ، واعظم تسامحا ، فجمع مكتبة غنية من الادب الكلاسيكي الى جانب الكتب المقدسة ، فقد ادرك حاجة الرهبان الى دراسة هذا الادب ليس فقط لجودة لغته اللاتينية ، وانما لما فيه من قيمة ثقافية . وتجدر الاشارة هنا الى ان البابا غريغوري الاول ، الذي كان راهبا بندكتيا ، اقتفى آثار القديس بندكت ، فادان الادب الكلاسيكي ونهى عن دراسته . على ان هذه الكراهية للادب الكلاسيكي لم تستمر طويلا ، فسرعان ما زالت ، واخذ الرهبان البندكتيون يحذون حذو كاسيو دوروس بدلا من بندكت . وقد انقذ كاسيو دوروس الادب القديم من الضياع والاندراس ، واصبحت الاديرة منذ القرن السابع ، وطوال قرون عديدة فيما بعد ، مراكز للمعرفة ، ومدارس لطلبة العلم في العصور الوسطى .

ادخلت البعثة التبشيرية ، التي ارسلها البابا غريغوري الاول برئاسة اوغسطين الى انكلترة الدين المسيحي ونموذج النظام الكاثوليكي في ادارة الكنيسة ، الى جانب ثقافة اوربا ومعارفها . وسرعان ما ظهرت المراكز الاسقفية الكبرى في انكلترة بين سنتي ٦٠٣ و ٦٣٢ ، مثل كنتربري ولندن ووينشستر ويورك . وفي هذه الفترة حدثت في انكلترة تحولات ثقافية عميقة الاثر . فقد دخلت اعداد كبيرة من الرهبان الارلنديين والاسكتلنديين الى انكلترة الانكلوسكسونية واسسوا الاديرة فيها . واصبحت هذه الاديرة مراكز للعلم الانكليزي فهي وان لم تكن من اصل انكلوسكسوني فقد امها الانكليز حتى امتلأت بهم . ومن مشاهير اولئك الرهبان بندكت بسكوب المتوفي سنة ٦٩٠ ، الذي قام بتسع رحلات الى روما وجلب منها الكتب والصور المقدسة الى كنيسة الدير ومكتبته . وهكذا نشأت في انكلترة ثقافة غنية في النواحي الدينية والعلمية والادبية والجمالية . وقد تولدت هذه الثقافة من امتزاج الثقافات الارلندية والاسكتلندية بالعناصر الانكلوسكسونية المحلية . فكانت حصيلة هذا الامتزاج الثقافة الانكليزية الاصيلة ، المفعمة بالحيوية، المتنوعة والموحدة الروح في الوقت نفسه ، التي لم يوجد لها مثيل في اوربا الغربية خلال العصور الوسطى . واشهر ممثلي هذه الثقافة بيده الجزيل الاحترام المتوفي سنة ٧٣٥ صاحب المؤلفات العديدة واشهرها « التاريخ الكنسي في انكلترة » ، وهذا الكتاب مليء بالمعلومات المفيدة عن تاريخ انكلترة من العصر الروماني الى زمن المؤلف ، ويمتاز بصحة المعلومات ودقتها . وكانت
س العلمية التي وضعها بيده مصدر الابحاث في عهد شارلمان .

٧ . اعتناق الفرنج للمسيحية :

الفرنج هم آخر شعب الماني يغزو غاليا سنة ٤٨١ . وكان لهم اعظم الاثر في تاريخ غاليا ، واوربا عامة ، في القرن السادس والسابع والثامن . كان الفرنج وثنيين ، وبهذا كانوا يختلفون عن سائر الشعوب الجرمانية التي دخلت غاليا قبلهم ، والتي كانوا مسيحيين على مذهب آريوس . وكان السكان الاصليون الكاثوليك في غاليا يكرهون حكامهم الجرمان الاريوسيين ، ويحقدون عليهم ، لتعسفهم وظلمهم ، ولاعتقادهم مذهبا يخالف مذهبهم في الدين . وكان موقفهم من الفرنج مختلفا نظرا لحسن معاملة هؤلاء لهم ، وعدم تدخلهم في شؤونهم الدينية . فلما اعتنق الملك الفرنجي كلودفيك ، او كلوفيس كما ينطقه الفرنسيون ، ٤٦٥ – ٥١١ الدين المسيحي الكاثوليكي سنة ٤٩٦ ، توثقت العلاقات بين سكان غاليا الاصليين وبين الفرنج الحاكمين . وقد وضع اعتناق الملك للمذهب الكاثوليكي اساس التحالف بين الملكية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية ، المحلية والبابوية .

ولم يأت الفرنج الى غاليا مهاجرين ، وانما جاءوها فاتحين دون ان يقطعوا صلتهم بوطنهم الاصلي المانيا . ومن هنا كان اهتمامهم باخضاع الاقاليم الالمانية لحكمهم لا يقل عن اهتمامهم بالاستيلاء على غاليا . وقد سهل وقوع غاليا واقاليم مهمة من المانيا تحت حكم الفرنج انتشار المسيحية ، وقوى مركز الكنيسة الكاثوليكية وحد من تقدم السلاف في الاقاليم الشرقية من المانيا .

وقد افاد البندكتيون من حسن علاقتهم بالفرنج ، وافادوهم وافادوا البلاد في عهدهم فوائد جمة . فقد كان للرهبنة البندكتية دور بارز في اعادة تعمير البلاد بعد خرابها من جراء الحروب الاهلية التي اندلعت بين الفرنج منذ سنة ٥٣٧ . ولم تقتصر خدمات البندكتيين على الجوانب الروحية بل وشملت النواحي الاجتماعية كذلك . فقد كانت الاديرة ، في الواقع ، مزارع نموذجية للمقاطعات التي تحيط بها ، يحتذيها اصحاب المزارع الخاصة . وكان الرهبان يطهرون الغابات ، ويجففون المستنقعات ويعبدون الطرق ويغرسون الاشجار [illegible]

، بالاضافة الى ذلك كان [illegible] [illegible] وفي هذا العصر [illegible] التي كان لها اثر ثوري في تقدم الزراعة في اوربا الغربية ، وما يستحدث منه في مجال الزراعة . وكما كان الحكام يتصارعون على السلطة والتفرد بالحكم ، كان الرهبان يتنافسون فيما بينهم على التفرد في البلاد . جاء الرهبان الى اوربا الغربية من ارلندا واسكتلندا واقاموا اديرة في مناطق عديدة منها . وكان اول اولئك الرهبان ، واعظمهم منزلة ، القديس كولومبان الذي ابحر الى القارة الاوربية مع اثني عشر راهبا سنة ٥٨٤ . وقد ذكرنا سابقا ما كان بين الكنيسة الارلندية والكنيسة الكاثوليكية من اختلافات عديدة في تحديد الفصح ، وتعيين النصوص التي تقرأ في الصلوات ، وحلق الرأس ، والكفارة ، الخ . ولهذا اخذ الاساقفة الكاثوليك يلحون على ملوك الفرنج بغلق الاديرة الارلندية . وما حل القرن الثامن حتى كانت هذه الاديرة الارلندية قد اغلقت او حل فيها الرهبان البندكتيون محل رهبانها الاصليين . وعلى الرغم من قصر المدة التي ازدهرت فيها هذه الاديرة كان لها اثر لا يمحى على الثقافة الاوربية . فقد ادخلت الثقافة الارلندية الى غاليا والمانيا في وقت كادت فيه بقايا الثقافة الرومانية تختفي منهما . ووجود هذه الاديرة الارلندية حمل البندكتيين على تحسين عملهم ، واتمام ما بدأوه من خطوات في نشر المعرفة والتربية والتعليم .

٨ . دولة الكنيسة :

في القرن الثامن اصبحت الكنيسة الكاثوليكية دولة كأي دولة اوربية اخرى في ذلك الزمن ، لها اقاليم تحكمها ، وجهاز اداري يديرها ، وجيش يحميها ويدافع عنها ويوسعها . وكان لهذا التطور اسباب عديدة ، بعضها قديم وبعضها نتج عن الظروف التاريخية المستجدة ، واهمها التحالف بين البابوية وبين بين القصير (٧٤١ – ٧٦٨) ، ابن شارل مارتل ووالد شارلمان ، وقد اقتضت هذا التحالف مصلحة [illegible] من الطرفين . كان بين يطمح الى عزل الملك الميروفنجي الضعيف ليصبح هو ملكا . ولم يكن بالامكان خلع الملك الا بموافقة [illegible] . وكان البابا يحاول

احباط مساعي اللمبارديين للاستيلاء على ايطاليا بكاملها . ولم يكن احد ليستطيع مساعدة البابا الا بيبين محافظ البلاط الميروفنجي . وقد وافق البابا زخرياس على خلع الملك لمصلحة بيبين ، ودعا الأساقفة الكاثوليك لتأييده . وقد اعترف بيبين بهذا الدين السياسي للبابا ، وكافأه عليه احسن مكافأة ، فلما طلب مساعدته سنة ٧٥١ لبى طلبه ، و زحف بجيوشه على ايطاليا ، فدحر اللمبارديين ، واجبرهم على اخلاء ما كانوا قد احتلوه من املاك الكنيسة ، كما واجبرهم على إخلاء جميع الاقاليم العائدة للإمبراطورية الشرقية في ايطاليا والتي كانوا قد احتلوها منذ فترة قصيرة ، وقدمها هدية للبابا . وهكذا نشأت دولة الكنيسة ، وتأسست السلطة الزمنية البابوية ، التي دامت نحو ألف سنة .

وكان هذا الحدث نقطة تحول كبرى في تاريخ ايطاليا ، حيث اعاق وجود دولة الكنيسة قيام دولة موحدة في ايطاليا زمنا طويلا ، امتد الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر . . وقد بلغت العلاقات بين البابا ودولة الفرنج ذروة تطورها في عهد شارلمان ، فقد دعا البابا شارلمان الى روما سنة ٨٠٠ وتوجه امبراطورا ، ومعنى هذا ان البابا لم يعد يقر بشرعية حكم الامبراطورية البيزنطية لاوربا الغربية ، التي اصبحت منذ ذلك الحين منفصلة عنها عمليا .

٩ . النزاع بين الكنيسة والحكام الزمنيين :

ولم تستمر العلاقات الودية بين الكنيسة والحكام الفرنج طويلا ، فبعد انحلال دولة شارلمان الكارولونجية ، وظهور الممالك الجرمانية ، وانتشار النظام الاقطاعي الى مختلف الاقاليم ، منذ القرن التاسع ، اشتدت الخصومات بين الكنيسة والحكام الزمنيين ، وسببها الرئيس محاولة كل فريق توسيع املاكه على حساب الفريق الاخر وإن غلف الخلاف بغطاء ديني ، ودعاوى قانونية ، وما الى ذلك من حجج ومبررات، وكما كان رجال الكنيسة يطمعون بأملاك الملوك والاقطاعيين ، كان هؤلاء يطمعون بأملاك الكنيسة والاديرة . كان في المانيا مئات من الاديرة الغنية جدا حيث كان بعضها يملك الاف الضياع ، وكانت تلك الاديرة [illegible]

التعليم فيها ، وتردت المدارس ، واصبح ما تقدمه للمجتمع من خدمات ضئيلا بالقياس الى ما كانت تأخذه منه . ولم يكن رؤساء الاديرة يستخدمون كالاساقفة ، في الخدمة السياسية والعسكرية . وكان الرهبان يحيون حياة داخلية في عزلة عن المجتمع . وكان الملوك ، والاقطاعيون ، والاساقفة ، يعتبرون الرهبان يعاسيب تأكل ولا تنتج ، ويعتبرون اديرتهم بالية ، ومؤسساتهم قديمة لا نفع فيها . وكان الجميع يطمعون باملاك الاديرة . وعلى الرغم من تدينه وتقواه قام الامبراطور هنري الثاني بالاستيلاء على دخل الاديرة حتى يدفع لاساقفته . وبعد العجز في خزائنه المسبب عن تناقص اراضيه . وفي سنة ١٠٢٣ خسر دير سنت مكسيميان في ترير ٦٦٥٦ ضيعة تبلغ مساحتها ستة وثلاثين ميلا مربعا . وفعل كونراد الثاني ما فعله هنري الثاني مصادر املاك الاديرة في المانيا . وسيكون لهذه الوقائع اثرها البالغ بعد حين . فعند اندلاع الصراع العنيف بين هنري الرابع والبابا غريغوري السابع في سنة ١٠٧٥ ايد الرهبان البابا في حين ايد معظم الاساقفة الامبراطور .

١٠- مساهمة الكنيسة في اقرار الامن في اوربا :

من اهم انجازات الكنيسة في العهد الاقطاعي تصديها للعنف ، وحدها من الحروب المتواصلة بين امراء الاقطاع . فقد تجزأت اوربا الغربية الى مئات من الامارات شبه المستقلة ، بين كبيرة وصغيرة ، تحكمها طبقة من النبلاء المحبين للقتال والمختلفين في مراتب النبالة من الدوقات والكونتات والفيكونتات والبارونات الى اصغر صاحب قصر في ضيعة . وكان في داخل كل منطقة حدود مختلفة يصعب تعيينها . فقد تكون الحدود السياسية مجموعة من المرتفعات والتلال ، وقد يكون الحد السياسي جدول ماء صغير . وكان كل نبيل اقطاعي يطمع في توسيع املاكه الزراعية بالوسائل السلمية ، كالزواج مثلا ، او بالهجوم على جيرانه الضعفاء ، والويل للتابع الاقطاعي الذي لايستطيع سيده الاقطاعي ان يحميه في مثل هذه الظروف . فقد يكون سيده بعيدا ، او يكون ملكا اسميا خاضعا لسيطرة اتباعه الاقوياء المتمردين . وعندما يكون القانون غير مدون وغير محدد ، وعندما تعجز الحاكم عن حماية الانسان ، لا يبقى من سبيل امامه للدفاع عن نفسه وحماية حقه الا [illegible] السيف . نعم كان عليه ان يقاتل

لازاله حقم [illegible] ، وحيف الم بـ [illegible] او دفاعا عن حقه ونفسه وحماية ماله . وكانت معظم الحروب في العصر الاقطاعي مجرد تنازع على الحقوق . كما وكانت ايضا مجرد غارات سلب ونهب تقوم بها عصابات من قطاع الطرق والاشقياء . ولعل التاريخ لم يعرف ابدا مجتمعا اختل فيه الامن ، وسيطر عليه العنف ، مثل المجتمع الاقطاعي في اوربا الغربية في القرنين العاشر والحادى عشر . وكان من المحتمل ان ينحل المجتمع تماما ، وينهدم من اساسه ، لو لم تفرض بعض القيود والضوابط على هذه الطبقة المحبة للقتال من نبلاء الاقطاع .

وقد ساهمت الكنيسة في حل هذه المشكلة بما اصبح يعرف بـ « سلم الرب »

نشأت حركة « سلم الرب » في مجامع كنيسة عقدت في جنوب فرنسا في شارو سنة ٩٨٩ ، وناربون سنة ٩٩٠ ، وآنس سنة ٩٩٤ . ثم انتشرت الحركة الى معظم اقاليم فرنسا . لم تحاول الكنيسة ان تلغي الحرب ، فما كان بامكانها ذلك ، ولكنها منعت تحت طائلة الحرم من الكنيسة ، الاقتتال في الايام الثلاثة الاخيرة من كل اسبوع ، ايام عذاب المسيح وصلبه ، في كل زمان ومكان . ومنعت الاعتداء على القس والرهبان والنساء والاطفال والتجار المسافرين والفلاحين ونهب اموالهم . ومنعت المتحاربين من الاعتداء على اموال الفلاحين وزروعهم وبيوتهم وحرقها وتدميرها . ففي كل صراع بين بارونات الاقطاع كانت الضياع التابعة للنبيل ، والتي كان يسكنها الفلاحون البسطاء ، اول ما يتعرض للسيف والنار . فلم يكن للفلاحين غير المسلحين طاقة على ملاقاة الفرسان المحصنة اجسامهم بالدروع ، والذين كان يهجمون وكانهم قلاع متحركة تحمل الموت والخراب . واجبرت الكنيسة بعض هؤلاء البارونات الشرسين على القسم امام الاسقف بالامتناع عن ارتكاب مثل هذه الجرائم والفضائح عندما يحاربون . ففي سنة ١٠٢٣ طلب اسقف بوفي القسم التالي من النبلاء في ابرشيته :

أقسم : لا انهب ثورا ولا بقرة ولا اى حيوان من حيوانات العمل . ولا اقبض على تاجر او فلاح ، ولا آخذ منهم فلوسهم ، ولا اجبرهم على افتداء انفسهم ، ولا اريد لهم ان يخسروا اموالهم بسبب حروب يشنها اسيادهم ، ولا اضربهم لاخذ منهم اقواتهم ولا استولي من المرعى على حصان او فرس او مهر ، ولا اهدم ولا احرق اكواخهم ولا اقطع كرومهم ، ولا اشعل النار في حقولهم ، ولا اهدم طواحينهم

ولكن كثيرا من النبلاء لم يقبلوا باوامر الكنيسة ومواعظها ونصائحها ، ولم يهتموا بحرمها ولعنتها ، مما جعل من الضرورى استخدام القسر والعقاب البدني لايقافهم عند حدهم . وقد تقدمت السلطات المدنية لمساعدة الكنيسة في هذه المهمة . حيث قدم بعض النبلاء الخيرين التأييد العسكري والقانوني للحركة المسماة « صلح الرب » او « الهدنة الالهية » . ولما كانت هذه الحركة الدينية والخلقية مدعومة بالقوة العسكرية فقد خشيها اشقياء البارونات وهابوها وتعلموا احترامها . وكانت هذه الحركة تحالفا بين سلطة الكنيسة الروحية وبين القوة العسكرية للسلطات المدنية . ظهر اول اعلان لـ « صلح الرب » سنة ١٠٢٧ ، وينص على اعتبار الايام الثلاثة الاخيرة من كل اسبوع ، واسابيع عيد الميلاد ، واربعين ايام الفصح ، « اياما مغلقة » ، يحرم فيها القتال . وقد اطيلت المدة فيما بعد ، فاصبحت تمتد من بدء يوم صوم الفصح الى يوم القديس يوحنا (٢٤ حزيران) وايضا من يوم الصعود (١٥ آب) الى يوم القديس مارتن (١١ تشرين الثاني) وهكذا فرض على البارون المحارب ان يخوض الحرب في اشد ايام الصيف حرا ، واشد ايام الشتاء بردا . وبهذا اتيحت الفرصة للفلاح ليحرث ويبذر ويحصد زرعه ، واتيح له في اواخر الصيف واوائل الخريف ان يجني اعنابه ، ويصنع خمره ، ويزرع اخيرا المحاصيل الجذرية قبل حلول الشتاء . ولم تكن هذه الاجراءات فعالة دائما ؛ ولكنها كانت خطوات كبيرة الى الامام ، وعضد حركة « صلح الرب » قيام اتحادات للسلم في كثير من الاقاليم شارك فيها القس والنبلاء الخيرون والعامة وكان احد هذه الاتحادات في بي في فرنسا يسمى « اخوية الرب » .

١١. اصلاحات دير كلوني :

في القرن الحادى عشر كان كل من الكنيسة البابوية ، ودول اوربا وحكامها الا[illegible] الملوك والامراء ، يسعى للتفرد بالسلطة كان الا[illegible] والملوك يريدون ملكية

وتحت راية اصلاح الكنيسة تحالفت البابوية والاقطاع لاسباب مختلفة لاتمت للدين بصلة . فقد كان الحزب البابوي يريد ان يخضع الدولة للكنيسة ، وكان الاقطاعيون يريدون ان يتحرروا ، ويحرروا اماراتهم ، من سيطرة الملكية ، لان سلطة الملكية كانت تقع عليهم مباشرة ، واما سلطة البابا فبعيدة عنهم . واخذ كل من الامبراطور والبابا يسعى لاسقاط الاخر . وكان نبلاء روما وكمبانيا يقتتلون من اجل السيطرة على كرسي البابوية . وقد وضع التدخل الجرماني حدا لهذه الحالة الفاضحة ، واخذ الاباطرة الجرمان يعينون ، غالبا ، اساقفة المان لمنصب البابوية وفي سنة ١٠٤٩ عزل الامبراطور هنري الثالث ثلاثة بابوات ورفع عمه الى سدة البابوية باسم ليون التاسع (١٠٤٩ - ١٠٥٤) ، ولكي يوضع حد لتدخل الامبراطور في تعيين البابوات اسس مجمع الكرادلة المكون من سبعة كردلانات سنة ١٠٥٩ ، وهم اعلى رجال الكنيسة في ابرشية روما ، ولهم الحق وحدهم ، مع البابا ، في القيام بالقداس في كنيسة القديس يوحنا لاتيران وهي كاتدرائية ابرشية روما . ومنذ الان فصاعدا صار البابا ينتخب انتخابا قانونيا من قبل مجمع الكرادلة فقط . وهكذا اكدت حصانة البابوية . وفي سنة ١٠٧٣ اصبح هيلدا براند البابا غريغوري السابع . وقد عبر عن افكاره في سيطرة الكنيسة على الدولة في سبع وعشرين « موضوعة » اهمها : ان البابا هو الملك العام الوحيد ، وان له الحق وحده في استعمال الشارة الامبراطورية ، وانه يستطيع ان يعزل الامبراطور واي حاكم زمني آخر ، وانه لا يصح قرار اى محكمة دينية ، واى مجمع ديني ، دون موافقته ، وان البابا لا يخضع لحكم اي سلطة لانه مسؤول امام الله وحده وان للاتباع ان يتمردوا على حكامهم واسيادهم اذا ماحلهم البابا من يمين الولاء . ومعنى العبارة الاخيرة ان البابا يستطيع ان شاء ، ان يثير تمردا او حربا اهلية في دولة ما ، بل ويستطيع حتى ان يحل الدولة بكل ما تسببه هذه الثورة من عنف سياسي واقتصادي واجتماعي . وكان غريغوري متأثرا بافكار عصره الاقطاعي . حيث كان الناس جميعا بين سيد متبوع وتابع . وحيث كان الانسان يخلم [illegible] رتبته ومقدرته . فاذا كانت الكنيسة فوق ال[illegible]

قوية . وكانت البابوية تريد هي ان تكون ملكية فوق جميع الملكيات . ودعوى القد[illegible] اوغسطين في كتابه « مدينة الله » بان الكنيسة هي اعلى من الدولة لأن مؤسسها هو الله في حين ان الدولة هي من صنع الانسان ، لم تعد في نظر الكنيسة الان حلما فارغا ، بل واقع يمكن تحقيقه . وكان هيلدا براند ، الذى اصبح فيما بعد البابا غريغوري السا[illegible] ١٠٧٣ - ١٠٨٥ ، هو باعث هذه الدعوى ومنفذها . وقد هزت مساعي غريغوري السابع اوربا ، ورفعت من شأن الكنيسة وزادت من قوتها وسلطانها ، ولكنها كانت احد اسباب الانحطاط الذى سيلم بالكنيسة فيما بعد .

في عصر الاقطاع كان جميع الاساقفة في الوقت نفسه قسسا وبارونات اقطاع وبوصفهم بارونات اقطاع كانوا اتباعا للملك يدينون له بالطاعة والاحترام والولاء والخدمة السياسية والعسكرية ، وبوصفهم قسسا كانوا يدينون بالطاعة للبابا . وعند نشوب نزاع بين البابا والملك فاين كان القسس يقفون ، ولمن يدينون ؟ وهنا دعا دير كلوني الى اصلاح الكنيسة والى الغاء تعيين الاساقفة من قبل الملوك ، والعودة الى التعيين الشرعي . اي ان تكون الجهة التي تعين الاساقفة هو البابا وحده . وكانت الحجة الظاهرة هي القضاء على السمعانية ، اي شراء المناصب بالمال ، واما الدافع الحقيقي فهو اضعاف الملكية الجرمانية بل وحتى الغاؤها . وقد ايد البابا هذا الاصلاح . كما ايده امراء اللورين وتسكانيا لاسباب سياسية . فنجاح هذا الاصلاح يعني ان سلطة الاساقفة ستؤل الى البابا باعتباره السيد الاقطاعي ، وبذلك تجرد الدولة من قوتها السياسية والعسكرية . بل ان ذلك يعني الاطاحة بالامبراطور وجعل الكنيسة هي الدولة العليا ليس في ايطاليا والمانيا فحسب بل وفي اوربا باسرها .

ومن مطاليب دير كلوني الاخرى ، التي ايدها البابا ، فرض العزوبة على جميع القسس . كان الرهبان ، بطبيعة الحال ، عزابا لانهم نذروا انفسهم للعزوبة . ولكن القسس العاديين كانوا يتزوجون . وكان قانون العزوبية يطبق فقط على الطبقة العليا من الكهنوت . ولم يكن الدافع الحقيقي للمطالبة بتطبيق هذا القانون على جميع [illegible] دينيا فقط وانما كان اقتصاديا [illegible] ايضا

ولكي يحطم البابا غريغوري السابع خصمه الامبراطور هنري الرابع ، القى المانيا في خضم الحرب الاهلية سنوات طويلة ، كادت تهدم الحضارة الروحية والمادية لهذا الشعب. والسبب المباشر لنزاع البابا مع الامبراطور هو ان هنري الرابع عين ثلاثة اساقفة في ايطاليا فكتب اليه البابا يعزره ويوبخه ويحذره من غضب الله ولعنته الابدية فرد عليه اساقفة المانيا ، المؤيدون للامبراطور ، بعبارات اغلظ واشد ، واتهموه بانه حصل على منصبه بالقوة والخديعة والغش ورشوة الكرادلة. وكتب اليه الامبراطور قائلا : « انت راهب مزيف وليس بابا هنري .... اقول لك انزل (عن كرسي البابوية) انزل ، ولتكن ملعونا على مدى الاجيال ». ورد البابا ردا صارما قاطعا ، فاعلن الحرم على هنري . وتؤلف المراسلات بين البابا غريغوري السابع والامبراطور هنري الرابع مجلدا ضخما من اللعنات والشتائم والتهديدات والحجج القانونية والبراهين اللاهوتية ، والخطب السياسية. وثور خصوم الامبراطور في المانيا فيضطر الى عبور الالب ، ويذهب الى كانوسا في عيد الميلاد حيث يقيم البابا ، طلبا لمغفرته . ويرفض البابا استقباله ، ويبقيه ثلاثة ايام في العراء ، وهو راكع على الثلج الزمهرير ، قبل ان يعفو عنه . وعاد الامبراطور الى المانيا ليتحدى البابا مرة ثانية ، وتنشب حرب طاحنة بين الامبراطور ومؤيديه من جهة وبين مؤيدي البابا من جهة اخرى ، تدوم عدة سنوات . ويصدر البابا على هنري الرابع الحرم مرة اخرى ، ولكن الامبراطور لم يأبه بالحرم هذه المرة ، فيعبر الالب على رأس جيش ، ويحاصر روما سنة ١٠٨٣ . ويستدعي البابا غريغوري دوق النورمان على اساس انه تابع له لمساعدته . ولم يرد الامبراطور قتال النورمانديين ، ولم يشأ ان يأخذ البابا اسيرا ، ولذلك رفع الحصار عن روما ، وترك النورمانديين الذين انقلبوا على البابا ، يدخلونها محتلين . وقد نهب النورمانديون مدينة روما ، واحرقوها من اللاتيران الى الفاتيكان ، وارتكبوا فيها من الفضائح ما لم يفعله بها القوط سنة ٤١٠ والفندال سنة ٤٥٥ . وهرب البابا غريغوري

ومات في ... [illegible]

مصالحة توفيقية تسمى وساهنه (؟) اتفق بمقتضاها ان يكون تعيين الاساقفة مضاعفا ، اي ان يتم تعيين الاسقف من قبل البابا والامبراطور سوية

١٢. تنظيم الكنيسة في طور اكتماله :

في القرن الثالث عشر بلغت الكنيسة الكاثوليكية ، وعلى رأسها البابا ، قمة القوة والسلطان . واصبحت البابوية اعظم مؤسسات العصور الوسطى قوة وابهة وفخامة واتخذ تنظيم الكنيسة ، وما زال ، شكل هرم (هيرارشية) ، تتدرج فيه طبقات رجال الدين ، من حيث المرتبة والسلطة ، درجات متصاعدة من القسيس البسيط في القاعدة الى البابا في القمة . وكل طبقة من رجال الكنيسة توجه وتسير الطبقة التي تليها في المرتبة. ويتناقص اعضاء كل طبقة في هذه الـ « هيرارشية » اي البنية الهرمية ، كلما ارتفعوا صعدا وزاد سلطانهم . وللبابا وحده السلطة العليا ، والقول الفصل . وتتصاعد طبقات رجال الكنيسة على النحو التالي : الخوري او القسيس ، والشماس ورئيس الشمامسة ، والاسقف ورئيس الاساقفة ، والبابا. واما وظيفة الكردنال فادارية ، تضاف الى مرتبته الكهنوتية ، فهناك كردنال - قسيس ، وكردنال شماس ، وكردنال اسقف .

كانت اوربا الغربية باجمعها مقسمة الى ابرشيات يدير كل واحدة منها اسقف ويعود هذا التقسيم الى التقسيمات الادارية في عهد الامبراطورية الرومانية . وكانت ابرشية الاسقف عادة تشمل مدينة واحدة والمنطقة المحيطة بها . وعندما نشأت الحاجة في القرن السابع ، الى المركزية في ادارة الكنيسة ، ظهرت وظيفة رئيس الاساقفة . وكانت كل منطقة ادارية تطابق احد الاقاليم في الامبراطورية الرومانية ، وتشمل عددا من الابرشيات. وكانت الكاتدرائية هي مقر الاسقف الرسمي او « كرسيه » كما يسمى في المصطلح الكنسي (*) . ويعاون الاسقف قسيسون من مراتب مختلفة .

(*) كلمة كاتدرائية من اصل يوناني « كاتدرا » ومعناها المقعد ، او محل الجلوس او الكرسي وقد اطلقت الكلمة على بناية الكنيسة من باب الاستعارة وفي كل ابرشية كاتدرائية واحدة فقط وليس من الضروري ان ... الكاتدرائية اكبر الكنائس ، او اجملها ، في الابرشية

وكانت الطبقة الدنيا من رجال الكهنوت مؤلفة من الاف القسيسين في الابرشيات وكل ابرشية ، في المدينة او الريف ، يدبرها قسيس ، وهي اصغر وحدة ادارية في الكنيسة . وفي العصور الوسطى كانت الابرشية في الريف تطابق حدود الضيعة (مانور) او العزبة ، التي يقوم فيها قصر النبيل الاقطاعي .

وكانت واجبات الاسقف دينية وزمنية . وتقع جميع خدمات الكنيسة وجميع القسس في الاسقفية ضمن نطاق سلطته .وكان من واجبه اتخاذ الاجراءات المناسبة لان تجرى العبادة بشكل منظم لائق ، وتقدم الاسرار المقدسة بورع ، وتراعى احكام القانون الكنسي ويطبق النظام . وكان من واجبه تأديب القسيسين والعلمانيين من الاهالي على السواء ، وحماية الاخلاق العامة في المجتمع ، وابطال المفاسد . وكانت مدارس الكاتدرائيات ، بصورة عامة ، خيرا من مدارس الاديرة الواقعة في الابرشيات، وهي المدارس الوحيدة التي تعلم ابناء الشعب العلمانيين ، لان مدارس الاديرة ، منذ القرن العاشر ، اصبحت لا تقبل الا الاطفال المنذورين للرهبنة .

وكانت واجبات الاسقف الزمنية قسمين : يتضمن القسم الاول ادارة املاك وواردات الكنيسة في ابرشية . ويصدر القسم الثاني عن التزامات الاسقف الاقطاعية باعتباره سيدا اقطاعيا ، او تابعا او الاثنين معا . وبحكم هذه الالتزامات الاقطاعية كان الاسقف يقيم العدالة بين الرعية ، ويجمع الضرائب ويشارك في الحروب تنفيذا لالتزاماته العسكرية تجاه سيده الاقطاعي الاعلى .ويقوم برحلات دبلوماسية .وفي العصر الوسيط كان اتقان فن الحرب من الكفاءات المطلوبة في الاسقف .وقد اصبح اتقان فنون القتال ، خاصة منذ الحروب الصليبية ، واجبا يكاد يكون مقدسا. ومن واجبات الاسقف ايضا تفقد احوال ابرشياته بين الحين والحين . وكان هذا الواجب ثقيلا ، فهو يتطلب السفر الطويل بين ابرشية واخرى ، ومعاناة الحر والبرد والمطر ، والقيام بتفتيش متعب ممل ، ومحاسبة القسس وبينهم الامي الجاهل ، والمهمل المقصر والفاسد الخؤون . ويعقد الاسقف بين مدة واخرى مجمعا مؤلفا من كبار القسس في ابرشيته ، ويسمى المجمع الذي يعقده الاسقف « سنودس » ، واذا [illegible] العام [illegible]

بلغت الدولة البابوية في عهد البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) ، وخلفائه في القرن الثالث عشر، اوج قوتها الدينية والزمنية . من الناحية النظرية ينحصر كل ما يتعلق باقرار العقائد وصياغتها بالمؤتمر العام ، ولكن في الواقع كانت القرارات المهمة بيد البابا وحده . وكان للبابا ، كأي حاكم زمني ، وزراء ومعاونون ينفذون اوامره ، ويديرون شؤون مملكته . وكان مقر البابا في قصر اللاتيران ، ومنذ عصر النهضة الاوروبية الحديثة ، اتخذ البابا مقره الرسمي في قصر الفاتيكان بروما .

وكان النظام البابوي يقوم في الاساس على سياسة فرق تسد . فكان البابا يحرك القسس ضد الرهبان ، ويثير الرهبان ضد القسس ، ورؤساء الاساقفة ضد الاساقفة ، والقسس الصغار ضد الكبار ، وهذه الطائفة من الرهبان ضد تلك الطائفة الاخرى . وكان مندوبو البابا الشخصيون هم عينه ويده في كل بلد . وعلى هذا فلم يكن البابا يمارس سلطته العليا مباشرة الا نادرا ، الا اذا حدثت ازمة ، او مشكلة تستعصي على الحل ، والا اذا كان البابا عنيدا لا يسأل مشورة احد ، ولا يستمع لنصيحة ناصح .

واخذت مالية الكنيسة تزداد ازديادا كبيرا منذ القرن الثاني عشر فصاعداً . ومنذ القرن الحادي عشر كان للكنيسة صراف ، او بنك ، تودع اموالها لديه . وكانت اهم مصادر الواردات واقدمها "فلس بطرس" وهي تبرعات يقدمها المؤمنون سنويا لخزينة البابا لتنفق على الشؤون الدينية والمشروعات الخيرية . وابتدع البابا غريغوري السابع "الاحصاء" وهي ضريبة سنوية تقدم لحماية البابا ضد العنف في عصر الاقطاعية . وكان البابا يتقاضى اجرة من كل اسقف عندما يعين لاول مرة وهي تعادل موارد الاسقفية في سنة . وكانت الغرامات الحاصلة من نظام التكفير عن الخطايا تعود للكنيسة المحلية ولكن جزءا منها كان يرسل لخزينة البابا . وكانت روما تتقاضى اجورا عالية عن اعادة النظر في القضايا الكنسية الصادرة من محاكم الاسقفيات وعن الاعفاء من بعض القوانين الكنسية واحكامها ، كالزواج بذوي القربى من الدرجة المحرمة . وكان تولي الشخص اكثر من منصب كنسي واحد ممنوعا بحكم القانون الكنسي ، ولكن كان يحدث كثيرا ان يلغي البابا المنع لقاء مبلغ من [illegible] وهذا التصرف يسمى "التحديد"

كنسية . واصبحت صكوك الغفران مصدرا دارا للاموال بعد الحروب الصليبية . وكان للبابوية واردات كبيرة من املاكها الخاصة الواسعة في روما وضواحيها وايطاليا عامة وفي الاقطار الاوربية الاخرى .

١٣. الحركة الديرية في القرن الثالث عشر :

ذكرنا فيما تقدم من هذا الفصل ان القسيسين كانوا يدعون الكهان غير النظاميين واما الرهبان ، على اختلاف طوائفهم ، فيطلق عليهم اسم القسس النظاميين ، لانهم يعيشون وفقا لنظام او قاعدة . ومن اشهر هذه القواعد قاعدة القديس بنديكت في الكنيسة الكاثوليكية ، وقاعدة القديس باسيل في الكنيسة الارثدوكسية الشرقية . وتتابع هنا مسيرة الرهبنة الديرية كمثل ديني اعلى وكاسلوب في الحياة الكنسية لقد نمت الحركة الديرية نموا سريعا ، وانتشرت انتشارا واسعا ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، بحيث اصبح يطلق على هذين القرنين : عصر الرهبنة ، بالاضافة الى كونهما عصر الفلسفة المدرسية (الاسكولائية) . وكان في فرنسا وحدها ، في نهاية القرن العاشر ، ٥٤٣ ديرا ، ولا شك ان عدد الاديرة في البلاد الاخرى كان بمثل هذه النسبة . كان بعض الاديرة صغيرا ، ولكن الكثير منها كان كبيرا ، مهيب البنيان ، واسع الاملاك الزراعية . واما في الفترة التي نتحدث عنها فقد زاد عدد الاديرة زيادة مذهلة فاصبح عدد الاديرة في فرنسا وحدها ٧٠٢ ديرا . واخذت تظهر طوائف جديدة من الرهبان الواحدة بعد الاخرى بسرعة ، اما كرد فعل على فساد الطوائف القديمة ، او رغبة في وضع مثل عليا جديدة للرهبنة . ومن هذه الطوائف الجديدة* الرهبنة « الكارثوزية » التي اسسها القديس برونو ، المتوفى في كولون سنة ١١٠١ . والهدف الرئيسي لهذه الطائفة هو التأمل الروحي ، ولذلك فهي تؤكد على التقشف ، والامتناع عن اكل اللحم ، والاكثار من الصيام الطويل ، والنهوض المفاجئ من النوم العميق ولم يكن الرهبان يمارسون الاعمال اليدوية الا بمقدار ما هي ضرورية للصحة ، هذا لم يكن رهبان هذه الطائفة يعملون في المزارع والحقول ، بل يقضون معظم اوقاتهم يتأملون في صوامعهم (٦) .

ومن الطوائف الجديدة المتشددة في التقشف الرهبنة « السترشية » نسبة الى دير سيتو ، المؤسسة سنة ١٠٩٨ . وقد انشئ اول دير لها في سيتو في برغنديا الفرنسية وكان رهبان هذه الطائفة مهتمين بالشؤون الاجتماعية بقدر ما كانوا متحمسين في الحياة الدينية . وبعكس رهبنة دير كلوني التي كانت مركزية على النمط الملكي كان السترشيون يحتذون النمط الاقطاعي في تنظيمهم . فكان الدير الام هو السيد وكانت الاديرة الاخرى* تابعة له . وكانت العلاقة بينهما كعلاقة السيد والتابع في النظام الاقطاعي . وكان دير كلوني ارستقراطيا لا يدخله الا ابناء النبلاء ، واما دير سيتو فكان رهبانه ، بصورة عامة ، من ابناء الطبقات الاجتماعية الدنيا : من الفلاحين والبورجوازيين ، تمشيا مع روح العصر حيث بدأت القنانة تنحل ، وتظهر المدن والحياة المدنية ، وينمو وعي الجماهير . وكان السترشيون يهتمون بالزراعة اهتماما عظيما وكانت الاعمال التي حققوها في تجفيف المستنقعات ، وتطهير الغابات ، وتطوير طرق الزراعة ، وتحسين نسل المواشي ، ذوات فائدة اجتماعية واقتصادية عظيمة على ان الرهبان لم يقوموا بهذه الاعمال بانفسهم ، وانما كان يقوم بها فلاحون « علمانيون »* يتبعون نظاما دينيا بسيطا ، ولكنهم كانوا امين ، ولم يسمح لهم ان يشاركوا في جوقة المرنمين ، او يساهموا في تقديم القداس ، ولم يكونوا يسكنون داخل الدير ، بل يعيشون جماعة في حظائر الدير .

وفي حين عمل السترشيون الكثير لتحسين الحالة الاقتصادية ، وتقديم المعونة الاجتماعية للمحتاجين ، لم يهتموا بالتعليم ، ولا بأي شكل من اشكال الحياة الثقافية بل لقد كانوا معادين للفن عداء شديدا . وكانوا يأخذون على دير كلوني تشجيعه الهندسة المعمارية والنحت والرسم ، وما ادخل على الطقوس الدينية من مظاهر الابهة والفخامة ، وما كان له من موسيقى مؤثرة ، ومكتبة حافلة بالمخطوطات ، لقد كان السترشيون ، مثلهم مثل المتطهرين (البيورتيان) فيما ...

يكرهون الصور والتماثيل ، والنوافذ ذوات الزجاج المزين بالصور الملونة . وكانت كنائسهم مطلية بالملاط والجص فقط ، خالية من الرسوم والزينات . وكانت الكتب التي يتعبدون بها خالية من الرسوم والنقوش ؛ ومن الاحبار الملونة والاصباغ ما عدا حبر الكتابة العادى . ولم يكن في كنائسهم مجوهرات ، وستائر حريرية ، وحتى انهم كانوا يصنعون الصلبان من الخشب ويطلونها بالدهان الابيض ، ويتخذون الشمعدانات من الحديد (٧) .

١٤ . الحركة الكاثارية – او حركة المتطهرين :

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ظهرت عدة هرطقات ، اى بدع دينية ، قاومتها الكنيسة بعنف شديد . كانت الكنيسة لاتهتم بالمخالفين المنفردين ، اذ كان بامكانها ان تسكت المبتدع بحرمانه من منصبه الكنسي في الكنيسة او القرية ومنعه من الوعظ في السوق ، او بحبسه او نفيه او قتله . ولكنها كانت تخشى البدع التي يتبعها جمهور غفير من الناس . فما كان يقلق الكنيسة ، والطبقة الاقطاعية الحاكمة ، ليس فقط المبادئ الدينية التي ينادى بها اصحاب البدع وانما هو الخوف من الثورة الاجتماعية التي كانت بحكم الطبيعة الدينية للعصر ، تتخذ شكل بدعة دينية . كانت الثورة ترفع الافكار الهرطوقية ، اي الافكار المبتدعة المخالفة للعقيدة المقررة ، وسيلة للتعبير عن التذمر الاجتماعي والاقتصادى . والصفة الشعبية لهذه الهرطقات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، هي التي تجعلها مهمة ، حرية بالدراسة . واهم هذه الحركات "الوالدوية" نسبة الى بطرس والدو الذي اخذ يدعو حوالي سنة ١١٧٠ الكنيسة الى العودة الى حياة الفقر والبساطة التي كانت الصفة المميزة للكنيسة في اول نشأتها على يد الرسل .

والحركة الكاثارية ، او الكاثارسية ، اخطر الحركات الانشاقية التي واجهت الكنيسة . واسم الحركة مشتق من كلمة يونانية تعني النقي او الطاهر ، مما يدل على اصلها الشرقي .وكان اتباع هذه النحلة المبتدعة ، في القرن الثاني عشر ، يقصدون "الالبيجنسية" وكانت عقائدهم خليطا من العقائد المسيحية والمانوية والعرفانية الثنوية . وكان معظم اولئك المتطهرين من طبقة فقراء الصناع في المدن ، ولكن بمرور الايام اخذ النبلاء يؤيدون الحركة ويحمون اتباعها ويفسحون لهم مجال العيش والعمل في مناطقهم ، ومن اهم اولئك النبلاء كونت تولوز الذي تقع البي في اقليمه . ولتأييد الاقطاعيين لحركة المتطهرين اسباب عديدة اهمها : كراهيتهم تعاظم القوة السياسية للكنيسة ، وتجاوزها المتزايد على السلطات الزمنية . وكان الاقطاعيون يطمعون بالاستيلاء على املاك الكنيسة الواسعة ، فاتخذوا من عقيدة المتطهرين المبرر الديني والاخلاقي لتحقيق ذلك . فيما ان الثروة افسدت الكنيسة ، فاذن يكون تجريدها من ثروتها واملاكها فضيلة واصلاحا دينيا يستحق الثواب .

واستغل البابا انوسنت الثالث حادث قتل احد اتباع امير تولوز للمندوب البابوي فاصدر الامر بتشكيل حملة صليبية تقوم بسحق المتطهرين ، الكاثاريين ، ومحقهم والقضاء عليهم قضاء تاما . ومن سنة ١٢٠٩ الى ١٢١٥ دمرت مدن بيدى وتولوز والبي وكاسيلنو دارى وبيتربير بالسيف والنار ، وهدمت جميع المدن الواقعة في المنطقة الفسيحة الممتدة من نهر الرون الى جبال البرنيس ، واحيلت الى صحراء مقفرة ، فاحرقت الزروع ، وقطعت الكروم ، وسممت الابار . وفي مينيرف احرق سيمون دى مونفورد ، قائد هذه الحملة الصليبية ، مئة واربعين من المتطهرين دفعة واحدة ووقف هو واتباعه يشاهدون عذاب المحترقين ، ويسمعون صرخاتهم اليائسة . واستولى هذا القائد المنتصر لنفسه على تولوز ومقاطعات أخرى ، وقدم افنيون للبابا ، ووزع المقاطعات الاخرى على اتباعه .

كانت منطقة الكاثاريين ، المتطهرين ، في جنوب فرنسا التي تسمى اقليم البروفنسال ، مجاورة لاسبانيا الاسلامية ، وقد افادت من الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس ، واقتبست من علومها وفنونها وآدابها وصناعتها وحياتها الاقتصادية ، فازدهرت فيها اعظم حضارة اوربية في ذلك العصر ليس في فرنسا فقط وانما في جميع اوربا . وكان المتطهرون يمارسون عقيدتهم بهدوء ، وعاشوا

[illegible]
والعمران . واحالت الكنيسة هذه الحضارة وجميع الذين ابدعوها ، الى انقاض وجثث محروقة .ولم يعرف التاريخ انقراض حركة دينية ، عقيدة وطقوسا واتباعا ، كما انقرضت هذه الحركة . وكان المستفيد الاكبر من هذه العملية هو الملك الفرنسي حيث قضى على الاقطاعيين في المنطقة ، وضم املاكهم الى حكومته المركزية . وليست هذه اول مرة تنحرف فيها الحملات الصليبية عن مقاصدها المعلنة ، فقد ذهبت الحملة الصليبية الرابعة لتحرير [illegible] سنة [illegible] ، ولكنها غيرت اتجاهها الى القسطنطينية المسيحية [illegible] ، [illegible] ونهبتها ، واقامت فيها امبراطورية لاتينية دامت نحو [illegible] .

١٥ . محاكم التفتيش .

واهم ادلة [illegible] ابادة البقية الباقية من الكاثاريين ، المتطهرين هي محاكم التفتيش التي انشئت لاول مرة في التاريخ سنة ١٢٢٩ لمحاكمتهم خصيصا وهي محاكم كنسية تبحث عن الهراطقة وتعتقلهم ، وتستجوبهم عن عقائدهم . وكان المتهمون يعذبون بجميع اشكال التعذيب المعروفة يومئذ ، ليقروا بكفرهم وخطاياهم ولما كانت الكنيسة لاتستطيع ، من حيث المبدأ ، ان تسفك الدم البشرى ، فقد كانت السلطات المدنية هي التي تتولى امر التعذيب نيابة عنها فاذا اعترف المتهم بجرمه ، وغالبا ما يعترف تخلصا من التعذيب ، يقدم للمحكمة فتصدر حكمها بحبسه ، وهو عادة مدى الحياة ، او مصادرة املاكه ، او بموته وغالبا ما يجمع الحكم بين العقوبة الاولى والثانية ، والعقوبة الثانية والثالثة ، فمن اهم اسباب ادانة كثير من ضحايا محاكم التفتيش طمع الكنيسة والسلطات المدنية باموالهم .وبعد صدور الحكم يسلم المتهم الى السلطات المدنية لتقوم بتنفيذه .

وقد استمرت محاكم التفتيش قائمة حوالي ماتبقى من العصور الوسطى ، ونشطت نشاطا كبيراً اثناء حركة الاصلاح الديني ، وبلغت غاية القسوة في اسبانيا بعد خروج المسلمين منها ، حيث راح ضحيتها الاف العرب المسلمين واليهود وغيرهم . وقد حكم تركمانده وحده ، وهو اشهر رؤساء المحكمة في اسبانيا ، على ستة الاف شخص بالموت ، فقتلوا حرقا . ومحاكم التفتيش ماتزال قائمة في القانون الكنيسي ، فلم يصدر قانون يلغي المبدأ الذى قامت عليه . وكان معظم القائمين بامر محاكم التفتيش من الرهبان الدومينيكان .

١٦ . الرهبنة الدومينيكانية :

اسس هذه الطائفة من الرهبان سنة ١٢١٥ دومينيكو دي غوسمان (١١٧٠ – ١٢٢١) المعروف بالقديس دومينيك ، ومنه اشتق اسم الطائفة وهو راهب اسباني من مدينة قشتالة ، عبوس الوجه ، صارم الملامح ، شديد الحماسة الدينية ، مسرف التعصب . واتخذ قاعدة القديس اوغسطين دستورا لطائفته مع اضافة قواعد اخرى . وتنص المواد الرئيسية في القاعدة على مراعاة الصمت الدائم ، وعدم التحدث الا بامر الرئيس ، والصوم الدائم وخاصة من ١٤ ايلول الى عيد الفصح ، والامتناع عن تناول اللحم الا في المرض الخطير ووجوب الاقتصار على ملابس الصوف وعدم ارتداء ماسواها من كتان وقطن وحرير ، وممارسة حياة الفقر الشديد ، وغير ذلك من الوان التقشف الشديد ، والمعيشة الصارمة .

وقد انتشرت هذه الطائفة انتشارا سريعا في جميع انحاء اوربا ، واصبحت من اعظم طوائف الرهبان نفوذا ، وقدمت للكنيسة ثلاثة بابوات ، واكثر من ستين كردينالا ، ومايزيد عن مئة اسقف .وكانت مهمة الدومينيكان هي مكافحة الكاثاريين المتطهرين .ولما كان الكاثاريون مثقفين ، ملمين بالدراسات اللاهوتية قادرين على افحام القسيسين الكاثوليك في الجدل ، فقد اهتم الدومينيكان بالتعليم والدراسات اللاهوتية اهتماما كبيراً ، واعتنوا بتدريب اتباعهم على الجدل والخطابة . فلما ظهرت الجامعات في اوربا كان الدومينيكان مؤهلين اكثر من غيرهم للتعليم فيها ، وعلى هذا كان معظم الاساتذة الجامعيين منهم . كان الرهبان الدومينيكان ينتمون الى مختلف شعوب اوربا ، وكان [illegible] جديدا ، فقد قسموا اوربا الى مناطق

يسر ... في كل منطقة رئيس على جميع الاديار التابعة للطائفة فيها . ويعقد كل
سنة مؤتمر يحضره مندوبون عن الاديار في المنطقة . ويعقد كل سبع او ...
سنوات مؤتمر عام من مندوبي الرهبان في المناطق المختلفة وجميع ...
المندوبين ، سواء من يحضر منهم المؤتمرات السنوية في المناطق ام المؤتمر ...
العامة ، منتخبون . وفي المؤتمر العام ينتخب رئيس الطائفة الدومينيكانية ...
يسمى القائد العام . وتجدر الاشارة هنا الى ان نظام المندوبين او النواب ...
لم يكن قاصرا على المجالس المدنية الكبرى في تلك العصور كالبرلمان الانكليزي
والبرلمان الفرنسي اي مايسمى بالفرنسية ال « ستيت جنرال » اومجلس طبقات ...
وفي هذا دليل على ان النظام التمثيلي ، في البرلمانات والمجالس البلدية ، ...
اوربا انما نما وتطور عن ممارسات العصور الوسطى الاوربية .

١٧. الرهبنة الفرنسيسكانية :

وفي نفس هذه الفترة اسس القديس فرانسيس الاسيزي ، ١١٨٢ - ١٢٢٦ ، طائفة جديدة من الرهبان سميت باسمه . وكان فرانسيس ايطاليا ، يتقن الفرنسية ... البروفنسال ، وقد رباه والده على الاعجاب بثقافة هذه المنطقة وحضارتها . كان القديس فرانسيس يهدف الى جعل المسيحية انسانية ، روحانية ، قائمة على اسا... الانسان مبدأالمحبة ، وممارستها تجاه اخوانه البشر ، كما علم السيد المسيح نفسه في الاناجيل . وكان يرى الفضيلة في ممارسة الفقر المقدس ، بفقر السيد المسيح ... لم يهتم بالدنيا وما فيها من متع وملذات وثروة وسلطان . وقد احيا الفرنسيسك... تقاليد الرهبان المبشرين القدماء من الانكليز والارلنديين ، فاوجدوا حركة التبشير في اسيا وافريقيا في العصر الحديث . وكان لهم تأثير كبير على نهضة الشعر الغنائي في العصور الوسطى المتأخرة . وقد اتبعت الطائفة الفرنسيسكانية في تنظيمها تنظيم الدومنيكان .

هذه هي اهم تعاليم القديس فرانسيس الاسيزي . ونزيدها قليلا من الأيضاح ، لنرى تطورها وأثرها في حياة الرهبنة نشأة ...

كان يستمع الى القداس في شهر شباط من عام ١٢٠٩ سمع القديس يتلو عبارة من الانجيل يقول فيها السيد المسيح للرسل : « وفيما انتم ذاهبون اكرزوا قائلين انه قد اقترب ملكوت السموات اشفوا مرضى . طهروا برصا اقيموا موتى . اخرجوا شياطين . مجانا اخذتم مجانا اعطوا . لاتقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا عصا لان الفاعل مستحق طعامه » (انجيل متى :) ١٠ : ٧ - ١٠ وقد تأثر بهذه العبارة ، واصابه تحول روحي مفاجئ ، وصمم على ان ينفذ هذه العبارة بنصها ، فيدعو الى ملكوت السموات ، ولا يقتني شيئا ، وان يشكل حياته على غرار حياة السيد المسيح ومثاله . وتجمع حوله عدد من الاتقياء اتخذوا من عبارة الانجيل المتقدمة رسالة لهم وقاعدة يسيرون عليها . ونسجوا لهم ملابس غليظة ، واقاموا لهم اكواخا من اغصان الاشجار ، واخذوا يخرجون الى الناس يعظونهم ، ويعالجون مرضاهم ، ويساعدون في العمل من يحتاج الى مساعدة وسرعان ماانظم اليهم عدد كبير من الرجال والنساء ارتبطوا بهم كمريدين . والتحق فرانسيس بالحملة الصليبية الخامسة ، فاخذ يعظ الناس في مصر وفلسطين . واعيد تكوين الجماعة وهو غائب ببلاد المشرق بصورة تقوي روح النظام والانضباط بين افرادها .

وقد نمت الطائفة وتعقدت ، وفقدت كثيرا من تقواها وبساطتها بعد وفاة فرانسيس سنة ١٢٢٦ وفي سنة ١٢٣٠ تحلل رهبان الطائفة مرة اخرى من القواعد المعدلة التي وافق عليها فرانسيس وهو كاره ، فلم يكن في وسع اتباعه ان يبقوا محتفظين مدة طويلة من الزمن بتلك المستوى العالي من الزهد والتقوى الذي وضعه لهم . فلما خفت قيود قواعد الطائفة زاد عدد الرهبان حتى بلغ عام ١٢٨٠ نحو مائتي الف راهب يقيمون في ثمانية الاف دير . وكان من بين اولئك الرهبان الفرنسيسكان واعظون كبار ، وقديسون ، وعلماء مثل روجر بيكون ، وفلاسفة مثل دن اسكوتس وقد أرتقى بعضهم كراسي الاساقفة والباوية مثل البابا بوجينوس . وقام كثيرون منهم بمغامرات تبشيرية في بلاد اجنبية بعيدة .

وبسبب الحروب الصليبية نشأت طوائف من الرهبان اهمها : الرهبان الاسبتارية ، والرهبان الهيكلية ، او الداوية كما تسميها المصادر العربية . وقد جمعت هاتان الطائفتان بين المثل الدينية والعسكرية ، فكان بامكان الفارس ان يصبح

واخيرا ... فيرب ... رهبان ... القبر وقد تطورت طائفة الرهبان الاستارية

عن جمعية دينية في القدس كانت تعني بالفقراء والمرضى من الحجاج الصليبيين

وتطورت احدى المستشفيات الى طائفة رهبان القديس يوحنا ، حيث اصبحت

بقبولها انتماء الفرسان اليها ، مؤسسة عسكرية الى جانب كونها مؤسسة دينية

ونالت هذه المؤسسة هبات كثيرة من الارض ، وأنشأت العديد من الاديرة المحصنة

في الاراضي المقدسة .

وفي سنة ١١٩٩ اجتمع عدد من الفرسان فانشأوا اتحادا لحماية الحجاج في طريقهم الى الاراضي المقدسة ,واقام هؤلاء الفرسان لهم مقرا قرب هيكل سليمان وصار يطلق عليهم اسم الهيكليين .وتسميهم المصادر العربية الفرسان الداوية ,واغتنت هذه الاخوية الرهبانية بما كان يردها من هدايا وهبات ووقفيات وكان لهذه الطائفة من الرهبان من الرهبان الفرسان دور فعال في الحروب الصليبية التي شنتها اوربا لاحتلال الاراضي المقدسة واستيطانها والاستيلاء على مافيها من موارد وفيرة ، وخيرات عب...

١٨ . انحلال وحلة الكنيسة وضعف سلطتها :

. في القرن الثالث عشر اشتد الصراع بين الكنيسة التي كانت قد بلغت اوج قوتها ، وبين الملوك والاباطرة الذين كانوا يريدون القضاء على امراء الاقطاع ، وسلطان الكنيسة الزمني ، والتفرد بالسلطة المطلقة في وادي الصراع بين البابوية والامبراطورية الى انحلال هاتين القوتين الكبيرتين في العصور الوسطى .وعانت كل من المانيا وايطاليا الويلات والخراب من جراء الصراع بين البابا غريغوري التاسع والامبراطور فردريك الثاني .وكان الصراع بين البابوية والملوك الاوربيين ، وخاصة ملوك فرنسا اشد ضراوة فقد كان من المحتم ان يؤدي نشاط دولة الكنيسة وثروتها الطائلة الى صدامها مع الدول القومية الجديدة كانت الكنيسة ، خلال العصر الاقطاعي حرة في فرض الضرائب ، والحكم في القضايا القانونية ، والتصرف بمواردها الكبيرة دون منازع ولكن عندما اخذ الملوك يتغلبون على الامراء الاقطاعيين ، بات الكنيسة لبعضهم ، على الاقل ، عائقا دون اقامة حكومة موحدة ، فقد كان في ممالكهم اعداد كبيرة من رجال الكنيسة الذين يدينون بالولاء لحاكم اجنبي هو البابا وبناء على هذا لم يكن بامكان الملوك ان يفرضوا الضرائب على ... الاراضي التي تملكها الكنيسة ، ولا ان يجمعوا الضرائب من القس وكانت قضية التعيينات القديمة مازالت قائمة .من الذي يعين الاساقفة ورؤساء الاديار البابا ام الملك ؟ ومايتبع ذلك من فوائد مادية اقلها الحصول على موارد المقاطعة مدة سنة .وكان الملوك متألين من القضايا العديدة التي تنظر في المحاكم الكنيسة حيث يذهب مايترتب على ذلك من رسوم وضرائب الى خزينة الكنيسة بدلا من خزينة الملك واخيرا كان الملوك ينظرون بقلق وعدم ارتياح الى تدخل البابا ، باعتباره رأس الكنيسة ، في شؤون الدول عندما لا يكون راضيا عن تصرفات ملوكها وقد دخل ملك فرنسا فيليب الجميل في صراع عنيف مع البابا بونيفاس الثامن عندما قرر الملك ان يفرض الضرائب على رجال الدين والعلمانيين على السواء فلما توفي البابا بونيفاس الثامن سنة ١٣٠٣ ، قرر الملك ان يضع حداً لهذا الصراع ، فتدخل في انتخاب البابا الجديد ، وتمكن من تعيين اسقف فرنسي في هذا المنصب ، واشترط عليه ان ينقل مقره الى فرنسا وهذا ماحدث بالفعل ,فقد انشأ البابوات مقرا لهم في افنيون ، واقاموا فيه ستين سنة وتسمى هذه الفترة بفترة : « السبي البابلي » وكان البابوات في هذه الفترة فرنسيين جميعا خاضعين لسيطرة ملوك فرنسا ، وهذا ماأضعف نفوذ البابا في الاقطار الاوربية الاخرى .وفي سنة ١٣٧٨ انتخب بابا من سكان روما ، فنقل مقره الى روما ، ولكنه عندما اراد ادخال بعض الاصلاحات ثار عليه الكرادلة ، وانتخبوا بابا آخر ، فنقل مقره الى افنيون وهكذا اصبح للكنيسة بابوان اثنان بابا في روما وبابا في افنيون ، ودامت هذه الحال اربعين سنة ١٣٧٨ — ١٤١٥ ، وسميت هذه الفترة بفترة : الانشقاق الاعظم.وعاد الوفاق اخيرا الى الكنيسة عندما انتخب مجمع كونستانس سنة ١٤١٥ بابا جديدا هو مارتن الخامس هذا الصراع بين الملوك والبابوات ، والانقسامات داخل الكنيسة ، وانغماس رجال الكنيسة في الترف والاسراف ، وظهور الدول الحديثة ، ونشوء طبقات اجتماعية جديدة ، سلطت الاضواء على مافي الكنيسة من فساد ، ودعت الى ظهور حركات اصلاحية كثيرة اهمها : حركة ويكليف (١٣٢٠—١٣٨٤) في بريطانيا ، وحركة هس في بوهيميا ، واشتدت الدعوة الى الاصلاح في القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر ، وكان ذلك ايذاناً بانتهاء العصور الوسطى وبدء العصور الحديثة في اوربا .

[illegible] لاهوتيا واستاذا في جامعة اوكسفورد . وقد وجه النقد صراحة الى ماكان عليه رجال الدين من فساد ، والى عدد من مبادي الكنيسة وطقوسها . ونظم عدداً من القسيسين الفقراء لنشر آرائه في كل ارجاء انكلترة ، وترجم الكتاب المقدس الى الانكليزية لكي يفهم الناس نصه بانفسهم ، وبذلك يكون الكتاب المقدس سلطة مناهضة للبابا . وقد شهر ويكليف بمبادي الكنيسة المتعلقة بالقداس ، وخاصة المبدأ القائل بتحول خبز القربان الى جسد المسيح وكان ويكليف يعتقد ان العلاقة القائمة بين الانسان والله علاقة مباشرة لاتحتاج الى وسيط ، وبذلك رفض ماتدعيه الكنيسة من انها واسطة لابد منها بين الانسان وربه . وكذلك كان ويكليف يعتقد بان الكنيسة يجب الا تكون لها املاك ، وكل كنيسة تمتلك شيئاً هي كنيسة عاصية . وعلى هذا فان اعظم ماتحتاجه الكنيسة . وبحتاجه رجالها من اصلاح ، هو ان تتخلص من الاملاك الدنيوية ولعل من اهم المبادي التي نادى بها والتي جعلت جمهور الشعب ، وبخاصة فقراء المدن والارياف ، يتبعونه ، قوله : ان كل شي هو ملك الله ، وبالتالي فهو ملك جميع الصالحين من عباده ، بمتلكانه مجتمعين . وقد غضب عليه البابا اربان السادس ودعاه للمثول بين يديه في روما ولكن ويكليف توفي في سنة ١٣٨٤ قبل ان يلحقه اذى الكنيسة [illegible] . ولكن الكنيسة قررت ان تعاقبه وهو ميت . فبمقتضى قرار صادر من مجمع كونستانس في سنة ١٤١٥ نبشت عظامه واحرقت . وقد نفذ هذا القرار بامر من البابا مارتن الخامس سنة ١٤٢٨ . لقد اصبح الكفاح ، الذي بدأه ويكليف ، كفاحا بين الديانة العقلانية وبين الديانة القائمة على التقاليد الجامدة والطقوس الكهنوتية وكانت آراء ويكليف تحوي معظم الاراء التي انتشرت فيما بعد في عصر الاصلاح الديني . ومن ذلك نقدا انغماس رجال الدين في متع الحياة الدنيا ، والدعوة الى اتباع قانون اخلاقي صارم ، والعودة الى الكتاب المقدس ، ورفض صكوك الغفران ورفض الاعتراف السري للكاهن ، والاحتجاج على ارسال الاموال الى روما ، ودعوة الدولة الى نبذ طاعة البابوية ونقد تملك رجال الدين للاراضي والاموال وغير ذلك من آراء ومبادي دينية واجتماعية (٦) .

وقد تأثر بمبادي ويكليف عالم تشيكي يدعى جون هس ، كان عميدا لجامعة براغ في بوهيميا ، واخذ ينشر بها في دروسه ومحاضراته ومواعظه وقد اهتم جمهور الشعب باراء هس ، وناصروه وأيدوه والتفوا حوله لما فيها من نقد للاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فقد كانت الحكومة في بوهيميا حكومة المانية . وكانت الطبقة العليا المانية وكانت اتحادات الصناعات تسيطر على الصناعة ، وتضيق على العمال واصحاب المهن الصغار وتثير حفيظتهم . وكان الناسجون والحاكة اشد المهنيين انتقاداً للاحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وتحريضاً على الثورة . وقد اغضبت تعاليمه الكنيسة فاصدرت عليه قراراً بالحرم سنة ١٤١٢ . وقد استدرجه مجمع كونستانس بالخديعه حيث وعده الامبراطور سيغيسموند بضمان حياته ، فسافر الى كونستانس ومثل امام المجمع الديني . وعند ذاك القي القبض عليه بتهمة الهرطقة . وبعد سجن طويل لقي فيه الوان الاهانة وضروب التعذيب النفسي والجسدي . قدم للمحاكمة فامرته بان يسحب بعض آرائه . فاجاب بانه لا يستطيع ان يسحب شيئا من آرائه حتى يقنعوه بخطئه ، ولم يتنازل عن ارائه . وحكم عليه بالموت ، فاحرق حيا سنة ١٤١٥ . وقام اتباع هس بعصيان مسلح في بوهيميا سنه ١٤١٩ . وفي سنة ١٤٢٠ اصدر البابا مارتن الخامس مرسوما يعلن حربا صليبية للقضاء على جميع اتباع ويكليف وهس وغيرهم في بوهيميا وقد انثال الجنود المرتزقة على بوهيميا في عدة حملات صليبية دمروا فيها البلاد ، ونهبوها ، وعاثوا فيها فسادا ونشبت معارك ضارية بين اتباع هس المتطرفين والمعتدلين اكملت تدمير البلاد حتى عقد اتفاق في سنة ١٤٣٦ بين الاصلاحات والطقوس التي تميزها عما يمارسه الكاثوليك عامة وظلت هذه التسوية قائمة حتى القرن السادس عشر (٧) .

لقد قضت البابوية على حركة ويكليف في انكلترة وعلى حركه هس في بوهيميا ، وبدت ، على الاقل ظاهريا ، قوية موحدة . وفي عام ١٤١٧ التأم الانشقاق ، او الصراع ، العظيم في مجمع كونستانس فقد استقال ، او اقيل ، البابا المضاد ، واصبح مارتن الخامس البابا الوحيد في عالم مسيحي موحد رسميا . لكنه عالم ضعيف ، متعب روحياً . وقد نظم البابا مارتن الادارة البابوية تنظيما جيدا ،

، لكنه لم يجد سبيلا للحصول على المال الضروري الا باتباع اساليب الحكومات الدنيوية القائمة في تلك العصر ، وبيع المناصب الحكومية . وتوفي البابا مارتن الخامس عام ١٤٣١ فخلفه في كرسي البابوية الراهب الفرنسكاني يوجينوس وفي السنة الاولى من حبريته اكد مجمع بازل من جديد سيادة المجامع العامة على البابوات ، واستولى على ماكان للبابوية من وظائف تمارسها من عهد طويل فنقلها اليه واحدة بعد واحدة ومن ذلك ان المجمع اخذ يصدر صكوك الغفران ، ويعين اصحاب المناصب الكنسية ، وطلب ان ترسل اليه ، لا الى البابا ، بواكير المرتبات الدينية ورد البابا يوجينوس فأمر المجمع بالانفضاض ، فرد عليه المجمع بان خلعه وعين اماديوس الثامن دوق سافوي باسم البابا فلكس الخامس سنة ١٤٣٩ وهكذا تجدد الانشقاق والتصدع في البابوية . واوشكت الكنيسة الرومانية على الانهيار ، فقد جعل القرار ، الذي اصدرته جمعية بورج سنة ١٤٣٨ ، كنيسة فرنسا مستقلة ، وجعل الملك فرنسا رئيس هذه الكنيسة . وبعد عام اتخذت جمعية مينز قرارات تهدف الى اقامة كنيسة قريبة في المانيا شبيهة بالكنيسة الفرنسية وكانت بوهيميا قد انفصلت من قبل عن البابوية

على ان الخطر العثماني المحدق بالقسطنطينية انقذ البابوية ، اعاد اليها شيئا من تماسكها ووحدتها فقد رأت الحكومة البيزنطية ان اتحاد كنيسة بيزنطة وروما ضرورة لا بد منها للحصول على المعونة العسكرية والمالية من اوربا الغربية . فارسلت وفدا من الاساقفة والنبلاء الى فيرارا بايطاليا ، ثم انتقلوا الى فلورنسا ليلتقوا برجال الكنيسة الرومانية الذين استدعاهم لهذا الغرض سنة ١٤٣٨ . وبعد عام كامل من الجدل توصل الطرفان ، سنة ١٤٣٩ ، الى اتفاق اعترفت فيه بيزنطة بسلطة البابا على ... يدم طويلا فقد أعاد الى البابوية مكانتها وساعد على القضاء على الانقسام البابوي وعلى مجمع بازل . وقد جاء بعد يوجينوس عدد من البابوات الاقوياء ، ساهم بعضهم في النهضة الايطالية فاغنتهم وزادت من مقامهم ، ورفعوا هم البابوية الى درجة عالية من الفخامة والابهة والقوة واصبح

البابوية قوة عسكرية كبيرة اضافة الى كونها سلطة زمنية . على ان انصراف البابوية الى الحكم بالاساليب الدنيوية ، وجشعها الى المال الذى كانت تحصل عليه بالقوة والغزو وبيع الوظائف وصكوك الغفران ، وانفاقها هذا المال على الابنية الفخمة والكنائس الضخمة والمتع والملذات ، اثار عليها حقد الناس وحسد الامراء والملوك ولم يعد في ا... ما حاكم يرى ان البابوية حكومة اخلاقية فوق الحكومات كلها ، وتؤلف من الامم كلها دولة مسيحية واحدة . وفي عهد البابا يوليوس الثاني قدم مارتن لوثر الى روما والصبر بعينيه المفاسد والمظالم فحركه ذلك الى نقدها والتنديد بها ، وتحدى البابوية ، وابتدأ حركة الاصلاح الديني المعروفة بـ «حركة الاصلاح الديني » وهي احدى فواتح العصور الحديثة في اوربا .

الفصل الثاني
الاقطاع

١ ـ تعريف الاقطاع ٢ ـ عوامل نشوء الاقطاع ٣ ـ الارستقراطية الاقطاعية ٤ ـ الملك والنبيل الاقطاعي ٥ ـ قوة النبيل الاقطاعي ٦ ـ القضاء ٧ ـ اكتمال الرئاسات الاقطاعية ٨ ـ ظهور السلطة الملكية ٩ ـ النظرية السياسية للنظام الاقطاعي ١٠ ـ اساس الاقطاع مبدأ التعاقد ١١ ـ الفروسية ١٢ ـ مراتب الناس في العصور الوسطى . مراجع الفصل الثاني .

١ . تعريف الاقطـــاع : واجب

الاقطاع نظام اقتصادي – اجتماعي وسياسي عم اوربا في العصور الوسطى . واهم خصائصه منح الاراضي الزراعية من قبل مالك ذى سلطة لشخص معين لقـــاء خدمات عسكرية . وقد نشأ عن ذلك نظام السيادة والتبعية وكانت كل وحدة اقطاعية وحدة اقتصادية ، وقضائية ، بالاضافة الى كونها وحدة عسكرية اقليمية ، بحيث كانت كل اقطاعية عبارة عن دولة مصغرة وكان السيد الاقطاعي مرتبطا بعلاقة التبعية لمن فوقه ، والسيادة على من دونه وتتألف قمة النظام الاقطاعي من النبلاء الكبار وهم التابعون المباشرون للملك . وكان هؤلاء يدعون بـ"الاقران" وكان الاقطاعيون الرئيسون يحتفظون ببعض الاراضي لانفسهم ويوزعون الباقي على الاقطاعيين الثانويين ، وهؤلاء يحتفظون ببعض الاراضي لانفسهم ويوزعون الباقي على الفلاحين لقاء اجرة معينـة ، وخدمات متفق عليها . وثمة تعريفات اخرى للاقطاع لا تختلف ، في جوهرهـــا ، عن التعريف المتقدم وان اختلف التعبير عنها . فقد عرف الاقطاع بانه "تجربة عملية فرضتها الحوادث كبديل عن الحكومة المركزية ابتغاء الحصول على قسط من الامن (١)"وقيل عن الاقطاع بانه "اسلوب من اساليب الحكم تمارس فيه السلطة نتيجـة لاتفاق بين تابع ومتبوع ، او سيد ومسود (٢)" وعرف الاقطاع ايضا بانه "امتـلاك حق التصرف بالارض وراثيا لقاء خدمات تؤدي لصاحب الارض الاصلي . وكـــان هذا النظام الصفة المميزة للمجتمع في عصر لم يكن يملك فيه النقود الكافية لدفـــع اجور او رواتب للمحاربين . ولما نهض الاقتصاد النقدي في اوربا بدأت العلاقـــة الاقطاعية الاساسية في الانحلال (٣)".

ظهر النظام الاقطاعي لاسباب معقدة ، واختلفت اشكاله بين اقليم واقليـــم ، وقطر وآخر ، وان كانت اسسه واحدة في جميع الاقاليم . وبلغ الاقطاع اتم اشكالـه في فرنسا ولهذا يأخذ المؤرخون الاقطاع في فرنسا نموذجا عند دراسة الاقطاع فـــي اوربا الغربية .

الاقطاع الاوربي وليد تطور تاريخي طويل ، ونتاج امتزاج عناصر اجتماعية متعددة اهمها : العناصر الرومانية والمسيحية والجرمانية والكلتية ، وان اختلف الباحثون في تحديد اهمية كل واحد من هذه العناصر (٤) .

عندما كانت الامبراطورية الرومانية تنحل ، في القرنين الرابع والخامس ، بفعل العوامل الذاتية الداخلية ، وضربات القبائل والشعوب الخارجية ، اصبحت السيادة الاقتصادية والاجتماعية لاصحاب الاراضي الاغنياء في الاقاليم . بل واخذ هؤلاء يمارسون سلطة الدولة ووظائفها بدلا من الموظفين الحكوميين . وهكذا اخذت السلطة الخاصة تحل شيئا فشيئا محل السلطة الحكومية المركزية ، وهذه هي احدى خصائص نظام الاقطاع الجوهرية ، اخذ الاقوياء من مالكي الاراضي يمارسون السلطة بصفتهم الشخصية فكانوا يتولون القضاء ، ويفرضون الضرائب ويجمعونها . ولما كان اهم متطلبات هذا العصر ، الذى انحلت فيه سلطة الدولة ، هو حماية ارواح الناس واملاكهم واموالهم فقد استعان صغار اصحاب الاراضي باقوى جيرانهم ، ووضعوا املاكهم وانفسهم تحت حمايته . وبناء على هذا انشأت علاقة متبادلة بين ملاك الاراضي الكبار وملاك الاراضي الصغار كانت هي الاساس لما اصبح يعرف في عصر الاقطاع بالسيادة والتبعية ، او علاقة التابع الاقطاعي ، او الفصل وجمعها افصال ، بالسيد الاقطاعي كان الرجل القوي يحتاج الى رجال يدعمون سلطته ، ويحاربون اعداءه . ويقدمون له العون في ادارة املاكه . وكان الرجل الضعيف يحتاج الى رجل قوي يحميه من جيرانه واعدائه .

كانت علاقة الملكية من اصل روماني . واما روح علاقة السيادة والتبعية ، او فكرتها وان لم يكن شكلها المحدد ، فمن اصل كلتي ، فقد جرت العادة عند الكلتيين وهم سكان غاليا الاصليون : ان يحتمي الملاك الصغار ، اقتصاديا واجتماعيا ، بزعيم قوي من زعمائهم . ومن امتزاج هذين الشكلين من العلاقات بين المالكين الاقوياء والضعفاء ، عند الرومان والكلتيين ، نشأ الاقطاع ، وتطور .

واما وضع الطبقات الدنيا من السكان فكان هو الوضع الذى بلغوه في اواخر عصر الدولة الرومانية . ففي اسفل السلم الاجتماعي كان العبيد ، وفوقهم كان الاقنان ويتألفون من الفلاحين التابعين الذين لا يملكون ارضا خاصة ، والاحرار الذين فقدوا ممتلكاتهم ، والفلاحين المرتبطين بالارض ارتباطا دائما بحيث لا يستطيعون الانتقال بها بارادتهم وحريتهم . وهؤلاء هم العمال الذين كانوا يقومون بالاعمال في المزارع الكبيرة لاصحاب الاراضي الاغنياء في الاقاليم . وكان وضع الاقنان وراثيا ، ينتقل من الاباء الى الابناء . وهؤلاء الاقنان هم الاصل الذي تحدر منه الفلاحون الاوربيون في العصور الوسطى ، وكانوا يعيشون في اكواخ من الخشب ، مغطاة سقوفها بالقش في قرى مزدحمة تقع في المزرعة الكبيرة لصاحب الارض الغني ، او او ما يسمى بالضيعة او العزبة .

وعندما انشأ الجرمان ممالكهم داخل اقاليم الامبراطورية الرومانية تبنوا هذا النظام الاقطاعي الناشئ ، ومارسوه ، هذا النظام الاقتصادى والاجتماعي والسياسي الخام الذي كان قائما قبل مجيئهم ، والذى كان معظمهم قد اطلعوا عليه والفوه . على ان الجرمان اضافوا الى هذا النظام الاقطاعي الناشئ شيئا من مؤسساتهم القديمة . فقد كانوا يمارسون شكلا من اشكال السيادة والتبعية والخدمة ، حيث كان عندهم القائد او الزعيم العسكرى ويتبعه عدد من المقاتلة المحاربين ، فكان هو السيد وهم الاتباع وكانت تقوم بين الطرفين علاقة ذات شروط تحددها العادة والعرف .

كان محاربو الفرنجة ، بصورة عامة ، من المشاة ، وحين اراد شارل مارتل ان يتوسع في نظام الخيالة ليجعل جيشه قوة فعالة في ميدان الحرب وجد ان تعميم هذا النظام يتطلب نفقات ضخمة لاعداد ما يحتاج اليه الفارس من حصان ودرع وسلاح بالاضافة الى الموارد اللازمة لنفقاته حتى يتفرغ لشؤون الحرب . ولما كانت موارد الفرنجة محدودة لا تكفي لسد هذه النفقات الطائلة فقد لجأ شارل مارتل الى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر . فسجل اسماء المحاربين ، واخذ منهم قسم الولاء ، واعطى كل واحد منهم اقطاعا من الارض يكفي حاجته على ان يبقى هذا الاقطاع في حوزته ما دام يقوم بالخدمة العسكرية . وزاد ... مارتل هذا النظام رسوخا بان اجبر رجال

... على منح قطع من اراضي الخصبة لجنوده (٥) .

نشأ الاقطاع من امتزاج النظم الرومانية والكلتية والجرمانية . وقد بدأ الامتزاج في عصر الدولة الميروفنجية ، وبلغ طور الاكتمال تقريبا في عهد الدولة الكارولنجية كان الملك عند الجرمان يحيط نفسه بعدد من المحاربين "المخلصين" وكان هؤلاء "المخلصون" يؤلفون نخبة عسكرية مكرسة لخدمة الملك . وقد طبع شارل مارتل هذا النظام الناشئ بطابعه الخاص عندما انشأ . بعد سنة ٧٣٢ . نظام منح الاراضي الزراعية لقاء خدمات عسكرية . وسمي هذا النظام بـ"نظام الاقطاع" وهذا النظام يجمع بين ملكية الارض ؛ والحماية ، والخدمة العسكرية ، وفكرة الاخلاص او الولاء الشخصي وشارلمان هو اول حاكم يؤكد على هذه الصفة الاخيرة . اي صفة الولاء والاخلاص . ولعل حكومته هي اول من صاغ مصطلح الولاء ، حيث كان على جميع النبلاء وجميع الاحرار . ان يقسموا يمين الولاء للملك الامبراطور

وهكذا يمكن القول بانه في نهاية العهد الكارولنجي امتزجت هذه العناصر والممارسات المختلفة ، واخذ النظام الاقطاعي المؤلف منها شكله النهائي تقريبا . فمن الناحية التاريخية كانت الاقطاعة ، اى قطعة الارض التي يقطعها السيد النبيل للتابع ، جزءا من اراضي الدولة الكارولنجية وكان سيد الاقطاعية . قبل كل شيء . امير حرب مر العصر الاقطاعي بثلاث مراحل : عصر التمهيد . عصر النمو . عصر النضج والاكتمال عصر التمهيد : وقد اشتركت عدة عوامل في الاعداد لهذا العصر والتمهيد له ، اهمها : ضعف الحكومة المركزية ، ابان عصر انهيار الامبراطورية الرومانية واقتحام القبائل والشعوب المتبربرة لاقاليمها واستقرارهم فيها ، فاصبح الشكل اللائق من الحكومة التي تستطيع حماية الناس هو شكل الحكومة المحلية . وكانت الدولة الكارولنجية مركزية في الظاهر فقط ، فهي لم تستطع ان تؤثر في حركة التطور نحو المحلية باكثر من انها اوقفت تيارها ، دون ان تقدر على وقف الحركة ذاتها . وكان مما سهل قيام النظام الاقطاعي ما قام به الامبراطور شارلمان نفسه من تخويل كثير من السلطة المركزية لنوابه الاقليميين البالغ عددهم ثلثمائة ، ولمرؤسيهم ايضا . يضاف الى

هذا ما اعتاده الاباطرة الكارولنجيون وملوكهم من تقسيم الملك بين اولادهم . وبما ساروا عليه من منح براءات الاعفاء التي جعلت ارض اصحابها سواء كانوا من المدنيين او من رجال الدين خارج سلطة موظفي القضاء والشؤون المالية . ونظام المبعوثين ، وهم المفتشون الذين كان يرسلهم الملوك الكارولنجيون الى الاقاليم ، دليل على ضعف السلطة المركزية . وان قصد به في الاصل اظهار ما للدولة من قوة وضبط وهيمنة على جميع شؤون الحكم والادارة بكافة الاقاليم .

عصر نمو الاقطاع : وهو فترة القرنين التاسع والعاشر . وكان هذا العهد عهد احداث سياسية صاخبة ، واضطرابات اجتماعية واسعة ، وحروب متواصلة بين نبلاء الاقطاع المحليين . وهذه الفترة هي العصور المظلمة في اوربا . عصر اكتمال النظام الاقطاعي بلغ النظام الاقطاعي شكله الناضج التام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وفي هذا العصر اختفت سلطة الحكومة المركزية من غرب اوربا ، وتحول ولاء الجماعات عن الحكومة المركزية الى اعداد من السادة المحليين وصار امتلاك الارض مقترنا بحق امتلاك مقاليد الحكم والسلطان على من يكون بتلك الارض من الناس ، والصفة الثانية الاساسية ، للاقطاع التي تلي مباشرة صفته العسكرية ، هي طبيعته القضائية فقد كانت الاقطاعة وحدة قضائية بالاضافة الى كونها وحدة عسكرية وتجبية ، لسيدها حقوق السيادة على جميع اتباعه . وقد نشأت بين السيد والتابع علاقة قوامها عدد من التعهدات المشتركة والالتزامات المتبادلة بين الطرفين .

٢ . الارستقراطية الاقطاعية :

كان النظام الاقطاعي مؤلفا من مجموعة من حالات ملكية الارض والعلاقات الشخصية . وهو يشمل طبقة النبلاء وحدها فقط ، وهي طبقة ارستقراطية كانت وحدها تملك الارض . وفي عهد اواخر الدولة الكارولنجية اغتنمت هذه الارستقراطية الاقطاعية فرصة ضعف الملوك فسيطرت على الادارات الحكومية في جميع المناطق والاقاليم من كل الممالك التي كانت تتألف منها الامبراطورية وهي : فرنسا ، وايطاليا ... نشأ عدد من الحكام ، كم نتات ودوقات ، اخذوا يحكمون

على اجزاء الاقاليم التي تجزأت اليها الامبراطورية ، غير عابئين بالملك ، الذي اصبح ملكا بالاسم فقط . وعلى مرور الايام تحولت هذه المناطق والمقاطعات الى امارات اقطاعية ، ذوات اسماء تاريخية ما زال بعضها باقيا الى يومنا هذا .

٤ . الملك والنبيل الاقطاعي :

كانت دولة الاقطاع تتألف من الملك ومن اولئك النبلاء الذين يدينون له بالاخلاص والولاء والخدمة . وكانت المملكة تتألف من اقطاعات النبلاء واراضي الملك الخاصة . وكانت سلطة الملك المباشرة قاصرة على املاكه الخاصه . ولم تكن له سلطة مباشرة على الاقطاعات الممنوحة للنبلاء الاسياد . وكان يستطيع فقط ان يتعامل مباشرة مع اصحاب الاقطاعات وهم حكامها في واقع الحال . ولم يكن حجم الاقطاعات ليؤثر في العلاقات الاقطاعية . فقد تكون الارض الممنوحة في الاصل مقابل خدمة عسكرية او التي وجد مالكها الحر من مصلحته ان يحولها الى اقطاع مقابل حماية النبيل له ، صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضعة دونمات ، وقد تكون واسعة المساحة بحيث تشمل منطقة كبيرة ، او حتى مملكة بكاملها . لقد حولت اتفاقية الحماية السيد النبيل الى تابع لسيد اعلى منه ، وحولت ارضه الى اقطاع يتصرف بها على اساس الالتزام الاقطاعي المشروط بالقيام ببعض المساعدات للملك او لسيده الاعلى . وكانت الخدمة العسكرية ، في الواقع ، اهم الاعمال المترتبة على حق الحصول على ملكية الارض ، و"المساعدة" الاولى التي يقدمها التابع الى السيد الاعلى . واما المساعدات الاخرى فعديدة اهمها : المساهمة في فداء السيد الاعلى في حالة وقوعه اسيرا ، وتقديم هدية بمناسبة ترسيم ابنه البكر فارسا ، وهدية بمناسبة زواج بنته البكر ، ومساعدته في تطبيق العدالة ، وفي تقديم المشورة والنصيحة عند الطلب .

٥ . قوة النبيل الاقطاعي :

ويستمد النبيل الاقطاعي قوته من مصدرين اثنين : فهو يمثل جزءا من السلطة الحكومية التي فرضها هو في منطقة معينة من اقليم معين . وهو في الوقت نفسه مالك ارض . وقد يكون دوقا ، او كونتا ، او فيزكونتا ، او بارونا . وبحسب مرتبته يمارس احدى درجات القضاء : القضاء الاعلى ، والقضاء الاوسط ، والقضاء الادنى ولكن المبدأ الاساس الذي كانت تقوم عليه ممارسة النبيل السلطة القضائية على مختلف درجاتها هو انه يطبق قانون اقطاعيته وليس قانون الملك . كان من حق النبيل ، سواء كان سيدا اعلى ام تابعا،ان يحكم بحسب قانون اقطاعيته . وكان قانون الاقطاعة هو قانون المحكمة .ولم يستثن من هذا القانون الا اليهود ورجال الدين .

٦ . القضـــــاء :

في العصور الوسطى كانت القواعد التي تحكم سلوك الافراد تستمد مباشرة من الرأي العام ومن عرف الجماعة . والمقصود بالعرف هو ما ادركه الناس بالممارسة من معاني الحق، وماقبلوه من بعض الروابط على انها مشروعة . ومااستهجنوه من بعض الاعمال على انها مرذولة ، بحيث تقرر عندهم بالممارسة والعادة والتقاليد ما هو الحق والفضيلة ، وما هو الباطل والرذيلة . ولهذا اصبح من المتعين الرجوع الى ذوي الخبرة العرف .وكان القاضي يترك مسألة العرف الواجب تطبيقه ، كما يترك النظر في وقائع الدعوى ، لمجموع هيئة المتقاضين بالمحكمة او لمن يمثلهم ، وهؤلاء الممثلون او المحلفون يختارون بسبب خبرتهم وحكمتهم ، ويكون اختيارهم لمدة طويلة .اما القاضي رئيس المحكمة فقد كانت مهمته الاشراف على اجراءات الدعوى واعلان القرار النهائي ، ثم العمل على تنفيذه بالقدر الذي كان يتيسر في تلك الازمنة .مثال ذلك : في دعوى يرجع تاريخها الى سنة ١٠٦٥ بشأن ديرسان تروند باقليم اللورين بفرنسا ، طلب القاضي من اكبر السكان سنا بتلك الجهة ان يقرروا بامانة مايعرفونه من السلف ، وماوصل اليه علمهم الى وقت سؤالهم .

وقد كان مايصل اليه المحلفون من رأى يعتبر ملزما ، اذا صدر الرأي
بالاجماع .ولما لم يكن القرار بالاجماع دائما . كان القضـــاة يخضعـ
المحلفين احيانا للتحقيق الشديد ، وربما ادى ذلك الى اعفائهم من مهماتهم
واحلال غيرهم محلهم .

وكان لكل جماعة اعرافها وعاداتها وتقاليدها وهي التي تسأل عنها لتقرير
وللحكم في الدعاوي التي تنشأ بين افرادها بموجبها .مثـــال ذلك ان الصليبـ
في فلسطين طبقوا قواعد قانونية مختلفة في محاكم الفرسان عما كانت تطبقـ
محاكم العصور الوسطى .وفي المانيا كانت طبقة رجال الجيش تخضع لقانـ
المقاطعات ، في حين ان اهل المدن كانوا يخضعون لقانون المدينة ، كما ان الفلا
كانوا يخضعون لقانون العرف ، في حين ان موظفي الارياف كانوا خاضعين لقانـ
الخدمة .اما في انكلترة فكانت محاكم الملك مقفلة في وجه العامة ، ولكـ
الدعاوى المدنية الخاصة بهم كانت خاضعة لعرف الاقطاع التابعين له

ولم يكن تصور الناس للعدالة في تلك العصور يستند الى المساواة الطبيعية بـ
الافراد او على اساس الحرية الفردية ، بل على اساس استقرار الحقوق والواجبـ
فكان من المسلم به بوجه عام ان تقوم فوارق واختلافات كبيرة في التكاليف والامـ
بين الاشخاص ، وذلك تبعا للمركز الذي يكون فيه الشخص في المجتمع علـ
ان كل مجموعة من الاشخاص تستطيع ان تطالب بان تعامل وفقا للعرف المتـ
لا وفقا لاهواء الحاكم ، ولو كانت من ادنى الطبقات (٦) .

وكانت معظم الدعاوى في الريف ناشئة عن التحول في مدلول معنى الملكـ
في القانون الاقطاعي ، بحيث اصبح التمييز غير واضح بين ملكية الارض وحيازتـ
وعن تفسير النبيل الاقطاعي للحقوق والواجبات ، وتفسير الفلاحين لها يضاف الى ذلك
ان النبيل الاقطاعي قد يكون تابعا لاكثر من سيد واحد ، وتكون شروط تبعيته لسيد
تختلف عن شروط تبعيته لسيد آخر . لقد كان التوزيع الاقطاعي في تغير وتبدل مستمر
امكن ان تشتمل القرية الواحدة على عشرين اقطاعا او اكثر ، وان تكون اجزاء
ارض البارون منحا من لوردات مختلفين ، بشروط يختلف بعضها عن بعض .و
ادت هذه الحالة الى اشتباك الحقوق ، واختلاط المصالح ، وتضارب السلطات .

والى جانب قوانين الاقطاعيين والملوك ، والمدن ، كان يوجد القانون الكنـ

ذلك ... في ... سيطرة الكنيسة ... يشمل جماعة المؤمنين ...

لقد وجدت الكنيسة ، منذ العصور القديمة ، ان من الضروري وضع قواعد للحكم
وتحديد واجبات اعضائها حتى تحافظ على وحدتها وتحتفظ بعبادتها ، ولتأميــن
القيام بواجبات البر والصدقة ولتطبيق الفضائل الانجيلية المسيحية تطبيقا عمليا .وكان
الاساس الذي قامت عليه قوانينها هــو الكتــب المقدســة ، والتقاليد الرسوليــة
ومراسيــم البابا ، وقرارات المجامع .وبعد اكتشاف مجموعة القــانون الرومانـــي
المدونة في زمن الامبراطور جستنيان اضافت الكنيسة القانون الروماني الى مصادرهـا
وافادت منه في حل كثير من المسائل التي ظهرت في القرن الحادى عشر ومابعده بشأن
احوال الفرد والملكية كالزواج والعقود والجرائم .ومازال القوانين التي وضعتها الكنيسة
وطبقتها خلال العصور الوسطى ، حين كان للكنيسة سلطان مطلق في جميع الشؤون
الدنية التي تتعلق بالروح وخلاصها ، تسيطر على جزء كبير من القانون العام فـــي
الغرب ، مثل نظام الزواج والالتزامات (٧) .

٧ . اكتمال المؤسسات الاقطاعيـــة :

خلال القرنين الحادي عشر استكمل الاقطاع ، بوصفه شكلا من اشكـــال
الحكومة ، مؤسساته شيئا فشيئا .وحدد علاقاته وسلطاته ، وتخلص من بعض العناصر
والممارسات الهمجية .وقد تحددت علاقة التابع بالسيد ، واكتسبت حماية القانون ،
ونشأ القانون العرفي .وهذبت جمعيات سلم الرب و « الهدنة الالهية » الاقطاع ، وذلك
بالحد من ممارسات الاقطاعيين الهمجية ، وحروبهم وفضائعهم البربرية .وكانـــت
معظم الحروب « الصغيرة » في العصور الوسطى ، او « الحروب الخاصة » كمـــا
كانت تعرف يومئذ من صنف المنازعات على الحقوق .ولهذا يجب ان تميز عـــن
غارات السلب والنهب والسرقة التي كانت تعتبر يومئذ ، ومازالـــت حتـــى
يومنا هذا ، جرائم مخالفة للقانون .

المجتمع الاقطاعي في عصر تمامه يشبه في بنائه شكلا هرميا ، رأسه الامبراطور
او الملك ، وتحت ذلك طبقة من كبار الاقطاع ، اي الاتباع ، ويليهم صغارهــم .
كان هذا المجتمع الاقطاعي مجتمعا محليا في اساسه ، يقوم على عادات وتقاليـــد

واعراف محلية .ويمكن فهم النظام الاقطاعي في دور تمامه ، فهما واضحا ، على
ضوء بعض القضايا السالبة بالقياس الى مانعرفه في عصرنا هذا من مظاهر الدول
القوميه الموحدة .لم يكن يوجد في العصر الاقطاعي دولة موحدة ، محكمة البنـ
تتخللها طرق مواصلات منتظمة ، تصل الى كل جزء من اجزائها ، والى كـل
فرد من افرادها .ولم يكن هناك نقود عامة ، ولا اوزان ومقاييس عامة .ولم يكن هنـ
امه او قومية ، وما الى ذلك من لوازم الامــة بالمعنــى الحديـث
كاللغـة الواحـدة والاداب والتقاليـد والتـراث
القومي والقوانين الموحدة .ولم يكن يوجد في ذلك العصر جيش قومي ، او تدريب
لابناء الامة على حمل السلاح .

٨ . ظهور السلطـة الملكيـة :

مر معنا ان الحروب الخاصة عمت اوربا في مطلع العصور الوسطى بحيث
اضطرت الكنيسة على التدخل ، فاستطاعت ان تحد من انتشارها ، وتكبح من
شرورها ، وتلغي اسوأ ماتقترفه من الفضائح ، بانشائها مؤسسات « بسلم الرب » والهدنة
الالهية » في القرنين العاشر والحادي عشر .وقد اصبحت هذه المؤسسات في القرن الثاني
عشر غير ضرورية لان السلطة الملكية اصبحت يومئذ على درجة من القوة في جميع الاقاليم
بحيث صار بامكانها ان تقضي على هذه الحروب الخاصة ، وتفرض العدالـة
الملكية ، بوساطة محاكمها .وشيئا فشيئا حل محل الحروب الصغيرة المتواصلة ، التي
كانت تخرب البلاد ، وتعيق التقدم والازدهار ، ماصبح يعرف في إنكلتـرا
وفرنسا بـ « سلم الملك » ، وفي المانيا بـ « سلم الارض » .
وكانت الاعراف والعادات التي تكونت في الاقاليم على مر العصور نتيجة
لممارسات الناس وتعاونهم ونضالهم في سبيل حقوقهم تعطي شيئا مـن الضمانة
والحماية لمالكي الارض الصغار ... وحتى للفلاحين ، لان الرأى العام ، راجع

تدخل السيد الاقطاعي الاعلى ، كان يفرض تطبيق ما استقر عليه العرف في حالـة
قيام احد الاسياد الظالمين المتجبرين بخرق العرف وتجاوز ما استقرت عليه العـادة .

٩ . النظـرية السياسيـة للنظـام الاقطـاعي :

بلغ النظام الاقطاعي ، بوصفه شكلا من اشكال الحكومة والمجتمـع ، اوج
خصائصه وقوته في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .وسادت نظرية الاقطـاع
السياسية اوربا بل وتغلغلت حتى في اللاهوت الكنسي .فقـد اعتبـر اللـه
السيد الاعـلى ، واعتبـر الاباطـرة والملـوك اتباعـه المباشريـن .وادخلت
الكنيسة على هذه الفكـرة الاولية المبدأية دعواهـا فـي سيـادة البابـا .
وتقوم فكرة الكنيسة على مبدأ ان البابا ، وهو خليفة المسيح ، هو السيد الاعلى لجميع
الامراء ، وان جميع الاباطرة والملوك والامراء يدينون له بواجب التبعية والطاعـة
والولاء .واول من اعلن هذا المبدأ هو البابا غيريغوري السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) ،
واكده نظريا وعمليا البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) ، وانتهى امـره
سنة ١٣٠٣ بسقوط البابا بونيفاس الثامن الذى غالى في بسط دعاوى البابا بحيث
استدعى الحفاظ على حرية الدول القومية الناشئة في اوربا اسقاطه .

١٠ . اساس الاقطـاع مبـدأ التعاقـد :

تمثل طبيعة الخدمات المتبادلة بين السيد والتابع ، من الناحية التاريخيـة ،
نظرية جديدة في تنظيم المجتمع .وتقوم العلاقات بين السيد والتابع على اساس مبـدأ
التعاقد وقد نشأت دول العصور الوسطى على اساس هذا المبدأ .
كانت العلاقات بين السيد والتابع ذات طبيعة تعاقدية ، تمنـح كـل طـرف
في التعاقد حقوقا معينة على الطرف الاخر ، وتلزمه اداء خدمات معينة له .وفي حالـة
التقصير في اداء الخدمات المنصوص عليها في العقد ، او في حالة التجاوز على هذه
الحقوق المنصوص عليها ، او التنكر لها ، او عدم الاقرار بها ، يصبح من حق الطـرف
المتعدى عليه ان يلغي التعاقد قانونيا ، ويعلن انهاء العلاقة بينه وبين الطرف الاخـر .
فان قصر السيد في حماية التابع ، او عامله معاملة غير عادلة ، فمن حق التابـع ان
يلغي التعاقد ... : كانت مدة الخدمه العسكرية محددة بار... وما فـاذا

... في شروط ادائها ، فمن حق ...

ان ينهي ولاءه له .وبالمقابل فان من حق السيد النبيل ان يجبر التابع على الوفاء بالتزاماته في حالة اخلاله بتنفيذ هذه الالتزامات او تقصيره في ادائها ، او امتناعه عن القيام بالواجبات المنصوص عليها في وثيقة التعاقد .وكان هذا الشكل من اشكال الدولة التعاقدية من اهم ماقدمه تاريخ العصور الوسطى للنظرية السياسية .وكان لهذه النظرية ، وما تطور عنها واستمد منها من اساليب ومعاملات قانونية وحكومية . تأثير عظيم على التاريخ الاوربي اللاحق ، ومن بعد على التاريخ الاميركي .ويمكننا ان نجد اثر هذه النظرية في المبادئ التي قامت عليها الثورة الانكليزية في القرن السابع عشر ، والثورة الاميركية ، .والحرب الاهلية الاميركية ١٨٦١ – ١٨٦٥ .من حق المعتدى على حقوقه ، بحسب هذه النظرية التعاقدية ان يطالب بحقوقه ، ويدافع عنها ، الى حد القيام بالثورة على السيد المسؤول عن هذا الاعتداء ، سواء كان نبيلا صغيرا او اميرا كبيرا او ملكا .وخسارة صاحب الحق الضعيف في المعركة ليست دليلا على ان المنتصر هو على حق فالاقطاع ، على الاقل نظريا ، لم يقر ابدا بان الحق للقوة .ومفهوم الملكية المقيدة ، والحكومة الدستورية متضمن في الاقطاع .

١١ · الفروسية :

نشأت الفروسية من العادات الالمانية القديمة في التعليم والتدريب العسكري وتأثرت باساليب المسلمين في بلاد الشام والاندلس وبالافكار المسيحية .وفي خلال القرن العاشر اصبح دور الخيالة ثانويا في المعارك ، وتوقف المسؤولون عن اللجوء بصورة منتظمة الى استدعاء بعض الرجال الاحرار الذين لا يستطيعون تأمين عدة الفارس بسبب فقرهم .فكان على كل جندي ان يتسلح وفاقا لثروته ، ولذلك كانت فئة المحاربين المحترفين ، في الدرجة الاولى ، طبقة اقتصادية ، وقد ترتب للانتساب اليها اقتناء حصان ومختلف الاسلحة الهجومية والدفاعية .وكان على الفارس ان يتمرن على المبارزة ، وان يخصص وقتا كافيا للاجتماعات والحملات العسكرية هذا مالم يستطعه آلا الاغنياء .وعلى هذا فقد امتهن الفروسية كبار الملاكين والاقطاعيين .

كانت طبقة الفرسان في البدء مفتوحة لكافة الاغنياء ، ولكنها اصبحت مع الايام طبقة ...

الفرسان وحدهم ، منذ القرن الحادي عشر ، صفة الفروسية .

الواجب الذي اهتم به النبيل الاقطاعي دون غيره من واجباته هو الحرب . وقد طرأ انقلاب على فن الحرب ، في العصور الوسطى ، بسبب استعمال الركاب في سرج الخيل لاول مرة في غرب اوربا ، اذ استطاع الفارس بفضل ذلك ممارسة الحركات الحربية الخاطفة ، وتعلم هجوم الخيالة ، واتخذ الملابس المدرعة ، المزودة

وكان الفرسان من ابناء النبلاء عادة ، لان الفلاحين المزارعين كانوا مبعدين عن احتراف الفروسية لما تتطلبه من نفقات ، وتدريب طويل .وكان ابناء النبلاء يتدربون تدريبا عسكريا منذ حداثتهم ، فيتعلمون ركوب الخيل واستخدام السلاح ، ومن ثم ينخرطون في حصن احد الامراء الاقطاعيين ليمارسوا الخدمة فيه ، وليتعلموا آداب السلوك في مجتمع النبلاء والفرسان .فاذا اثبت الفتى صلاحية في القتال ، ومهارة في استخدام السلاح ، وجسارة في خوض غمار المعارك ، يحتفل بترسيمه فارسا ، ويتم ذلك في حفل كبير .وبذلك يكتسب الفتى الفارس مكانته في مجتمع النبلاء الاقطاعيين .

وكان الفارس ، عند القتال يكسو الجزء الاسفل من ساقيه باربطة من القماش ، او الجلد تمتد من الركبة الى اسفل الساق . وكان يكسو صدره بصدرة تتألف من حلقات متداخلة من المعدن .وكان يلبس على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل يمتد مقدمها الى اسفل ليحمي انفه .وكان يحمل في ذراعه الايسر ترساً او مجنة ، وهو مستطيل الشكل ويبلغ طوله حوالي اربعة اقدام .واما اسلحة الفارس فاهمها : السيف ، والرمح ، والحربة ، والبلطة .

وقد ابتكر فرسان العصور الوسطى فن المبارزة ليتلهوا بها في ازمان السلم . وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية تستهدف اظهار اكبر قسط من المهارة باقل قدر من الاصابات والدماء (٩).

ومازالت تقاليد الفروسية تتطور وتزداد تعقيدا ، واسرافا في الشكليات والمواضعات حتى اصبح الفرسان يؤلفون طبقة محددة من السكان ، لها عاداتها وتقاليدها وامتيازاتها .وقد تكونت طبقة الفرسان بشكلها الاخير في اواخر العصور الوسطى ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .ولم تكن هذه الطبقة بمثل هذه الاهمية التي يصورها ... الشعراء واصحاب القصص والروايات ، ولم تحظ في زمانها بمثل هذا المديح الذي يسبغونه عليها .ولم تكن الفروسية اكثر من رغوة الاقطاع ونتاجه ،

وحسن الادب ، والتلطف في معاملة النساء . ولكن الفرسان لم يتمسكوا بهذه المثل العليا في معاملاتهم دائما . لقد نشأت هذه الطبقة من الفرسان في عهد انحلال الاقطاع فالفوا طبقة خاصة مغرورة ، شديدة الادعاء ، ولم يكن لهم ذلك الحس بالحقوق والواجبات الذي عرف في خيرة ممثلي الاقطاع من الفرسان والنبلاء . ويجب ان نؤكد هنا ان ابناء الشعب ، من الفلاحين المزارعين والتجار الحرفيين والعمال في المدن التي اخذت تنمو في هذه الفترة ، كانوا يكرهون الفرسان ، وكان الفرسان يحتقرون ابناء الشعب ويسيئون معاملتهم كلما قدروا على ذلك . واسوأ اصناف الفرسان وهم النبلاء الذين لايملكون ارضا وكانوا يعتمدون على مايقدمه لهم رعاتهم من الاسياد والاغنياء ، كانوا يحصلون على معيشتهم من السلب والنهب على الطرق العامة حيث كان يطلق عليهم اسم « النبلاء اللصوص » .

وقد ارتبط بظهور طبقة النبلاء والفرسان فنون عديدة اهمها : علم الانساب وعلم شعارات النبالة . وكان لعلم تحقيق الانساب وروايتها وتدوينها اهمية كبيرة في مجتمع العصور الوسطى ، حيث كانت مراتب الشرف والنبالة وراثية ، وحيث كانت المرتبة ، والسلطة ، والوظيفة ، والثروة ، تنتقل من الاب الى الابن بالوراثة وتظهر اهمية النسب بوضوح عند الزواج . فقد كان ابناء الاسر النبيلة لايتزوجون الا من بنات الاسر النبيلة ذوات الحسب والنسب العريق .

واما فن شعارات النبالة فيختص بابتكار وصنع الشعارات التي تزين دروع النبلاء والفرسان . وقد نشأت هذه الشعارات والرموز عندما شاع استعمال الخوذة المغلقة التي تخفي وجه الفارس تماما مما يجعل التعرف على هويته امرا بالغ الصعوبة دون وسيلة تعرف به وتدل عليه . وقد ابتكر الصناع في العصور الوسطى انواعا غريبة عجيبة من الرموز وخاصة اثناء الحروب الصليبية ، فاستعملوا صور الاسود والفهود والثعابين الخيالية والعقاوات الى جانب الزخارف والاشكال الهندسية . وكانت هذه الشعارات والرموز تثبت في الدرع الذي كان سطحه مقسماً الى مربعات يملأ كل مربع بشعار احد اجداد صاحبه ، وكان على درع الامبراطور شارل الخامس اثنان وسبعون مربعا . وقد لعبت الالوان والاشكال الهندسية دورا كبيرا في صناعة الشعارات ، وكان استخدام الالوان والاشكال يخضع لقواعد صارمة . وكان اللون المفضل هو اللون الازرق ...

عادة من الذهب والفضة ، وان كانت المعادن الاخرى تستعمل احيانا . واما الشعارات التي توضع على الملابس فكانت تصنع من خيوط الذهب والفضة .

١٢ . مراتب الناس في العصور الوسطى :

كان مجتمع العصور الوسطى ينقسم الى مراتب او طبقات واضحة الحدود ، فكان واجب رجال الكنيسة هو القيام بعبادة الرب ، واداء الطقوس الدينية ، وتقديم الاسرار المقدسة للمؤمنين . وكان واجب النبلاء ان يسيطروا ، ويحكموا ، ويحافظوا على السلم والامن داخل اقاليمهم ، ويصدوا عنها اي هجوم خارجي . وكان النظام الاقطاعي يخص طبقة النبلاء وحدهم فقط . ويدخل في طبقة النبلاء الطبقة العليا من رجال الكنيسة عندما اخذت الكنيسة بالنظام الاقطاعي ، فكان الاساقفة ورؤساء الاديرة من اصحاب الاقطاعات ويقومون بواجبات الخدمة العسكرية . واما واجب عامة الشعب ، اي الفلاحين الذين كانوا قبل القرن الثاني عشر يؤلفون بمجموعهم تقريبا من طبقة العبيد والاقنان ، فكان العمل لانتاج وسائل العيش للطبقتين الممتازتين المتقدمتين : اي طبقة النبلاء وطبقة كبار رجال الكنيسة . وتعبر الكلمات الثلاث التالية وهي في اصلها اللاتيني مسجوعة ، عن هذا الانقسام الثلاثي في المجتمع بايجاز ووضوح :

رجال الدين : هم اولئك الذين يصلون .

الفرسان : هم اولئك الذين يصنعون الحروب .

الحراثون : هم اولئك الذين يعملون .

مراجع الفصـــل الثاني

(١) الدكتور عبد القادر احمد اليوسف ، العصور الوسطى الاوربية ، المكتبة العصرية صيدا – بيروت ١٩٦٧ ، ص ١١٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٣) C. Warren Hollister Medieval Europe a short History , 3rdedition , John Wiley and sons Newyork , 1974 , P . 151

(٤) Thompson , European Civilytion , P. 443 - 455

(٥) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، اوربا في العصور الوسطى ، ج٢ص٢٥٥-٢٦٣

(٦) ج. كرامب ، ا. جاكوب ، تراث العصور الوسطى ، ج٢ ، الفصل التاسع (قوانين العرف والعادة) ، ص ٤٠٩-٤٥٢ .

(٧) ج. كرامب ، تراث العصور الوسطى ، ج٢ ، الفصل العاشر « القانون الكنسي » ص ٤٥٥ – ٥٠٧ .

(٨) ج. و. كوبلاند « القنية والاقطاع » وهو الفصل الثاني بعد المائة من المجلد الخامس من تاريخ العالم ، نشره السير جون هامرتـــــن . الترجمة العربية ص ٣ – ٢٢ .

(٩) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر السابق ذكره ، ص ٢٧٤ – ٢٨١ . وينظر الدكتور نور الدين حاطوم ، تاريخ العصـــــر الوسيــط فـــي اوربـــا ، ج١ ص ٣٤٨-٣٨١ . ول ديورنت ، قصة الحضارة ، ج٣ مجلد ص ٤٠٨-٤٠٩ . ادوار بروى ، تاريخ الحضـــارات العام حطالمجلد الثالث ، ص ١٤٤-١٥٤ ، ٢٨٤ – ٢٩٦

الفصـــل الثـــالث

الحيـــاة الزراعيـــة وتطورهــــــا

١. الفلاحون ٢. حقول القرية ٣. الدورة الزراعية ٤. الحصص المبعثرة ٥. طـــرق الزراعة ٦. المؤاجرة ٧. وكلاء النبيل الاقطاعي ٨. موارد النبيل ٩. وسائل الخــلاص من القناة ١٠. الغابات .

١ . الفلاحـــون :

تحدرت طبقة الفلاحين تاريخيا من طبقات العبيد والارقاء والاقنان التـــي كانت تعيش في اواخر عصر الامبراطورية الرومانية .وتداخلت هذه الفئات وامتزجت منذ اوائل العصور الوسطى .وشيئا فشيئا تناقصت طبقة العبيد من المجتمع لتحل محلها طبقة الاقنان ، لان القنانة ، او القنية ، كانت ترفع العبد الى درجة اعلى في المجتمع واما العبودية فكانت تخفض الفلاح القن الى درجة ادنى في سلم الطبقات الاجتماعية. كان العبد محروما من كل حق اذ كان يعتبر ملكا لسيده ، يتصرف به كما يشاء ، وله عليه حق الحياة والموت .واما القن فكان له على الاقل عدد محدود من الحقوق .وفي جميع مناطق واقاليم اوربا الغربية جرت عملية امتزاج واختلاط بين عناصر مختلفة وعادات وتقاليد متباينة ، وبمرور الزمن عمت اوربا احوال وعادات متشابهة نسبيا ، تسير حياة عامة الشعب من الفلاحين وتتحكم في سلوكهم .

كان اقتصاد العصور الوسطى يقوم باجمعه تقريبا على الزراعة ، وكان الفــلاح العامل في الحقل محور هذا النظام .وكان النظام الاقطاعي يقوم على اساس الضيعـة وهي الخلية الاساسية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في مجتمع العصـــور الوسطى وكانت الضيعة ارضا زراعية معينة ، او حقلاً كبيرا ، تقوم عليه قرية واحدة او اكثر ، يسكنها فلاحون تابعون لصاحب الارض ، وكانت مجموعة من الضياع يملكها نبيل واحد تؤلف (الدومين) وهو مجموع ماكان تحت يد السيد الاقطاعـي من الاراضي وكان الدومين يؤلف بارونية .او دولة مصغرة .وكان الناس فـي الضيعـة الواحدة يعيشون سوية ، ويعملون في الارض سوية ، ويطبقون نفس الدورة الزراعيـة ويتبعون العادات والتقاليد المحلية نفسها ، ويخضعون نفس المحاكم القضائيـة ، التي هي محاكم سيد الضيعة .

٢ . حقـول القريـــة :

كانت ارض كل قرية تتألف من ثلاثة اقسام : حقول الفلاحة ، وارض المراعي ، والمشاريع العام .وكان لكل من يسكن القرية الحق في رعي مواشيه ، وجمع حطب الوقود مـن المشاع العام .ولكن بعد ان يسد السكان حاجتهم يعود مايبقى في المشاع العام من عشب وحشيش وحطب للسيد الاقطاعي مالك الارض .وكان العشب من كل شريحة من شرائح المرج يوزع بين سكان القريـة بالقرعـة غالبـا الا اذا كانـــوا مجـــرد عمال زراعيين لا يملكون مواشي (١) .

٣ . الدورة الزراعيـــــة :

في اوائل العصور الوسطى كانت الارض الزراعية تقسم الى قسمين ... منها ، ويترك القسم الاخر بورا ، اي مفلوحة دون زراعة ، لمدة سنة اي ان الزراعة كانت تتبع نظام الدورة الزراعية الثنائية ، او المثناوية ، : حقل مز... : حقل بور – حقل مزروع . وتسمى هذه الدورة الزراعية الثنائية في ال... و... ونير ، اي زراعة قسم من الارض وترك قسم منها بورا خلال السنة . وفي السنة الثانية تزرع الارض التي تركت بورا ، وتبور الارض المزروعة ، اي تحرث وتترك دون ... لتسترد قوتها وطاقتها على الانماء والعطاء . وقد ادخل على الزراعة فيما بعد نظام الدورة الثلاثية ، الذى ظهرت بداياتها في القرن الثامن . كانت الارض الزراعية تقسم الى ثلاثة اقسام : جزء للزراعة الخريفية ، وجزء للزراعة الربيعية ، وجزء يترك بـــورا وكان اكتشاف كون الحنطة يمكن ان تزرع في الشتاء بالاضافة الى زراعتها فـــي الصيف من اهم الخطوات التطورية في الاقتصاد الاوربي . وبالاضافة الى الحنطة كا... يزرع الجاودار ، والشوفان ، والهرطمان ، والحمص ، واللوبيا ، والبازلاء ، والفو... و... جمعت الزراعة في العصور الوسطى بين التناوب في زراعة الارض ، والدورة في زراعة المحاصيل (٢) .

٤ . الحصـــص المبعثـــرة :

كانت الارض الزراعية تقسم الى ثلاثة اقسام : قسم للزراعة الخريفية ، وقسم للزراعة الربيعية ، وقسم يترك بورا . وكان كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة يقسم الى شرائح ، او حصـــص عـــــديدة . و كـــــان يعطـــى لكــل فــلاح عـــدد مـــن هـــذه الشرائـــح فـي كـــل مـــن الاقســام الثلاثة وكانت مساحة كل شريحة تعادل ، بصورة تقريبية ، اربعين قضيبا طولا ، واربعة قضبان عرضا . ويتراوح طول القضيب بين اثنى عشر وستة عشر قدما ، وهي تمثل مساحة من الحقل يستطيع زوجان من الثيران حراثتها في العمل الصباحي الـــذي يبدأ من اول النهار وينتهي عند الظهر ، اذ جرت العادة ان تؤخذ الثيران الى المرعى عند منتصف النهار . وعلى هذا كانت الشريحة من الحقل تسمى « ارض الحراثة » وفي المانيا « ارض الصباح » ، وتعادل مساحتها الاجمالية « اكرا واحدا » ، اى حوالي ٤٠٠٠ متر ...

من الحقول الزراعية الثلاثة تؤلف « حقله » الخاص به . وعلى العكس من المزرعـــة الحديثة حيث تتألف ارض الفلاح من حقل واحد ، اومن حقول متصلة ، كانــــت ارض الفلاح الزراعية في العصور الوسطى مؤلفة من شرائح متباعدة . ومازالت بقايا هذه الشرائح الحقلية موجودة في معظم الاقطار الاوربية . قد يكون في هذا النظـــام شئ من العدالة والمساواة بين الفلاحين لانه يجعل ارض كل فلاح مساوية لارضـــ كل واحد من جيرانه ليس فقط في المساحة ، وانما في جودتها وطبيعة وضعها الجغرافي اى قربها او بعدها من ماء الرى ، وارتفاعها وانخفاضها ، وبعدها او قربها من الطريق العام او عن القرية الخ . ولكن هذا النظام في تقسيم الارض الزراعية حصصا مبعثرة بين الفلاحين كان ينطوي على كثير من التعب والمشقة . كانت مساحة جميع الحقـــول التي يتصرف بها الفلاح الواحد تتراوح بين ثلاثين واربعين « اكرا » وما لاشك فيه ان زراعة ارض مساحتها ثلاثون اكرا وتتألف من ستين جزءا او اكثر قد يبعد بعضها عن بعض ميلا او ميلين هي عملية شاقة ، مليئة بالمتاعب والصعوبات .

لم تكن شرائح الحقل مسيجة ، ولكنها كانت تميز عن الشريحتين المجاورتين لها بشقة ارض مستطيلة غير محروثة ، اوبكوم من الطين ، اوبشقة مرتفعة ، ومـــا الى ذلك . وعلى هذا كانت هذه الشرائـــح تسمى : « الحقول المفتوحة » وكانـــت المواشـــي ترعـــــى فـــي الحقـــــول بعـــــد الحصـــاد وجمع التبـــن . وفي الشتاء كانت المواشـــي توضـــع في الزرائـــب وتعلـــف القـــش وثمـــار الاشجـــار .

وكانت المراعي والغابات والاراضي الغامرة ، اي الاراضي غير الصالحـــة للزراعة والتي كانت تزود الفلاحين بالحجارة والتراب والجص ، مشاعا بين الفلاحين ولكنها كانت تقسم بينهم ، كما كان يحدد عدد المواشي المسموح لكل فلاح برعيها في المشاع .

يحتاج كل فلاح ، يتصرف في حقول مساحتها حوالي ثلاثين اكرا ، الـــى ثورين للحراثة . وهذا يعادل ربع فريق كامل للحراثة مؤلف من ثمانية ثيران . وقد يكون في مزرعة السيد الاقطاعي اكثر من فريق حراثة واحد لحراثة حقوله الخاصة . وكانت معظم الاعمال الزراعية في القرية تجري بصورة جماعية تعاونية ، وخاصة في موسمي الحراثة والحصاد . وفي كل قرية فريق حراثة واحد ، او اكثر ، مؤلف من ثمانية ثيران في العادة ، كان الفلاح يساهم في الفريق بثور واحد او اكثر .

٥ . طـــرق الزراعـــة :

ظلت طرق الزراعة على حالها لم تتغير ، طوال العصور الوسطى ، وبقيت ادوات الزراعة كما هي : المحراث الخشبي، واداة الدراسة الخشبية ، والمذراة الخشبية ، والطاحونة الحجرية . واقتصر اصلاح الارض على التجيير بالتراب الحواري اي الطين الغني بكربونات الكالسيوم ، وتقلب الارض بالمحراث لخلط التربة بجذور الزروع وجذاماتها ، واطلاق المواشي في الارض للرعي بعد الحصاد .كانت السائمة من اغنام وابقار تطلق للرعي في الخلاء المشاع بحراسة راعي القرية . واذا ماانتهى الحصاد ارسلت في الحقول لرعي بقايا الجذور والجذامات .ولم يكن في ذلك مايساعد على تحسين نتاجها .ولم يتوصل المزارعون والفلاحون الى انتاج العلف لتغذية المواشي في فصل الشتاء . وخاصة انهم لم يعرفوا بعد زراعة المحاصيل الجذرية مثل اللفت البلدي واللفت الاصفر ، ولهذا كانوا يذبحون معظم المواشي في الشتاء لقلة العلف ولهذا ايضا كانت حاجتهم للتوابل والافاوية عظيمة لحفظ اللحوم المقددة من التلف ، ولتغيير مذاقها .وقد كان ذلك من العوامل المهمة في تنشيط التجارة الخارجية كما سنذكر في الفصول القادمة .وتطلق الخنازير في الاراضي الغابية مدة فصل الخريف لتأكل الدقل وهو ثمر البلوط وشاعت تلك الطريقة بحيث كان من المعتاد ان تقدر الغابات بعد ماتطيق تغذيته من الخنازير (٣) .

على ان حال الزراعة لم تبق جامدة دون تغيير .ونتيجة لعوامل عديدة منها ذاتية ومنها خارجية وخاصة ماافاده الاوربيون من تقدم العرب في اساليب الزراعة في الاندلس وصقلية ، وماشاهدوه من فنون الزراعة في البلاد العربية ابان الحروب الصليبية ، اخذت طرق الزراعة الاوربية واساليبها وادواتها تتغير تغيراً كان له اثره العظيم على انتعاش الصناعة والتجارة وعلى الاقتصاد الاوربي عموما .فمنذ القرن الحادى عشر ، اوحتى قبل ذلك ، حدث اتساع عظيم في مساحة الاراضي القابلة للزراعة في جميع انحاء اوربا ، واتبعت طرق في الفلاحة اكثر فاعلية وانتاجا بما في ذلك المواظبة على استخدام السماد العضوي الناتج من المدن في تسميد الاراضي الزراعية المجاورة لها .وقام الاهالي بجهود مثابرة لتطهير الاراضي واستصلاحها .فقد كانت مساحات واسعة من الاراضي في المانيا في القرن التاسع غابات كثيفة موحشة ، فاصبحت الآن ، بجهود الفلاحين ، اراضي مزروعة وتحولت الاراضي الواطئة ، التي تكثر فيها المستنقعات ولا تعول الا حفنة من الصيادين الاشداء ، الى [illegible] من اوفر

اراضي اوربا غلة .ففي وقت مبكر يرجع الى سنة ١١٥٠ انشئت في الفلاندرز ، الاحواض الاولى ، وهي الاراضي التي استصلحت عن طريق انشاء السدود لرد مياه البحر او المستنقعات عنها .وبدون قيادة قسيس ولا ملك ، وبدون الاستعانة باية الات اخرى سوى المجرفة ، قام رجال احرار ، مثل صيادي فريزيا في شمال هولندا ، يتجمعون طواعية للقيام ببناء سداد عالية ومصاطب عظيمة من التراب ، وكانت هذه الاعمال الباهرة تمهيدا لانطلاق النشاط الصناعي ، في البلاد الواطئة اي في اقاليم هولندا وبلجيكا ، الذي بلغ ذروته في القرن السابع عشر .

واستخدم الري في الزراعة ، وادخلت تحسينات على طرقه ووسائله .وكذلك حدث ارتفاع في مستوى تربية الخيول ، وابتكار سرج افضل ، واستعمال الحدوة الحديدية ، واستعمال الطوق الذي يشد في مقدم صدر الحصان وبذلك اصبح بامكان الحصان ان يسحب بقوة اكبر ، وانتشار الطواحين المائية والهوائية .وقد وفرت هذه التحسينات ، وبعضها مما اقتبسه الاوربيون من العرب ، للمجتمعات الحضرية الجديدة موارد من القوة واسعة نسبيا .وبانتعاش الزراعة تقدمت الصناعة ، وازدهرت التجارة وتوسعت افاقها .وكان للرهبان مساهمة جيدة في استحداث مصادرميكانيكية للقوة ، وفي ابتكار وسائل لتوفير العمل .وكانت قواعد بناء الصهاريج تشجع على بناء الاديرة بالقرب من الانهار التي كان يمكن التزود منها بالقوة المائية .

وقد يسر هذا التوسع في القاعدة الزراعية ، وهذه الزيادة في القوة المادية ، زيادة عدد السكان .فما بين القرنين العاشر والثالث عشر زاد عدد سكان المنطقة الواقعة بين الراين والموزل الى عشرة اضعاف ماكان عليه .وفي سنة ١٠٨٦ كان عدد سكان الاقاليم الانكليزية ١ر٢٠٠ر٠٠٠ نسمة ، فاصبحا ٢ر٣٥٥ر٠٠٠ نسمة سنة ١٣٤٠ .وخلال اربعة قرون انشئت في المانيا ٢٥٠٠ مدينة .وفي نهاية القرن الثاني عشر كان عدد سكان باريس حوالي ١٠٠ر٠٠٠ نسمة ، وفي نهاية القرن الثالث عشر كان عددهم يقرب من ٢٤٠ر٠٠٠ وفي القرن الثالث عشر كانت كل من البندقية وميلانو تضم اكثر من مئة ألف من السكان ، ومع ان اغلب هذه الارقام تقريبية فمما لاشك فيه ان عدد السكان في اوربا كان يتجه نحو الازدياد المتواصل حتى مجيء الطاعون العظيم ، او الموت الاسود ، في القرن الرابع عشر .ومع ان هذا الوباء الفتاك دام نحو عشرين سنة ، وقضى على عدد من الناس يتراوح بين ثلث السكان [illegible]هم ، فانه كان نكسة موقتة ، اذ عاد السكان يتزايد[illegible] في العصور التالية (٤)

٦ . المؤاجـــرة :

كان جزء من الاراضي الزراعية ، او عدد من الشرائح الحقلية ، يعود لا[illegible] النبيل الخاص ، ويؤلف ما اصطلح عليه في ذلك العصر بـ « حقل النبيل » او « الارض الداخلية » وغالبا مايكون حقل النبيل في ارض منفصلة عن حقول الفلاحين ، وكان من واجب الفلاحين المستأجرين ان يحرثوه ويزرعوه ويحصدوه ، كجزء من الايجار الملتزمين به . كان النبيل هو مالك القرية ، واما الفلاحون فمستأجرون دائمون للارض والقول بان الفلاح يملك الارض الخاصة به هو تعبير نظرى بحت ، فالمالك الحقيقي للارض هو السيد النبيل ، واما الفلاح فيملك حق التصرف بالارض بصورة دائمية لقاء ايجار والتزامات اخرى يؤديها للنبيل . وبالامكان ان تنتقل الارض من يد فلاح الى اخر في القرية بالبيع ، او الهبة ، او الميراث . ولكن المالك الجديد لايملك في الحقيقة الا حق الايجار بدلا من الفلاح الذي كان يتصرف بها من قبل . والخلاصة ان [illegible] الفلاح مؤجر ، والفلاح مستأجر ، والمالك الحقيقي هو السيد الاقطاعي . والفلاح لا يمسك بالارض المؤجرة وانما هي التي تمسك به . فقد كان الفلاح مرتبطا بالارض كقن ، ملزما بدفع ايجار عنها يتألف من جزء من محاصيله الزراعية والحيوانيـــة ومقدار معين من العمل . وهو لايستطيع ان يمتنع عن القيام بالاعمال والخدمات المطلوبة منه للنبيل . لان هذا السيد الاقطاعي كان قادرا على ان يأمر بجلده ، او بان ينزل به عقوبات بدنية اشد صرامة وايجاعا، بل لقد لقد كان بامكان النبيل ان يأمــ[illegible] بطرده من ارضه ، وفي هذه الحالة يصبح الفلاح المطرود صعلوكا افاقا . وكانـــت الغابات ، في العصور الوسطى ، تغص احيانا بهؤلاء المطرودين المنبوذين الذيـــن يصبحون ، بحكم العوز والفاقة وضرورات العيش ، سراقا وقطاع طرق . وكان تجار العبيد كثيرا ما يتصيدون هؤلاء المنبوذين ويبيعونهم عبيدا في اسواق النخاسة في الاقطار المجاورة لاوربا .

كان معظم السكان في قرى العصور الوسطى يتألفون من الاقنان . ولكن بعضهم كانوا من الفلاحين الاحرار « فيلين » وهم طبقة تحتل درجة ارفع من طبقة الاقنان حيث كانوا يستأجرون الارض وفقا لشروط محددة بدلا من ان يكونوا خاضعين لمعاملة النبيل الاقطاعي المتعسفة واهوائه المتقلبة . وفوق هؤلاء تقوم طبقة المستأجرين الاحرار ، وهم الفلا[illegible] الذين كانوا احرارا في ترك الارض والانتقال منها عندما ينفذون العقد ، او عندما تنتهي مدة ايجارهم للارض . وكا[illegible] الارض التي تؤجر للمستأجرين من طبقة

الفلاحين الاحرار « فيلين » ، والمستأجرين الاحرار « فرى تينانت » تقتطع من ارض النبيل الخاصة . والظاهر ان زراعة هذا الجزء من ارض النبيل الخاصة ، بوساطة هذين الصنفين من المستأجرين ، كانت تعود عليه بفائدة اكبر مما لو اعتمد في زراعتها على الاقنان المتذمرين المتكاسلين .

٧ . وكلاء النبيـــل الاقطـــاعي :

نادرا ماكان النبيل الاقطاعي يدير ضياعه او حقوله بنفسه ، وانما كان يعهد بادارتها الى وكلاء او خزان ، كانوا في الغالب من الاقنان المتفوقين على ابناء طبقتهم بالمرونة والذكاء . وكان اولئك الوكلاء ، في الاعم الاغلب ، شرسين ، مستبديـــن ، غلاظ القلوب . وكثير من اسباب الفساد والانتهاكات التي كان يشكو منها الاقنان في العصور الوسطى يمكن ارجاع اسبابها الى هؤلاء الوكلاء . وقد يحدث احيانـــاً ان اخبار هذه الانتهاكات والتعديات لاتصل الى النبيل الاقطاعي فلايعرف عنهـــا شيئا الا بعد ان يتمرد الفلاحون المستأجرون ، ويقومون بعصيان . وقد قام الفلاحـــون احيانا ، بثورات عامة قوية قضى عليها النبلاء الاقطاعيون بوحشية شديدة ، وسفكوا فيها دماء المئات والالاف من الفلاحين الثائرين المتمردين . وقد وقعت اقـــدم هذه الثورات التي سجلت اخبارها في نورماندي سنة ٩٩٧ . وقـــد يجتمـــع الاستغلال الاقتصادي ، والمظالم الاجتماعية ، مع ظواهر عاطفية وروح دينيـــة . تتألف منها اسباب بعض الانتفاضات العامة كحملة صليبية الفلاحين سنة ١٠٩٦ ، والباستور في فرنسا سنة ١٢٥١ .

٨ . موارد النبيـــــل :

كانت الضيعة ، الى جانب كونها اصغر وحدة اقتصادية واجتماعية من حيـــث الحجم والمساحة ، بنية سياسية مصغرة . وكانت الضياع التي يملكها النبيل الاقطاعي تؤلف الدومين ، ويشكل الدومين دولة مصغرة ، تسمى البارونية ، فيقال بارونيـــة النبيل الاقطاعي فلان ، كما يقال امارة فلان ، او امارة الاسرة الفلانية . وكانـــت موارد هذه الدولة المصغرة تعود الى السيد الاقطاعي صاحبها . وكان للنبيل موارد اخرى تأتيه من احتكاره لعدد من الخدمات العامة المحلية . فكان النبيل يحتكر المخبز العمومي والمطحنة ومعصرة العنب ، ومخمرة البيرة والنبيذ ، والسوق ، عندما تكون القريـــة

على درجة من الاتساع بحيث يكون فيها سوق ، وكان الفلاحون يجبرون على استعمالها لقاء اجور يعينها النبيل او وكيله .

٩ . وسائل الخلاص من القنانـــة :

كانت طبقة النبلاء الاقطاعيين تؤلف نسبة ضئيلة من المجتمع الاقطاعي ، وكان معظم اهل الريف في العصور الوسطى اقنانا . والقن ، على وجه العموم ، فلاح يعيش على قطعة من الارض يمنحه اياها سيده متملك الدومين ، وهو مربوط الى هذه القطعة من الارض ، ولا يملك الحرية في الانتقال عنها . وفي الواقع لم يكن القن ينتقل من ارضـــه بمحض ارادته واختياره الا نادرا لانها المورد الوحيد له . وكان المالـــك حـــرا في طـــرد القن ولكنـــه لـــم يكـــن يفعـــل ذلـــك الا نادرا ، لان السيد يعيش من غلة الارض ، والارض لاتنتج بلا فلاحين .

منذ اواخر القرن الثاني عشر اصبح بامكان الاقنان ان يتحرروا من القنانة وينعتقوا من ارتباطهم الدائم بمقاطعة معينة ، وبسيد اقطاعي معين ، ولذلك اسباب وعوامل متعددة ومعقدة ، بعضها قديم كامن في بنية النظام نفسه ، وبعضها اوجدته ظروف الحياة وشروطها المتغيرة المتجددة فبعد تطور التجارة ، وتقدم الاقتصادي النقدي ، اصبح الاقطاعيون بحاجة الى النقد لشراء مايحتاجونه من بضائع التجار . ولهذا اصبح بامكان القن ان يشترى حريته لقاء مبلغ من المال يدفعه لسيده النبيل الاقطاعي . ومن تلك العوامل التي ساعدت على تحرير الاقنان صعوبة ضبط السجلات في الازمنة التي تلو الطواعين والحروب . وكان من قوانين بعض الجهات ، مثل سهول شمال ... ان الاحوال الشخصية تتبع الام ، وان ابناء القن المتزوج من امرأة حـــرة يكونون احرار ، وكان بعض الاقنان يتحررون بسبب الاقامة مدة معينة باحدى المدن الحرة اى المدن التي تتمتع باستقلال ذاتي ناله من حاكم المنطقة الاقطاعي . فاذا هرب القن من ارض النبيل الاقطاعي ، والتجأ الى المدينة واقام فيها مدة معينة دون ان يلقى القبض عليه ، اصبح حرا . وكان بعض الاقطاعيين ورؤساء الاديرة يمنحون الحرية للاقنان لقاء مساهمتهم في استصلاح الاراضي ، وردم المستنقعات ، وازالة ... الغابات ، وتمهيد ارضها للزراعة . ونتيجة لهذه العوامل التي قدمناها ، ولغيرها ... كثيرة ، اخذت التبعية الجامدة التي عاش الاقنان بموجبها ، جيلا بعد جيل ، تتفكك وتنحل قيودها قليلا قليلا . على ان القنانة لم تختف من اوربا في مدة قصيرة ، ... لقد ... ت في جهات كثيرة من اوربا الغربيـــة قائمة ، على ماهـــي عليه من ... والظلم والمهانة ، حتى العصر ... حديثة (٥) .

ولم يكن الاقنان راضين بوضعهم ، وكثيرا ماتمردوا وثاروا على تسلـــط الاقطاعيين وتعسفهم . ونكتفي بايراد بعض الشواهد المشهورة على ذلك ، وعلى الامة موجزة ببعض اسبابها المباشرة . فمن العوامل التي دفعت باعداد كبيرة من الفلاحيـــن في انكلترة لاعتناق مبادئ ويكليف ، وفي بوهيميا لاعتناق مبادئ هس ، تطلعهم الى تحقيق مبادئ المساواة والاخوة الانسانية المستمدة من القواعد الاساسية المسيحية ، ورغبتهم في الانعتاق من تسلط الاقطاعيين . وهذا ماكان يزعج طبقة النبـــلاء ورجال الكنيسة ذوي الثروة والنفوذ . ومما زاد في تمرد الفلاحين كارثة الوباء الـــذي اجتاح العالم ، ودمر اوربا الغربية ، ووصل الى انكلترة سنة ١٣٤٨ ، ففتك بالسكان فتكا ذريعا ، ومات به ثلثا الطلاب في اكسفورد ، وقدر عدد من هلك به بين ربـــع ونصف سكان انكلترة . ويقدر عدد الموتى في اوربا بخمسة وعشرين مليونا . وكانت هذه النازلة العظمى . التي ... سموها « الموت الاسود » ، من اهم اسباب حروب الفلاحيـــن في القرن الرابع عشـــر . فقد حدث نقص كبير في اليد العاملة وفي السلع والمواد الغذائية وعندما رأى النبلاء والتجار الموسرون ورهبان الاديرة الغنية املاكهم تتداعى واراضيهم تبور ، اصدروا الاوامر والقواعد القاسية لاجبار الرجال على العمل ، ولمنع فرارهم بحثا عن عمل افضل ، دون اية زيادة في الاجور واي تحسين لظروف العمـــل . وسبب تصرف الاقطاعيين والملاكين هذا التصرف المتعسف هو جشعهم وطمعهـــم وجهلهم بالقوانين الاقتصادية . وقد انبعث هذا التعسف تمردا علـــى نظـــام عدم المساواة الاجتماعي باكمله والذي ظل معمولا به حتى ذلك اليوم . وكان المترجم عن غضبة الفلاحين وتمردهم على بؤسهم خطيب ، شاعر ، هو الواعظ القـــس جون بول ، الذي ظل مدة عشرين سنة يخطب بالفلاحين في كنائس كنت ، ويشرح لهم بكلمات بسيطة ملتهبة المساواة الطبيعية وحقوق الانسان . كان الاقطاعيون ورجال الكنيسة يعتبرونه مجنونا مخبولا ، كان بسطاء الناس يرون فيه لسانهم المعبر عـــن بؤسهم وطموحاتهم الانسانية . وقامت في البلاد ثورة فلاحية كبيرة ، ولكنها لم تكن منظمة تنظيم قوى الاقطاعيين والحكومة المركزية . وقد انهارت حركة الفلاحيـــن الانكليز عندما اغتيل وات تيلر زعيمهم على يد عمدة لندن بحضرة الملك ريتشـــارد الثاني سنة ١٣٨١ .

وقامت في فرنسا عام ١٣٥٨ ثورة الفلاحين التي سميت بـ « الجاكري » حيث قام الفلاحون باحراق قصور النبلاء وخربوا الحقول والمزارع المحيطة بها . وقامـــت في المانيا حروب للفلاحين في القرن الخامس عشر . وكل هذه الحركات ... جـــة

كانت مصطبغة بالصبغة الدينية ، وترفع شعارات دينية ، وتدعو الى العودة الى المسيحية الاولى ، فتلك كانت طبيعة العصر وطابعه وروحه ، واما دوافعها الحقيقية فاقتصادية واجتماعية .

١٠ . الغابات :

كان للغابات تأثير عظيم على حياة الناس في اوربا في العصور الوسطى ، ولذا لاتكمل صورة هذه العصور ، وحياة الناس فيها ، ومابذلوه من جهود في الزراعة وتربية المواشي والحياة الاقتصادية عموما ، الا بعرض ، ولو موجز ، للغابات واهميتها في تاريخ اوربا . فعندما اخذ الاوربيون يتكاثرون ، ويزدادون زيادة سريعة ومطردة ، وخاصة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، اخذوا يغزون الغابات ، ويجففون المستنقعات ، للحصول على اراض جديدة للزراعة . وكثير من اسماء الامكنة في انكلترة وفرنسا والمانيا تشير الى اصلها الغابي . ويحتاج الانسان الى خيال واسع ليتصور الاهمية التاريخية والجغرافية للغابات في العصور الوسطى . فغابات اندرايدا في انكلترة ، مثلا ، التي كان طولها ١٢٠ ميلا وعرضها ٣٠ ميلا ، اعاقت تقدم السكسون مدة تزيد عن قرن كامل . كانت الغابات تعيق التوسع ، وتفصل بين مجموعات السكان ، وتؤثر على الامطار والمناخ عموما ، وتؤوي المتوحشين واللصوص وقطاع الطرق والاقنان الآبقين ، والحيوانات البرية والمفترسة . وكانت تعيق تربية المواشي على نطاق واسع ، كما كانت تزود الناس بلحوم الطرائد والقنائص وبالحطب للوقود ، والخشب للبناء . وما الغابات في اوربا اليوم الا بقايا متقلصة عن تلك الغابات العظيمة ويبدو ان الدب الانكليزي انقرض قبل الغزو النورمندي ومازال عدد الذئاب يتضاءل حتى انقرض حوالي سنة ١٥٠٠ . ولم يقتل اخر القطط البرية حتى سنة ١٨٥٣ . وفي انكلترة ومعظم الاقطار الاوربية كان الصيد في الغابات احتكارا للملك والنبلاء وكانت العقوبات التي تنزل بمن يلقى القبض عليه وهو يصيد في الغابات المحرمة شديدة الصرامة والقسوة . ولهذا كان للملوك والامراء والنبلاء الاقطاعيين اعداد كبيرة من الموظفين يراقبون الغابات ، ويشرفون عليها . وكان للغابات محاكم خاصة تحاكم من يخالف قوانين الغابات ، وتعاقبهم بالعقوبات الشديدة .

مراجع الفصل الثالث

(١) آيلين بور ، نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ترجمة محمد توفيق حسين ص ١٥ – ٤٨ .

(٢) Thompson , European Civilization , P . 449 - 456

(٣) ج وكوبلاند القنية والاقطاع تاريخ العالم نشره هامرتن المجلد الخامس الفصل ١٠٢ ، ص ٧ .

(٤) لويس ممفورد ، المدينة على مر العصور ، اشراف ومراجعة وتقديم ، الدكتور ابراهيم نصحي . مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ، ج٢ ص ٤٦٧ – ٤٧٣

وينظر ايضا :

وول ديوارنت ، قصة الحضارة ، مجلد ٤ج ص ١١٤ – ١٤٠

ادوار بروى ، القرون الوسطى ، تاريخ الحضارات العام ، المجلد الثالث ، ص ٢٩٦ – ٣٠٣

لهم القيام باعمالهم .ومن تلك العوامل المهمة التي نشطت التجارة نشوء المدن ، والتقدم السريع الذي احرزته في الحياة الاقتصادية والسياسية .وكانت هذه المدن نتيجة للتجارة وعلة لوجودها في الوقت نفسه ازدهرت المدن ، على الاخص ، في ايطاليا والمانيا والفلاندرز ، حيث ظفرت بقسط من الاستقلال الذاتي السياسي ، ونصيب من القوة العسكرية ، مما اتاح لها ان تملي ارادتها على الملوك واسياد الاقطاع وزادت قوة المدن حين الفت اتحادات فيما بينها ، كعصبة لمبارديا وهانسا ، وغيرها .

وهناك احداث سياسية اعانت على تقدم التجارة ،اهمها : الحروب الصليبية التي لم يقتصر اثرها على تمكين مدن كثيرة من شراء براءات الحكم الذاتي من الملوك وسادة الاقطاع المحتاجين الى المال للقيام بالحملات الصليبية ، ولكنها اعادت كذلك هيمنة المسيحين الاوربين على البحر المتوسط ، ونهضت بالتجارة بين اوربا والشرق نهوضا عظيما .وظفرت باعظم مكاسب الحروب الصليبية المدن الايطالية ومن اجل هذا رحلت ... البندقية وجنوة وبيزا الصليبيين بالعون ، واستطاعت بذلك ان تقيم محطاتها التجارية في جميع الموانئ الهامة في البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود ، وان تتلقى ثروة آسيا برمتها وهي خارجة من هذه المنافذ كانت الحروب الصليبية من اهم العوامل التي دفعت بالغرب ... الاتصال بحضارتين ارقى من حضارته هما : حضارتا الاسلام وبيزنطة ، فاستيقظ وكانت نتيجة هذه اليقظة الانتعاش الاقتصادي والثقافي في القرن الثاني عشر ومابعده

ومما اعان على تقدم التجارة ادخال عدد من التحسينات على وسائل السفر البحري واهمها : تحسين بناء السفن ، وقيام البحارة الايطاليين والقطلانيين برسم الخرائط البحرية الدقيقة ، واستعمال البوصلة التي ادخلها العرب الى اوربا .ويقابل هذا تحسينات ادخلت على طرق النقل البري واحواله واهمها : العناية بتمهيد الطرق العامة ، واقامة القناطر والجسور ، ونشاط القروض التي كانت تعطي لتمويل التجارة وعمليات الائتمان .ومع ان الكنيسة ظلت تنظر الى الكسب التجاري على انه غير حلال ، وان الارض الزراعية وحدها هي المورد الطيب للرزق الحلال الذي يجب ان يعيش عليه الانسان ، ومع ان الكنيسة حرمت التعامل بالفائدة لاغراض التجارة وغيرها واعتبرتها ربا ، فقد ... الناس يتحايلون على هذا التحريم .واخذ المموِّلون المسيحيون تدريجيا يحلون محل اليهود في العمليات الكبيرة .واستطاع

الممولون ان ينقلوا اموالهم بطريق خطابات الائتمان والكمبيالات ، وان يقـ القروض .وسط البابوات حمايتهم على الممولين الايطاليين ، فكانوا يمولون الحر والتجارة واعمال البناء واسباب الترف الخاص على السواء .هذه العوامل جميـ ، وغيرها مما لايتسع المجال لذكرها ، تمخضت عن مولد تجارة دولـ نشطة في اوربا .

٣ . اهم الاقطار التجارية :

أثرت البيوت التجارية الايطالية واشتهر اصحابها بوصفهم ممولين وتجار فكانوا يصدرون غلات جميع الاقطار المطلة على البحر المتوسط..واحتكروا معظـ تجارة الشرق .واصبحت اوربا تعتمد عليهم دون غيرهم في اشبـ حاجاتها من اقمشة حريرية ، وتوابل ، وشب ، واصبـ ، وغير ذلك من ادوات الترف والكماليات التي كان التهافت عليها ينمو ويشـ كلما ازداد الثراء عند طبقة من سكان المدن ، وعند الامراء الاقطاعيين ومن يعيـ كنفهم من الفرسان والمحاربين .وكان الاسبانيون يصدرون الحديد والصوف والمصـ الجلدية .وكانت مدن جنوبي فرنسا تصدر الزيتون والنبيذ ، ومدن شمالي فرنسا تـ الاقمشة والكتان والملح والمواد الغذائية واثرى بعض مدن جنوبي المانيا ، كنوبـ من تصريف تجارة المشرق التي كانت تأتيها مجتازة جبال الالب .واثرى بعضهـ الاخر ، كمدن الراين ، من تجارة النبيذ والاشتغال بنقل السلع .واثرت مدن غيرهـ من معادنها مثل جوسلار وفريبورغ ، او من ملحها مثل سالزبورغ .وفاقـت شمال المانيا مدن الجنوب ثراء باتجارها في الغلال والبيرة والنبيذ والخشب والـ والفراء وغير ذلك من علات الاقطار الاسكندنافية وروسيا يضاف الى ذلك بعـ اصناف السمك البحري التي تأتي من بحر البلطيق ، وهو البحر الذي فرض عـ الحلف الهانسي احتكارا شاملا شمول الاحتكار الايطالي المفروض على البحر المتوسط وتعود شهرة فلاندرز وبرابانت الى صناعة النسيج الصوفي ، والـ موقعها الممتاز الذي جعل منها اعظم سوق للتبادل التجاري في اوربا .وا ماساهمت به انكلترة في التـ ارة الدولية فصوفها الممتاز الذي لا يضارعه ـ جودة ، وقصديرها ، واغذيتها ، ثم الـ ـ ا الصوفية التي اصبحت لهـ الصدارة في الاسواق العالمية بعد ان ـ على منافستها اقمشة الفلاندرز والـ

كونتيه قديمة بالبلاد الواطئة وتمتد بمحاذاة بحر الشمال ، وغربي نهر الشلدت ، اسكو ، وهي مقسمة بين فرنسا وبلجيكا ، ويتكلم سكانها اللغة الفلمنكية وهي لهجة المانية شمالية تقرب من الهولندية وكانت اهم مدنها في الفترة التي نتحدث عنها غنت وبروج وا . وكورتريا وكانت تتمتع بحريات وامتيازات واسعة (٤) .

٤ . الاتحادات التجارية :

نشأت في جميع المدن التجارية المهمة اتحادات او جمعيات من التجار .ونشأت بين المدن التجارية اتحادات ، او عصب ، تستهدف نشر التجارة ، وحماية التجار ، ومن ذلك الاتحاد الهانسي الذي كان ينتظم ستين مدينة في فلاندرز وشمالي فرنسا ، وهدفه تسهيل التجارة في اسواق شمبانيا .وحلف لندن الهانسي الذي الفه سبع عشرة مدينة فلمنكية تنظيما لتجارة الصوف القائمة بينها وبين انكلترة .وكان اعظم هذه الاتحادات العصبة الهانسية الالمانية ، التي قامت فيما بعد ، واحتكرت التجارة بين اقطار شمال اوربا واوربا الغربية .وظهرت شركات تجارية كبيرة مثل « تجار الصوف » الذين اشتهروا بتجارة الصوف .وشركة « التجار المغامرين » الذين نافسوهم وبزوهم اذ حملوا المنسوجات الصوفية الانكليزية الى اقطار شمالي اوربا

٥ . طرق التجارة في اوربا :

تركزت التجارة الاوربية في البحر المتوسط وبحر البلطيق ، اللذين يرتبطان بعدد كبير من الطرق البرية والنهرية .وكان عدد كبير من الطرق الداخلية تنقل التجارة الى اقطار اوربا المختلفة .وقد اعتمد التجار على النقل النهري لسهولة نقل البضائع الثقيلة بالماء .ويرجع سبب ازدهار كثير من المدن الكبيرة ، مثل كولون وفرنكفورت على نهر المين ، الى كونها ثغورا نهرية وكان جانب كبير من التجارة ينقل بالطرق البرية .ونشأت على طول هذه الطرق المحطات والفنادق ، وكانت جماعات التجار تنقل قوافلها على هذه الطرق يرافقهم الحراس المسلحون

٦ . الاسواق التجارية :

كان لكل مقاطعة سوق محلية تعـ ـ فيها منتجاتها .وكان ثمة اسواق كبرى

تقام في اوقات معينة من السنة في مناطق مختلفة من اوربا . وكانت هذه الاسواق الكبرى اهم وسيلة لتبادل التجارة الدولية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان اعظم مراكز الاسواق في الغرب مركزين هما : فلاندرز وشمبانيا وقد احتفظت فلاندرز بمركز الصدارة طوال العصور الوسطى لان شاطئها البحري الطويل وانهارها وطرقها البرية هيأت لها موقعا ممتازا للنقل البحري والبري على السواء . وكانت منسوجاتها الصوفية تجتذب اليها التجار من كل صقع وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت تجارة اكثر من ثلاثين قطرا من الاقطار الاسلامية والمسيحية ترد الى مدينة بروج في الفلاندرز وترجع اهمية شمبانيا . الى حد كبير . لموقعها الجغرافي . فهي تتصف الطريق بين بحر الشمال والبحر المتوسط . وتتصل بالمانيا شرقا ، وبالقناة الانكليزية غربا بطريق المارن والسوم وكانت هناك اسواق فرنسية هامة اخرى ولاسيما في المنطقة المسماة « ايل دو فرانس » الواقعة حول باريس . حيث كانت تقام سوقان ملكيتان قديمتا العهد هما « سان دنيس » و « سان جرمان دي بريه » وقد فاقت سوق ليون هذه الاسواق جميعا في القرن الخامس عشر وكان لكل قطر اوربي اسواقه الكبيرة التي تعرض فيها البضائع المحلية والمستوردة ونعرض فيما يلي صوره موجزة لسوق « سان دينيس » (٥) . لتقرب صورة النشاط التجاري الذي كان يجري في هذه الاسواق عموما كانت سوق القديس دينيس الكبيرة تبدأ بانتظام كل عام في اليوم التاسع من شهر تشرين الاول . خارج اسوار باريس . وتمتد شهرا كاملا . وقبل ابتداء السوق بايام تأخذ الحوانيت المؤقتة والمظلات بالظهور وكان لكل من هذه الحوانيت والمظلات واجهات مكشوفة يعرض فيها التجار ماعندهم من بضائع وعروض وكان رهبان دير القديس دينيس ، الذين كان لهم الحق في اخذ ضريبة من التجار الذين يفدون الى السوق لبيع سلعهم لان السوق تقع في ارض الدير ، يعنون بتسييج السوق تسييجا محكما ، ويهتمون بان يروا الناس يدخلون الى السوق من ابوابها ، ويدفعون مايجب عليهم من نقود . فقد كان التجار المحتالون يتملصون من دفع الضريبة المفروضة ، احيانا ، وذلك بان يحفروا حفرة تحت السياج او يتعدوه طفرا وتزدحم شوارع باريس بعشرات التجار وقد حملوا بضائعهم في عربات النقل او على ظهور الخيول والثيران . وتتوقف حركة التجارة المنتظمة في باريس شهرا كاملا منذ بدء افتتاح هذه السوق . فقد اتخذ [illegible] كل حانوت فيها [illegible] له حانوتا او مظلة في مكان ما داخل السوق

واخذ يبادل ماتنتجه المقاطعة من حبوب ونبيذ وعسل بالسلع النادرة المجلوبة من الاصقاع الاجنبية كان التجار يبيعون للنبلاء الاقطاعيين بضائعهم المجلوبة من بلاد الشرق النائية وكان النبلاء الفرنجة البسطاء [illegible] في سوق [illegible] الحريرية الارجوانية المحلاة بحواشي برتقالية اللون . والستر القصار المصنوعة من الجلد الموسوم . وريش الطواويس . وريش النعام القرمزي . والعطور . والآلئ والافاويه . واللوز . والزبيب . والقردة والسعادين وكان التجار يشترون . مقابل ماكانوا يبيعونه من بضائع وسلع . القماش الفريزي . والحبوب . وكلاب الصيد واحيانا كانوا يبتاعون قطعا من الحلي الذهبية الجميلة المصنوعة في محترفات الاديار او المقاطعات المجاورة وكان اولئك التجار يفدون من اقاليم قريبة وبعيدة : من [illegible] وفريزيا واسبانيا وبروفانس [illegible] ولمبارديا ومن ايرلندا وانكلترة ومن جنوة والبندقية . بل وحتى من بلاد المشرق العربية

بقيت اسواق شمبانيا الست مزدهرة من القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر . وكانت اهم مراكز التجارة الدولية في اوربا . ثم اضمحل شأنها وتهاوت في القرن الرابع عشر لاسباب عديدة من بينها الاضطراب الذي حل طرق التجارة من جراء حرب المائة العام . حيث لم يعد التجار يأمنون على نقل بضائعهم الى الاسواق الموسمية وكانت اعمال الدمار والخراب التي اقترفتها الفرق الحرة مدمرة للتجارة والزراعة على السواء كانت هذه الفرق المسلحة من قطاع الطرق تغير على قوافل التجار فتستولي عليها كلها . او تطلب عنها فدية [illegible] واما السبب الآخر لانهيار الاسواق الفرنسية فهو ان الايطاليين شرعوا لاول مرة في اوائل القرن الرابع عشر في ارسال بضائعهم الى انكلترة وبلاد الفلاندرز بطريق البحر ومما دفع الايطاليين على سلوك هذا الطريق اضطراب حالة الطرق الفرنسية من جهة ، والتحسن المطرد في اساليب الملاحة البحرية من جهة اخرى

وقد ترتب على [illegible] طرق التجارة التي [illegible] هذا الطريق الجديد ازدهار الفلاندرز . وازدياد ثروة بروج خاصة . حيث اصبحت حوالي منتصف القرن الرابع عشر مستودعا لكثير من السلع التجارية كما اصبحت السوق المالية للقارة الاوربية واقامت الجماعات التجارية مخازنها وقناصلها فيها ، وانشأت المؤسسات [illegible] فروعا لها فيها .

طوال العصور الوسطى ، تقوم على صوفها
كانت اهمية انكلترة التجارية ،
العالم يومئذ .وكانت المدن المتجة للانسـ
كان يفضل جميع انواع الصوف في
، الاراضي الواطئة ، خاصة ، تعتمد على الصوف الانكليـ
ايطاليا والفلاندرز
اعتمادا تاما .وعندما يتوقف وصول الصوف الانكليزي للفلاندرز ، لسبب من الا
فسرعان ماكانت البطالة تنتشر بين عمال الصوف والنسيج في تلك البلاد ، وعلى
هذا فقد صار الصوف سلاحا سياسيا ذا اهمية كبرى في ايدي الملوك الانكليـ
لقد شيدت عظمة انكلترة على الصوف .وكان تجار الصوف اشهر تجار الـ
الوسطى واعظمهم اعتبارا وظلت تجارة الصوف ، مدة طويلة من الزمن ، اوسـ
تجارات البلاد واعظمها ربحا .وكان ملوك انكلترة يولون هذه التجارة عنايـــ
خاصة لان معظم دخل الجمارك كان يأتي من الجلود والاصواف .وزيادة علـ
ماتقدم فقد كان ملوك انكلترة ، اذا ارادوا ان يستلفوا مبالغ من المال على
الدولة ، ولوا وجوههم شطرا تجار الصوف لانهم كانوا اغنى تجار البلاد .لهذ
الاسباب ، ولاسباب غيرها ، كانت الحكومة تخصص بعض المدن الرئيسة لتـ
مراكز للتوزيع يتحتم على تجارة الصادر ان تمر بها .وكانت الحكومة تغير مركـ
توزيع الصوف بين حين وآخر .فحينا كانت بروج هي المركز ، وحينا انتورب ، وا
كان هذا المركز يقوم في انكلترة نفسها .اولكن كالى كانت هي المركز عادة .فقـ
جعلت مركزا عام ١٣٦٣ .ثم ثبت هذا المركز بصورة نهائية عام ١٤٢٣ .وكان يتـ
ان تمر جميع الاصواف والجلود الخام والجلود المدبوغة من هذه المراكز الرئيـ
وقد اكتمل هذا النظام رسميا عندما اتحد تجار الصوف ، الذين كانوا يسيطرون
معظم تجارة الصوف والحاصلات الرئيسة الاخرى ، بصورة نهائية عام ١٣٥٤
والفوا اتحادا رسميا ، اوشركة يديرها محافظ ، وقد لاءم هذا النظام ، التاج والتـ
على السواء .فقد اصبح بمستطاع الحكومة ان تحشد موظفي الجمرك في محل
وتجمع ايراد الجمرك بسهولة عظيمة ، وخاصة بعد ان نميت بصورة تدريجية الـ
التي تقوم بموجبها شركة تجار الصوف بدفع جميع الرسوم الجمركية والضر
والاعانات المفروضة دفعة واحدة الى موظفي الحكومة ، ثم تجمعها بعد ذلك
اعضائها .واصبح بمقدور التجار ، مستفيدين من تجمع التجارة وتركزها ، ان
جماعات جماعات ، وان ينظموا حماية الاسطول الذي ينقل الصوف من
القرصان الذين كانوا يملأون البحار الضيقة الواقعة بين انكلترة وفرنسا
باستطاعتهم ، بوصفهم ... في اتحاد تجاري قوي ، ان يؤمنوا لانفسـ

البلاد الواطئة الفلاندرز .وقد انتفع مشترو الصوف ، زيادة علـــى
والامتيازات في
ماتقدم ، بهذا التنظيم الذى اتاح للحكومة ، ولشركة تجار الصوف ، ان تراقبــا
نوعية الصوف المعروض للبيع مراقبة دقيقة ، وان تفرضا سلسلة من القوانين ضـــد
الغش .ويجب علينا ان نذكر ان اعطاء حق احتكار المتاجرة بالصوف لاعضـــاء
شركة واحدة لم يكن فكرة مستهجنة عند جمهور الناس حين كانت التجارة محتاجة
الى الحماية التي لم تكن الحكومة مستعدة ، بعد ، لتقديمها .وكتب فرانيـــس
بيكون يقول : « لقد غذت الشركات التجارية الكبرى ، طوال اربعة قرون ، التجارة
الانكليزية ، ونمتها ، وجعلت هذه البلاد قائدة العالم في التجارة »
وظلت تجارة الصوف مزدهرة في انكلترا حتى اواخر العصور الوسطى .على ان
تجار الصوف اخذوا يلمسون ، طوال القرن الخامس عشر ، مزاحمة شركـة اخـرى
هي شركة التجار المغامرين » المشهورة .وذلك ان هذه الشركة انتهزت نمو صناعـــة
النسيج الوطنية ، خلال القرن السابق ، فبدأت تصـــدر الاقمشـــة بكميـــات
عظيمة .لقد تغلبت « شركة التجار المغامرين » على تجار الصوف الذيـــن كـــان
من مصلحتهم تصدير الصوف بدلا من تصنيعه قماشا في داخـــل انكلترة ، وناصبوا
اتحاد الهانسا وتغلبوا عليه في بحر البلطيق وبروسيا ، ونافسوا صناع الاقمشة بهولندا
فاخذ مورد رزقهم ينضب شيئا فشيئا .وقبـــل نهايـــة القـــرن الخامس عشـــر
كانت صناعة النسيج في الاراضي الواطئة قد اوشكت على الانهيار ، واخذ مينـــاء
بروج يضمحل شيئا فشيئا بعد ان حل الخراب بجماعة الهانسا وكانوا من اكبر مـــن
يعتمد عليهم هذا الميناء .واقامت جماعة التجار المغامرين مخازنها في انتورب ، انفرص
التي تمكنت بفضل سياسة التجارة الحرة من ان تجتذب اليها تدريجيا جميع التجار
الذين كانوا في وقت ما يتجهون الى بروج .لقد هدم نمو صناعة النسيج الانكليزيـــة ،
التي اخذت تستنفد الصوف الانكليزي . المدن الصناعية العظيمة فـــي الاراضـــي
الواطئة ، ومازالت صناعة النسيج تنمو وتزدهر وتتعاظم ارباحها حتى طردت ، فـــي
بداية القرن السادس عشر ، تجارة الصوف بوصفها التجارة الرئيسة في انكلترة (٦)

٧ . التجـــارة بين اوربا والشـــرق :

كانت كبري المهام التي اضطلع بها تجار ايطاليا في البندقية وجنوا وبيـــزا
هي قيامهم بدور الوسطاء بين اوربا وآسيا .وحتى بداية القرن الثالث عشر لم يحـــدث
... تجاري مباشر بين اوربا وآسيا .وانما كان التجا ... يبيون يتلقون الســـلـــع

الاسيوية من موانئ البحر المتوسط والبحر الاسود .وكان العرب هم الذين يقومـــون بدور الوسطاء بين اوربا وآسيا طوال العصور الوسطى .كان العرب وقتئذ تجارا كـ.. وهم تجار من اقدم العصور .ومع اطراد نفوذهم السياسي تحت راية الاســـلام تقدمت تجارتهم في البلاد التي خفقت عليها .رايتهم .وانتشر تجارهم في ارجــاء الشرق الادنى كافة حتى وصلوا الى موانئ الهند وسيلان والصين ، وشقوا طريقهم الى آسيا الوسطى ، وعبرت مراكبهم البحر الاسود ، وصعدوا في نهر الفولغا الـــى قلب روسيا حيث التقوا بالتجار الشماليين الهابطين مع النهر ، وافادوا من السواحل الشمالية والشرقية الافريقية ، وسيطروا على غربي البحر المتوسط ومافيه من جزر من مقرهم في اسبانيا ، الى ان أعاق الصليبيون نشاطهم بعض الشي .

كانـت السفـن تبـدأ رحلتهـا مـن احـد مـــوانئ الساحـــل الصيـني محملـــة بالحريـــر والخـــزف والزنجيـــل والراوند ومسك التبت ، وتمر بموانئ الهنـد الصينيـة حيث تحمـــل الابنـــوس والاخشاب الثمينة ، وتمر على جاوة اوسومطرة لتحمل الفلفل والقرنفل والتوابل ، وتبحـــر هناك الى سيلان او احد الموانئ الكبرى في الهند .وهناك تلتقي بالسفن العربية اوالهندية التي جاءت مثقلة بالبضائع الواردة من اوربا والشرق الادنى وبلاد العرب لمبادلتها ببضائع الهند والصين .كان جنوب الهند بمثابة محطة في منتصف الطريق لخطوط المواصلات الآتية من الشرق والغرب ونقفل السفن راجعة الى الصين . فـــي حين تقلع السفن الهندية والعربية ببضائع الصين والشرق الاقصى متجهة الى الغـــرب

وكانت هذه البضائع تصل اوربا قادمة من الهند بطريقين رئيسين يمر اولهمـا بالبحر العربي ، فالخليج العربي ، الى البصرة .ومن هناك كانت تحملها القوافـــل الى موانئ بلاد الشام ، كانطاكيا وطرابلس وصور وصيدا ، او الى طرابزون علـــى البحر الاسود ، حيث كانت تنتظرها مراكب البندقية وجنوا .والطريق الاخر هـــي الطريق المارة بمصر .فكانت السفن تبحر من موانئ الهند الى عدن ، وهي المحطـة النهائية للسفن الهندية ، ومنها تنقل حمولتها الى سفن اخري تصعد بها في البحـر الاحمر حتى عيذاب اوبرنيس في مصر العليا ، حيث تفرغ من سفنها لتحملهـــا القوافل مجتازة الصحراء الى النيل .ثم تنقلها المراكب الى رشيد او دمياط عند مصب ... او تنقل في القنوات والطرق البرية ... الاسكندرية وهي كبرى اسواق مصر فـــي ... الوقت ، حيث كانت البندقية وجنوا ، ... العصور الوسطى ، ترســـل ... في كل عام اسطولا يحمل تجارة الشرق ... افريقيا .

وكان هنالك طريق ثالثة اسرع واكثر ملاءمة في وقت السلم لتجارة شمـــال الصين واغلب تجارة شمال الهند ، وهي الطريق البرية الكبيرة التي كانت تخترق وسط آسيا .وكانت قوافل الصين والهند تلتقي بمدينتي سمرقند وبخارى .ومن هناك تتفرع الطرق نحو الغرب مارة ببحر قزوين ، الى العراق ، والى الموانئ السوريـــة ، او الى تبريز وطرابزون .ومن شمال بحر قزوين يتجه الطريق الى نهر الفولغا الـــى استرخان ، ويتجه طريق آخر الى بحر آزوف والقرم ، حيث تنتظر السفن الايطاليـــة لنقـــل البضائـــع .

لم يحدث اتصال مباشر بين التجار الاوربيين والشرق ، طوال العصور الوسطى فيما عدا فترة قرن (١٢٤٥ – ١٣٤٥) ، نتيجة لاستيلاء التتر والمغول على معظم اقطار آسيا ، وكانت علاقة المغول ، خلال هذه الفترة ، بالاوربيين حسنة ، ففتحوا لهم ابواب آسيا ، ورحبوا بتجارهم ، وحموهم وقد ترتب على ذلك ان فتح لاول مـــرة طريق من الطرق الرئيسية الثلاث المؤدية للشرق في وجه الاوربيين ، وهي الطريـــق البرية التي تخترق وسط آسيا .وكان هذا الحدث عند الاوربيين بمثابة اكتشاف آسيا . وفضل الاوربيون هذا الطريق على طريق مصر لان المغول لم يكونوا يفرضون رسوما باهضة على التجارة كما كان يفعل سلاطين المماليك في مصر (٧) .وسرعان ماتقـــدم الاوربيون الى اسواق فارس والهند والصين ، وفي اعقابهم جاء المبشرون ، ومعظمهم من الرهبان الفرنسيسكان ، اللذين انشأوا الاديرة هناك .وفي عام ١٢٦٦ اذن خان الكبشاق المغولي للجنويين ان لهم مستعمرة في موقع كافا في القرم .وكان للبنادقـــــة مستعمرة في سولاديا .وفي عام ١٣٤٣ دب الخلاف بين خان الكبشاق والايطاليـــين فاستولى الخان على تانا وحاصر كافا .وقد بدأ الطاعون الكبير ، الموت الاســـود ، في تانا عام ١٣٤٨ ، جاء به التجار من الشرق ، وحملوه الى ايطاليا ، فانتشر منها في سائر اقاليم اوربا .وبقيت سبل التجارة مع الشرق مفتوحة امام الاوربيين فترة قصيرة ، ثم تضافرت عوامل على غلقها مرة اخرى في وجوههم .منها : زوال حكم المغـــول في الصين على يد اسرة منج الوطنية الصينية .واعتناق حكام المغول في فارس للاسلام . وقد تيقن الاوربيون ، بعد قيام تيمورلنك والاتراك العثمانيين ، ان لاأمل في ايجـــاد اتصال مباشر مع الشرق ، سواء عن طريق فارس او عن طريق اواسط آسيا البـــري ، فاضطروا الى قصر تجارتهم على موانئ البحر المتوسط ، وبهذا استعاد طريق مصـــر ... القديمـــة ... مدينـــة قطالونيـــا ومـــدن جنوبـــي فرنـ... في النشـــاط

التجاري مع الشرق ، الا انه نشاط ضئيل بالقياس الى جنوا وبيزا وفلورنسا والبندقية .وكانت البندقية اقوى من المدن الايطالية ، واعظمها ثروة واتساع تجارة .ولم يحل القرن الرابع عشر حتى كانت البندقية ترسل ثلاثة اساطيل سنويا الى البحر الاسود والى بيروت والاسكندرية لحمل البضائع القادمة من الشرق .وكانت هذه المدن الايطالية متنافسة فيما بينها مختلفة مع بيزنطة ، وقد اضعفتهم هذه الخلافات والحروب فيما بينهم ، فلم يتمكنوا من الوقوف في وجه الاتراك .ويرجع اكبر سبب في ضعف القسطنطينية وسقوطها على يد الاتراك سنة ١٤٥٣ الى هذا الصراع المميت ، كما يعزى الى عجز البندقية عن مقاومة الاتراك مقاومة فعالة بعد ان قضت على اسطول جنوا في معركة كيوجيا (١٣٧٨- ١٣٨١) الذي كان بمقدوره ان يمد لها يد المساعدة كما كان الجنويون والفلورنسيون قد قضوا على اسطول بيزا .وكان احتكار البندقية للتجارة في شرقي البحر المتوسط من اهم العوامل التي حركت القوى الناشئة في شمال اوربا وغربها لايجاد طريق جديد للشرق ، وهذا العامل بالذات هو احد العوامل التي حركت البحارة البرتغاليين ، منذ اوائل القرن الخامس عشر ، الى ان يشقوا طريقهم على طول ساحل افريقيا الغربي .انه لمن الصعب القول اي الحافزين كان اقوى من الاخر في كشف طريق جديدة للتجارة : اهو زحف الاتراك ام احتكار البندقية لتجارة الشرق .

٨ • الصناعة :

تكلمنا في هذا الفصل عن التجارة أولا. لأن المجتمعات التجارية هي التي مهدت السبيل الى المجتمعات الصناعية ، ولأن رأس المال التجاري سبق في اوله رأس المال الصناعي .وكانت العلاقة بين نمو التجارة والصناعة علاقة متبادلة ذلك ان اتساع الاسواق زاد الانتاج ، وزيادة الانتاج انعشت التجارة ، ووسعت آفاقها ، وضاعفت ارباحها .وقد مرت الصناعة الاوربية بمرحلة طويلة من النمو والتطور ، وكانت تقف وراء هذا التطور عوامل عديدة معقدة ، يحتاج تفصيلها الى بحث مطول .

في اواخر العصور الوسطى ادخل الاوربيون ثلاث تحسينات اساسية على النقل والمواصلات وتبادل ا... ، وهي السفن الكبيرة التي تمخر المحيطات

، والطباعة ، والمصارف .وكانت الزيادة في استهلاك الطاقة الناتجة عن تحسين الافران والسيطرة على القوى المائية وقوة الريح واكتشاف قوة الانفجار للبارود قد جعلت هذه الاختراعات امرا ممكنا .وقد حرك سلسلة الحوادث هذه ظهور تقسيم جديد للعمل ، ساعد على تقدم اساليب البحث العلمي .وقبيل فجر عصر البارود ظهر انقسام في العمل بين الاساتذة القائمين بتعليم مختلف فروع العلم .ففي داخل الجامعات التي اسست في القرون الوسطى اخذ العلماء بالتخصص بعد ان لم يعد بامكانهم الاحاطة بجميع المعرفة فرديا .وقد اصبح لديهم الان مجال من الوقت للقيام بالتجارب .وللمرة الاولى في التاريخ اكتشف مصدر جديد للطاقة بالبحث العلمي الموضوعي المجرد .

٩ • قوة الماء والريح :

استخدم الاوربيون البارود ، وصنعوا السفن الكبيرة التي تمخر المحيطات ، وحسنوا الصناعات القديمة واوجدوا صناعات جديدة .وان ماجعل هذا التقدم ممكنا هو التطور التدريجي في الاساليب الحديثة لاستغلال قوة الريح والماء ، والتحسن في طرق استخراج المعادن وصهرها وطرقها . في حوالي عام ٤٠٠م كان الزهاد من البوذيين يديرون عجلات الصلاة على محاور عمودية وبعد ثلاثة قرون كان الفرس يطحنون الحبوب بطواحين هوائية مشابهة وهذه الطواحين لاتعمل الا في مناطق جرداء حيث تهب الرياح في اتجاه واحد وبغية اعمام الافادة منها قام العرب باختراع الطاحونة ذات المحور الافقي وذى الاجنحة الثابتة .ولما كان الرأس المحرك لمثل هذه الطاحونة ، والجسم باجمعه ، يمكن ان يدار نحو اي اتجاه قد تهب منه الريح ، افيد من تلك الطواحين في سواحل البحار العاصفة بقدر ماافيد منها في الصحارى .وقد نقل الصليبيون الطواحين عن العرب الى اوربا .واستخدمها الهولنديون لضخ الماء لتجفيف الارض الواقعة تحت مستوى البحر واقدم عملية مسجلة لهذه الطواحين كان في مدينة نورماندي سنة ١١٨٠ م .واما العجلة المائية الرومانية القاطسة فقد اتخذها العرب كذلك واستعملوها على اطراف قاطسة في نهر دجلة لطحن الحبوب وصنع الورق مهما كان مستوى الماء .وكانت تلك الطواحين ذوات عجلات ستة عشية كما في الطواحين العائمة التي نصبت في اوربا حوالي القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

وعند القرن الثالث عشر اخذت ال... الية تستخدم في طاعة النسيج في

اوربا وكانت عملية القد… عملية تنظيف الأقمشة الصوفية من الزيوت و…
تقلص وتشد وتتماسك خيوطها ، عملية شاقة طويلة ، اذ يقوم القصار بدوس القما…
بطرقه في حفرة منتنة خارج المدينة في مزيج من بول الغنم وتراب القصر وكا…
الخطوة الاولى نحو استعمال الالة هي بناء مطارق دواسة على نقاط ارتكاز تحرك
بالرجل .وكانت الخطوة الثانية تركيب هذه المطارق على عجلات مسننة على محور
مرتبط بالدولاب المائي ، ويزود النهر الماء والقوة وفي القرن الثالث عشر بـ…
الاوربيون باستخدام دواليب غزل شبه اوتوماتيكية تدار باليد ، ويكون اللف بطريقة
ميكانيكية ، بينما كان البرم مايزال يجرى باليد .وفي القرن السادس عشر تحولت
القوة الى دواسة الحائك التي تدار بالقدم

١٠ الحديد والتعدين .

ان جميع هذه الالات ، ومن ضمنها الالات الخاصة بالاعمال الحربية كانت تحتاج الى زيادة في انتاج الحديد ، والى تحسين طريقة صهره وسبكه ان الدواليب المائية التي تطحن الحبوب وتقصر الثياب هي نفسها التي هيأت الجواب .ففي عام ١٣٠٠ كان السباكون على نهر الراين يستخدمون القوة المائية لتحريك المنافخ الضخمة وبذلك يزيدون في درجة الحرارة في افرانهم التفاخية الى درجة تمكن بها اسالة الحديد من قعر الفرن الى القوالب . وبالوقت والمكان ذاتهما استخدمت المطارق الدواسة ، التي تعمل بقوة الماء والمبنية على مبدأ آلة القصر ، لسبك الحديد المطاوع والفولاذ .وفي خلال ذلك كانت صناعة الفولاذ نفسها قد تحسنت قبل عصر النهضة كان احسن انواع الفولاذ ، كالصلب ، هو المسمى بالدمشقي ، وهو الفولاذ الذي الحقيقي الوحيد المعروف يومئذ وسمي هذا الفولاذ بالدمشقي لان دمشق كانت مركزا لتحويله وتوزيعه فقد كان حدادو مقاطعة حيدر آباد في الهند يصنعونه ، منذ القرن السادس والخامس قبل الميلاد ، بطريقة من الصهر تعرف الان بطريقة ووتز وكان الفولاذ يصب على شكل اقراص صغيرة زنة الواحد منها حوالي كيلو غرام واحد .وكانت هذه الاقراص تصدر الى روما عن طريق البحر الاحمر ولما فتح العرب الهند حملوا هذه الاقراص الى دمشق حيث قامت على اساسها صناعة الاسلحة والدروع ، وحملوها كذلك الى الاندلس .ولم يكن العرب ، كالرومان ، بحاجة … الصناعة ، فقد زاروا المناطق … الهند ، وشاهدوا طريقة صنع الفولاذ ، وحملـ…

هذه المعرفة غربا حتى الاندلس ، حيث انتشرت منها تدريجيا الى الشمال في عدد من اقطار اوربا ولكن علماء المعادن في العصور الوسطى لم يستطيعوا انتاج الفولاذ بكميات كبيرة وكان الانتقال من اذابة كيلو غرام من الفولاذ في بوتقة صغيرة الى صهره بمقدار صناعي كبير تقدما فنيا لم يتحقق الا في العصر الحديث وعندما ظهرت سبيكة الفولاذ في العالم سنة ١٧٢٢ فتحت باب عصر جديد في الصناعة كان الانتاج اليدوي للفولاذ النابض في اثناء ذلك قد مكن ادخال التحسينات على الاسلحة القاطعة والدروع ، واختراع القوس المقاطع الذي عطل فائدة اكثر الدروع وكان الفولاذ يستعمل بكميات قليلة في صنع الابر والبوصلات التي يجب ان تكون من الفولاذ لان الحديد يفقد مغناطيسيته بسرعة وفي نحو عام ١٥٠٠ صنعت اول ساعة تدار بالنابض .وربما كان اعظم استفادة من الفولاذ الجيد هو صنع الادوات والالات ، وهي المفتاح لكل تقدم في علم المعادن وساعدت الادوات الجيدة على السيطرة على منبع آخر للطاقة لم يكن يستغل في اوربا في السابق استغلالا جيدا الا وهو قوة الحصان فقد ظهرت نعال الخيل والركابات في هذا الوقت ، وكذلك طوق الحصان الذي جعل بالامكان الافادة من قوة الحصان في الجر اكثر مما كان بالامكان في السابق بالنير والسير الجلدي ، التي وان كانت صالحة للثيران فانها تخنق الحصان لان رقاب الخيل تختلف تشريحيا عن رقاب المواشي وامكن الان استخدام الخيل للحراثة ، وهي اسرع من الثيران ، ولجر عربات المزارع ، وامكن للخيل ان تسحب المدافع وعجلات العتاد الى ميدان المعركة (٨)

وكان تحسن ادوات العمل ، وازدياد حاجة الناس ، من العوامل الهامة في تشجيع اعمال التعدين التي نهضت في اواخر العصور الوسطى نهضة فجائية عظيمة من ذلك ان حاجة التجارة الى عملة ذهبية موثوق بها ، وقدرة الناس المتزايدة على شراء الحلي الذهبية ، ادتا الى تجدد العمل في استخراج التبر بغسل طين الانهار ، ومن العروق المعدنية في ايطاليا وفرنسا وانكلترة والمجر ومن المانيا بصورة خاصة وكشفت حوالي عام ١١٧٥ عروق غنية للنحاس الاحمر ، والفضة والذهب في الارغبرك ، واصبحت المانيا اكبر مورد للمعادن الثمينة في اوربا ، وكانت مناجمها هي الا… الذي قامت عليه قوتها السياسية .وكان الحـ… النحاس والرصاص و… ير والزئبق والفضة تستخرج من مناجم اوربا … وكان فحم الخشب هو الذي يستعمل في صهر المعادن ، وكان كثير من الخشب يستخدم في افران

Scanned by CamScanner

ظلت حتى ذلك الوقت في حالتها البدائية . على ان الانكليز عادوا في القرن الثاني عشر الى استخراج الفحم الحجري الذي كان يستخدم في بلادهم ايام الرومان ثم اهمل في عهد السكسون (٩) .

١١ . صناعة النسيج :

نشأت في اوربا في العصور الوسطى ، وخاصة في عهودها الاخيرة ، عشرات الصناعات والحرف ، في البناء ، والدباغة ، والنسيج ، والنقل ، والات الحرب ، وادوات المنازل والاثاث والزينة ، وغيرها .

وكانت صناعة النسيج اكثر هذه الصناعات تطورا وتعقيدا . ونمت هذه الصناعة في ثلاثة اقطار هي الاراضي الواطئة ، والمدن الايطالية وبخاصة فلورنسا ، وانكلترة . بدأ صناع الاقمشة الانكليز ، منذ نهاية القرن الرابع عشر ، ينافسون صناع الاقمشة في بلاد الاراضي الواطئة في صناعة الاقمشة الناعمة الملمس . ولكن ما ان انتهى القرن السادس عشر حتى خرجت المصنوعاتُ الانكليزية منتصرة . وقد تطورت صناعة النسيج وتقدمت ، وصحب تطورها تغير في تنظيمها . وكان لها خصائص الصناعات الكبرى في يومنا هذا ، فقد كانت تشبهها في اتساع عملياتها ، وفي تقسيم العمل بها ، وماتتسم به من تحكم رجال المال واصحاب المشروعات تحكما مطلقا بالعمال الاجراء . ولم تكن هذه الصناعة من الصناعات التي يسهل تنظيمها على اساس تنظيم الحرف البسيطة ، لان صنع قطعة من القماش يحتاج الى عدد كبير من العمليات المستقلة . كان ندف الصوف وتمشيطه وغزله من العمليات الاولية ، ويقوم بها النساء والاطفال في اكواخهم . اما الحائكون ، والقصارون ، والصباغون ، والقصاصون الذين يقصون مايبقى عالقا في القماش من الشعر والصوف ، فكان لكل صنف منهم نقابته الخاصة ، واتحاده الخاص . وعندما اتسعت سوق القماش ظهرت الحاجة لوسيط متخصص ببيع قطع القماش التامة الصنع . وهكذا وعلى مراحل متعاقبة ، ظهرت طبقة من الناس كانوا يشترون الصوف بكميات كبيرة ثم يبيعونه للحائكين والناسجين . ثم حدث تحول طبيعي في هذه العملية ، فقد اصبح الوسطاء يشترون الصوف ، لا ليبيعوه كما هو ، وانما كانوا يسلمونه للحائك فيحيكه ، ثم للقصار فيقصره ، ثم للقصاص فيـ[…] لايزال عالقا به من الشعر والصوف ، لقاء اجور يدفعونها لهم بعد انجاز الصـ[…] . وقد صار هؤلاء الرجال اغنياء على مر

الايام ، وتكدست لديهم رؤوس الاموال ، فاصبحوا قادرين على تشغيل عدد من العمال . وسرعان ماباتوا يشغلون مختلف الصناع الذين يتعاونون لانجاز قطعة القماش . وكان وكلاؤهم يحملون الصوف الى اكواخ الغزالات لندفه وتمشيطه وغزله ، ثم ينقلون الغزل الى الصباغين والحائكين والقصاصين . وكانوا يحملون قطع القماش التامة الصنع الى الوسيط الصناعي او البزاز كما كان يدعى انذاك تاجر الاقمشة . وكثيرا ماكان البزاز نفسه هو صاحب الصوف . وقد ازدهر البزازون ازدهارا سريعا ، وتعاظمت ثرواتهم ، وازدادت اهميتهم في المجتمع ، حتى اصبحوا في بعض مناطق البلاد العمود الفقري للطبقة الوسطى . وكانوا يتخذون من القرى في الريف مجالا لنشاطهم الصناعي ، بدلا من المدن الضيقة التي كانت الصناعة والتجارة فيها خاضعة للنقابات ، وذلك رغبة في تجنب القيود التي كانت هذه النقابات تفرضها على الصناعة . وقد انتقلت صناعة النسيج برمتها تقريبا الى الريف شيئا فشيئا . وسارت صناعة النسيج في القسم الغربي من انكلترة ، على نظام الانتاج البيتي ، حتى اللحظة التي قامت فيها الثورة الصناعية بنقل صناعة النسيج من الاكواخ الى المصانع ، حيث تحول العامل المستقل الى عامل أجير (١٠) .

١٢ . تنظيم الصناعة :

كانت الصناعة منظمة على اساس الحرفة . وكان ظهور نقابات الحرف متأخرا بعض الشيء عن نقابات التجار التي قامت في اغلب المدن خلال القرن الثاني عشر ، واتخذت شكل جمعيات لتنمية اوجه النشاط التجاري في المدينة وتنظيمها . وكانت النقابات ، في اول نشأتها ، تضم اصحاب الحرف والعمال الصناعيين الى جانب التجار ، فلم تكن الفروق بين الفريقين واضحة ، فاصحاب الحرف والتجار جميعا كانوا تجارا يبيعون ويشترون . ولكن تطور الصناعة والتجارة ادى الى ظهور فروق واسعة في الثروة ، ومن ثمة بالاهمية الاجتماعية ، ووضحت الفروق بين الطبقة الوسطى الغنية التي يعتمد ثراؤها على امتلاك الاراضي وامتهان التجارة او الصناعة الضخمة ، وبين صغار اصحاب الحرف وتجار التجزئة بالمدينة . وظهرت في جميع المدن الهامة هذه التفرقة بين الخاصة والعامة اي بين علية القوم والشعب . الخاصة تؤلف طبقة ارستقراطية ملكت زمام الامور في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وكانت هذه الطبقة منظمة في نقابات التجـ[…] ذواتهم . وقد احتكرت […] الطبقة الغنية حكومات […]دن ، وابعدت العامة

عـن المشاركة في الحكم بمختلف الطـرق ولـم يحـ
دون مقاومة فقد كان الصراع شديدا بين نقابات التجار الكبار ، ونقابات
الحـرف .

اخذ عمال الصناعات المختلفة ، في معظم المدن ، ينتظمون في
منذ القرن الثالث عشر ومابعده وكانت هذه النقابات تخدم سوقا صغيرة
هي سوق المدينة نفسها وكانت الاعمال تنجز في مصانع صغيرة يتولى اصحا
السلعة وبيعها فقد كان الصناع يشترون المواد الخام بانفسهم ، ولم يكن ثمة
بينهم وبين عملائهم وكان رأس المال والعمل يتحدان في شخص صاحب
وكان في كل حرفة ثلاث طوائف من العمال : الصبيان او التلاميذ المتدربـ
والعمال الاجراء ، والصناع المهرة وكان على اعضاء الحرفة ان يمروا بهذه المرا
الثلاث وكانت مرحلة التدريب تستمر عادة حوالي سبع سنين وكان صاحب
يتكفل بطعام التلميذ المتدرب وسكنه وتعليمه في منزله ، وكان التلميذ يعامل
معاملة فرد من افراد اسرة معلمه واما العامل الاجير فهو تلميذ اكمل تدريبه و
ينتظر منه ان يعمل لدى احد اصحاب الحرف مدة سنتين او ثلاث سنين نظير
حتى يكتسب بذلك الخبرة اللازمة ، ويقتصد بعض المال الذي يعينه على
عمله مستقلا وبعد ذلك كان يسمح له بالالتحاق بالخدمة بوصفه صانعا ماهرا
ان يؤدي رسما معينا ، ويقدم نموذجا دقيقا من صنعه برهانا على كفايته ومن ثم
يحق له ان ينشئ له مصنعا مستقلا ، ويلحق به تلاميذ وعمالا ، وان ينتخب لـ
الحرفة كافة، يتبين من هذا ان كل حرفة كانت شبه مغلقة ، لاتنال عضويتهـ
بالجهد وكد السنين ، وكانت عادة وقفا على ابناء اصحاب الحرف واقربائهـ
وكان الهدف الاعلى لنقابات الحرفيين حماية مصالح المنتج والمستهلك معا كـ
تحمي المستهلك بمحاولتها الوصول الى مستوى عال في الصناعه ، عن طريـ
نظام التلمذة الذي يكفل تخريج صناع ماهرين وعن طريق التشريعات لمنع الـ
وتوحيد مستوى السلع المصنوعه ، وشروط البيـع ، واستعمال موازين ومكاييل
معتمدة وكانـت النقابات تحمي المنتج عن طريق احتكـار سـوق البلـ
لاعضاء الحرفة ، ومنع الغرباء من العمل ، فقد كان اساس صناعة العصور الو
الاحتكار وكانت النقابا ...م الاسعار ، وترعى اعضاءها من الوجهتين
والدينية .

ظهر اختلاف في التنظيم بين الحرف منذ القرن الثاني عشر كان هناك نـوع بسيط من النقابات وهي الخاصة بحرفة معينة ، كانت ديموقراطية يسهل فيها الانتقال من مرحلة الى مرحلة وكان هنالك نقابات معقدة وهي نقابات مؤلفة في هيئة اتحـاد ، تحتفظ كل نقابة بشخصيتها وموظفيها وقوانينها ولكن استقلالها محدود بانتمائهـا الى هيئة اكبر وقد ادى اتساع السوق ، واطراد اهمية رأس المال ، الى التباين فـي الثروة بين اصحاب الحرف ، وبين صاحب الحرفة والعامل الاجير واستمر ابعـاد صغار اصحاب الحرف شيئا فشيئا ، عن ممارسة حرفهم بفعل منافسة اغنياء الحرفيين ، حتى اضطر معظمهم الى العمل لحساب اصحاب الحرف الكبار نظير اجر معين . وفي هذه المرحلة بدأ يتشكل النظام الرأسمالي بمعناه الاقتصادي الحديث فقـد تحول اصحاب الحرف المستقلون ، شيئا فشيئا ، من صناع احرار يجمعون بين راس المال والعمل ، الى طبقة يملكون قوة العمل ، ولايملكون رأس المال وادوات الانتاج ، ويستخدمهم اصحاب المصانع والمؤسسات الاقتصادية الاخرى لقاء اجر معيـن . وقد عرفت هذه الفترة المتأخرة من العصور الوسطى التي بدأ يتشكل فيها النظـام الرأسمالي الحديث الصراع بين اصحاب الاعمال والعمال الأجورين حـول الاجور ، وساعات العمل ، والعطلات ، وغير ذلك من مشكلات وشرع العمـال ينظمون انفسهم في جمعيات اخوية مشابهة لنقابات العمال الحديثة من حيث كونهـا جماعات من الاجراء تعنى في المقام الاول برفع اجور اعضائها ، وتحسين احوالهـم واستخدم العمال الاضراب عن العمل لنيل حقوقهم وكان يحدث احيانا ان ينسحب العمال برمتهم من المدينة كما فعل عمال صناعة الفراء في كولونيا عام ١٤٢٣ يصحبهم قرع الطبول والنفخ في الابواق (١١).

(١) ايلين بور ، طوائف ارباب الحرف والتجارة في العصور الوسطى ، وهو الفصل الثالث عشر بعد المائة من المجلد الخامس ، من تاريخ العالم ، نشر هارتز ص ٢٨٩ - ٣١٣ .

(٢) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، اوربا في العصور الوسطى ، ج ص ٣٠٠ - ٨

(٣) ارنت ، قصة الحضارة ، ج ٤ ، مجلد ٤ ، ص ٧٩ - ٩٣ .

(٤) العربية الميسرة ، مادة فلاندرز .

(٥) ايلين بور ، نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ترجمة محمد توفيق حسين ، ص ٤٥ - ٤٨

(٦) ايلين بور ، نماذج بشرية ، ص ١٧٨ - ١٨٢ .

(٧) الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي ، تاريخ تجارة مصر في العصر المماليكي منشورات جامعة الموصل ١٩٧٥ ، ص ١١٦-١٢١ ، ١٣١-١٣٢

(٨) كارلتون كون ، قصة الانسان ، ترجمة محمد توفيق حسين وعبد المطلب الامين ، المكتبة الاهلية ، بغداد ١٩٦٥ ، ص ٤٠ - ٤٠٨ .

(٩) ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج ٤ ، مجلد ٤ ، ص ٨٥ - ٩٣

(١٠) ايلين بور ، نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ٢٢٨ - ٢٣١

(١١) ايلين بور ، طوائف ارباب الحرف في العصور الوسطى ، تاريخ العالم ، مجلد ٥ ص ٣١٣ - ٣٢٢

وينظر ايضـــا :

تاريخ الحضارات العام ، المجلد الثالث ، ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ، ٣٩٠-٤٠٨ ، ٥٠٨ - ٥٢٨ .

الفصل الخامس

المـــدن وتطورهـــا

١ . نشوء المدن ٢ . تأسيس المدن الجديدة ٣ . تنظيم المدينة ٤ . توسع المدينـة ٥ . اليـوت والشـوارع ٦ . النقابات وصعـود البرجوازيـة

١ . نشـوء المـدن :

بدأ نظام القنانة ، الذي كان عاما في اوربا ، ينحل ببطئ شيئا فشيئا في القرن الحادي عشر ، وازدادت سرعة هذا التغير في البنية الاجتماعية في القرن الثانـي عشر .وقد ذكرنا بعض اسباب ذلك وعوامله في الفصل الثالث .

وكان ظهور المدن ، وهو احد الاسباب والنتائج لهذا التغير ، من اهم الاحداث في العصور الوسطى الاوربية .وقد قيل : ان تاريخ ظهور المدن وتطورها ونموها هـو «سيرة حياة عامة الشعب» كانت حركة المدينة ثورة اجتماعية واقتصادية ، وفـي النهاية ثورة سياسية فقد نشأت الطبقة البرجوازية من طبقات الاقنان ، ونمـت التجارة والصناعة نموا سريعا بحيث لم يبق الاقتصاد الاوربي اقتصادا زراعيا بحتـا تقريبا ، كما كان في النظام الاقطاعي القائم على القنانة .وهجر الريف ابناء الطبقـة البورجوازية الناشئة حديثا الذين كان آباؤهم فلاحين زراعيين يعيشون في ضيـاع النبلاء الريفية ، واخذوا يسكنون في المدن ، ويعيشون على ارباح التجارة والصناعة .

كانت هذه المدن ظاهرة خالصة من ظواهر العصور الوسطى .وعلى هذا يجب ان نتتبع نشوءها وتطورها في هذه العصور الوسطى نفسها لا فيما سبقها مـن عصـور التاريخ .لقد انقرضت المدن الرومانية القديمة ، باستثناء بعض المدن الايطالية الرئيسة وعدد من المدن في اوربا ، ، في القرنين الخامس والسادس .نعم كانت مواقع بعض هذه المدن القديمة مازال يسكنها مجموعات من الناس اشد كثافة من مجموعـات السكان في القرى والضياع الريفية .ولكن سكان هذه المدن القديمة كانوا اقنانـا تابعين للحكام المحليين من اساقفة ونبلاء ، ولم يكونوا مواطنين احرارا .بل وحتى في «العصور المظلمة» كان ثمة مدن ، او مايشبه المدن ، حيث كانت السلع التي يصنعها الاقنان تباع في الاسواق ، وكانت تلك المنتوجات الصناعية ملكا للنبيل الاقطاعـي المحلي .وكانـت تلـك المـدن صغيـرة جـدا ، فمـا كـان عـدد السكـان في اكبـر واحـدة منها ليزيد عـن بضعة الاف من الانفس ، ومن اكبرها يومذاك كولـون وميـلانو وباريس ولنـدن .وبناء علـى ماتقـدم يجب علينا الا نقيس اهمية الثورة الجديدة في ظهور المدن بمقدار زيادة سكان المـدن القديمة ، وانما يجب ان نقيس مدى هذه الثورة بمقدار زيادة عدد المدن الجديـدة كـ... ـأت هذه المدن الجديدة ؟ للاجابة عن هذا ... يجدر بنا ان نعـود الى القر... ...

وعنفا ، حيث زالت من اوربا الحكومة المركزية القوية ، واخذ الناس يبنون القلاع والحصون في الشمال للدفاع عن البلاد ضد هجمات الشماليين والهنغاريين ، وفي الجنوب لحماية البلاد من غزوات المسلمين . وبدأوا يرممون اسوار المدن الرومانية القديمة المتداعية الخربة . واحاط الرهبان اديارهم بحوائط واسوار عالية منيعة لحمايتها من الغارات . وبطبيعة الحال فان الضمانة الكبيرة للحياة والاموال في هذه الاماكن المحصنة لم تجلب فقط اهتمام الاهالي المجاورين ، وانما استهوت كذلك التجار المتنقلين ، والبائعين بالمقايضة . وفي الوقت نفسه ظهر بين سكان هذه المدن الجديدة حرفيون وصناع وبقالون وتجار محليون . وكان لكل مدينة سوق خاصة بها تقام اسبوعيا او شهريا . هذه الطبقة الجديدة التي تكونت من الاقنان ، والتي تعتمد على الصناعة والتجارة بدلا من الزراعة كانت تتألف من ال « بركر » اوال « بورجوا » وهاتان الكلمتان مشتقتان من الكلمة الالمانية القديمة « برك » وتعني الحصن (١)

كان الامن والاستقرار والاطمئنان على سلامة الارواح والاموال التي توفرها المدينة باسوارها وتحصيناتها وحمايتها هي من اهم العوامل التي اجتذبت الناس في بادئ قيام هذه المدن . ولم تكن الاسوار توفر الحماية من الغزو الخارجي فقط ، وانما كانت تحمي الحريات المكتسبة في الداخل . وبفضل السور كان يتسنى لمدينة صغيرة ان تغدو معقلا بعد ان كانت عديمة الحيلة حتى امام قوة مسلحة صغيرة . وكان الحق في اقامة سوق منتظم يجمع الفلاحين والصيادين وارباب الحرف لتبادل مالديهم من سلع ومنتجات يعتمد على توفير الامان والحماية القانونية . وقد وفرت المدينة هذه الحماية الامنية والقانونية للسوق . وكان المشاركون في السوق يتمتعون خلال ساعات البيع والشراء بحماية «سلام السوق» ، وكان يرمز له عندئذ بالصليب الخاص بساحة السوق . وهكذا حصل التجار على الحماية من السرقة ومن دفع اتاوات تعسفية ، فاخذوا يستقرون بصفة مستديمة خارج الاسوار مباشرة في بادئ الامر ، وشيئا فشيئا اصبحوا في عداد سكان المدينة ومواطنيها (٢) .

كان النبيل الاقطاعي يسد حاجات معيشته الضرورية من منتوجات ضياعه ولم يكن بحاجة لاستيراد اي شيء من الخارج باستثناء الملح والحديد وحجر الطحن ولكنه لم يكن قانعا بما عنده ، ولا راضيا عن معيشته . فقد كان هو وافراد اسرته يرغبون في اقتناء الاقمشة الحريرية ، والتوابل ، والطيوب ، والعطور ، والحلي

والمجوهرات . وكانت هذه السلع من وسائل الترف التي كانت تستورد من الشرق وكان التجار المتنقلون ، ومعظمهم من العرب واليهود الشرقيين واليونانيين ، يزودون النبلاء بهذه الكماليات . وعلى هذا كان النبلاء على علاقات حسنة بهؤلاء التجار ، وكان موقفهم منهم وديا . وفي الوقت نفسه تحت سوار النبلاء المالية بما كانوا يفرضونه على التجار من ضرائب لقاء ما كانوا يقدمونه لهم من حماية ، وبما كانوا يأخذونه منهم من ايجارات عن الدكاكين والمخازن والمظلات تحت اسوار الحصن او في احد اجنحته . والآداب الشعبية ، وخاصة ملاحم الابطال ، مليئة باخبار هؤلاء التجار المتنقلين ، وبوصف ما كانوا يحملون من بضائع وتحف . وتصف هذه القصص الشعبية ما كان يثيره قدوم التاجر الى الحصن من حركة وابتهاج .

ان نشوء مدن العصور الوسطى يسبق قيام الحروب الصليبية . على ان الحملات الصليبية ، وما نتج عنها من انقلاب عظيم في الحياة الاوربية ، زادت من سرعة حركة المدن وذلك انها عملت على اقتلاع جماهير غفيرة من جذورهم في الريف ، بالاضافة الى انها نشطت حركة التجارة الداخلية والخارجية . لقد هرب الالاف من الاقنان من الريف والتجأوا الى المجتمعات الجديدة في المدن ، حيث اخذوا يشتغلون ويعيشون مما يحصلون عليه لقاء عملهم . وعلى هذا فقد لمس ملاك الاراضي الاقطاعيون في كل اقاليم اوربا الحاجة الى التخفيف من اعباء الاقنان ، وتحسين احوالهم ، حتى يحببوا لهم البقاء في قراهم ، ويحدوا من نزوحهم الى المدن . واما الاذكياء والمستنيرون من الاقطاعيين فقد حرروا اقنانهم ، ولم يكن ذلك بدوافع انسانية ، وانما لانهم وجدوا ذلك اربح لهم ، واجدى عائدة عليهم . فالفلاح الحر اقل كلفة من الفلاح القن . وكان ارخص للاقطاعي ان يدفع اجورا يومية للعمال الزراعيين الاحرار في المواسم التي يكون فيها العمل ضروريا في الحقل كفصلي الربيع والصيف ، من ان يتحمل الانفاق على الاقنان طوال فصل الشتاء حيث لا تحتاج الزراعة الا الى القليل من العمل ، مهما كان الانفاق على اولئك الاقنان ضئيلا مقترا . كان الاقطاعي يقوم باعاشة الفلاح القن الذي يعمل في حقله الخاص ، ولكنه لم يكن ملزما باعاشة العامل الزراعي الحر . وانما كان هذا العامل الزراعي الحر يعيش مما يحصل عليه من اجر يومي . كان هذا موقف بعض الاقطاعيين الاذكياء المستنيرين ، واما معظم النبلاء الاقطاعيين فكانوا كارهين لهذه الثورة الاجتماعية ، معادين لهذه التحولات التي طرأت على المجتمع ، والتي لم يفهموها وظلوا متمسكين بتقاليد الماضي ، ... بالممارسات القديمة ، حتى بعد ان اخذوا

يفتقرون تدريجيا ، نتيجة لتمسكهم العنيد بهذه العادات التي تجاوزها المجتمع وهذه الممارسات البالية التي لم تعد تلائم الحياة الاقتصادية الجديدة . كان رجال الكنيسة ، بصورة خاصة ، اشد الناس عنادا في مواجهة التغيرات الجديدة ، لانهم كانوا من اكبر الاقطاعيين .وبهذا ساءت احوالهم المالية ، فاضطروا الى رهن اراضيهم ، والى الاستدانة ، فوقعوا في مخالب المرابين . ولاسباب سياسية واجتماعية ودينية كان معظم اولئك المرابين من اليهود . وهنا يكمن السبب الحقيقي لكراهية الاوربيين لليهود وحقدهم عليهم . وقد بلغ الحقد على المرابين ومقرضي الاموال بالربا اعلى درجاته في القرن الثالث عشر ، فالدافع الحقيقي لهذا الحقد على اليهود كان دافعا اقتصاديا ، وان اتخذ طابعا دينيا وعنصريا وقد وجد الاقطاعيون من النبلاء ورجال الكنيسة ، ان ارخص الوسائل لدفع ماعليهم من ديون مستحقة للمرابين هي ان ينفوا هؤلاء الدائنين ، ويطردوهم ، ويستولوا على اموالهم ، ويتلفوا ماعندهم من سندات الديون والرهون .

٠٢ تأسيس المدن الجـديدة :

وبمرور الزمن سلم الامراء والنبلاء الاكثر استنارة بالامر الواقع ، واخذوا ينشئون هم مدنا جديدة في مناطقهم سميت «المدن الجديدة» وشجعوا الناس على السكنى فيها بمنحهم امتيازات وحقوقا تجارية ومدنية وسياسية . وعندما وجد الامراء والنبلاء الاخرون ان عملية انشاء المدن الجديدة مربحة ، تدر عليهم الاموال الوفيرة ، اقدموا على المساهمة في هذه الحركة ، فانتشر بناء المدن بسرعة ، حتى عم معظم مناطق اوربا الغربية .

. كانت الثورة التي احدثها نشوء المدن ذات طبيعة ثلاثية : فقد كانت في البدء ثورة اقتصادية ، ثورة تجارية وصناعية . ثم كانت ثورة اجتماعية . واخيرا اصبحت ثورة سياسية . ولا تعني الثورة هنا الثورة المسلحة ، وانما القصد منها الانقلاب الاجتماعي ، والتغيرات الاقتصادية النوعية . والمقصود بالثورة السياسية تصميم سكان المدن على تحطيم اخر القيود التي تخضعهم لسيادة الاقطاعيين ، سواء كانوا نبلاء ام اساقفة ام رؤساء اديرة ، وتصميمهم على حكم انفسهم بانفسهم وقد خاضوا في سبيل تحقيق هذا الهدف معارك دامية مريرة .واوضح مثال على ذلك الصراع الطويل الذي خاضته المدن اللمباردية في القرن الثاني عشر ضد الامبراطور فردريك بارباروسا ومن كان معه من الاساقفة وكبار النبلاء الاقطاعيين .ولم يقتصر هذا

الصراع على ايطاليا الشمالية وحدها ، وانما شمل معظم اوربا الغربية . وقد تحقق نجاح حركة المدن في معظم انحاء اوربا في نهاية القرن الثاني عشر ، وان لم يكن هذا النجاح بدرجة واحدة في جميع الحالات وفي جميع المناطق . فقد بلغ نجاح الحركة اعلى درجاته في لمبارديا والمانيا ، واقل من ذلك في الفلاندرز . واما في فرنسا فكان نجاح الحركة ضئيلا حيث بقيت المدن خاضعة للسلطة الملكية الصارمة

٣ ٠ تنظيـم المدينـة :

كان دستور المدينة « تشارتر » أي الرخصة او البراءة أو العهد الذي حصلت عليه من صاحب الاقليم الذى تقع فيه ، هو العلامة الظاهرة لاستقلالها ، وكان في الوقت نفسه اساس حكومتها واداتها .وكانت بعض هذه الدساتير او العهود بالغة الجودة مما دفع مدنا اخرى الى احتذائها وتقليدها ، بحيث نشأت مجموعة من المدن ذات شكل واحد من اشكال الحكومة.فبصورة عامة كانت حكومات المدن متشابهة من حيث الاسس من جميع الوجوه مع وجود اختلاف في التفاصيل بسبب اختلاف الظروف المحلية .فقد كان لكل مدينة حرة بناية البلدية ، ورئيس البلدية او محافظ او عمدة ، ومجلس بلدية مكون من شيوخ المدينة وكبار السن فيها ومحكمة ، وشرطة .وكانت كل مدينة تقرر الضرائب ، وتجمعها من السكان ، دون الرجوع الى سلطة سياسية اعلى منها

٤ ٠ توسع المدينـة :

كان سور المدينة اهم شيء فيها ، فعلى متانة السور وقوة تحصيناته تتوقف حرية السكان ، فالسور هو حاميهم وضامن امنهم وحريتهم .وعندما ازداد عدد السكان في المدينة اصبحت الارض داخل حدود السور غير قادرة على استيعابهم جميعا .ولهذا استقر الفائضون من الناس ، والقادمون الجدد ، خارج السور ، وانشأوا محلة خارجية او ضاحية ، وهي عبارة عن مجموعة من البيوت مسورة بسياج من الاعمدة والاوتاد . وبعد مدة من الزمن هدم سور المدينة الاصلي وانشئ سور جديد يضم هذه المحلات الخارجية .وقد حدث هذا على الاقل ثلاث مرات في تاريخ المدن الكبرى .وقد حولت الارض التي كان يقوم عليها السور القديم الى شارع .وتظهر هذه المراحل من نمو المدينة وتوسعها في خرائط باريس وفينا وميونخ وكثير غيرها من المدن الكبرى حيث الشوارع فيها مازالت متراكزة .

٥ . البيـــوت والشـــوارع :

واتخذت المدن الغنية تتنافس وتتبارى في تشييد الابنية الفخمة للبلديات ، مما كان يثير غضب رجال الكنيسة المحليين الذين كانوا يريدون ان تظل كنيستهم هي افخم واكبر بناء في المدينة .وكانت معظم ابنية المدينة مشيدة بالخشب ، ولهـذا كانت معرضة للحرائق المدمرة ، مما حمل السكان على تشييد البنايات العامة المهـ بالصخر والرخام والآجر .وكان الجزء الاسفل من دور السكنى يبنى بالحجارة ، و الاجزاء العليا فكانت تبنى بالخشب والجص .وكانت البيوت مرتفعة ، بالقياس الى تلك الازمان ، نظرا لصغر مساحة الارض داخل الاسوار .ولكي تتسع البيوت لا عدد من السكان كانوا يمدون غرف الطبقات العليا على الحيطان المشرفة على الش ، بحيث كان الشارع يبدو مسقوفا .واوضح مثال على هذا الطراز من البناء مدينة بر في سويسرا وهي من اقدم مدن العصور الوسطى .

وكانت الشوارع ، على العموم ، ضيقة ، متعرجة ، وكانت غير مرصوفـ ولامبلطة ، باستثناء مداخل الكنيسة الرئيسة والبلدية وساحة السوق .وكانت تلـ الشوارع الضيقة المتعرجة مغبرة في الصيف ، مليئة بالوحل المنتن في الشتاء .وزيـا على ذلك كان الاهالي يرمون الازبال والنفايات والقاذورات والمياه القذرة فـ الشوارع حيث تبقى مكدسة لعدم وجود الزبالين ، ولا يخفف منها الا الخنازيـ والكلاب السائبة التي تقتات عليها .وكان كل ساكن من سكان المدينة تقريبـ يحتفظ بماشيته في منزله ، كما ان قطيع الخنازير الذي يسوقه في كـل صبـ راعي المدينة الى المرعى كان جزءا من حياة المدينة (٣) .ولم يستطع الاهالي ، في تـ الازمان ، ان يحلوا مشكلة مياه الشرب ، وتصريف المياه القذرة ، وانارة الشـوا في الليل ولم يتوفر لهم حلها الا في العصور الحديثة .

٦ . النقابات وصعــود البورجوازية :

ولما كانت المدن في العصور الوسطى قد قامت على اساس التجارة والصناعـ وتطورت بتطورهما ، اخذ يظهر شيئا فشيئا قانون جديد هو القانون التجاري ، لتنظيـ الحياة الاقتصادية لان القانون الاقطاعي لم يعد صالحا لظروف الحياة الجديـ وكان تأسيس نقابات التجار والحرفيين هو الاسلوب الذي ابتكرته العصور الوسطى لتنظيم الاعمال التجارية والحرفية .وكانت اغنى النقابات واعظمها سلطة ونفـ

هي نقابات تجار الحرير ، وتجار الصوف ، وتجار المجوهرات ، وصاغة الذهب والفضة ، وصناع الاسلحة ، وصناع الادوية ، والخبازين ، والجزارين ، وغيرهم من تجار وصناع الاطعمة .وتأتي بعد هذه النقابات في الدرجة والاهمية نقابات الندافين ، والمنجدين ، وصباغي الاقمشة ، وتجار الجلود والفراء ، والشماعين ، والدباغين ، والحدادين ، والنجارين .

كانت هذه النقابات ذوات فائدة عظيمة في المحافظة على جودة السلع والمنتوجات الصناعية ، كما كانت تضمن اعضاءها ، وتحميهم ، وتؤلف بينهم ، وترص صفوفهم ولكنها كانت مضرة من نواح اخرى .فلكي تمنع الاحتكار ميزت التجارة عن الصناعة تمييزا شديدا .ولكي تمنع المنافسة وضعت حدودا عليا لرأس مال عضو النقابة ، ولعدد الصناع والعمال الذين يستخدمهم ، ولكمية السلع التي ينتجها وقامت النقابات بتحديد اسعار البضائع التجارية والمنتوجات الصناعية .واخيرا قام الاغنياء في كل نقابة بابعاد جميع من عداهم من النقابة ، وحولوا النقابة الى اتحاد ضيق مغلق ، اي مايشبه الشركة المحدودة .وهكذا اصبحت النقابات ، على مرور الزمن ، شركات رأسمالية ، واقيمت حدود واضحة صارمة بين الاغنياء والفقراء ، بين طبقة اصحاب العمل وطبقة العمال المأجورين .وفي القرن الرابع عشر ظهر النزاع بين الرأسماليين والعمال بشكل واضح ، بكل مايحمله هذا الصراع من اسباب ونتائج ومشكلات : اضراب العمال عن العمل ، وغلق اصحاب العمل مصانعهم وحرفاتهم ومن اجور قليلة ، وساعات عمل طويلة وتشغيل للنساء والاطفال ، وظروف عمل غير صحية وازمــات وبطالـــة .

واحدثت النقابات الكبرى تغييرا سياسيا في المدن .فقد كان يسمح فقـط لاعضاء هذه النقابات بالتصويت ، وبشغل الوظائف العامة في المدينة .واما جمهور الشعب فكان مبعدا عن المساهمة في اي عمل او نشاط سياسي .ان مدينة العصـور الوسطى لم تكن ديموقراطية وقد تشكلت من البورجوازيين في المدن طبقة قائمة بذاتها كانت دون طبقة النبلاء في الدرجة ، وفوق طبقة عامة الشعب في المدينـة والريف على السواء وقد وسع هؤلاء البورجوازيون الاغنياء نطاق نشاطهم التجـاري والصناعي ، فاضافوا اليه النشاط العقاري .فكانوا يملكون معظم الاراضي فـي المدينة ، وانشأوا عليها الدور والحوانيت ، واخذوا يؤجرونها لقاء بدلات ايجـار مرتفعة جدا .واما جمهور الشعب من العمال فكانوا يسكنون ، في الاعم الاغلب ، في الضواحي .ولما كان البورجوازيون الاغنياء يسيطرون على حكومة المدينـة فقـد

عفوا انفسهم من الضرائب بقدر مايستطيعون ، وفرضوا الضرائب على السكان الاخرين الذين لم يكن لهم صوت في ادارة شؤون المدينة . ولهذا السبب كانت الضرائب المفروضة على الاطعمة والمواد الغذائية كثيرة ومتنوعة . وكان رسم الـ ، وهو ضريبة تجبيها البلدية عن السلع والبضائع والمواد المجلوبة للمدينة ، اكثر الضرائب شيوعا في المدينة . فالفقراء لايستطيعون الاستغناء عن الطعام ، وكانوا يشترون مايسد رمقهم مهما غلت الاسعار . وعلى هذا كانت الضرائب على المواد الغذائية هي اكثر الضرائب ثباتا ، واكثرها دخلا لبلدية المدينة التي كان يسيطر على حكومتها اغنياء البورجوازيين .

وسرعان ماقدر الملوك اهمية هذه الطبقة البورجوازية الغنية النافذة . وادركوا ان بامكانهم ان يستخدموها سلاحا فعالا في صراعهم ، الخفي والمكشوف ، مع طبقة النبلاء الاقطاعيين . واخذ كثير من ابناء البورجوازيين يدرسون القانون اذ بدلا من أن يتبعوا حرف ابائهم ، وهكذا كونوا طبقة محترفة جديدة ، لم يتوان الملوك عن استخدامهم في وظائف الدولة . وبينما كان ضباط الجيش من النبلاء ، بدأ يشغل وظائف الدولة شيئا فشيئا ، رجال ينحدرون من اصول بورجوازية . واصبح اعظمهم مقدرة ، واحسنهم حظوظا ، قانونيين ومشرعين ومستشارين ووزراء للملك وتبدو هذه الظاهرة بوضوح في عهد ملك فرنسا فيليب الرابع ، سنة ١٣٠٠ م . رفع النابهون من ابناء البورجوازية العليا الى طبقة النبلاء ، او بالاحرى رفعوا الى صنف حديد من طبقة النبلاء . وتعرف طبقة النبلاء الجديدة هذه بطبقة نبلاء الـ ، وكانت تتألف من كبار الموظفين الاداريين ، وتختلف عن الارستقراطية الاقطاعية العسكرية . وسرعان مااخذت تنثال على هؤلاء الموظفين الاراضي ، والرتب والاموال وكانوا يسكنون في المدن ، وان كان لبعضهم بيوت ريفية وقد ظهر ذلك ، اول ماظهر ، في فرنسا وايطاليا في القرن الرابع عشر . ولكنهم ، بصورة عامة ظلوا يبتعدون عن الريف ، وعن المشاركة في الحرب . وكان قسم من هؤلاء النبلاء الجدد محبين للمعرفة ، مشغوفين بالاداب والفنون ، حتى قبل عهد النهضة الاوربية ، فرعوا الرسامين والنحاتين ، وجمعوا المخطوطات ، وشجعوا الموسيقى

ونختم هذا الفصل عن مدينة العصور الوسطى بهذه الفقرة الموجزة . التي تلخص خصائص النظام الرأسمالي الناشئ في كنف هذه المدينة ، التي كـ

البنت الراسمالية في اول عهدها انها عامل هدام اكثر منها قوة بناءة في حياة مدينة العصور الوسطى . لان الرأسمالية عجلت بالانتقال من النظام الاقتصادي المغلق القديم ، وكان يقوم على اساس الوظيفة والمكانة ويستهدف الطمأنينة ويتسم بطابع خلقي مستمد الى حد ما من قواعد الدين والمراعاة الدقيقة للروابط والواجبات العائلية ، الى نظام تجاري جديد يقوم على الاقدام الفردي الذي تحفزه الرغبة في كسب المال . والتاريخ الاقتصادي لمدنية العصور الوسطى انما هو ، الى حد كبير ، عبارة عن قصة انتقال القوة من جماعة المنتجين المشمولين بالحماية الذين كانوا يكسبون مايقوم باود معيشة متواضعة ويحققون حالة من المساواة النسبية الى جماعة صغيرة من تجار الجملة الذين كانوا يتمتعون بوضع ممتاز . ويتألفون من اصدقاء الامراء ومنافسيهم ويتعاملون على نطاق واسع ، وكثيرا ماكان ذلك عبر مسافات طويلة سعيا وراء الارباح الطائلة . ولقد اقترن بهذا الانتقال انشاء تنظيم جديد للطبقات كانت المرتبة والمكانة فيه تتوقفان اساسا على المال ، وعلى القوة التي يستطيع المال الهيمنة عليها (٤)

مراجع الفصل الخامس

(١) ...apron , European CiviliZation ,
...55 - 460

(٢) لويس ممفورد ، المدينة على مر العصور ، ج٢ ص ٤٥٥ – ٤٥٧

(٣) هـ . ج . ولز ، معالم تاريخ الانسانية : ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الـ...
الثالث ، الطبعة الثالثة ١٩٧٢ : ص ١٠١٣

(٤) لويس ممفورد ، المرجع السابق ذكره : ج٢ ص ٤٦٦

وينظر ايضـــا :

تاريخ الحضارات العام ، المجلد الثالث : ص ٣٠٥ – ٣٠٩ ، ٤٢٥–...

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا العصور الوسطى ، ج٢ ص ٢٠٠–...

الدكتور نور الدين حاطوم ، تاريخ العصر الوسيط في اوربا ، ج١ ص ...

الفصل السادس
الحيـــاة الفكـــرية

١ ٠ ركود الحياة الفكرية في اوائل العصور الوسطى .
٢ ٠ النهضة الكارولنجية ٣ ٠ مدارس الكنائس ٤ ٠ النهضة الثقافية في فرنســـا
٥ ٠ مدرسة باريس ٦ ٠ الفلسفة واللاهوت ٧ ٠ الاسـبـــــوب والرائبـــــرد
٨ ٠ الفلسفة المدرسية ٩ ٠ الطب والقانون ١٠ ٠ ظهور الجامعـــات ونموهـــا
١١ ٠ تنظيم الجامعة وادارتها ١٢ ٠ المناهج ١٣ ٠ اثر العـــرب على النهضـــة
العلمية باوربا ١٤ ٠ روجر بيكون ١٥ ٠ الطب ١٦ ٠ الادب ١٧ ٠ اللغـــة
١٨ ٠ الشعر ١٩ ٠ القصص النثرية ٢٠ ٠ تأثير الفرنسيين على الانكليز ٢١ ٠ المسرح
٢٢ ٠ تقويم نهضة القرن الثاني عشر ٢٣ ٠ دانتي

١ . ركود الحياة الفكرية في اوائل العصور الوسطى :

كانت القرون الرابع والخامس والسادس عصر انتقال مهم في الحياة الفكرية في اوربا الغربية ففي هذه القرون الثلاثة اقتلعت المسيحية الوثنية وحلت محلها ، وحل الادب المسيحي محل الادب «الكلاسيكي» ، اي الادب اليوناني والروماني . وانحطت العلوم والهندسة المعمارية والفنون اليونانية والرومانية .واقتصر التعليم على خدمة اهداف الكنيسة ، واختفت المدارس العلمانية اختفاءا تاما باستثناء ايطاليا حيث استمرت بقايا من نظام التربية والتعليم الروماني وسيطرت على اوربا الغربية القبائل او الشعوب الجرمانية المتبربرة ، ولم يكن لها عهد بالعلوم والاداب الرفيعة . فعم اوربا الجهل والامية ، باستثناء المراكز الدينية

وحوالي سنة ٧٠٠ كان المركز الثقافي الوحيد في اوربا الغربية يقوم في انكلترة حيث اجتمعت المعرفة الارلندية والرومانية والانكلوسكسونية فانتجت ثقافة أدبية وفنية نشطة ، كان اكبر ممثليها واعلامها البارزين الدهيلم اوف مالبيرى المتوفى سنة ٧١٦ ، وبيده اوف جارو المتوفى سنة ٧٣٥ .ونقلت هذه المعرفة الانكليزية - الارلندية الى القارة الاوربية بوساطة المبشرين الانكليز ، وعلى الخصوص القديس بونيفاس المتوفى سنة ٧٥٥ (١)

٢ . النهضـــة الكارولنجيـــة :

ومن اهم مراحل الحركة الفكرية في اوربا الغربية النهضة الثقافيـة التـي نمت في عهد شارلمان .فقد بهرت المعرفة الانكليزية شارلمان فاستدعى الكوين المتوفى سنة ٨٠٢ ، من مدينة يورك .وكان الكوين اعلم اهل عصره ، وتحت ارشاده بدأت حركة احياء عظيمة في التربية والتعليم والاداب والفنون .وكانت النهضـة الكارولنجية اول محاولة لصهر العناصر الثقافية المختلفة المصادر والاصول . اليونانيـة والرومانيـة القديمـة والقروسطيـة الحديثـة واللاتينيـة والجرمانية والوثنية والمسيحية ، في ثقافة موحدة .ولكن تيار هـــذه الحركـة الثقافية لم يستمر في اندفاعه الا فترة قصيرة من الزمن ، فبعد انحلال امبراطورية شارلمان في القرن التاسع عادت البربرية الى الظهور في اوربا ، وخاصة بعد غزوات النورمان والمجر .والحق انحلال امبراطورية شارلمان افدح الخسائر بالنهضة الفكرية ولكن هذه النهضة لم تندثر تماما بل استمرت على الحياة وان فقدت الشي الكثير

Scanned by CamScanner

من حيويتها ونشاطها . وكان خلف الكوين الثقافي رابانوس موروس رئيس دير فولدا الذي كان يعتبر "سيد العارفين" في عصره .وكان اعظم تلامذته هينكمار اسقف ريمس المتوفى سنة ٨٧٧ .

وكانت اهم المراكز الثقافية في المانيا فولدا ، وسنت غال ، ورايشناو وكونستانس .وفي فرنسا ريمس ، وباريس ، وشارترز ، واوكسير ، وفي ايطاليا بافيا في الشمال وسالرنو في الجنوب .وكانت سالرنو هي المدينة الوحيدة في اوربا التي حافظت على شيء من الثقافة اليونانية .

٣ . مدارس الكنائس :

حتى القرن العاشر كانت الاديرة هي الاماكن الرئيسة للتعليم .ولكن الكنائس اخذت تنشيء مدارس ملحقة بها ، واخذت هذه المدارس تنافس الاديرة ، وسرعان ماتفوقت عليها فلقد اصبحت مدارس الاديرة لاتعلم الا الرهبان المستجدين او الشبان المندوبين للرهبنة .واما مدارس الكنائس فكانت تقبل في صفوفها الطلاب الذين لايعدون انفسهم للخدمة الكهنوتية في المستقبل .واصبح هذا التغير عاما في المانيا في عصر السكسون ، وكان ابرز مظاهر النهضة السكسونية التي بدأها برونو اسقف كولون المتوفى سنة ٩٦٦ ، وهو اخ الامبراطور اوتو الكبير .وانتشرت حركة انشاء المدارس الكنسية من كولون الى اقليمي الراين وسكسونيا حيث غدت مدارس هيلدسهايم ، وبادربوم ، وبريمن ، مشهورة ذائعة الصيت .وكان اول واعظم انتاج الفن الالماني ابواب كاتدرائية هيلدسهايم ، المزينة بست عشرة صورة ناتئة تمثل السقوط والخلاص ، صنعت سنة ١٠١٥ (٢) .

٤ . النهضة الثقافية في فرنسا :

تعود النهضة الثقافية في فرنسا الى هينكمار اوف ريمس .وكان اعظم خلفائه الثقافيين غربرت الذي نصبه الامبراطور اوتو الثالث بابا فاتخذ اسم سيلفستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٢) .وكان اعلم رجل ، وابرع معلم ، عرفته اوربا حتى القرن الثاني عشر وكان يعرف اللغة العربية ، مطلعا على علومها وعندما غادر غربرت ريمس الى روما انتقل مشعل المعرفة في فرنسا الى شارترز حيث كان فولبرت ، وهو اقدر تلامذة غربرت ، اسقفا .وبقيت مدرسة شارترز من سنة ١٠٠٠ الى سنة ١١٥٠ ألمع المراكز الثقافية في اوربا الغربية .وقد تخرج في هذه المدرسة عدد من العلماء والمعلمين الذين نشروا في انحاء مختلفة من اوربا افكار وطريقة مايمكن ان يسمى « النزعة الحديثة » وقد تميز عدد من اساتذة مدرسة شارترز بالشجاعة الادبية ، والحرية الفكرية ، واستقلال النظر ، على الرغم من صرامة مراقبة الكنيسة للفكر المستقل في تلك الايام .فقد تحدى وليم اوف كونشير قصة الخليقة في سفر التكوين وراح يتساءل : لماذا خلق النور في اليوم الاول والنجوم في اليوم الرابع ؟ ولماذا دعي القمر احد النيرين الاعظمين بينما هو في الواقع اصغر من اي كوكب سيار ، بل ومن الارض نفسها ؟ وكانت امثال هذه الاسئلة تثير من التعجب والدهشة والاستنكار في ذلك العصر اكثر مما اثارته نظرية التطور لداروين في القرن التاسع عشر .

٥ . مدرسة باريس :

وعلى مرور الايام اخذ خيرة العلماء والاساتذة يتوجهون الى باريس عاصمة فرنسا .وكان اشهر اساتذة باريس وليم اوف شامبو ، وروسيلينوس ، وابيلارد ، وجميعهم قد درسوا وتعلموا في شارترز ، وكان لهم تلاميذ يعدون بالمئات .وكان اللاهوت والفلسفة الموضوعين الرئيسين للتعليم والمحاضرات في ذلك الوقت .وكان افلاطون المرجع المعتمد في الفلسفة والقديس اوغسطين المرجع المعتمد في اللاهوت

٦ . الفلسفة واللاهوت :

حاول فكر العصور الوسطى ، طوال قرون عديدة ، ان يوفق بين الفلسفة اليونانية والتعاليم والعقائد المسيحية .وعلى كثرة مابذل في سبيل ذلك من جدل ونقاش كان النجاح ضئيلا .فلما كانت الفلسفة تعتمد على العقل . والمسيحية تستند على الوحي ، كان من الصعب التوفيق بينهما .وكان الجدل يدور حول ثلاث نقاط رئيسة هي : القضاء والقدر ، وحرية الانسان : والاستحالة ، اي استحالة خبز القربان وخمره الى جسد المسيح ودمه .وكانت الفكرتان الاوليان قديمتين ترجعان الى عهد القديس اوغسطين ، ٣٥٤ – ٤٣٠ ، واما الفكرة الثالثة فجديدة ، واول القائلين بها راهب من القرن التاسع ، يدعى باساشيوس روبرتوس ولكنها لم تحظ الا بالقليل من الاهتمام حتى القرن الحادي عشر واضيف الى الموضوع طبيعة القداس ، وفاعليته ، ...

وقد نشأ عن هذا الجدل مدرستان فلسفيتان ، او مذهبان ، في القرن الثاني عشر ، وهما : الاسميه والواقعية . ترى الفلسفة الواقعية ان المعرفة تحصل من الكليات العامة التي هي الجواهر النهائية وهذه الجواهر الكلية حين تكتسب بعض الاعراض او الصفات ، التي هي اعراض طارئة وليست جزءا جوهريا من طبيعتها تؤلف الافراد ، سواء كان هؤلاء الافراد اشخاصا ام اشياء ام افكارا مثال ذلك ان لجميع الحيوانات هوية واحدة مشتركة هي جوهر الحيوانية وهذا الجوهر العام باكتسابه اعراض ، اوصفات الانسان او الفرس او البقرة ، يصبح انسانا، او فرسا او بقرة . والعالم في رأى الفيلسوف الواقعي ، مكون من العناصر العامة ، او الجواهر التي يمكن حصرها في النهاية بجوهر واحد احد هو الله . وعلى هذا ، ومن وجهة نظر هذه الفلسفة ، فان الافكار والاشياء الواقعية هي شئ واحد . ومن الناحية المنطقية فان الكليات والجزئيات هي شئ واحد .

واما الفلاسفة الاسميون فيرون ان الاسماء التي تطلق على الاجناس العامة كالانسان ، والبقر ، والخيل ، او على الاعراض والصفات المتصلة بالاشياء ، ليست الا محض اسماء ، ليست الا تجريدات ذهنية ، تصف الخصائص المشتركة بين افراد شئ مابناء على ملاحظة عدد من افراد ذلك الشئ . وهناك علاقة وثيقة بين الفلسفة الواقعية وفلسفة افلاطون ، وبين الفلسفة الاسمية وفلسفة ارسطو طاليس .

٨ . الفلسفة المدرسية :

وقد انغمس كل من الفريقين في الجدل ، واوغلوا في تهذيب الحجج والبراهين وتعمقوا في الاستدلال ، بحيث لم يعد المنطق الصورى اداة استدلال وحجاج وانما اصبح غاية يطلب لذاته . وكان اول واعظم الفلاسفة الواقعيين واللاهوتيين في العصور الوسطى هو القديس انسلم اوف كنتربرى المتوفي سنة ١١٠٩ ، الذي حاول اثبات وجود الله واسرار الديانة المسيحية بالحجج العقلية والبراهين المنطقية وهو مؤسس الفلسفة السكولائية ، اي الفلسفة المدرسية ، وهي الفلسفة المسيحية الاوربية في العصور الوسطى . وقد سميت بـ « المدرسية » لانها كانت الفلسفة التي تدرس في مدارس العصور الوسطى . ولفظة سكولا تعني المدرسة .

وفي هذا الصراع الجدلي ، الذي كان في الوقت نفسه جدلا دينيا وفلسفيا كانت الكنيسة تميل الى جانب الفلسفة الواقعية . فقد دحض القديس برنارد افكار الفيلسوف ابيلارد لا لان حججه كانت اقوى وامتن من حجج ابيلارد ، وانما لانه كان يستند الى سلطة الكنيسة . وقد دعمت جمل بطرس لومبارد ، المتوفي سنة ١١٦٤ حجج القديس برنارد ، ووطدت نصر الكنيسة ولكنه كان نصرا عقيما . فحوالي سنة ١٢٠٠ ترجمت مؤلفات ارسطو طاليس الفلسفية الى اللغة اللاتينية نقلا عن اللغة العربية ، ونقلت الى اللغة اللاتينية مؤلفات الفيلسوف العربي الاندلسي العظيم ابن رشد ، ١١٢٦ – ١١٩٨ وسرعان مانالت مؤلفات ارسطو طاليس ، وعليها شروح ابن رشد ، سلطة عظيمة في جامعات العصور الوسطى بحيث ان الكنيسة ، التي لم تستطع التراجع عن موقفها ، وجدت نفسها مضطرة الى محاولة التوفيق بين وجهتي نظر الفلسفة الواقعية والفلسفة الاسمية ، والى التوفيق بين فلسفة ارسطوطاليس والعقائد المسيحية . وقد قام بهذه المحاولة الفلسفية القديس توما الاكويني (١٢٢٥ – ١٢٧٤) وهو راهب دومينيكاني ، ولد في ايطاليا ، وتعلم وعلم في باريس ، وهو اعظم المفكرين المسيحيين بعد القديس اوغسطين ، ولم يظهر بعده حتى اليوم من هو اعظم منه في الفكر الكنيسة الكاثوليكية ومايزال مؤلفه الكبير « خلاصة اللاهوت » اشمل واكمل كتاب في تفسير عقيدة الكنيسة الكاثوليكية ، وهو يمثل قمة الفكر الاوربي اللاهوتي في العصور الوسطى .

وفي القرن الرابع عشر اخذت الفلسفة المدرسية بالانحلال والانحطاط عندما جعل دنز سكوتس ووليم اوف اوكام ، وكلاهما انكليزي ، المنطق غاية للفكر بدلا من ان يكون اداة له فقررا ان النتائج المتصلة بالمنطق صحيحة صحة الحقائق الواقعة الملموسة ، او بكلمة اخرى ان مايصح على الافكار يصح على الاشياء كذلك ، وان الاستدلال القبلي قادر على اثبات الحقائق مثل الملاحظة والمشاهدة التجريبية (٣)

. الطب والقانون :

والى جانب الدراسات اللاهوتية والفلسفية نهضت الدراسات الطبية والقانونية . ونقلت تقاليد الطب اليوناني من القسطنطينية الى جنوب ايطاليا ، حيث كانت ابوليا وكالبريا للامبراطورية البيزنطية حتى ... عليهما النورمان

وفي ظل النورمان نشأت في سالرنو مدرسة طبية مشهورة .ومن عوامل ازدهار مدرسة الطب في سالرنو ما نقل اليها من المؤلفات الطبية العربية ، ومن تقاليد اطباء العرب وممارستهم الطبية في صقلية .ولعل اشهر من ساهم في مجد هذه المدرسة الطبية قسطنطين الافريقي ١٠٢٠ – ١٠٨٧ وهو تونسي الاصل ، درس في صقلية ، وتعلم اليونانية واللاتينية ، ورحل الى سالرنو ، وترجم عددا كبيرا من المؤلفات الطبية العربية الى اللغة اللاتينية .

واما في القانون فكانت بولونيا اهم مركز لدراسة القانون الروماني .وكان من اهم عوامل انبعاث هذه الدراسات القانونية الصراع بين الامبراطور فردريك الاول والبابا الاسكندر الثالث ، وكان كل منهما يستند في دعواه بالسلطة الشاملة على القانون الروماني . وفضلا عن هذا فقد وجدت المدن المباردية ان القانون الروماني يلائم التجارة الداخلية والخارجية المزدهرة اكثر من القانون الاقطاعي الذي نشأ في مجتمع اقطاعي ولا يصلح للتطبيق الا في مجتمع زراعي كالذى كان قائما في اوربا الغربية قبل القرن الثاني عشر .

١٠ . ظهور الجامعــات ونموهــا :

من اختمار هذه الافكار وتفاعلها ، نشأ نظام جديد للتعليم . فلم تكن الجامعات مؤسسات للتعليم العالي فقط وانما كانت كذلك تختلف عن المدارس القديمة في طرق التعليم والادارة والنظام . وفي ايطاليا وجنوب فرنسا كانت كلمة جامعة تطابق كلمة جمعية ، او نقابة ، وتعني جماعة من الناس يتحدون للقيام بغرض معين ، وفق شروط يتفقون عليها فيما بينهم . وكانت اولى تجمعات الاساتذة والطلاب تعتبر بمثابة جمعيات ونقابات ، وكانت اتحاداتهم ، او شركاتهم ، تسمى جامعة .وبمرور الزمن اصبحت كلمة جامعة مصطلحا خاصا يطلق على نظام التعليم الجديد حصرا . وكانت الجامعة تتألف باحدى الطريقتين التاليتين : ان يجمع استاذ مشهور حواليه عددا من الطلبة فيعلمهم ، او ان يجتمع عدد من الطلبة ويستأجرون استاذا لتعليمهم . وفي كلتا الحالتين كانت الجامعة منظمة حرة .

واخذت الكنيسة ، التي احتكرت توجيه التعليم والاشراف عليه قرونا عديدة ، تنظر بعين الشك والريبة الى هذه الحركة الجديدة في التعليم .وعلى هذا فقد اشترط الاساقفة وجوب حصول الاساتذة والمدرسين على رخصة للتعليم ، وعينوا

الموضوعات التي تدرس ، وادخلوا نظام الامتحانات والشهادات ، وعلى العموم قام الاساقفة بتنظيم التعليم الجديد . وقررت الكنيسة ان البابا وحده له سلطة اعطاء الترخيص بتأسيس جامعة . وكانت اول جامعة مرخصة هي جامعة باريس التي تأسست حوالي سنة ١٢٠٠ وتبعتها جامعات اكسفورد وكيمبردج ومونبليه وسالامنكا . وفي القرن التالي ، الرابع عشر ، تأسست جامعات عديدة اخرى . فقد انشئت جامعة براغ سنة ١٣٤٧ ، وجامعة هيدلبورغ سنة ١٣٨٦ ، وهي اول جامعة ...في المانيا .

١١ . تنظيم الجامعة وادارتها :

ولم تكن الكلية في العصور الوسطى مؤسسة تعليمية مستقلة ، وانما كانت ...من الجامعة . وكانت كل جامعة كبيرة عبارة عن اتحاد بين كليات متعددة ، لان ...د الطلبة ازداد زيادة كبيرة بحيث اصبح من الضروري اقامة منظمات منفصلة ...ل مشكلة السكن والتعليم . واصبح لكل كلية قاعات محاضرات ، وغرف نوم ، ...كنية . وخصص لكل كلية عدد من الاساتذة والطلبة . وفي غالب الاحيان كانت الكليات تنشأ لاغراض خيرية على نفقة احد الاساقفة ، او النبلاء ، او التجار الاغنياء . فكلية السوربون ، مثلا ، انشأها سنة ١٢٥٧ روبرت سوربون قسيس الملك ...يس التاسع .

وبالاضافة الى انقسام الطلبة بين الكليات المختلفة ، كانوا ينقسمون الى جماعات ...ميزة بحسب قومياتهم ومواطنهم ، كالفرنسيين والالمان والانكليز والايطاليين ...والاسبانيين وغيرهم ، حيث كان الطلبة كثيرا ما ينتقلون من جامعة الى جامعة ، وقلما كان ...الطالب يحصل على تعليمه في مكان واحد . وكانت المنافسة ، بل وحتى العداوة ...والخصومات ، بين "شعوب" الطلبة شديدة ، وكثيرا ما كانت تؤدى الى المشاجرات ...والمعارك في المدينة . وكان جميع الاساتذة والطلبة يتمتعون بـ"حقوق" القس ، اى انه ...كانت لهم صفة رجال الكنيسة ، فكانوا غير خاضعين للسلطة المدنية ، وفي حالة ...ارتكاب احدهم مخالفة او جنحة او جريمة كان يحاكم امام محكمة كنسية . وكان ...عميد الكلية يقيم محكمته الخاصة داخل بناية الكلية . وكان شرطة البلدية العاديين ...لا يسمح لهم بدخول حرم الكلية . وكان لكل جامعة سجن خاص يودع فيه ...المحكوم عليهم من اعضائها ، مثلما كان للاساقفة ورؤساء الاديرة محاكمهم ...وسجونهم الخاصة . وفيما عدا الاساتذة المختصين بتعليم القانون والطب كان معظم

الاساتذة في الجامعات من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان الذين كانوا يحتكرون الاشراف على التعليم العالي في العصور الوسطى .

١٢ . المناهـــج

كان نظام التعليم القديم يقوم على دراسة منهجين من الدروس : المنهج الثلاثي والمنهج الرباعي . وكان الطالب يبدأ بدراسة المنهج الثلاثي الذي يتكون من العلوم الادبية الثلاثة وهي : النحو والبلاغة والمنطق ، وهو يعادل منهج بكلوريوس آداب في يومنا هذا . ثم يدرس المنهج الرباعي ويتألف من علوم الرياضيات الاربع وهي : الحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، وهو يعادل شهادة بكلوريوس علوم .

وقد حافظت الجامعات على هذا التمييز بين المنهج الثلاثي والمنهج الرباعي ولكنها زادت في عدد موضوعات الدراسة ، وحسنت نوعية التعليم كثيرا . وبطبيعة الحال كان عدد المكتبات قليلا في عصر كانت فيه الكتب خطية ، ولم يكن ثمة مختبرات .وكان على الطالب الجامعي في العصور الوسطى ان يعتمد على الاصغاء الجيد للاستاذ ، وعلى ذاكرة جيدة الحفظ ، وعلى التأمل الجاد في المعلومات والمعارف التي تقدم له . ان أعظم عمل قامت به الجامعات هو اعلاؤها من شأن العلم واضفاؤها صفة القداسة على التعلم ، وقد كان لذلك تأثير كبير على ما حققته اوربا من تقدم (٤) .

١٣ . اثر العرب على النهضة العلمية باوربا :

كانت اعظم خدمة قدمتها الفلسفة المدرسية لتاريخ الفكر الغربي هي تطويرها المنطق كاداة يستخدمها الفكر لاكتشاف الحقيقة . واما اعظم اسباب فشلها فهو اهتمامها باكتشاف طرق جديدة لتفسير وتأكيد الحقائق القديمة ، او ما كان يظن انه حقائق ، بدلا من سعيها لاكتشاف حقائق جديدة . وآفة ذلك كله هو اعتقادها بأن الحقيقة النهائية ، لابل جميع الحقائق ، موجودة في الديانة المسيحية ، وان معرفة هذه الحقيقة انما تستمد من الوحي الالهي ، ولا يمكن الوصول اليها بالعقل الانساني . وعلى العكس من فكر العصور الوسطى هذا ، الفكر العلمي ، وشرطه ان يكون حرا من كل كبت وقيد ، غير منحصر في عقيدة مسبقة . وقد تقدم العلم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تقدما ملحوظا . وكان العلم اليوناني قد انحط ، كما انحطت كل مظاهر الحياة الفكرية [illegible]

اليوناني ، ولم تقل العلم اليوناني والروماني ، لان الرومان لم يضيفوا شيئا اصيلا ومهما للعلم باستثناء الهندسة .وكانت الضربة النهائية التي اصابت العلم اليوناني هي حرق مكتبة الاسكندرية سنة ٤١٥ على يد جمهرة من الرهبان المتعصبين ، وغلق الامبراطور جستنيان لمدارس الفلسفة في اثينا سنة ٥٢٩ وقد بقي التراث العلمي اليوناني مهملا ، لايعنى به الا قلة من البيزنطيين والسريان والفرس ، حتى تولى رعايته العرب ، بعد الفتوحات وتأسيس الدولة العربية .وخلال قرنين من الزمن تمت ترجمة المؤلفات اليونانية العلمية والفلسفية الى اللغة العربية ، وغدت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة وطليطلة وصقلية مراكز اشعاع علمي ، ومدارس لنشر العلوم وتعليمها وبدأت العلوم العربية ، والعلوم اليونانية المنقولة الى العربية ، تدخل الى اوربا في أواخر القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر ، وقد انتقلت العلوم العربية الى اوربا عن طريق صقلية ومنها الى ايطاليا ، وعن طريق اسبانيا العربية ومنها الى الاقاليم المسيحية في شمال اسبانيا ، ومن هناك الى فرنسا وغيرها من الاقطار الاوربية .واخذ طلاب العلم الاوربيون يتوافدون باعداد كبيرة الى بالرمو في صقلية والى طليطلة في اسبانيا ، ليتعلموا اللغة العربية ، وليدرسوا العلوم العربية .وكان معظم الطلبة هؤلاء من الانكليز نذكر منهم : اديلارد اوف باث ، ودانيال اوف مورلي ، وروجر اوف هيرفورد والكسندر نيكوام وكان كتاب اديلارداوف باث « الاسئلة الطبيعية » اول كتاب علمي يؤلف في العصور الوسطى .وقد انفق بعض هؤلاء العلماء الاوربيين سنوات طويلة في اسبانيا العربية وصقلية يدرسون العربية ، وعكفوا طوال حياتهم على ترجمة الكتب العربية الى اللغة اللاتينية فقد ترجم جرارد الكريموني المتوفي سنة ١١٨٧ مايزيد عن سبعة وثمانين كتابا من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية ومنها : قسم الجراحة من كتاب الزهراوي « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، والمسطي لبطليموس ، وشرح الفارابي على ارسطو ، واصول الهندسة لاقليدس ، ورسائل متفرقة لارسطو وجالينوس وابقراط .ومن المترجمين المشهورين ميخائيل سكوت المتوفي سنة ١٢٣٦ ، وقد ترجم فلسفة ابن رشد الى اللاتينية ، وترجم عددا من مؤلفات ارسطو مع شرح ابن رشد ، وترجم موجز مؤلفات ارسطو في علم الحياة وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا .وبلغت الحركة العلمية في صقلية اوج ازدهارها في عهد الامبراطور فردريك الثاني ، (١٢١٥ ـ ١٢٥٠) ، وقد شجع المترجمين على نقل التراث العلمي العربي الى اللاتينية وانشأ جامعة نابولي في ايطاليا سنة ١٢٢٤ ، واودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية كان من طلاب هذه الجامعة الفيلسوف القديس توما الاكويني واستعملت

، كتبا مدرسية .وارسلت من هذه الترجمات نسخ الى جامعات باريس وبولونيا وفي صقليــــة ترجـــم كتـــــاب « الحـــاوي » للـــــرازي ســنــة ١٢٧٩ ولم تكـــــن صقليـــة مركـــزا لنقـــل العلــــــوم العربيــــة فقـــط ، وانما كانت معبرا لانتقال الصناعات والفنون والاداب العربية الى ايطاليـــا ومنها الى سائر البلاد الاوربية .يقول الدكتور فيليب حتي ، تاريخ العرب المطـــول ص ٧٢٤ ، :«ان هذه الروح العلمية في البحث والتنقيب والاختبار التجريبي . التي تكاد تكون حديثة والتي ميزت بلاط فردريك ، لتعين بدء عصر النهضة الايطالية فقد اخذت حركة الشعر والادب والموسيقى تزدهر تحت تأثير الادب البروفنسالـــي والعربي ».

لقد زاد عدد ماترجم من الكتب العربية الى اللاتينية عن ثلاثمئة كتاب .وكانت تلك الكتب اساس الدراسة والثقافة في اوربا حتى عصر النهضة في القرن الخامس عشر يقول الفيلسوف الفرنسي رينان : ان البرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء وان القديس توما الاكويني مدين في جميع فلسفته لابن رشد (٥).

كانت العلوم تدرس في جامعات اوربا .وكان من اعظم علماء اوربا وفلاسفتها الراهب الفرنسيسكاني والانكليزي روجر بيكون ١٢١٤ — ١٢٩٤ ، والراهـــب الدومينيكاني الالماني البرت الكبير ، البرتوس ماغنوس ، ١١٩٣ — ١٢٨٠ .وقد علم كلاهما في باريس .

١٤ • روجـــر بيكـــون :

كان روجر بيكون واسع المعرفة ، دقيق الملاحظة ، غزير الانتاج .درس الكتب الاسلامية وبخاصة كتب ابن سينا والحسن بن الهيثم .وكان اعرف معاصريه بحياة ابن سينا ومصنفاته .وهو يقدمه على ابن رشد ، ويعتبره اول اسم كبير بعد ارسطـــو وهم شراحه ، وزعيم الفلسفة .وهو ينقل عنه في الطب ، وينقل تجارب الحسن بن الهيثم في المناظر .واهم مؤلفات بيكون « الكتاب الاكبر » .وهو مقسم الى سبعة اقسام هي : اسباب اخطائنا ، العلاقة بين الفلسفة والعلوم وبين اللاهوت ، علم اللغــة ، علم المناظر والبصريات ، العلم التجريبي ، الفلسفة الخلقية .وكان بيكـــون يشعـــر شعورا قوياً باهمية التجربة وضرورتها « وهو يحصر وسائل المعرفة في ثلاث هـــــي : النقل ، والاستدلال ، والتجربة .اما النقل فلا يولد العلم مادام لايعطينا علـــة مايقول .واما الاستدلال فلا نستطيع ان نميـــز بـــه الـ[illegible] ...امر البرهان[illegible]

من القياس المغالطي الا اذ ابدت التجربة نتائجه .وللتجربة وظيفتان هما تحقيـــق النتائج التي تصل اليها العلوم بالاستدلال ، واستكشاف حقائق جديدة ، فتنتهـــي الى تحقيق علم جديد هو العلم التجريبي ، وروجر بيكون هو اول من استعمـــــل مصطلح : العلم التجريبي .وهذا العلم التجريبي يخولنا السيطرة على الطبيعة ، بـــان يتيح لنا فهم قوانين الطبيعة ؛ وعمل كل ماتعمله الطبيعة وكل مايعمله الفن محاكيـــا الطبيعة .ووسيلته الاستقراء . اي الملاحظة ، واجراء التجارب . بحيث يتألـــــف من جملتها القانون الكلي .وقد فطن بيكون ، بفكره اللماح واستنادا الى منهجه العلمي ، الى امكانيات العلم اللامحدودة على الكشف ، والخلق ، والابداع .فمما يستطيع العلم ان يعمله بمحاكاة الطبيعة وتسخير قواها : حمامات ساخنة تحتفظ بسخونتها بغير نار ومصابيح تضيء باستمرار دون تجديد وقودها ، ومواد ملتهبة تهلك جيشا باكمله فـــي طرفة عين ، والات وادوات للناس الراحة وترفه عنهم ، وسفن بلا مجـــــاذيـــف ولااشرعة ، ومركبات شديدة السرعة تجرى بذاتها دون ان يجرها حيوان ، والات طائرة يحرك الانسان اجنحتها كما يفعل الطير ، والات للغوص في اعماق البحـــر دون التعرض لاي خطر ، والات لرفع الاثقال الضخمة بسهولة ، وجسور تقـــام على الانهر دون اعمدة تسندها .وغير ذلك من الالات والادوات .

كان روجر بيكون ابن العصور الوسطى فامتزج عنده الدين والعلـــم والعمـــل ، وآمن باللاهوت ، واعتقد بصحة السحر والتنجيم ، ولكنه تفرد عن ابناء عصـــــره باشتغاله بالعلم التجريبي ، فوضع نظريته في اوربا ، وفطن لفوائده ، وتنبأ بمستقبلـــه . فرسم لاوربا طريق السيادة والتفوق ، وبهذا كان طليعة العصر الحديث (٦).

١٥ • الطـــــــب :

في منتصف القرن الثالث عشر الف فنسنت اوف بوفي كتابا عنوانه : مـــرآة الطبيعة .جمع فيه كل ماكان في اوربا يومئذ من معرفة عن العلوم المختلفة كالطـــب ، والتشريح ، والجغرافيا الفلكية ، والفلك ، وكان المؤلف على شيء من المعرفة بالتشريح وقد افاد الاوربيون من الطب العربي فتحسنت طرق تشخيصهم للامراض ، وزادت معرفتهم بصناعة الادوية ، وبدأوا يطرحون كثيرا من الخرافات ، وكان لهم شيء من المعرفة عن انتقال الامراض بالعدوى ، ولكنهم لم يتوصلوا الى معرفة التلوث بالجراثيم ، ومارسوا الجراحة ، وخاصة جراحة الاطراف والجمجمة ، وكانوا يقومون بالعمليات الجراحية لقطع الاطراف وخاصة في زمن الحروب ، وكذلك اجروا عمليات في العيـــون

ولكنهم لم يتقدموا في الجراحة الباطنية .وكان من اهم عوائق تقدم الطب في اوربا في العصور الوسطى تحريم تشريح جثث الموتى .وكان لهم عدد من المستشفيات البسيطة ، ملحقة بالاديرة .وقد تحسن وضع المستشفيات وزاد عددها بتأسيس الاخوة الرهبانية « فرسان الهسبتالية » ، اي الرهبان الفرسان المختصون بالمستشفيات في اثناء الحملة الصليبية الاولى .وهنا ايضا يظهر اثر الطب العربي على تقدم الطب الاوربي ومنذ القرن الثالث عشر بدأت البلديات في المدن الكبرى بانشاء مستشفيات تابعة لها (٧) .

١٦ ٠ الأدب :

كانت اللغة اللاتينية في العصور الوسطى هي لغة الكنيسة والاداب والعلوم في اوربا وقد انتجت الكنيسة ادباً يلائم روح المسيحية ، ويستوحي عقائدها وتقاليدها ويختلف من حيث المحتوى عن الادب الكلاسيكي القديم .فقد كان الادب المسيحي دينيا معنيا بالقضايا اللاهوتية ، مهتما بامور الحياة الاخرى ، بينما الادب الكلاسيكي القديم كان يعني بشؤون الدنيا ومشكلات الانسان الواقعية .وكان الرهبان يكتبون التاريخ ، ولهذا كانت كتب التاريخ تعنى ، اكثر ماتعنى بالحوادث المتعلقة بالشؤون الدينية ، واخبار الكنيسة ورجالها وكانت المؤلفات في سير القديسين اكثر الكتب شعبية وانتشارا .وكان الغرض من تأليفها الوعظ والارشاد ودعوة الناس الى الاقتداء بحياة هؤلاء الرجال الصالحين .وكانت الترانيم والاناشيد الدينية هي الشكل الوحيد من اشكال الشعر في تلك الازمان .وحتى اللغة اللاتينية اصابها الشئ الكثير من التغيير بما دخل عليها من الكلمات والمصطلحات الكنسية ، والجرمانية ، ومن لغات الشعوب التي اخذت تتكلم بها في العصور الوسطى .

١٧ ٠ اللغـة :

كانت اللاتينية هي اللغة التي تستخدمها الكنيسة والدولة .ولكن كان الكثيرون من الملوك والامراء لايفهمون هذه اللغة .وقبل القرن الثاني عشر كان يندر ان يعثر المرء على ملك او نبيل اقطاعي يعرف القراءة والكتابة .وكان النبلاء يتكلمون لغة الشعب الدارجة في القطر او الاقليم الذي يقيمون فيه ويحكمونه وكان في اوربا

والاراضي المنخفضة اي هولندا ، وبلجيكا ، واسكندناوة وايسلندا وانكلترة .واللغات الكلتية وهي الارلندية والولشية والغيليكية والبريتونية في ارلندا وويلز وسكوتلندا وبريتانيا .واللغات السلافية في اوربا الشرقية .وفي جنوب اوربا شاعت اللغات الرومانية وهي الفرنسية والايطالية والاسبانية .وبخلاف اللغات واللهجات الاخرى التي ترجع اصولها الى الاجناس والشعوب المتكلمين بها ، كانت اللغات الرومانية الجنوبية لهجات اشتقت من اللاتينية ، وتفرعت عنها .ففي الاقاليم الاوربية التي سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية اخذ عامة الشعب يتكلمون لغة الفاتحين الرومان بعد ان حرفوها وغيروها شيئا فشيئا ، ولم تبق اللغة اللاتينية الفصحى على نقاوتها ، وانما اصبحت لغة مهجنة بما دخل عليها من كلمات محلية ، وماطرأ على الفاظها من تغير في النطق حيث حذفت اصوات واضيفت اصوات ، واسقطت مقاطع وزيدت . حروف وحدثت تغيرات في نحو اللغة وصرفها ، وفي نظم الكلمات في العبارة ، وسياق الجملة .وشيئا فشيئا نشات في كل قطر من اقطار اوربا الجنوبية لغة خاصة به هي مزيج من اللغة اللاتينية واللهجات المحلية .واغلب الظن ان اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية قد استقلت عن بعضها ، واصبحت الواحدة منها متميزة عن الاخرى بوضوح ، في القرن الثامن .واقدم وثيقة موجودة الآن كتبت باللغة الفرنسية هي نص « قسم ستراسبورغ » الذي يعود لسنة ٨٤٢ وتعود اقدم وثيقة كتبت باللغة الايطالية الى سنة ٩٦٠ ، وباللغة الاسبانية الى القرن العاشر .

على ان الادب المحلي ، اي الادب المكتوب باحدى هذه اللغات الوطنية الناشئة حديثا وهي الفرنسية والايطالية والاسبانية ، لم يظهر الا في اواخر القرن الحادى عشر او اوائل القرن الثاني عشر .وكانت فرنسا سباقة في انتاج اعظم نماذج هذا الادب المكتوب بلغة الشعب .فقد ظهر في فرنسا عدد من ملاحم الابطال وهي قصائد طويلة من الشعر تتحدث عن اعمال الابطال ، ومآتيهم ، ومآثرهم ، وبطولاتهم وما اصابوا في حياتهم من نجاح واخفاق .وتتحدث اشهر هذه الملاحم الفرنسية واسمها :"ملحمة رولاند"عن حروب شارلمان ضد المسلمين في اسبانيا سنة ٧٧٨ ، وعن مقتل ابن اخته رولاند .ويعود نظم هذه الملحمة الى القرن الحادى عشر واقدم ملحمة اسبانية هي قصيدة"السيد"حوالي ١١٤٠ ، وتتحدث عن حروب البطل الاسباني المسيحي سيد كومبيادور ضد المسلمين في اسبانيا .وقصيدتا رولاند والسيد لهما اساس تاريخي ، وهما تعكسان المثل العليا للاقطاعية والفروسية في عصرهما ، وتصوران روح الحروب الصليبية ضد ال... والمسلمين في اسبانيا وصقلية وفلسطين ،

ومن المعطيات الادبية التي اثارتها هذه الحروب الصليبية في شعوب عامة الناس

وعندما اخذ الناس يطلعون على الادب اللاتيني القديم اعجبوا به ، وبدأوا يقلدون

، ويستوحون قصائدهم منه ،وقد نظموا قصائد مطولة مستوحاة من حروب

طروادة والاسكندر المقدوني .

١٨ . الشعـــر :

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ظهر نمط آخر من الشعر المحلي يستمد موضوعه من قصة الملك ارثر والكأس المقدسة ،وقد وردت هذه القصة في كتاب الفه جيفري اوف مونموث سنة ١١٣٦ بعنوان "تاريخ ملوك بريطانيا" وهو خليط من التاريخ والقصص الخيالية والاساطير ،ولاول مرة يطلع الاوربيون على الاساطير والخرافات الكلتية التي تدور حول الملك ارثر وفرسان المائدة المستديرة وبرسيفال .واذا كانت ملاحم الابطال تعكس عالم الاقطاع ، فان هذه القصص الكلتية الخيالية قد فتحت باب عالم جديد يزخر بالجن ، والحوريات ، والسحر ، والخيالات الغريبة والمجتمع الذي تصفه هذه القصص ليس المجتمع الاقطاعي الحقيقي ،وانما المجتمع الاقطاعي المثالي الذي تلعب فيه المرأة دورا رفيعا ،واما ملاحم الابطال فيكاد لا يرد فيها ذكر للمرأة .ومما لاشك فيه ان هذا التأثير النسوي الرقيق مستمد من الشعر الغنائي والغزلي الذي شاع يومئذ في اقليم البروفنسال على ايدي التروبادور وال « تروفير » ، والذي هو متأثر بدوره بالشعر العربي الاندلسي : وشعر الموشحات على الخصوص كتب جيفري اوف مونموث كتابه باللاتينية ، واما الشعراء الذين اقتبسوا موضوعاتهم فكتبوا قصائدهم وقصصهم بالفرنسية واشهرهم كريتيان دي تروس المتوفى سنة ١١٩١ ، وهو اكبر الشعراء الاوربيين قبل دانتي .وقد استمد كريتيان من اساطير ارلندية كورنيشية لم يذكرها مونموث .واشهر هذه القصص قصة تريستان وايزولت . وانتقلت هذه الملاحم والقصص الى المانيا فأثرت في ادبها تأثيرا كبيرا .

وشاع في هذه الفترة الشعر الغنائي .وقد نشأ في اقليم البروفنسال في جنوب فرنسا ،وكان الشعراء ينظمون القصائد الوجدانية والموشحات الغزلية ، وينشدونها على انغام آلة وترية تشبه الربابة ،وكان هؤلاء الشعراء يسمون التروبادور ، وقد استنتج الباحثون ، بناء على مالاحظوه من اوجه شبه عديدة بين هذا الشعر والموشحات الاندلسية في الموضوعات والاخيلة واساليب النظم ... ان هذا الشعر الغنائي متأثر بالشعر العربي الاندلسي ... الى ان كلمة تروبادور نفسها مشتقة من الكلمة العربية « طرب » و « مطرب » .

١٩ . القصص النثرية :

وكانت القصص النثرية متخلفة كثيرا من القصص النثرية في العصر الوسيط واشهر ماوصلنا من القصص النثرية قصة « اوكاسان ونيكوليت » ... من القصص هو حكايات الحيوانات ، ومعظمها مستمد من حكايات ايسوب اليوناني وتجمعت الكثيرة هذا النوع من القصص ... وخلال الحروب الصليبية تأثر الاوربيون ... قصص الحيوان ، وخاصة ماورد منها في كتاب « كليلة ودمنة » ... المجتمع على السنة الحيوان واستمد الاوربيون من بيزنطة والبلاد العربية ... من بلاد الشام ومصر اثناء الحروب الصليبية ، كثيرا من القصص التي تهدف الى مغزى خلقي ووعظي .وقد تطور هذا النوع من القصص ... قصص رمزية ، اي قصص تدور حول اشخاص وحوادث واعمال ... مغزى ديني وخلقي خاص ... وهي نوع ... واخلاقهم وآدابهم في العصور الوسطى ... والوعظي كان هنالك شعر ساخر ... الاقاقون ، وقد اطلقوا على هذا النوع من الشعر ... شعر ...

٢٠ . تأثير الفرنسيين على الانكليز

ظهر اقدم مايعرف من شعر الانكلو سكسون في القرن السادس ... اثر نثري في القرن التاسع .وقد دخل الادب الفرنسي الى انكلترة ... اليها سنة ١٠٦٦ وقد انقرض الادب الانكلو سكسوني ... بالقصة الانكلو سكسونية الا ... لغة الكتابة والحديث في ... اللغة الانكلو سكسونية ... التعبير والتحوير لم ... دخلت على اللغة الانكلو سكسونية ...

[illegible]

المجردة .وعندما انفصل اقليم نورماندي عن انكلترة سنة ١٢٠٤ اخذت انكلترة تتخلص من السيطرة الفرنسية شيئا فشيئا وتقدمت اللغة الانكليزية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تقدما ملحوظا ، وبدأ ظهور الادب انكليزي خالص بلغته وروحه وفي سنة ١٣٢٠ حلت اللغة الانكليزية محل الفرنسية في المدارس .وفي سنة ١٣٦٢ اصبحت الانكليزية اللغة الرسمية في المحاكم .وفي سنة ١٣٩٩ استخدمها الملك هنري الرابع لاول مرة في البرلمان ، اي مجلس النواب .وفي هذا القرن الرابع عشر ظهرت ترجمة ويكليف للكتاب المقدس ، وحكايات كنتربري للشاعر تشوسر .وفيما بين سنتي ١٣٥٠ و ١٤٥٠ ظهر في انكلترة انتاج ادبي مدهش بغزارته ، وتنوع موضوعاته وصوره واساليبه ، وقيمته الفنية العالية .

٢١ . المسرح :

حفظت العصور الوسطى معظم اشكال الادب اللاتيني القديم وقلدتها ، ولكن المسرح الروماني لم يؤثر في مسرح العصور الوسطى ، فقد كان هذا المسرح اتجاها اصيلا ، ونشأ في الكنيسة ذاتها حيث كانت تمثل بعض الوقائع من حياة السيد المسيح ، والعذراء مريم ، تمثيلا بسيطا .وكان يقوم بالتمثيل القسيسون واولاد فرقة الانشاد وكان التمثيل جديا ، والحوار ورعا مهيبا .وكان الغرض من هذه المسرحيات هو تقريب قصص الكتاب المقدس من اذهان بسطاء الناس وعوامهم الذين لم يكونوا يستطيعون قراءة الكتاب المقدس والصلوات باللغة الاتينية ، ولا فهمها اذا قرئت عليهم .وعلى هذا فقد اصبحت اللغة العامية المحلية هي لغة المسرحيات ومايجري فيها من حوار .وثمة اشارات الى مثل هذه المسرحيات الكنسية في القرن التاسع والحادي عشر ، في فرنسا والمانيا واسبانيا .وكان هذا النوع من المسرحيات يسمى « الاسرار » .وكانت مسرحيات « المعجزات » تنتمي الى هذا النوع من الادب ، سوى ان الموضوعات في هذه المسرحية كانت نوعة مباشرة من الكتاب المقدس وليس من طقوس الكنيسة كما في « الاسرار » .وكانت المسرحيات التي تتناول قصة نوح والطوفان ، وداود وطالوت ، ودانيال في عرين الاسد ، من المسرحيات المحببة عند الجمهور .وشاع في القرن الخامس عشر نوع آخر من المسرحيات الاخلاقية هو المسرحيات الرمزية حيث كان الممثلون يجسدون انواعا من الشخوص ...

والطمع ، وما الى ذلك . ولم تكن [illegible] ... وا... كانت يمثلها الفنانون المختلفة في الساحة المكشوفة في السوق المحلية ، او في الاسواق الرئيسية العامة .وكانت هذه المسرحيات تتضمن الكثير من النكت والدعابات والتهريج والسخرية ، فالجمهور كان يحب المتعة اكثر من الوعظ والارشاد .

٢٠ . تقويم نهضة القرن الثاني عشر :

من هذا العرض الموجز ، السريع ، للحركة الفكرية الاوربية يتبين ان اوربا الغربية قد عرفت تقدما ثقافيا غني المحتوى ، متنوع الاشكال .ولم يكن هذا التقدم منحة نالتها اوربا دون جهد ، وانما كان نتيجة تطور بطيء ، ازداد زخما وتركيزا في القرن الثاني عشر ، وبلغ قمته في القرن الثالث عشر .وقد عرفت هذه الحركة الفكرية بـ « نهضة القرن الثاني عشر » .ولم تكن هذه النهضة هي « الفجر الكاذب » الذي سبق النهضة الاوربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . كما قال والتر بتر ، وانما كانت تفتحاً حقيقيا للروح الانسانية .وتكشف دراسة الحركة الثقافية الاوربية في هذه الفترة عن حقيقتين : اولاهما استمرارية الثقافة في العصور الوسطى ، وثانيتهما ان النهضة الايطالية لم تكن فاتحة عهد جديد ، وانما كانت استمرارا لحركة سابقة بدأت في فرنسا وامتدت ، فيما بعد ، الى ايطاليا لقد طبع ادب وفن وفلسفة وعلم حركة النهضة الايطالية بالطابع الايطالي

ولكن الثقافة الايطالية لم تكن اعمق اصالة من الثقافة الفرنسية باستثناء شيء واحد فقد فشلت انسانية القرن الثاني عشر في ان تضرب بجذورها في الارض .ولم يسأل الجامعات الناشئة حديثا بالدراسات اليونانية والرومانية ، واهملتها ، واولت اهتمامها الدراسات اللاهوتية والقانونية .وكان على الدراسات اليونانية والرومانية والانسانية كاهتمام ثقافي عام ، ان تنتظر النهضة الايطالية حتى يدرك المثقفون اهميتها ، ويقيموها حق قيمتها

وعندما ندرس المجتمع الاوربي الغربي نلاحظ ان روح المبادرة ، والاهتمام الثقافي ، والفهم الذكي لضروره التغيير ، اظهر هنا منها في المجتمع البيزنطي لقد بقي المجتمع البيزنطي ، والفكر البيزنطي ، راكدين طوال العصور الوسطى .واما المجتمع الاوربي فكان مجتمعا حيا مدركا ان [illegible] ضروري للتقدم .وقد يبين

الجديد كان قد قررها في العهد القديم .

١٣ . دانتـــي :

يقدم التركيب الكامل لثقافة العصور الوسطى الشاعر الايطالـي دانتـي ١٢٦٥-١٣٢١ في الكوميديا الالهية التي تعتبر من اروع الملاحم الشعرية في الادب العالمي ويمثل دانتي صلة الوصل بين العصور الوسطى وعصر النهضة الاوربية الحديثة فهو يمثل العصور الوسطى باحترامه العميق للكاثوليكية ، وبمعرفة بالفلسفة المدرسية وهو يبشر بميلاد النهضـة الفكرية بحبه للطبيعـة ، واحترامـه للآداب الكلاسيكية وخاصة للشاعر اللاتيني فرجيل ، وباستعمالـه اللغة الايطاليـة بدلا من اللاتينية .والكوميديا الالهية تنتمي الى العصور الوسطى بموضوعاتها وروحها . ولكنها تنتمي الى العصور الحديثة بفنها ، وشكلهـا وباهتمامها بالحقائق الواقعة وكان دانتـي عالمـا ، ولاهوتيـا وفيلسـوفا ، واخلاقيـا وفنانا وحظيت الكوميديا الالهية بعناية المترجمين والدارسين والناقدين العرب .وقد اظهرت الدراسات ان دانتي كان على اطلاع على التراث العربي الاسلامي . فاستمد منه واقتبس من معانيه وصوره واخيلته (١٠)

مراجع الفصل السادس

(١) European Civiliztion ,

(٢) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . اوربا العصور الوسطى ج١ ص

(٣) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط . دار الكاتب المصري . ١٩٤٦ . ص ١١٩ - ٢١٩

احمد امين ، زكي نجيب محمود . قصة الفلسفة الحديثة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٣٦ . ج١ ص ١ - ٣٦

(٤) ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٣ مجلد ٤ . ص ٢٥٦-٢٦٧ ج٥ مجلد ٤ . ص ٢٢٨ - ٣٤٤ . ج٦ مجلد ٤ . ص ١ - ٣٥٧

وايضا : تاريخ الحضارات العام . مجلد ٣ . ص ١٦٣-١٦٩ . ١٨٢-١٨٥ . ٣٢٣ - ٣٣٢ . ٤٢٢ - ٤٣٧ . ٤٦٥ - ٤٩٤

(٥) غوستاف لوبون . حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر . ص ٤٦٨

(٦) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ص ١٥٣ - ١٦٠ و

ه ج ويلز . معالم تاريخ الانسانية . ج٣ ص ١٠٠٣ - ١٠٠٥

(٧) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر السابق . ج٢ ص ٤٦٥ - ٤٩٩

(٨) ترجم القصة الى اللغة العربية يوسف غصوب . ونشرها في مجموعة الشهوات العربية

(٩) دانتي الجيري ، الكوميديا الالهية ، الجحيم . ترجمة حسن عثمان ، ط ٢ دار المعارف بمصر . ص ١٣ - ٧٧ من المقدمة

عبد المطلب صالح . دانتي ومصادره العربية والاسلامية . الموسوعة الصغيرة ، منشورات وزارة الثقافة والفنون . الجمهورية العراقية ١٩٧٨

الفصل السابع

احياء العلوم القديمة

- النهضة عصر انتقال ٢ – النهضة حركة بورجوازية
- حكم الاستبداد في المدن ٤ – فن الر
- روح عصر النهضة ٦ – الفردية وتقدير الطبيعة
- الحركة الانسانية ٨ – احياء العلوم القديمة ٩ - بترارك
- بوكاشيو ١١ – التاريخ ١٢ – الفنون ١٣ - ليوناردو دافنشي
- ميخائيل انجلو ١٥ – فن البندقية ١٦ - النحت ١٧ - الهندسة المعمارية
- بنفينو توتشيليني ١٩ – آريستو وتاسو ٢٠ – انحطاط حركة النهضة الايطالية
- الفن والادب في المانيا ٢٢ – ايرازموس ٢٣ - اختراع الطبعة ٢٤ - العلماء
- الان ٢٦ – تشرسر ٢٧ – فرانسوا فيون ٢٨ – الادب الاسباني

١ - النهضـة عصـر انتقـال

كان عصر النهضة عصر انتقال اذ كان نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، كان خاتمة ومقدمة ففي اواخر العصور الوسطى اصبحت الحياة والفكر على درجة عالية من غنى المحتوى وتنوع الصور والاشكال بحيث لم يعد بامكانها ان تجرى في القنوات القديمة ويعتبر اغلب المؤرخين المحدثين القرنين الخامس عشر والسادس عشر عصر النهضة (١٤٠٠-١٦٠٠) ، ويحصر قسم من المؤرخين عصر النهضة بين سنتي ١٤٥٠ و ١٦٥٠ .

وعصر النهضة متعدد الجوانب ، يؤلف الاهتمام ببعث الاداب اليونانية والرومانية القديمة جانبا واحدا منها فقط . ثم ان هذا العصر لم ينبثق فجأة ولم يظهر ماازدهر فيه من فكر وفن بغتة .

فلم يتوقف الفكر في العصور الوسطى عن الحياة والنمو . وعلينا ان نعود الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر لنلاحظ التغيرات التي مهدت الطريق لعصر النهضة وقد درسنا بعض هذه التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية في الفصل السادس ، ونوجز هنا اهمها على سبيل التذكير بها . وهي النمو العظيم في التجارة الداخلية والدولية والصناعة ، ونشوء المدن ، وظهور الطبقة الوسطى « الطبقة البورجوازية » في ايطاليا اولا ، ومن ثم في الاراضي الواطئة ، وتشمل الان هولندا وبلجيكا ، والمانيا وفرنسا وانكلترة ، وامتداد العلمنة في اوربا ونعني بذلك اخذ الدول الاوربية بالقانون الروماني بدل القانون الكنسي والقانون الاقطاعي والثورة في التعلم التي احدثها ظهور الجامعات وانتشار الادب العلماني المكتوب باللغات المحلية ، كالايطالية والفرنسية والاسبانية والانكليزية والالمانية . فبعد ان كانت اللغة اللاتينية هي لغة الادب الوحيدة طوال العصور الوسطى ، وبعد ان كان الادب دينيا في روحه ومحتواه ، جاءت هذه الاداب فعبرت عن شؤون الحياة ، ومشكلات الناس باللغات المحلية المحكية .

٢ - النهضـة حركـة مدنيـة

وكان عصر النهضة ، من حيث الاساس ، حركة مدن ، فقد ابتدأ هذه الحركة وامدها بوسائل الحياة : الاغنياء من سكان المدن ، قبل ان يهتم بها النبلاء ورجال الكنيسة بمدة طويلة . وهذا مايفسر سبب نشوء الحركة في ايطاليا بدلا من فرنسا

وتتمتع بثروات كبيرة . طبقة بورجوازية

كانت تضم اعدادا كبيرة من السكان

كبيرة العدد ، غنية ، قوية وكانت هذه المدن الحرة في قبضة طبقة اغنياء التجار وطبقة اشراف الشعب وعلى هذا فقد كانت هذه المدن ديموقراطية بالقياس الى العهود السابقة حيث كانت السلطة بيد النبلاء الاقطاعيين او اساقفة الكنيسة ولكنها لم تكن ديموقراطية بالمعنى الدقيق لكلمة ديموقراطية لان السلطة لم تكن بيد جمهور الشعب . او بيد من يمثلهم وينوب عنهم كان ابناء الشعب في المدن . اي صغار التجار والصناع الحرفيين والعمال الخ . محرومين من حق الانتخاب ، ومن تولي المناصب الحكومية في المدينة وكان كبار التجار والصناع منظمين في نقابات . وهي عبارة عن اتحادات او جمعيات تسير الحكومة المحلية ، وتسيطر على الاسعار وتنظم اجور العمال وساعات عملهم الخ وبناء على هذا كان الصراع السياسي والاقتصادي بين اشراف الشعب وعامة ابناء الشعب يمزق كل مدينة من مدن ايطاليا تقريبا

وخلال هذه الفترة مر كثير من المدن الايطالية بتحولات سياسية سريعة عنيفة من الحكم الارستقراطي الى الحكم الاوليغاركي ، اي حكم طبقــة الاغنياء الى الحكم الديمقراطي . البندقية فقط حافظت على استقرار[illegible] [illegible]رة طبقة اوليغاركية غنية من التجار النبلاء ، وكانت البندقية دولة تجارية بحرية غنية استمدت ثروتها من تجارتها مع الاقطار العربية والشرقية وجزر بحر ايجا والبحر الابيض المتوسط

٣ - حكم الاستبداد في المدن

في القرن القرن الرابع عشر انهارت حكومات المدن المستقلة في جميع اقاليم ايطاليا تقريبا ودخلت المدن . الواحدة بعد الاخرى . في قبضة الحكم الاستبدادي لاحد المغامرين السياسيين الاقوياء الذين اقاموا امارات تختلف عن الامارات الاقطاعية كل الاختلاف هكذا ظهر آل فيسكونتي ، ١٢٧٧ - ١٤٥٠ ، ومن بعدهم آل سفورزاء ، ١٤٥٠-١٤٩٩ ، في مدينة ميلانو ، وعلى هذا النحو ظهر آل مديتشي في فلورنسا وآل ابست في فيرارا ، وآل ربميي في بولونيا ، وآل غليوني في بيروجيا كان يقوم احيانا احد كبار الموظفين المحليين فيتولي على السلطة ويستبد بالحكم وقد يقوم بهذه الحركة [illegible] اسرة غنية [illegible]

[illegible] الكتائب المقاتلة المؤلفة من جنود مرتزقة يؤجرون خدماتهم العسكرية من [illegible] المجاورة التي تنازعها السيادة على ارض او تنافسها في التجارة وكثيرا ما كان [illegible] قادة هذه الكتائب العسكرية بالاستيلاء على الحكم في المدينة والسيطرة عليها [illegible] جميع اولئك الحكام يلقبون انفسهم بلقب دوق . ويحولون الاقليم الذي يحكمونه الى « دوقية » . وعلى هذه الشاكلة اصبحت ميلانو اقوى دوقية في شمال ايطاليا ، وفلورنسا اقوى دوقية في وسطها البندقية وجنوا فقط بقيتا جمهوريتين

وكان سكان فلورنسا يتمتعون بمواهب خاصة ، فارتفعوا الى اعلى مراتب الرقي [illegible] في عصرهم وابدوا من ضروب الفن والعبقرية مادعا المؤرخين الى اعتبار فلورنسا احد المصادر الاولية للثقافة الحديثة .

وانفردت روما عن سائر الامارات الايطالية بمميزات خاصة فقد كان البابا رئيس الروحي للكنيسة وكان الى ذلك امير دولة في وسط ايطاليا ، يقيم العدالة [illegible] السكان ، ويسك النقود ، ويشن الحروب على جيرانه ، تماما كما كان يفعل [illegible] امير اخر ، سوى انه لم يكن بامكانه ان يؤسس امارة وراثية في اسرته ، بسبب [illegible] كونه قسيسا ارتقى الى السدة البابوية بانتخاب مجمع الكرادلة له

وتاريخ هذه الامارات في عصر النهضة معقد ، يجيش بمؤامرات القصور الدبلوماسية السرية ، والضرائب القادحة ، وحروب التوسع والغزو ، بما فيها من نصر وهزيمة ، ويزخر بالقصور الباذخة ، والموائد المترفة ، والمراكب الحافلة يسوده الاسراف في الاقبال على الملذات . والترخص في القيم الخلقية . ولكن تاريخ الامارات الايطالية ، في هذه الفترة ، كان له جوانب اخرى هي التي تعنينا دراستها [illegible] فقد شجع اولئك الامراء الثقافة ، وساندوا القائمين بها . ورعوا العلماء والادباء والفنانين [illegible] كان بعض اولئك الامراء متعلمين ، مثقفين ، مشغوفين حقا بالاداب والفنون والعمران [illegible] حتى الامراء اللذين لم يكونوا مهتمين بالامور الثقافية كانوا يتظاهرون بحبهم للثقافة ورعايتهم لاربابها ، مفاخرة ومباهاة ، وحرصا على كسب السمعة الحسنة بين سكان مدينتهم والمدن المجاورة ، واصبح من تقاليد ذلك العصر ان يزين كل دوق بلاطه [illegible] نخبة من العلماء والادباء والفنانين .

وكان اغنياء التجار والصيارفة ، ا[illegible] البنوك ، اول رعاة حركة النهضة

وفرشها بالاثاث المترف .

وعلى هذا فقد اوجدوا العمل للمهندسين المعماريين ، والنحاتين ، والموسيقيين والنجار . والحرفيين واصحاب الصنائع ، والجنائنيين ، ولا عداد كبيرة من الخدم والحشم.ولما كانت حكومات الامراء المستبدين تستند الى ابناء الطبقة البرجوازية ، ولما كانت الثروات التجارية في ايطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ثروات طائلة ، اصبح تقدم الاداب والفنون يعتمد اعتمادا كليا على دعم الامراء والاغنياء ورعايتهم . وكان لهذه الرعاية والحماية التي يسبغها الامراء والاغنياء على الاداب والفنون فوائدها ومضارها.فهي من جهة تدعم الفنانين والمؤلفين والموسيقيين بما توفر لهم من رسائل العيش وادوات العمل ولوازمه . وهي ، من جهة اخرى ، تشجع على ظهور روح العبودية ، والتملق والتزلف ، والنفاق ، والاغراق بالمدح والتسبيح والتمجيد لرعاة الاداب والفنون .ومع ذلك فقد بلغت الاداب والفنون ، في عصر النهضة ، مستوى رفيعا . (١)

٤ – فن الرسم

قامت ايطاليا باكبر قسط في تاريخ التصوير ، فمهدت بذلك لنهضة الفن الحديث .ولم تتوقف حركة التصوير عن الحياة بعد انهيار الامبراطورية الرومانية وانما اصبحت في العصور الوسطى ضعيفة مشوبة بصبغة دينية .لقد أصبح الفن محصوراً في ملء مساحات معينة على الحيطان لاغراض دينية معينة ، وفي صيغ زخرفية مخصوصة .وكانت اشرف المباني في العصور الوسطى هي الكنائس ، فكان لزاما ان تكون صورها دينية ، وكان على الفنان ان يدمج الشعور الديني بجمال التكوين وبهاء التلوين ، وغاية امنيته ان يقوم باجمل اعماله الفنية للكنيسة .وفي عصر النهضة انطلق الفن انطلاقة عظيمة ، وازدهر ازدهارا رائعا ، بسبب اقبال الاغنياء والمتنفذين عليه وطلبهم له .فقد كان البابوات والكرادلة والاساقفة والامراء واغنياء التجار يريدون

ان ترسم صورهم لتخليد ذكراهم ، وتطلعوا الى تجميل قصورهم وتحليتها بالرسوم والتماثيل ، وتنافسوا في ذلك تنافسا عظيماً ، فقدم الفن وشجع الفنانين .

واهم ملامح عصر النهضة هو النظرة الجديدة للحياة ، فقد كان مجتمع العصور الوسطى منسجما وموحدا نسبيا ، حيث كان يحيا كل فرد داخل طبقته ، مستقرا في مرتبته الاجتماعية او حالته المدنية .واما المجتمع في عصر النهضة فكان متعدد العناصر واسع التباين في فئاته . ولم تكن الحدود التي تفصل بين طبقاته واضحة ، كما كانت الحال في مجتمع العصور الوسطى . وزيادة على ما تقدم كان الناس في العصور الوسطى يحسون احساسا واعيا بانتمائهم الى جماعة ما ، سواء كانت تلك الجماعة طبقة ، او شعبا ، او نقابة او جمعية . وبعبارة اخرى كان شعور الانسان بانه ينتمي الى جماعة ابرز من شعوره بشخصيته المتفردة وذاتيته المستقلة .

واما في عصر النهضة ، فمع انحلال النظام الاقطاعي ، ونشوء المدن ، وتضاؤل سلطة الكنيسة ، فقدت التجمعات السابقة قوتها ، وظهرت الفردية .لقد ولد في عصر النهضة انسان جديد ، يشعر بذاته المستقلة ، ويعي هويته المتفردة ، المنفصلة عن كل الارتباطات السابقة .انسان متحرر من كبت الماضي وقيوده وتقاليده .وبكلمة موجزة فرد ثقافي وروحي ، متمرد على السلطة ، له موقفه الخاص ، ووجهة نظره المستقلة ، يفكر كما يرغب ويشاء ، بما يرغب ويشاء ، موضوعي في حكمه على الحياة،واقعي بدلا من ان يكون مثاليا في فلسفته ، دنيوي دنيوي بدلا من ان يكون دينيا اخرويا في ارائه وعقائده وميوله .

٦ – الفردية وتقدير الطبيعة

ان مبدأ الاستبداد نفسه كان شكلا عنيفا ، مسرفا ، من اشكال الفردية وكذلك اتاحت التحولات المتوالية في الاحزاب الحاكمة ، وتكرر اندلاع الانتفاضات والثورات ، الفرصة للمبادرات الفردية . وسير الرجال النابهين الكثيرة ، التي كتبت في عصر النهضة دليل على هذه الروح الفردية .

ومن خصائص روح عصر النهضة تقدير الطبيعة ، والتعلق بروعتها وجمالها . وقد مهد هذا التقدير الجديد للطبيعة لشعور الانسان بفرديته وبكرامته الذاتية . وكان بامكان دانتي ان يقول في منفاه ، على شدة حبه العظيم لوطنه فلورنسا ولكنيسة القديس يوحنا : « وماذا يهم ؟ أليس بامكاني ان ارى في اي مكان احل فيه ضوء الشمس وانوار النجوم ؟ اما التحير فلن يعوزني ابدا » . في هذه العبارة تقدير لشمولية الطبيعة وجمالها ولشموليه الثقافة في ايطاليا في القرن الرابع عشر .

٧ – الحركة الانسانية

ومع ان الدوافع الدينية لعبت دورا في حركة النهضة ، الا انها لم تكن العوامل الحاسمة . وفي الواقع فان الحركة الانسانية الايطالية كانت تتميز بالابتعاد قليلا او كثيرا عن الدين . فمنذ عهد اواخر اباطرة الهوهنشتاوفن فردريك الثاني ومانفريد ، اخذ يسود فلورنسا ميل قوي نحو العقلانية كان يصل احيانا الى حد الالحاد .

« الانسانية » او الانسانوية في اصلها اللاتيني كلمة تصف روح عصر النهضة احسن وصف . ومعنى الانساني اي المشارك في الحركة الانسانية ، هو الشخص المهتم بثقافة عصره ، والمتمكن من عناصر هذه الثقافة الى حد ما . لقد كان يسود العصور الوسطى مبدأ السلطة ، والنظام الثقافي والفلسفي والديني الموحد . ولكن عندما اعترفت الفلسفة المدرسية بالعقل عنصرا حاسما في الفكر ، فتح الباب لعالم من الافكار الجديدة ومنذ ذلك الوقت اصبح العقل ، باعتباره احد مصادر المعرفة ، يتقدم بسرعة ، حتى تجرا ، في النهاية ، على ادعاء التفوق على الايمان .

٨ – احياء العلوم القديمة

في اواخر القرن الثالث عشر كانت المعرفة بالاداب الرومانية القديمة منتشرة ... فجيوفاني فيلاني ، وهو اول مؤرخ فلورنسي مشهور ، كان مطلعا على مؤلفات سالوست ، وليفي ، وفيرجيل ، ولوكان وقد وبخ احد الرهبان ، في

... ١٣١١ ، لانه كان منهمكا بدراسة الادب اللاتيني القديم الى حد انه اهمل واجباته ... على ان احياء الاداب والعلوم القديمة اصبح حركة واسعة على يد جماعة من الانسانيين ، التابعين ، واولهم ، وابعدهم شهرة ، ١٣٠٤ – ١٣٧٤ وهو اول ... عصري في اوربا وبوكاشيو ، ١٣١٣ ، ١٣٧٥ ، وهو اول قاص عصري ... جيوتو ١٢٦٦ – ١٣٧٧ ، وهو اول رسام عصري .

٩ – بترارك

كان بترارك نجم الصباح في عصر النهضة . وتقوم شهرته الادبية على ... والسونيتات ، وهي قصائد وجدانية ، شفافة العاطفة ، رقيقة الالفاظ ، ناعمة الاسلوب ، وهو يتميز كذلك كعالم بالاداب القديمة . وفي الحق يمكن اعتبار بترارك اول من ابتدأ حركة الاداب القديمة ، وأول مؤسسي المعرفة الجديدة . كان يبحث عن المخطوطات القديمة بحماسة واندفاع وكانت رسائل الفيلسوف والخطيب الروماني البليغ شيشرون اهم المخطوطات التي عثر عليها . وقد حرر ، ونشر ، نصوص كثير من قدماء المؤلفين اللاتين . وقد عبر عن تقديره للقدماء من اعلام الادب اللاتيني وعن روح حركة احياء الاداب القديمة ، في مؤلفه المشهور رسائل الى المؤلفين القدماء . وكان تأثير بترارك على التعليم عظيما . فقد ادان استخدام موضوعات اللاهوتية والفلسفة المدرسية في المدارس . وانتقد الاغراق في دراسة المنطق والجدل وبذل جهدا عظيما لاقامة التعليم على اساس الاداب القديمة . وكانت ... هذه الحرية التي حمل لواءها عدد من الادباء والعلماء بعد بترارك ، وخاصة ... فيتورينو دا فلترة ١٣٧٨ – ١٤٤٦ ، هو واضع منهج الدراسات الكلاسيكية في عصر النهضة ، وهو المنهج الذي لم يتغير الا قليلا حتى نهاية القرن التاسع عشر .

١٠ – بوكاشيو

كان بوكاشيو من المعجبين ببترارك . وقد ارسل له مخطوطة ملحمة دانتي الكوميديا الالهية ، باجزائها الثلاثة : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ، ومجموعة

من مؤلفات شيشرون وفارو . وبهذا توطدت بين هذين الاديبين واحدة
اعظم واشهر الصداقات الادبية في التاريخ . وكان لا يقل عن استاذه بترارك في تحمس
للاداب والثقافة اللاتينية القديمة ,وقد اكتشف عددا من المخطوطات الضائعة لمؤلفين
رومان ، وكان معجبا بصورة خاصة بـ « ليفي » و « تاكيتوس » ، وهما اعظم المؤرخين
الرومان القدماء ,وهو الذي اكتشف المخطوطتين الفريدتين لكتابي تاكيتوس المشهورين
« التواريخ » والاجزاء الاخيرة من « الحوليات » وكان بوكاشيو أول رجل مشهور في
اوربا الغربية الحديثة يعرف اللغة اليونانية ، وبهذا كان باعث الدراسات اليونانية ، وقد
تعلم اليونانية من عالم بيزنطي قدم الى البندقية من القسطنطينية حوالي عام ١٣٦٠
فدعاه بوكاشيو الى فلورنسا واستضافه ثلاث سنوات في داره ، فعلمه اليونانية وترجم
ملحمتي هوميروس الالياذة والاوذيسة الى اللغة اللاتينية .

وتقوم شهرة بوكاشيو على اساس كتابه الخالد « دي كاميرون » ، اي الايام
العشرة,ويحتوى على مئة قصة صغيرة مكتوبة نثرا . ويؤلف الكتاب اقدم مجموعة
من القصص الخيالية في الآداب الاوربية الحديثة بعض هذه القصص مستمد
من الآداب القديمة ، وبعضها مطبوع بطابع العصور الوسطى ، وبعضها مستوحى من
قصص هندية وعربية عرفها الاوربيون لاول مرة اثناء الحروب الصليبية ,على ان بوكاشيو
روى هذه القصص جميعا باسلوب ممتع اخاذ ينبض بالحياة ، ولهذه القصص قيمة
تاريخية كبيرة بالاضافة الى قيمتها الادبية لانها تعبير واقعي عن عادات عصر النهضة
وروحه . وقد استمد منها تشوسر وشكسبير وبراوننغ وتنيسون وغيرهم من ادباء الانكليز
واوروبا كثيرا من موضوعات قصائدهم وقصصهم ومسرحياتهم,ويمثل اشخاص
قصص بوكاشيو مختلف اصناف الناس في فلورنسا في القرن الرابع عشر ، كالقسس
والنبيل ، والتاجر ، والفلاح ، والجندي ، والصعلوك ، وبنات الشوارع وسيدات المجتمع
وتختلف القصص في محتواها واسلوبها ,فهي تارة محزنة فاجعة ، وتارة هزلية مضحكة
وهي على الدوام تفيض بالدعابة ، والملحة ، والنقد والالتفاتات البارعة . وبعض النقد
موجه لرجال الكنيسة الذين استهوتهم متع الدنيا فعبوا منها ، وانغمروا في تيارها الجارف

١١- التاريخ

ومن الانواع الادبية التي ازدهرت في عصر النهضة التاريخ . فالمؤلفات القديمة
في الحوليات والاخبار التاريخية التي كانت الشكل السائد في التأليف التاريخي طوال
ثمانية قرون ، ٤٠٠-١٣٠٠ ، اخذت تتضاءل ويقل الاقبال عليها في القرن الرابع
عشر . ونمو الطبقة البورجوازية ، وانحطاط سلطة الكنيسة ، وازدياد علمنة اوربا ،
استدعت ظهور نمط جديد من المؤلفات التاريخية هو* اخبار المدن التي تؤكد على
الشؤون الدنيوية ، وتكتب باللغات المحلية بدلا من اللغة اللاتينية التي كان يكتب بها
القسس ,وتعتبر هذه المؤلفات حديثة بروحها واسلوبها ,وكانت فلورنسا تتقدم غيرها
من المدن الايطالية في كتابة التاريخ كما كانت تتقدمها في الشعر والقصص ، والفنون
وأول المؤرخين جيوفاني فيلاني الذي توفي في اعوام الطاعون ١٣٤٨ واخرهم غويشيار
ديني المتوفي سنة ١٥٤٠ . وخلال هذين القرنين ظهر في فلورنسا وحدها اثنا عشر
مؤرخا مشهوراً ويعتبر اثنان منهما على الاقل من النوابغ وهما مكيافيلي وغويشيارديني .

ويمكن القول ان علم الاحصاء قد نشأ في فلورنسا والبندقية في هذه الفترة
فالمؤلفات التاريخية لعصر النهضة مليئة بالمعلومات عن السكان ، والايرادات والضرائب
والتجارة المحلية والدولية والاسواق ، والمصارف وعمران المدن ، والرواتب ، والاجور ،
والاسعار ، وغير ذلك .

ويستعرض مكيافيلي ، المتوفى سنة ١٥٢٧ ، في كتابه "تاريخ فلورنسا"
صراع القوى السياسية المختلفة ، ويحلله تحليل المؤرخ المدقق . وفي كتابه الامير
وهو من اعظم الكتب في طبيعة الحكم ، يحلل ميكيافيلي ويعلل الاستبداد المستنير ،
الذي عم ايطاليا ، والى حد ما ، اسبانيا وفرنسا حوالي سنة ١٥٠٠ ، ورسالة مكيافيلي
عن المؤرخ الروماني ليفي ، تضم سلسلة من المقالات التي تحلل بعمق وتدقيق نظرية
الحكم وطبيعته.

واما غويشيار ديني ، المتوفي سنة ١٥٤٠ ، فهو مؤلف "تاريخ فلورنسا"
"تاريخ ايطاليا" . ويتناول الكتاب الاخير تاريخ ايطاليا بعلاقاته مع التاريخ الاوربي

والاهتمام بالطبيعة وتضاؤل العاطفة الدينية التي كانت تغمر فن العصور الوسطى ، والاهتمام بتصوير الوجوه ، وانتصار الهلينية والفن الوثني .وتوضح اعمـــــال فرا بارتولوميو ، ١٤٧٥- ١٥١٥ الصراع بين الدين والطبيعة ، بين التقوى والوثنية .وقـــد استطاعت عبقرية رافائيل التوفيق بين هذه العناصر المختلفة ، المتضادة ، والمتعاديـة احيانا . ولعل هذا هو السبب في ان الناس اعجبوا برسومه كما لم يعجبوا بصور اي رسام آخر

١٣- ليوناردو دافنشي

كان ليوناردو دافنشي واحدا من اكابر عظماء التاريخ البشرى ، فهو رسام ، ومهندس معمارى ، ومهندس ميكانيكي ، ومخترع ، وعالم طبيعي ، وعالم نفساني وفيلسوف . ومع ان ليوناردو دافنشي مولود في فلورنسا الا انه قضى حياته فـــي خدمة آل سفورزا دوقات ميلانو وقضى السنوات الثلاث الاخيرة من حياته في خدمة ملك فرنسا فرانسس الاول

امضى ليوناردو دافنشي حياته يبحث عن سر الطبيعة الخفي ، ويحاول الوصول الى الشئ الذى لا يمكن الوصول اليه ، وهو يمتاز بحس جمالي قوي ، وبراعـة تقنية فائقة ، وتمتاز لوحاته بخاصية لا يمكن تعيينها هي ضرب من السر الخفـــي ، او السحر ، تتحدى التعريف والتحليل ، والمشاهد مع ذلك يحس بما في هـــذه اللوحات من سحر وجاذبية .وتظهر هذه الخاصية في صورة موناليزا و « رأس السيـــد المسيح » .ويبدو ليوناردو في صوره مفكرا مغرقا في قضايا الفكر والثقافة .فالوجـــوه ، في طورة ، يشع منها لطف الادب ، والرقة والحنان والثقافة والفكر النفاذ .

ميخائيل انجلو

يختلف ميخائيل انجلو عن ليوناردو دافنشي بنشأته وشخصيته .فهو بتميــــز بفردية عاصفة ، ويجمع بين فخامة الاساليب وعظمة الموضوعات وكان ، مـــن

...ية التقنية ، ورساما عظيما ، و... بانيا فذا ، كما تشهد على ذلك اللوحات الجصية ...كنيسة سيستين .وكان يفضل ان يتناول موضوعاته من العهد القديم لا مـــن ...العهد الجديد ،وكان مولعا بتصوير انبياء اليهود ، وشخصيات الاساطير اليونانيــة ...والرومانية . وعندما كان يتناول موضوعات العهد الجديد فانما يفعل ذلك من وجهة ...نظر لا هوتية لا من وجهة نظر عاطفية .ولوحته عن « يوم القيامة » مثال على ذلـــك .

١٥- فن البندقية

كانت مدرسة البندقية اخر مدرسة تظهر في ايطاليا ، ومؤسسها هو جيوفاني ...بلليني المتوفى سنة ١٥١٦ . واهم خصائص فن البندقية الاحساس العميق با للـــون ...الذي اتخذه الفنانون عن بيزنطة .فقد كان اللون هو العنصر المهم الذي يكــــاد ...يجعل الخط والشكل بالقياس اليه شيئا لا قيمة له . وكانت الالوان الجذابة تبـــدو ...مشرقة على الجدران والابنية ، وفي النقوش والفسيفساء وفي السماء الزرقاء فوق ...البندقية ، ومياه البحر اللازوردية المحيطة بها . وقد زاد استعمال الاصباغ الزيتية ...الالوان غنى وتألقا واشراقا .ويظهر في فن البندقية مايظهر في سيينا وفلورنسا مـــن ...المشاعر العاطفية العميقة ، والتقوى الدينية ، والروحانية . وظل فنانو البندقية يصورون ...الموضوعات الدينية ولكن الروح الدينية لم تعد موجودة فيها . واخيرا تغلبت المشاعر ...الحسية ، في فن البندقية ، على كل شئ ما عدا اللون . واهم الفنانين الذي تتمثل ...فيهم هذه النزعة الحسية تينتوريتو ، ١٥١٨-١٥٩٢ ، وقد امتاز بسرعـــة العمـــل ، ...والاسلوب الثائر ، وقوة الصنعة . وباولو فيرونيز ، ١٥٢٨-١٥٨٨ ، وكان قمة فن ...البندقية في الزخرفة والالوان . وتيتسيان ، ١٤٧٧-١٥٧٦ ، وكان اعظم مـــن ...استخدم الالوان في العالم ، وهو اخر فناني البندقية ، واعظمهم اطلاقا،وعندمـــا ...كانت حركة النهضة تمر في مرحلة الانحطاط في جميع ايطاليا .

١٦ - النحت

كان النحت هو الوسيلة الرئيسة للتعبير الفني عند اليونانيين . وكان التصوير هو الشكل الرئيسي في التعبير الفني في عصر النهضة . ومع ذلك فقد ظهر في ايطاليا عدد من النحاتين المشهورين اقدمهم نيكولا بيزانو المتوفى سنة ١٢٨٠ ، وقد استوحى نماذجه من بقايا التماثيل الرومانية . واعظم النحاتين في القرن الرابع عشر غيبرتي ١٣٨-١٤٥٥ ودوناتيلو ، ١٣٨٦-١٤٦٦ واما اشهر النحاتين الايطاليين اطلاقا فهو ميخائيل انجلو الرسام الشهير .

١٧ - الهندسة المعمارية

كانت العمارة احدى التجليات المهمة لعصر النهضة . ومن الخصائص المميزة للعمارة الايطالية تأثرها بالعمارة الرومانية لا بالعمارية اليونانية القديمة ، وان كان الفن الروماني نفسه مدينا للنماذج اليونانية القديمة في العمارة ، وما اضافه الرومان لهذا الفن لا يتعدى القبة والقوس. وقد اهمل عصر النهضة فن الرومانسيك ، والفن القوطي، وكاتدرائية ميلانو فريدة في كونها البناء الوحيد من الطراز القوطي الذى انشئ خلال عصر النهضة باسره ، وحتى في هذه الكاتدرائية لم يكن الفن القوطي خالصا .

ومما له دلالة على روح العصر الدنيوية ان معظم الابنية الجديدة لم تكن دينية وانما كانت ابنية مدنية انشأتها البلديات ، او قصور بناها الاغنياء لانفسهم . ومن النماذج المهمة لهذه الابنية قصور الدوجات في البندقية ، وقصور الأمراء والاغنياء في فلورنسا ، وميلانو وجنوا وغيرها من المدن الايطالية . ويضم شارع واحد في جنوا تسعة من اهم القصور في ايطاليا . وتغص روما بقصور البابوات والكرادلة والنبلاء ، والصيارفة . وتمتاز العمارة الكنسية في عصر النهضة الايطالية بخاصيتين مهمتين هما : -

الابراج والقباب ، وكانت الابراج تستخدم [illegible] لنواقيس الكنيسة

واشهر هذه الابراج هي برج البندقية ، وبرج بيزا المائل ، وبرج كاتدرائية فلورنسا الذى صممه جيوتو ، وهو اجمل الثلاثة ، ويبلغ ارتفاعه ٢٩٢ قدما . وهو مقسم الى اربع طبقات ومزخرف زخرفة غنية بالرخام الملون . واكثر قسمات هذا البرج تأثيرا في نفوس المشاهدين النوافذ التي تزداد طولا بازدياد الارتفاع ، بحيث يحمل العين صعداً وهي تحدق في البرج ، وتترك في نفس المشاهد شعورا بالتحليق والخاصية المهمة الثانية للعمارة الكنسية هي القبة . وقد اقتبس مخطط القبة من قبة ايا صوفيا في القسطنطينية التي انشأها الامبراطور جستنيان في القرن السادس .

وقبة القديس بطرس في روما هي اعظم قبة لا في ايطاليا وحدها وانما في جميع العالم المسيحي .وقد صممها برامانت المتوفى سنة ١٥١٤ انفذها ميخائيل انجلو

١٨ - بنفينيوتو تشيليني

ميخائيل انجلو المتوفى عام ١٥٦٤ ، وتيتسيان المتوفى عام ١٥٧٦ ، وبنفينيوتو تشيليني المتوفي عام ١٥٧١ هم اخر عباقرة عصر النهضة في ايطاليا . وكان تشيليني صائغا ، ونحاتا ، وكاتبا .ويعتبر تمثال برسيوس الذي صنعه في فلورنسا من اعظم تماثيل البرونز في العالم . وهو يقدم ، في سيرته الذاتية ، صورة حية للصعوبات التي لقيها اثناء صب التمثال .وهذه السيرة الذاتية ، التي كتبها تشيليني ، وهي من اشهر السير الذاتية في الاداب العالمية ، هي اعترافات رجل ذى نزعة فردية حادة ، يجسد كثيراً من خصائص عصره الممدوحة والمذمومة . ولعل أي كتاب آخر لا يكشف عن جوعصر النهضة كما تكشفها هذه الاعترافات .

تعلم تشيليني الرسم من ليوناردو دافنشي وميخائيل انجلو ، وتعلم الكتابة من بترارك بوكاشيو .وكان فنانا موهوباً ، وجنديا مقداما ، وسريا مهذبا ان شاء ، ومدعيا قاتلا ان اراد . وتصدق عليه هذه الصفات جميعا (٤) .

١٩ - آريستو وتاسو

آخر المشهورين من ادباء عصر النهضة الايطالية هما الشاعران اريستو ١٤٧٤ - ١٥٣٣ وتوركاتو تاسو ١٥٤٤ - ١٥٩٥ . ويمثل كلاهما نوعا من الشعر لم يعرف في ايطاليا وان كان معروفاً شائعا في الاقطار الاوربية الاخرى : الا وهو الشعر الرومانتيكي اى الشعر الابداعي او الوجداني الخيالي . ولم يقبل الايطاليون ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، على هذا النوع من الشعر ، على ما كان لهم من مواهب ادبية متنوعة الجوانب ، لانهم كانوا ينزعون نزعة واقعية تجعلهم لا يسيغون هذا الشعر الوجداني المحلق على اجنحة الخيال . وقد نظم اريستو ملحمة شعرية عنوانها اورلاندو فيريوسو تدور حول مآسي بطل الملاحم الشعرية الفرنسية في العصور الوسطى اولاندو ،واما تاسوفيمجد في ملحمته الشعرية « القدس محررة » تاريخ الحملة الصليبية الأولى . وفي كلتا هاتين القصيدتين الطويلتين تجد الاطناب والمبالغة المسرفة في كل شيء : في الوقائع ، والافكار ، والمشاعر ، والتعبير ، ونلمس في هاتين القصيدتين كل اعراض انحلال عصر النهضة الايطالية .

٢٠ - العلاقة بين التحولات الاقتصادية وازدهار العلوم والفنون :

دأب الناس عموما على ان يروا في عصر النهضة مجرد حركة أدبية وفنية فقط ولم يدرك الا القليلون ان ثورة اقتصادية مهمة كانت تحدث في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . فنهوض المدن منذ القرن الثاني عشر ، وقيام ... برجوازية تعود بدرجة رئيسية الى التوسع الهائل في التجارة الدولية والى نمو الصناعة ؛ وما رافق نمو التجارة والصناعة من نمو الحركة المصرفية وازدهارها . وقد سيطرت البندقية ، منذ الحروب الصليبية ، على التجارة مع اقطار المشرق ، فكان لها مناطق تجارية في القسطنطينية ، والاسكندرية وموانئ سوريا ، والبحر الاسود . وكان المنافس الرئيس لها في هذه التجارة المربحة هي جنوا ، وكانت المدن اللمباردية في شمال ايطاليا تنقل السلع المجاورة ... ق ، عبر ممرات جبال الالب ، الى

... اوربا الشمالية . وبهذه الوسيلة ازدهرت المدن اللمباردية ، وتراكمت الثروات فيها . على ان المدن الداخلية ، وخاصة في لمبارديا وتسكانيا ، كانت ... بالصناعة اكثر من عنايتها بالتجارة . وكانت صناعة الانسجة الصوفية اعظم الصناعات . ومع توافر الصوف في ميلانو وتسكانيا كان يستورد الصوف الاجنبي من انكلترة واسبانيا . وكانت فلورنسا تملك مهارات فائقة في ندف الصوف وتمشيطه وغزله ، مما مكنها من الصمود لمنافسة انكلترة والفلاندرز في صناعة ... لفترة طويلة . وازدهرت في فلورنسا نقابة صناع الصوف المسماة لانا ، ونقابة تجار الصوف المسماة كاليمارا ، وهما شركتان كبيرتان ، ذاتا نفوذ وسلطان عظيم ، ... كانت لهما فروع في معظم اقطار اوربا والمشرق . وهذا التبادل الدولي الناتج عن التجارة الخارجية الواسعة انتج بدوره حركة مصرفية مزدهرة ، وخاصة في ... يا والبندقية .وكانت فلورنسا في المقدمة حيث كان فيها ثمانية مصارف في النصف الاول من القرن الرابع عشر .وقد ازداد رأس المال في فلورنسا بالاموال التي كان الباباوات يودعونها في مصارفها .وفي ايطاليا نشأت الاساليب الجديدة في المعاملات المصرفية والتجارية والمحاسبة ، كالطريقة المزدوجة في مسك الدفاتر ، والقروض والتأمين ، والشركات المساهمة ، والاعتمادات ، والتبادل . والحوالات المالية والاجنبية الخ ومن ايطاليا انتشرت هذه الطرق المصرفية والتجارية الجديدة الى ... انيا حتى عمت جميع الاقطار الاوربية .

ومن الجدير بالملاحظة هنا هذا التشابك والتلاحم بين تطور النظريات العلمية ... ؛ وتطور الاقتصاد ونمو المجتمع وازدياد حاجاته . يقول مؤرخ تاريخ العلم المشهور جورج سارتون في مجلة ايزيس (المجلد ٢٥ ص ٤٦ - ٤٧) جاء الدافع الرئيس لدراسة الرياضيات ، اكثر فاكثر ، من المتطلبات المباشرة للتجارة ... يتعلق بها من حاجات المدن المتنامية المتوسعة . لقد جاء الدافع لدراسة الرياضيات ... السفن التي تمخر في اعالي البحار ، ومن ... علم المحاسبة التجارية ... الخرائط ، وعلم الفلك ... لم يكن البحار ... هم هم الذين اهتموا بفن

رسم الخرائط وشرحوه ، ونشطوه . وانما عملت على تطويره جهات وهيئات اخرى كالدولة المركزية . والمدن ، وضرورات الحروب والادارة .ولم يهتم بعلم الفلك الجغرافيون والبحارة فقط ، وانما اقبل على دراسته كل من كان لهم ولع واهتمام بالتنجيم . وقد ازداد اقبال الناس على التنجيم لكشف ما يخبئه لهم المستقبل من حظ في تلك الايام الثورية الملأى بالتغيرات والتقلبات وعدم الاستقرار . ومن العوامل الاخرى التي ساعدت على تقدم هذه العلوم اهتمام الرسامين وغيرهم من الفنانين بالهندسة . وكذلك اهتم بهذه العلوم المهندسون المعماريون والميكانيكيون لحل ما يعترضهم من المشكلات في اعمالهم المتزايدة المتنامية ، كالمجاري ، والسدود والطواحين الهوائية ، والمرافق الصحية في المدن ، وفي الصناعة عموما . هذه العوامل المختلفة جميعا فتحت امام العلوم الرياضية مجالاً واسعة . وقد اضطرت هذه الحقيقة الواقعة الكليات والجامعات الى ان تعيد النظر في المناهج الدراسية ، فتخصص اوقاتا متزايدة لدراسة الرياضيات والعلوم المتعلقة بها » .

٢١- انحطاط النهضة الايطالية

في حوالي منتصف القرن السادس عشر اصبحت حركة النهضة الايطالية في حالة انحطاط شديدة ، ولكن روح النهضة الايطالية ، وشكلها ، واسلوبها في العمل والممارسة ، كانت في ذلك الوقت قد انتشرت في اقطار اوربية اخرى . وكانت فرنسا الوريثة المباشرة للنهضة الايطالية في الاقبال على دراسة الآداب والعلوم ، وفي الروح الادبية ، والتقاليد الفنية الايطالية .

٢٢- حركة النهضة في الاقطار الشمالية

جاءت حركة النهضة ، خارج ايطاليا ، والتي تسمى احيانا بـ « نهضة الاقطار الشمالية » اي المانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وانكلترة » جاءت متأخرة عن النهضة الايطالية . فقد ظلت العصور الوسطى ، بروحها وتواليها ، باقية في الاقطار الواقعة وراء جبال الالب مدة اطول مما بقيت في ايطاليا ، ولم تمت فيها الاقطاعية والفروسية

الا رويدا بطيئا ، استغرق زمنا طويلا . واذا استثنينا بلجيكا والمانيا لم تكن الطبقة البورجوازية في هذه الاقطار كبيرة ، ولم يكن فيها من المدن الكبيرة الا عدد قليل . وكان الدين يؤخذ بشيء من الجد في هذه الاقطار ، في حين كان الناس في ايطاليا ينظرون اليه بشيء من الخفة ، او يضفون عليه طابعا وثنيا ، او لا يهتمون به اطلاقا ، وكان الفن الطبيعي ، والادب المكتوب بلغة الشعب ، اى الالمانية والانكليزية ، هو اداة التعبير الرئيسة.وقد تأخر فن العمارة الكنسي لان الروح الدينية في هذا العصر كانت منصرفة الى تأسيس الطوائف الدينية ، وتأييد البدع المنشقة عن الكاثوليكية . وبالمقابل ازدهرت الهندسة المدنية في مدن بلجيكا والمانيا ، حيث ما يزال كثير من بنايات البلديات ومقرات النقابات ، والمخازن التجارية قائمة تذكر بماضي هذه المدن .

وكانت الفلاندرز . وبعدها المانيا ، هي السباقة في النهضة الشمالية . وقد بدأت حركة النهضة الفنية في الفلاندرز ، في نهاية القرن الرابع عشر ، بالاخوين هيوبرت وجان فان ايك . وقد رسما مجتمعين «لوحة صلاة الحمل» التي ما تزال موجودة في كاتدرائية غنت . وفان ايك مخترع فن الرسم بالزيت ، الذى سرعان ما اقبل على استعماله الرسامون الايطاليون .

٢١- الفن والادب في المانيا

ازدهر الفن على مختلف انواعه في المانيا : التصوير الزيتي ، وحفر الخشب ، ونقش الخشب ، والطباعة ، والصياغة ، وأول رسام الماني مشهور هو لوكاس غراناخ ، ١٤٧٢ – ١٥٥٣ ، ولكن اشهر الرسامين الالمان هم البرخت دورر ، ١٤٧١ – ١٥٢٨ ، من مدينة نورمبرغ ، وهانس هولباين ١٤٩٨ – ١٥٥٤ من مدينة اوغسبرغ . وكان هذان الرسامان الالمانيان في مستوى الرسامين الايطاليين في عصر النهضة من حيث قوة الخطوط ، ومهارة التقنية . وتعتبر رسوم هولباين – لهنري الثامن ، وآن كليف والسير توماس مور ، وايزاموس – من اشهر اللوحات العالمية ويعتبر كتاب سباستيان برانلت «سفينة الحمقى» ١٤٩٤ ، اول نموذج للادب الشعبي في المانيا .وهدف هذا الكتاب الغريب المتهم هو نقد حماقات ورذائل جميع الاصناف

والطوائف والمهن في المجتمع ، باسلوب رمزي ، حيث حشد الكاتب مختلف الاصناف من الحمقى والمغفلين في سفينة تمخر في بحر الحياة المضطرب العاصف ، فصور حركاتهم وسخر من تصرفاتهم ، وكشف عن رذائلهم ومعائبهم .

٢٣- ايرازموس

واعظم المشتغلين بالحركة الانسانية خارج ايطاليا ، بل الاعظم من جميع الانسانيين الايطاليين باستثناء "بترارك" هو ايرازموس من مدينة روتردام في هولندا ١٤٦٦-١٥٣٦ ، ويعود اليه بصورة رئيسية ، نشر حركة احياء الاداب القديمة ، وتوسيع مداها . درس في جامعة باريس وبولونيا . وقد عرض عليه فرنسوا الاول كرسي الاداب اليونانية والرومانية في الكوليج دى فرانس التي انشأها لتشجيع الدراسات الانسانية ، فاعتذر ، مفضلا الحرية والاستقلال على كل امتياز ووظيفة . وكان ايرازموس يتنقل بين فرنسا وانكلترة ، وايطاليا ، والمانيا ، حيث يشعر في كل واحدة منها انه في وطنه اخيرا في بازل في سويسرا حيث كان قد استقر صديقه فروبن صاحب المطبعة الشهير . ونشر ارازموس طبعة محققة للعهد الجديد باللغة اليونانيه ، ففتح الطريق للدراسات النقدية للعهد الجديد في نصه اليوناني وللابحاث الحديثة في دراسات الكتاب المقدس عموما . وكتب ارازموس عدة كتب نالت رواجا منقطع النظير عند جمهور القراء ، وما زالت تحظى باقبال جمهور القراء حتى يومنا هذا واهمها "مدح الجنون" وهو مجموعة من الانتقادات لتقاليد الكنيسة البالية ولعادات الناس واوهامهم واباطيلهم ، في عصره ، كتبت باسلوب تهكمي لاذع السخرية و "المحادثات" وهدفه تعليم الاداب العامة والمحادثات المهذبة و "الرسائل" . وكان ايرازموس اول كاتب ينال شهرة عالية في حياته ، واول كاتب يعيش من مؤلفاته دون الاعتماد على الكنيسة او على وظيفة حكومية .

٢٤- اختراع المطبعة

لم يكن بامكان ايرازموس ان يشتهر في حياته ، ويعيش من مؤلفاته ، لولا اختراع الطباعة . لقد بقيت الكتب الافا من السنين تكتب باليد على الطين ، وعلى

البردي والرقوق ، والورق ولم يعرف الاوربيون صناعة الورق قبل منتصف القرن الثالث عشر حيث تعلموها من العرب في اسبانيا وصقلية . ولكن الورق لم ينتشر في اوربا ، ويصبح شائع الاستعمال بين جمهور المتعلمين ، الا في القرن التالي . وفي منتصف القرن الخامس عشر اخترعت حروف الطباعة المعدنية المفردة ، المتحركة ، التي يمكن جمعها وتفريقها . ولم يكن لاي اختراع من التأثير المباشر في الحضارة مايوازي اختراع الطباعة . فقد كانت اول آلة تنتج كميات كبيرة لاحد لها من المطبوع نفسه ومنذ ذلك الوقت اصبح بالامكان انتاج المئات والالاف من نسخ الكتاب الواحد ، بدلا من بضع نسخ كان يكتبها الناسخون المحترفون بايديهم بمشقة وجهد في العصور القديمة ، وفي عهد الاستنساخ في العصور الوسطى . وحتى ذلك الوقت كان الشكل الوحيد من الطباعة الآلية هو الروشم او الروسم ، وجمعها الرواسم ، اى الالواح الخشبية المحفور عليها صور بدائية الصنعة ، مصحوبة ببضع كلمات توضيحيه او بدون كلمات . ويعود اقدم نماذج هذه الالواح الخشبية المحفورة الى عام ١٤١٨ . ولكن من المؤكد ان ال "زيلوغرافيا" اى الحفر على الخشب ، على الاقل لغرض طبع الصور والحروف الكبيرة التي توضع في بداية السطر ، كانت مستعملة في الاديرة منذ القرن الثاني عشر لانتاج المفكرات الدينية المطبوعة على الورق والتي تباع للحجاج . وقد مرت مئتا سنة قبل ان يخطر ببال احد المشتغلين بالطباعة ان بالامكان تفتيت الكلمات المحفورة على اللوحة الى عناصرها اى الحروف المفردة التي تتألف منها الكلمات ، وبذلك يكون تحت تصرف الطباع كمية من الحروف المفردة يستطيع ان يجمعها ليولف منها الكلمات والجمل التي يريد تأليفها . ومن الشائع ان غوتنبرغ اخترع الحروف المفردة المتحركة عام ١٤٥٠ ولكن هناك من الادلة مايثبت ان الطباعة بالحروف المتحركة كانت معروفة قبل هذا التاريخ وقبل ان يطبع غوتنبرغ الكتاب المقدس . واغلب الظن ان فن الطباعة كان قد وجد منذ سنة ١٤٣٠ ، ولكن اصحابه كتموا سره ، ومارسوه سرا ، خوفا من معارضة نقابات النقلة والناسخين ، ولكنه ماعتم ان تسرب وشاعت المعرفة به ، فعم استعماله ولعل ما قدمه غوتنبرغ ، ومعاصروه ، لفن الطباعة ، اقتصر على ادخال

تحسينات فنية وصناعية على مخترعات سابقة لم تصبح شائعة الاستعمال قبل سنة ١٤٥٥ وانتشرت طباعة الكتب في ايطاليا بعد المانيا فقد اسست اول مطبعة في سوبياكو قرب روما سنة ١٤٦٥ .وما عتمت المطبعة ان انتشرت في معظم المدن الاوربية .وقد جرت محاولات عديدة لاحصاء عدد النسخ التي طبعت خلال نصف القرن الاول من عمر المطبعة . واغلب الظن انه طبع بين سنتي ١٤٥٥ و ١٤٩٩ ، حوالي تسعة ملايين كتاب في مختلف اللغات الاوربية ، لم يبق منها الى زمننا الا نحو ٤٠,٠٠٠ كتاب وتعتبر الآن من الاثار النادرة .

٢٥- العلماء الالمان

لم يقتصر ماقدمته المانيا لعصر النهضة على مساهمتها في الآداب والفنون والطباعة ، وانما قدمت الشيْ الكثير لتقدم العلم الحديث .وقد نبغ في المانيا عدد من العلماء منهم : نيقولاوف كوسا ، ١٤٠١-١٤٦٤ ، الذي ولد في اسرة فقيرة واصبح من اشهر علماء عصره ، وتدرج في المناصب الكنيسة حتى أصبح كردينالا انصبت ابحاثه على الهيدروستاتيكا ، اي علم توازن السوائل وضغطها ، وكان بالاضافة الى ذلك فلكيا دقيق الملاحظة .ومن ملاحظه المستديمة للنجوم دون تلسكوب ، لان التلسكوب لم يكن قد اخترع بعد ، استنتج بان الزهرة و عطارد تدوران حول الشمس ، وان الكواكب الاخرى ايضا يحتمل ان تدور حول الشمس وان لم يستطع التأكد من ذلك لان الزهرة وعطارد كانتا داخل فلك الارض ، بينما الكواكب الاخرى خارجه .وعلى هذا فقد استبق نيقولا اوف كوسا ، بقرن ، مااثبته كوبرنيكوس عام ١٥٤٣ من ان الشمس هي مركز الكون .وفي علوم الحياة قدم نقولا اوف كوسا فرضا اصيلا مبتكرا خلاصته انه يحتمل ان الاشكال المختلفة للحياة الموجودة الان في الطبيعة كانت بسيطة في البداية وان الاشكال الجديدة للحياة قد تكون نمت فيما بعد ، بعملية النشوء ، والتفتح ، والتدرج أو التطور ان استباق نظرية التطور الداروينية واضح كل الوضوح هنا .

واعظم علماء الرياضيات الالمان ، في عصر النهضة ، جورج بيرباخ الذي كان استاذا في جامعة [illegible] وتوفي سنة ١٤٦١ .واشتهر تلامذته ريجيو مونتانوس وهو

[illegible] اللاتينية لاسمه الاصلي جوهانيس فون ميلر ، والبرت برودزو . وقد الف ريجيو [illegible] سلاسل منقحة من الجداول الفلكية استند في وضعها على الارصاد الفلكية [illegible] القديمة ، وخاصة على ارصاد علماء الفلك العرب ، واصبح كتابه في الجداول [illegible] الكتاب المعتمد عند جميع البحارة المقدمين في اواخر القرن الخامس عشر ويعود [illegible] كولمبوس ، وبارتلميوديباز ، وفاسكود اغاما ، وماجلان ، من اكتشافات [illegible] ، جزئيا ، الى هذا الكتاب . وهكذا نري ان الارصاد الفلكية العربية ، التي [illegible] تعتبر في زمانها مجرد ابحاث نظرية ، قد ساهمت في انجاح الاكتشافات [illegible] ، وهي من اهم الانجازات العلمية في مطلع العصور الحديثة .

واما البرت برودزو ، او البرتوس برودزفسكي ، ١٤٤٥ - ١٤٩٧ ، فعمل استاذا [illegible] في جامعة كراكاو في بولندا ، حيث درس عليه كوبرنيكوس ، الذى ابطل كتابه الخطير «في دوران الاجرام السماوية» الصادر سنة ١٥٤٣ ، تعليل [illegible] لدوران الكواكب السيارة حول الارض ، واثبت ان الارض وجميع السيارات [illegible] تدور حول الشمس ، وفي هذه السنة نفسها ١٥٤٣ ، أسس فيزاليوس ، وهو [illegible] من مدينة بروكسل ، علم التشريح الاوربي الحديث «الفيزيولوجيا» بكتابه [illegible] الجسم البشري» .

[illegible] - تشوسر

[illegible] انكلترة وفرنسا واسبانيا ، في العصور الوسطى المتأخرة ، عندما كانت الحياة [illegible] ايطاليا والمانيا زاخرة الغنى لم تقدم اي شيْ [illegible] للثقافة فيما عدا الادب وحتى في هذا المجال اقتصر ماقدمته [illegible] منها من جديد على مؤلفات كاتب واحد .في انكلترة نبغ الشاعر جيفري تشوسر [illegible] - ١٤٠٠ ، وكان كاتبا غزير الانتاج ، ولكن المشهور من اثاره الادبية هو [illegible] كنتربري التي نظمها شعرا . روح هذه الحكايات هي روح قصص بوكاشيو ، [illegible] باشخوص الحكايات ، ومشاهدها والاماكن التي وقعت فيها ، فانكليزية .

[illegible] تشوسر بقصص بوكاشيو محتمل جدا فقد زار ايطاليا ، ومكث فيها مدة [illegible] من ، ١٣٧٢ - ١٣٧٣ ، ولا يستبعد انه التقى ببوكاشيو .

كان تشوسر اعظم قاص في انكلترة ، والواضع الحقيقي للغة الانكليزية الادبية . وكان يتخيل تشوسر جماعه من الحجاج مسافرين من لندن الى كنتربرى . وكانوا يشغلون انفسهم وهم يقطعون الطريق برواية الحكايات المسلية ، حول ما مر بهم في حياتهم ، او ما سمعوه با نفسهم . والاشخاص في هذه الحكايات ، والناس الذين التقوا بهم في الطريق ، والمشاهد والوقائع ، الطبيعة ، كل ذلك يؤلف موكبا حافلا للحياة في نهاية العصور الوسطى ، ومع ذلك يحس المرء ، وهو يقرأ هذه الحكايات ، انه على عتبة العصر الحديث .

٢٧ - فرانسوا فيـون

انتج الادب الفرنسي في القرن الخامس عشر رائعة من روائع المسرح "السيد باتلان" وهي رواية فكاهية انتقادية ، مجهولة المؤلف تدور حوادثها حول تصرفات المحامين في تلك الازمان . واما زبدة الادب الفرنسي في القرن الخامس عشر فتوجد في قصائد فرانسوا فيون الغنائية ، وقصصه الشعرية ، ١٤٣١ - ١٤٦٥ ! ، وكان هذا الشاعر العبقرى شخصا متلصصا ، وربما ارتكب جريمة القتل ايضا . وقد اختفى من الوجود دون ان يعرف الناس ماذا حل به ، وكيف مات ، وفي اى ارض دفن . وقد جمع فيون في شعره القوة ، والامانة الفكرية ، ولطافة التعبير ، ورشاقة الاسلوب ، واللغة الفنية المعبرة ويندر ان يجد المرء في اي شعر اوربي مثل هذا البيت الذى يتكرر في احدى قصائد فيون ، تكرر اللازمة في اخر كل مقطع فيلازم فكر القارئ ، وما يفتأ يذكره بقصر الحياة ، وسرعة مرور المتع والافراح ، وزوال الكائنات : واين ، اين ثلوج السنة الماضية ! ومن يقرأ قصيدة المشنوق لا يستطيع ان ينساها لما تثيره في النفس من حس اخلاقي ، وشعور غامر بالرعب .

- ٢٨ - الادب الاسبانـي

اول اديب فنان في اسبانيا هو خوان مانويل مؤلف كتاب ء كونت لوكانور ، ١٢٨٢-١٣٤٧ كان ابن اخي القرن العالم الاديب ملك قشتالة وقد الف اثنى عشر

الفصـــل الثامـن

النهضـــة الاوربيـــــة العامـــة

الاستكشافات الجغرافيـة ونمو الدول الحديثة

١- الاستكشافات الجغرافية والتوسع الاوربي .

٢- البرتغال واسبانيا يبدآن حركة الريادة والاكتشاف الجغرافية .

٣- كولمبوس يكتشف اميركا الشمالية .

٤- اكتشاف اميركا الجنوبية .

٥- انكلترة ٦ - فرنسا ٧ - الاستعمار الاسباني في اميركا .

٨- اثر الاستكشافات الجغرافية على اوربا والعالم ٩ - نمو الدول الحديثة .

١١- اسبانيا تصبح دولة اوربية عظمى ١٢ - البرتغال تصبح قوة بحرية كبرى

١٣- الاراضي الواطئة ١٤ - المانيا ونمو قوة آل (هبسبورغ) .

١٥- ايطاليا .

الاستكشافات الجغرافية والتوسع الاوربي

كان عصر النهضة اكتشافا لفكر جديد ، ولاساليب جديدة في الحياة ، ولبعض ...رعات المهمة وعلى رأسها المطبعة والبوصلة والمدفع : والورق .وحدث في هذه الفترة ...ا شكل آخر من اشكال الاكتشافات ، الا وهو زيادة واكتشاف بحـار جديـدة ...رات جديدة .وكان توسع اوربا الخارجي باكتشاف قارتي اميركا ، واكتشـاف ...طريق البحري ، حول افريقيا ، الى الهند والشرق الاقصى ، توازي توسعها الثقافـي ...داخلي في عصر النهضة .

وكما ان عصر النهضة لم ينبثق فجأة دون اسس ومقدمات . وتطور بطـي ...نكر العصور الوسطى ، فكذلك يمكن القول بان حركة الاستكشافات الجغرافية لم ...فجأة في القرن الخامس عشر : وانما كانت الخاتمة لحركة تضرب في اعماق ...عصور الوسطى . لقد فتح اكتشاف اميركا ، واقامة اتصال مباشر بين اوربا والشـرق ...اقصى ، عهدا جديدا في التاريخ العالمي : وهذا امر لا شك فيه .ولكن يجب ان نعتبر ...الحدث الخطير خاتمة للتوسع الاوربي الذي استمر : بصورة متقطعة : طوال العصور ...سطى . ففي القرن التاسع اكتشف النورسمان ، اهل الشمال ، جميع اوربا الشماليـة ...كتشفوا جزيرتي ايسلندا وغرينلند وسكنوها .واكتشفوا السواحل الشمالية ، ان لـم ...يكونوا قد استوطنوها فعلا . وكانت الحروب الصليبية ، في جوهرها ، حروب توسـع ...ستعمار .وقد حركت هذه الحروب في نفوس الاوربيين حب الاستطلاع للتعـرف ...اقطار جديدة ، وشعوب جديدة ، وعادات جديدة ، ولغات جديدة ، وثقافات ...جديدة وحضارات جديدة ، لم يعرفوها من قبل . وقد ازدادت معارف الاوربيـين ...الجغرافية بترجمة مؤلفات الجغرافيين العرب الى اللاتينيه : فأطلعوا على معلومات مفيدة ...المناطق الداخلية في افريقيا والهند وسيلان وماليزيا والصين وغيرها من الاقطـار ...النائية .

وفتح اكتساح المغول لآسيا ، ماعدا الهند ، في القرن الثالث عشر وقضاؤهـم ...الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ ، المجال للاوربيين ، وكانت علاقتهم حسنة مـع

المنفول ، للتعرف على آسيا وخاصة على الشرق الاقصى . وعندما سدت الطرق البرية
الى آسيا من جديد بوجه الاوربيين ، بظهور المماليك والاتراك العثمانيين وباعتناق
المغول للاسلام ، اخذوا يفكرون في امكانية الوصول الى آسيا بحرا . وكانت نتيجة هذا
التفكير ، والتساؤل . والحاجة الى بضائع آسيا ، والطموح للتوسع ، ان تحولت جبهة
اوربا الى الغرب ، فانتقلت حركة الملاحة الاوربية من البحر الابيض المتوسط الى المحيط
الاطلسي . سقطت القسطنطينية بيد الاتراك في سنة ١٤٥٢ ، وادى سقوطها الى عرقلة
التجارة مع الشرق الى حد كبير . وظل الضغط التركي على اوربا طوال القرن التالي قويا
لم ينقطع ، حيث كانت لهم السيادة على البحر المتوسط حتى يوم معركة ليبانتو سنة
١٧٥١ وكانت البندقية احسن علاقة بالاتراك من جنوا ، ولذا كان الجنويون مستائين
من احتكار البنادقة للتجارة في البحر المتوسط ، فحاولوا ان يجدوا طريقة لاختراق ذلك
الحصار . واخذ البرتغاليون يطورون تجارتهم باتجاه شواطئ المحيط الاطلسي . ولم يكن
الابحار في المحيط الاطلسي سهلا ميسورا ، فهو ذو رياح شديدة ، وامواج عالية
متلاطمة ، وسواحل خطرة ، وقد استدعى كل ذلك وجود السفن الشراعية الضخمة ،
وهذا ما اخذ البرتغاليون يفعلونه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، مستفيدين
من خبرة العرب الذين كانوا على اتصال بهم . (١)

٢ - البرتغال واسبانيا تبدآن حركة الريادة والاكتشافات الجغرافية .

كان العامل المباشر والدافع الاكبر ، لحركة الاستكشافات الجغرافية ، هو
التجارة . فخلال عشرات القرون ، بل وحتى قبل ان يظهر اليونان القدماء في التاريخ
كانت اوربا تستورد السلع الكمالية ، وادوات الترف من الشرق . وقد اصبحت هذه
السلع في اواخر العصور الوسطى ، نتيجةً للعوامل التي ذكرناها فيما تقدم من هذا
الفصل ، عزيزة المنال ، لايمكن الحصول عليها الا باثمان عالية جدا وحوالي عام
١٤٠٠ اتجهت مطامع البرتغاليين للتجارة والتوسع خارج اوربا . وكانت البرتغال قد
استقلت عن العرب ، قبل هذا الوقت بقليل ، حيث وحدها الملك حنا الاول . وكان
البحر الابيض يزخر بالمئات من ... مدن ايطاليا الغنية وخاصة البندقية وجنوا ، وسفـ...

...اوربا الاسبانية . ولهذا وجه البرتغاليون انظارهم الى المحيط الاطلسي ، وبدأوا
...ون مع انكلترا ومدن الاراضي الواطئة .وبحكم علاقات البرتغاليين بالعرب .
...الطويل بهم . اصبحوا يملكون معلومات خاصة عن جغرافية شمال غربي
...يقيا ، وعن شعوبها ومواردها ومحاصيلها . وبالاضافة الى المعلومات الجغرافية التي
...ها البرتغاليون من العرب ، تعلموا منهم اساليب جديدة في صناعة السفن البحرية
...يرة ، القوية المتينة .وتعلموا من العرب كذلك استعمال البوصلة . التي ماكان
...نهم ان يغامروا في الابحار في المحيط الاطلسي دون الاعتماد عليها ، والاسترشاد
...ا في اعالي البحار والمحيطات .

كان الالمان في مقدمة الامم في انتاج الاسلحة النارية المستخدمة في الحروب
...رية . وقد بذل البنادقة والجنويون والاسبان والبرتغاليون كثيرا من الاهتمام والجهد
...ستخدام هذه الاسلحة النارية في الحروب البحرية . وكانت كيفية ترتيب المدفع
...السفن مشكلةأشغلت البحارة والعلماء في القرن الخامس عشر . وقد نجح صانعو
...سفن في تطوير هياكل السفن واشرعتها ، فاصبحت مهيأة لاطلاق المدافع ، وزادت
...منها ، وازدادت حمولة الواحدة منها الى ما بين خمسمئة طن والف طن . ولكن
...فر من اوربا الغربية الى الشرق الاقصى كان يتطلب اكثر من سفن كبيرة . ومدافع
...ربة قابلة للتعديل . كان ذلك السفر الطويل في البحار العاصفة المترامية الابعاد
...اجة الى معرفة متقنة بفن الملاحة . والملاحة تحتاج الى خرائط وجداول وكتب
...د بذلت البرتغال جهدا كبيرا موفقا في هذا السبيل . ويرجع الفضل بما احرزته من
...دمات في الملاحة البحرية الى الامير هنرى الملاح ، ١٣٩٤-١٤٦٠ وهو ثالث
...اء الملك حنا الاول ملك البرتغال .كان الامير هنرى كبير المطامح والمطامع ،
...سع المعرفة بالشؤون البحرية ، ذا مقدرة عظيمة على تنظيم الدراسات والحملات
...ستكشافية . وقد اسس في ساغرس من بلاد البرتغال ، سنة ١٤١٩ ، مرصدا
...ريا ، وجمع فيه عددا من العلماء المسلمين واليهود والنصارى . وكان اولئك العلماء
...كونون زمرة واحدة في الرياضيات والفلك والطب ورسم الخرائط وبناء السفن .

وكانت خرائطهم تصحح بعد كل اكتشاف وتدرب في هذا المرصد رؤساء البحرية والربابنة الذين سلمهم الامير هنري قيادة سفنه . وكانت السفن الشراعية الكبيرة التي صممت في ساغرس تعد خيرة السفن (٢) .

وابتدأ الامير هنري نشاطه البحري باحتلال سبتة ، ومنذ سنة ١٤٢١ شرع بارسال رحلات بحرية استكشافية سرية . وقبل ان يتوفى سنة ١٤٦٠ كان البرتغاليون قد اكتشفوا سيراليون واستعمروها . وفي سنة ١٤٨٤ اكتشفوا مصب نهر الكنغو . وفي سنة ١٤٨٦ اكتشف برتولوميو دياز راس الرجاء الصالح . وبعد اثنتي عشرة سنة ١٤٩٨ ، دار فاسكو دي غاما حول راس الرجاء الصالح ، وابحر الى كاليكوت في الهند بمساعدة مرشدين من البحارة العرب ، فكان بذلك اول بحار اوربي يعبر المحيط الهندي ، ويحقق فتح الطريق البحري بين اوربا والهند والصين . وانشأ البوكيرك ، ١٥٠٤ – ١٥٠٩ ، امبراطورية برتغالية واسعة ، تتألف من مستعمرات عديدة في افريقيا الغربية ، وافريقيا الشرقية ، وغاوة في الهند ، وماكاو على الساحل الصيني . وفي سنة ١٥٠٢ صدر مرسوم بابوي نصب بموجبه ملك البرتغال سيد الملاحة ، والفتوحات ، والتجارة في اثيوبيا ، وجزيرة العرب ، وفارس والهند .. هكذا بدأ الاستعمار الاوربي في افريقيا واسيا ، لنهب خيراتهما واستعباد شعوبهما ، بتأييد من السلطات الدينية التي اضفت عليه الشرعية ، وكأن هذه البلاد لا مالك لها من شعوبها . وسرعان ما اخذت الثروات التي تكاد لا تعد ولا تحصى تتدفق على البرتغال .وبعد سنة ١٤٥٠ صار البرتغاليون يجلبون اعدادا كبيرة من العبيد من افريقيا ، فكانوا بذلك اول شعب اوربي ينظم تجارة العبيد ، ويتاجر بالافريقيين المستعبدين على نطاق واسع . وقد ساهم في كثير من الرحلات البحرية التي قام بها البرتغاليون اعداد كبيرة من البحارة والتجار البنادقة والجنويين والقطالونيين والفلمنك والفلورنسيين ، واقرضوهم الاموال ، وساعدوهم في استعمار جزر الازور والراس الاخضر . وقد خدم مارتن باهام وكريستوفر كولمبوس ملاحين في الاسطول البرتغالي .

ولعل اخطر نتائج الاستكشافات البرتغالية في افريقيا الغربية كان هذا التغير الشامل الذي احدثته في نظرة اوربا الاقتصادية . فقد فتحت المستعمرات البرتغالية في غرب افريقيا عهد الرأسمالية المغامرة التي غيرت وجه العالم .

٣ – كولمبوس يكتشف امريكا الشمالية

واما الاكتشافات التي حققها كولمبوس سنة ١٤٩٢ فكانت اهميتها للبشرة ، في حينها ، اقل من اهمية اكتشافات فاسكودا غاما ، ولكنها ستكون عظيمة الاهمية وسيكون لها شأن عالمي خطير في القرن التالي ومابعده .كان كولمبوس جنويا بالولادة ، وكان يعمل في استيراد السكر من جزر الراس الاخضر والكناري لحساب شركة جنوية ، وكان ملاحا بارعا شغوفا بالمغامرات البحرية ، مكبا على مطالعة الكتب الجغرافية والفلكية .وكان يعرف ان الارض كروية مقتنعا بامكانية الوصول الى الهند عن طريق الابحار غربا في المحيط الاطلسي ، وكان يعتقد بان الابحار غربا اقصر مسافة من الابحار الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وبعد محاولات طويلة مضنية حققت ملكة اسبانيا ايزابيلا احلامه ، مجهزته بالسفن ، فقام باربع رحلات وصل في الثالثة منها الى سواحل امريكا .

٤ – اكتشاف امريكا الجنوبية

ابصر الونسودي او جيدا ، في رحلته الاولى ، ساحل مايعرف الآن بـ فنزويلا ، وكذلك زارها كولمبوس في رحلته الرابعة ١٥٠٢ – ١٥٠٣ ، كما وصل الى سواحل امريكا الوسطى . وبدأ الاستيطان الدائم لهذه المناطق سنة ١٥١٠ في قرطاجة في اقليم اورابا في خليج داريان وفي كولون ، بوصل امريكا ، حوالي هذا الوقت ، فاسونو نيزدى بلباو .وكانت سياسته ان يصادق السكان الاصليين ، وخاصة رؤساءهم ليعرف منهم احوال البلاد ومحاصيلها وواردها .وقد سمع منهم الشئ الكثير عن البحر العظيم الذي يقع على بعد نحو مئة ميل الى الجنوب عبر الجبال ، فاراد أن يقوم بعمل لملك اسبانيا ، فغامر بعبور وسط امريكا برا الى برزخ بناما ، متغلبا على الاوقات ،

المحيط الهادى سنة ١٥١٣ . وما ان انشئت

ومقاومة السكان الاصليين ، فوصل الى

اول سفينة في بناما حتى تمت الرحلة الاولى الى جزر اللؤلؤ في خليج بناما . واستلم

ملك اسبانيا اول تقرير ضاف عن اكتشاف بلباو في مطلع عام ١٥١٤ .وخلال تلـــك

السنة كان اكتشاف "البحر الجنوبي"؛ كما كان بلباو يسمى المحيط الهادى ،

حديث اوربا . ولكن الطبيعة الحقيقة لقارتي اميركا لم تعرف الا بعد ان قام ماجـلان

برحلته حول الارض ، ١٥١٩ – ١٥٢٠ ، وهي اعظم الرحلات في التاريخ الحديث

فقد اجتاز المضيق ، الذى سمي باسمه فيما بعد ، وعبر المحيط الهادى ، واكتشـف

جزر الفلبين واضافها الى ممتلكات اسبانيا .وقد قتل ماجلان من قبل جماعة مـــن

اهالي تلك الجزر وعاد من بقي من بحارته الى اسبانيا على ظهر سفينة اجتازت بهـم

المحيط الهندي ثم الاطلسي غرب افريقيا .

بدأت حركة الريادة والاكتشافات الجغرافية البرتغـــــال واسبانيـــا

وسرعان ماأخذت هاتان الدولتان تتنافسان على الاستحواذ علـــى المزيـــد مـــن

الغنائم والمكاسب . وحسما للخلاف اصدر البابا الاسكندر السادس ، عام ١٤٩٣ ،

قراره المشهور الذى رسم الحدود البحرية بينهما . فقد قسم العالم الى قسمين يفصلهما

خط طول يقع على بعد مئة فرسخ غربي جزر الازور ، وتكون الاراضي المكتشفة الواقعة

غربي هذا الخط لاسبانيا ، وتعود ملكية الاراضي المكتشفة الواقعة شرقيه الى البرتغال .

٥ – انكلترة .

في عام ١٤٩٦ دخلت انكلترة حلبة سباق الاستكشافات الجغرافية .وقد حصل جون كابوت ، وولده سباستيان . وهما بحاران من اصل جنوي اوبندقي ، على براءة من الملك هنرى السابع تخولهما بلوغ جزر الهند الغربية عن طريق الابحار في القسم الشمالي الغربي من المحيط الاطلسي . فابحرا من بريستول بسفينتين سنة ١٤٩٧ . ومن المحتمل أنهما وطئا الى سواحل اللبرادور ، ومن المؤكد أنهما أكتشفا نيوفاوندلانـد التي اطلقا عليها اسم «سنت جون» ونوفا سكوشيا ، وكيب بريتون .ولكـــن لا يعرف

على وجه التاكيد ، الى اي مدى بلغا جنوب هذه المناطق .وفي السنة التالية قام سباستيان برحلة ثانية لم تات بنتائج محققة . وبما ان الملك هنرى السابع لم يظهر اهتماما بهـذه الاستكشافات فقد انتقل سباستيان كابوت ، سنة ١٥١٢ ، الى خدمة اسبانيا ، واكتشف باسمها اقليم لابلاتا في اميركا الجنوبية ، ويشمل الان باراغواي واورغواي .وفي سنـة ١٥٥٣ عاد سباستيان كابوت الى انكلترة ، ودخل في خدمة شركة انكليزية انشئـت للتجارة مع روسيا عن طريق البحر الابيض ، وللقيام بمحاولة اكتشاف طريـق شمالي شرقي الى الشرق الاقصى عبر المحيط المتجمد الشمالي .

٦ – فرنســا

يتبين مما تقدم ان ثلاثا من الدول البحرية الاوربية شاركت في وقت واحد تقريبا في حركة الاستكشافات الجغرافية ، وهي البرتغال واسبانيا وانكلترة وبقيـت فرنســا خارج هذه الحركة فترة غير قصيرة من الزمن . وتبدا مساهمة فرنسا الفعلية في حركـة الاستكشافات برحلتي جاك كارتييه اللتين قام بهما في عامي ١٥٣٤ و١٥٣٥ ، حيث اكتشف سنت لورنس وجلب الى اوربا المعلومات الاولى عن البحيرات الكبرى فـــي اميركا الشمالية .

٧ – الاستعمار الاسباني في اميركا

كانت اسبانيا خلال هذه المرحلة ، هي وحدها التي تقدمت من الاكتشاف الى الاحتلال ، ومن الاحتلال الى الفتح ، ومن الفتح الى الاستعمار الاستيطاني ، وبهذا اصبحت المالكة لاول امبراطورية استعمارية في العالم الجديد .

واقدم المستعمرات الاسبانية على الاراضي الاميركية اقيمت في برزخ بناما ، وهو البرزخ الذي عبره بلباوبرا فاكتشف المحيط الهندي سنة ١٥١٣ ، وعلى المناطق المجاورة له من الجانبين .وعندما بلغت الاسبان معلومات عن شعب يسمى « مايا » فـــي يوكاتان ، حيث تقوم مدن غنية مكتظة بالسكان ، وتزدهر حضارة متقدمة ، وفي بعد يوكاتان تقع المكسيك وفيها امبراطورية الازتيك العظيمة التي يحكمها ملك يسمـــى

... عندما سمع الاسبان هذه الاخبار المدهشة ثارت شهيتهم للقيام بمغامرات ... وتمكن هرناندو كورتيز ان يسيطر على المكسيك خلال عامين من الغزوات والفتوحات 1519 – 1521 . وبعد مدة قصيرة قام فرانسيسكو بيزارو ، الذي سمع بامبراطورية الانكا في بيرو عندما كان في حملة بلباو ، باستكشاف السواحل الغربية من امريكا الجنوبية حيث تأكد من صحة الاخبار التي سمعها عن لانكا . وقد استولى بيزارو على هذه البلاد في السنوات 1531 – 1533 وفي سنة 1548 تسلم العرش الاسباني السلطة المباشرة في بيرو كما فعل من قبل في المكسيك .

وامتدت سيطرة اسبانيا على طول السواحل الغربية للمكسيك من شمال خليج كاليفورنيا الى مصب نهر ريو كراندي او كولورادو سابقاً وفي سنة 1540 اصبح من المعروف ان كاليفورنيا هي شبه جزيرة ، وليست جزيرة كما كان يظن الاوربيون سابقا . وفي السنتين التاليتين 1540 – 1542 ارسل كورونادو من قبل نائب الملك في المكسيك ، فعبر نهر ريوغراند واجتاز ما يعرف الان بتكساس واوكلاهوما ، وبلغ نهر كنساس وبينما كان كورونادو في تكساس قام حاكم كوبا ، دي سوتو باحتلال فلوريدا ، واخترق جورجيا ، وما زال يضرب في البلاد غربا حتى نهر المسيسبي فاستكشفه حتى موضع التقائه بنهر اوهايو .

اثر الاستكشافات الجغرافية على اوربا والعالم :

لقد الهبت هذه الاكتشافات العظيمة خيال اوربا ، وفتحت افاقا واسعة للعمل والثروة امام الالاف من المغامرين ، وطلاب الثراء السريع ، ودفعت بالاف الاوربيين ومعظمهم من الاسبان الى الاستيطان في الاقاليم المكتشفة ، ولم تتخلف الكنيسة عن الركب الاوربي الزاحف على هذا العالم الجديد ، فدفعت اليه بالمئات من البعثات التبشيرية ، تمهد طريق المستعمرين ، ويمد لها المستعمرون يد العون والمساعدة . وقد هدمت هذه الاكتشافات الجغرافية المركز المتفوق للبندقية وجنوا ، وحطمت تجارتهما واحلت بها الافلاس والخراب . وكان الرابح من ذلك اسبانيا والبرتغال ، وفيما بعد انكلترة وهولندا

كانت الاستكشافات الجغرافية حركة معقدة ، اختلطت فيها الاهداف ، والمطامع والتصرفات . كانت حركة حالمين ومغامرين ، وابطال ، وما عتمت ان اصبحت حركة ابادة ونهب واستلاب واستعباد لعشرات الشعوب والامم . لقد كانت شجاعة اولئك البحارة رائعة لانهم مما يفوق الوصف . كانت سفنهم صغيرة ، ضعيفة المقاومة بالقياس الى متطلبات السفرات في المحيطات والبحار العاصفة ، وكانت مكتضة بالملاحين ، الذين كانوا يعانون على الدوام من الامراض ، ونقص الغذاء وماء الشرب ومقاومة السكان الذين يمرون بجزرهم ، او ينزلون على شواطئ بلادهم ، وقد فتك مرض الاسقربوط الناتج عن انعدام الخضر والفواكه في الطعام ، بالعديد من اولئك البحارة الذين تتقاذفهم العواصف والامطار والامواج ، كانت الشفاه تتورم ، وتنزف دما ، الى اعراض والام اخرى لا يستريح منها المريض اليائس الا بالموت .

لقد ضحى اولئك البحارة المغامرون بارواحهم ، وتحملوا الشدائد والاهوال ، ولم يفيدوا من استكشافاتهم الا القليل ، وكان المستفيدين الحقيقيين هم الحكام والتجار واصحاب الاموال . واخذ سيل من الذهب والفضة يتدفق على اسبانيا والبرتغال ، وفيما بعد على انكلترة وهولندا وفرنسا في امريكا الوسطى الجنوبية دمر الاسبان حضارات المايا والازتيك والانكا ، وقتلوا الالاف من المواطنين ، واسترقوا من بقي منهم حيا ، وعاملوهم اقسى معاملة . وفي اميركا الشمالية اباد المستوطنون الانكليز والفرنسيون وغيرهم من الاوربيين عشرات القبائل والشعوب من السكان الاصليين ، الهنود الحمر ، وما زال البقية الباقية من احفادهم يواجهون خطر الابادة ، وفقدان الهوية القومية وشروط المعاملة . وفي اندونوسيا والهند وغيرهما من اقطار افريقيا واسيا ، فعل الهولنديون والانكليز والفرنسيون والالمان والبرتغال ، مافعلوه بشعوب وقبائل اميركا . وتوجه التجار والرأسماليون الاوربيون ، بعد ان نهبوا ما في هذه البلاد من الذهب والفضة ، الى استغلالها استغلالا زراعيا ، والافادة مما في باطنها من المعادن . وتاريخ الاستعمار الاستيطاني في تلك الاقطار هو تاريخ الرأسمالية الاوربية التي لم تبال في سحق ابنائها واضطهادهم واستغلالهم للحصول على الربح الوفير والثروة الطائلة في اسرع وقت

وبعد ان عانت فرنسا من حرب المائة عام مع انكلترة ، ١٣٣٧ - ١٤٥٣ اداقدح المصائب والكوارث من الحرب الخارجية ، والحروب الاهلية والثورات والانتفاضات والطواعين والقحط ، وانعدام الامن ، واستشراء اللصوص وقطاع الطرق ، خرجت منتصرة ، وسرعان مانهضت واخذت نحو الوحدة القومية ، والانتعاش الاقتصادى والاجتماعي .

وقد ازدادت قوة الملوك العسكرية والمالية بتأسيس جيش نظامي دائم وفرض ضرائب دائمة . وبسحق الملك لويس الحادى عشر ، ١٤٦١ - ١٤٨٣ ، لقوة برغنديا زال اخر العقبات من امام وحدة البلاد والسلطة الملكية المطلقة . وفي النصف الاول من القرن السادس عشر ، وفي عهد الملك فرنسوا الاول على الخصوص ١٥١٥ - ١٥٤٧ فقد النبلاء ورجال الدين سلطانهم السياسي ، واصبحوا تابعين للملك ، تتوقف معيشتهم وتقدمهم في المراتب والمناصب على مرضاته . واصبحت رغبة الملك هي قانون البلاد . فكان الملك هو الذى يصدر المراسيم والقوانين ويعين الموظفين وضباط الجيش ، ويفرض الضرائب ، ويعلن الحرب ، ويعقد الصلح ، كما يشاء ، دون انتظار موافقة احد من ابناء الشعب . وهذه هي اهم خصائص الملكية المطلقة او الملكية المستبدة .

١١ - اسبانيا تصبح دولة اوربية عظمى :

في القرنين التاسع والعاشر اخذت تظهر في شمال اسبانيا وغربيها بعض الدويلات المسيحية ، شيئا فشيئا ، مثل قشتالة وارغون ونافار والبرتغال . وقامت هذه الدويلات بحروب متطاولة ضد العرب المسلمين . وما زالت قشتالة تستولي على المدن العربية الواحدة بعد الاخرى ، واهمها قرطبة واشبيلية ، حتى امتدت حدودها الى السواحل الجنوبية ولكن المسلمين ظلوا محتفظين مدة قرنين كاملين بمملكة غرناطة الجبلية . وفي سنة ١٤٩٢ استولى المسيحيون على مدينة غرناطة ، بعد ان حاصروها حصارا طويلا ، فحطموا بذلك اخر معاقل المسلمين في اسبانيا وقضوا على سلطانهم فيها .

في سنة ١٤٦٩ اتحدت الدولتان المسيحيتان الكبريان في اسبانيا بزواج ازابيلا ملكة قشتالة من فرديناند ولي عهد ملك اراغون . وباتحاد مملكتي قشتالة واراغون تبدأ اهمية اسبانيا بوصفها قوة اوربية كبرى . وكانت سنة ١٤٩٢ عظيمة الاهمية في تاريخ اسبانيا الحديث . ففي تلك السنة اخرج المسلمون من اسبانيا ، وتمت اولى الاستكشافات الاسبانية في العالم الجديد ، التي فتحت امام الاسبانيين الامكانيات للحصول على ثروة لا تعد ولا تحصى من وراء المحيط . وبوساطة دبلوماسية فرديناند الحاذقة اخذت اسبانيا تتبوأ مكانا مرموقا بين جيرانها ، على ان عظمة اسبانيا وقوتها في القرن السادس عشر انما تعود بالدرجة الاولى الى الثروة التي اخذت تتدفق عليها من مستعمراتها في امريكا . فقد جلب نهب كورتيز وبيزارو مدن المكسيك وبيرو واكتشاف مناجم الفضة واستغلالها في تلك البلاد ، ثروة خيالية لاسبانيا مدة من الزمن . ولكن عظمة اسبانيا كانت قصيرة الاجل ، بسبب سياساتها الخاطئة ، التي كانت تعمل ببطء على اضعافها وسببت خرابها في نهاية الامر .

لم تعرف اسبانيا ان تفيد من هذه الثروة الهائلة التي تدفقت عليها في تنمية موارد البلاد ، ووضع الاسس الصحيحة لاقتصاد متطور ، وانما اقبلت الطبقة الحاكمة على تبذير الاموال في تشييد القصور الباذخة واستيراد البضائع الكمالية ، ووسائل الترف فتضخمت العملة ، وارتفعت اسعار المعيشة ، وتدفق الفلاحون على سكنى المدن فتأخرت الزراعة . وانهمك الملوك في انفاق الاموال على الجيش والاسطول ودخلوا في حروب متواصلة في اوربا ، بددت ثروة البلاد وافقرتها وانهكتها . ومن سوء تدبير امرائها وخطأ سياستها اضطهدت العرب واليهود ، وطردتهم من البلاد ، وكان العرب المسلمون اشهر العاملين في الزراعة والصناعة والتجارة ، واعظمهم نشاطا وجهدا في العمل والانتاج ، وفقدت اسبانيا بابعادهم عن البلاد القوة الاقتصادية الحقيقية . واحيت ازابيلا محاكم التفتيش حيث سيق اليها كل من كان يتهم بالبدعة والمروق من الدين والتفكير المستقل . وخلال عشرات السنين اعدم الاف الناس حرقا . وبانعدام

التفكير الحر المستقل ، خوفا من محاكم التفتيش ، توقف النشاط العلمي ، والتفكير الخلاق ، والرغبة في الاختراع والاكتشاف .

١٢ -البرتغال تصبح قوة بحرية كبرى :

منذ سنة ١٢٦٣ اصبحت البرتغال مملكة مسيحية مستقلة . وعلى الرغم من صغر مساحتها اصبحت دولة مهمة بسبب مشروعاتها التجارية ، وكشوفها الجغرافية

وفي القرن السادس عشر كانت البرتغال تسيطر على الطريق التجاري بين عاصمتها لشبونة والشرق الاقصى . وقد بقيت البرتغال مدة من الزمن اقوى دولة بحرية في اوروبـــا .

١٣- الاراضي الواطئـــة

كانت آل « نذرلاد » او الاراضكي الواطئة ، تشتمل على سبع عشرة مقاطعة تمتد على بحر الشمال مسافة مئة ميل او يزيد . وقد اتحدت هذه المقاطعات فيما بعد ، فتألف منها مملكتا هولندا وبلجيكا . وقد نشأ في هذه الاقاليم ، منذ القرن الرابع عشر ، مدن مهمة كانت مراكز مزدهرة للتجارة والصناعة واهمها هارلم ، وليدن ، وامستردام ، وروتردام ، في الشمال ، وغنت وبروج ، وانتورب في الجنوب . وفي سنة ١٣٨٤ آلت مقاطعة آلُ « فلاندرز » الى دوق برغنديا بوساطة الزواج ، وبعد وفاة امير برغنايا شارل « ذي بولد » شارل الشجاع » سنة ١٤٧٧ اورثت هذا الاقليم ابنته ماري ، وبزواج ماري البرغندية من الامبراطور مكسميليان اصبحت هذه البلاد من ممتلكات الحكام النمساويين ، وكانت الاساس الذى قامت علية قوة آل « هبسبورغ » .

١٤ -المانيا ونمو قوة آل « هبسبورغ » :

كانت المانيا حتى القرن السادس عشر مازال دولة اقطاعية ، تتألف من نحو مئتين الى ثلاثة مئة امارة مستقلة من مختلف المساحات والاحجام والاشكال . كان بينها

امارات مهمة يحكم الواحدة منها دوق اوكونت او « مرغريف » اى نبيل حاكم عسكري لمنطقة حدودية ، واهمها سكسونيا ، وبافاريا ، وورتنبرغ ، وكان بينها دويلات كنسية يحكم كل واحدة منها رئيس اساقفة اواسقف ، اومقدم دير ، وكان بينها مدن حرة ، مثل نورنبرغ وفرانكفورت ، كانت تتمتع باستقلال تام كالدوقيات تقريبا. والى جانب هذه الامارات المختلفة الاحجام والاشكال كانت تقوم ممتلكات الفرسان ، التي قد لا تزيد الواحدة منها عن قلعة ، او قصر ، تقع في اسفلها قرية صغيرة وكان كل حاكم من حكام « هذه الدويلات » حريصا على استقلاله اما الامبراطور فلم يكن يملك القوة العسكرية ، والاموال اللازمة ، للسيطرة على اتباعه من امراء الاقطاع . وكانت القوة الفعلية بيد عدد من الامراء الاقوياء ، كان سبعة منهم يملكون حق اختيار الامبراطور ويسمون « الناخبون » والناخبون السبعة هم : رؤساء اساقفة كولون ، وميتز ، وتريف ، وكونت ال « راين » ، ودوق سكسونيا ومرغريف براندنبرغ ، وملك بوهيميا ، وقد نال هؤلاء حق اختيار الامبراطور ، وغير ذلك من الامتيازات الاخرى ، سنة ١٣٥٦ ومع انه جرت العادة ان يخلف الابن اباه على رأس الامبراطورية ، فأن منصب الامبراطورية لم يكن منصبا وراثيا .وكان على كل امبراطور جديد ان ينتخب قبل ان يتسلم منصبه رسميا .وعلى هذا كان هؤلاء الاتباع الكبار ، الذين يهيمنون على اختيار الامبراطور ، في مركز يتيح لهم ان يأخذوا من المرشح وعودا اكيدة بالا ينتقص من امتيازاتهم قبل ان يمنحوه التاج وكان لالمانيا جمعية وطنية او مجلس وطني يسمى ال « دايت » مؤلف من الامراء وكبار النبلاء .ولكن التنافس بين الدويلات المختلفة كان يحول دون اتخاذ اية [illegible] لمصلحة الامة الالمانية .

وكان ال « دايت » يجتمع في اوقات غيرمنتظمة . وفي مدن مختلفة اى حيثما كان وجود الامبراطور.لانه لم يكن لالمانيا عاصمة رسمية . ولم يسمح للمدن بارسال مندوبين عنهما الى « دايت » سنة ١٤٨٧ . وكان الفرسان وصغار النبلاء الذين لم يكونوا اعضاء كثيرا ما يرفضون التقيد بقرارات المجلس اذا كانت مخالفة لمصالحهم [illegible] اتهم .

وفي اواخر القرن الثالث عشر انتخب رودولف اوف هبسبورغ امبراطورا . وكان مقر آل هبسبورغ في سويسرا ، حيث ماتزال آثار قلعتهم في العصور الوسطى شاخصة حتى الان .وكان رودولف اول المشهورين من ابناء هذه الاسرة التي حكمت امبراطورية كبيرة كان لها شأن خطير في الشؤون الاوربية عدة قرون رودولف مركـزه بان ضم الى املاكه دوقيتي النمسا واوستريا ، اللتين ستصبحان محور الممتلكات الهبسبورية الواسعة وبعد مضي قرن ونصف قرن على وفاة رودولف اخذ الناخبون الالمان يختارون باستمرار حاكم النمسا امبراطورا ، بحيث اصبح المنصب الامبراطوري ، عمليا ، وراثيا في اسرة آل هبسبورغ ولكن ال هبسبورغ كانوا مهتمين بتوسيع ممتلكاتهم الخاصة اكثر من اهتمامهم برعاية مصالح الامبراطورية . ومن الجدير بالذكر ان آل هبسبورغ مدينون باستمرار قوتهم الى الاقاليم الواسعة التي كانت اسرتهم تمتلكها وتحكمها حكما مباشرا ، وليس الى منصب الامبراطور الذى كان ، على فخامة لقبه ، منصبا اسمياً ، وقد وسع ال هبسبورغ ممتلكاتهم الخاصة عن طريق الزواج ، وقد نجح مكسمليان الاول ، ١٤٩٣ - ١٥١٩ في هذا السبيل نجاحا كبيرا ، فقد تزوج ، وهو شاب ، مارى بنت شارل الشجاع امير برغنديا ، فنال بذلك ميراث الممتلكات البرغندية وخاصة اقاليم الاراضي الواطئة وتزوج ابنه فيليب جوانا ابنة فرديناند وايزابيلا ملك وملكة اسبانيا . وقد اصبح فيليب بعد وفاة امه مارى البرغندية ، الحاكم الاسمي لاقاليم الاراضي الواطئة . وفي هذه البلاد ، في سنة ١٥٠٠ ، ولد لفيليب النمساوى من زوجته جوانا ولدا سمياه شارل سيكون في مقبل الايام حاكما على امبراطورية واسعة لم يحكم مثلها اى حاكم مسيحي من قبل ومنذ طفولته اخذت الاراضي والالقاب ، تنهمر على شارل . ففي السنة السادسة من عمره ورث عن ابيه الاراضي الواطئة وقشتالة . وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره ورث عن جده لامه فرديناند ملك اسبانيا ممتلكات اسبانيا الشاسعة في اوربا واميركا . وفي سنة ١٥١٩ اختار الناخبون من امراء الالمان شارل امبراطورا بدلا من منافسيه المشهورين فرنسوا الاول ملك فرنسا ، وهنرى الثامن ملك انكلترة . ومنذ تلك السنة اصبح يدعى شارل الخامس .

وهكذا اصبح ملك اسبانيا المولود في الاراضي الواطئة ، حاكم المانيا المجزأة ...يها المتعددة المضطربة . وكانت مهمة حكم هذه الاقاليم والاقطار المتباعدة ...ة في مختلف انحاء اوربا واميركا ، والتي تسكنها شعوب مختلفة القوميات واللغات ...شاقة أثقلت كاهل الامير الشاب . ومع ان هذه الاقطار والاقاليم اصبحت بيد ...اطي واحد ، الا انها لم تصبح موحدة ، فلم توجد بينها روابط طبيعية ، وكانت ...ا منها تنافس الاخرى .

وقد واجه مشكلات قانونية ومالية لا تعد ولا تحصى . وقضى معظم حياته ...روب متواصلة مع الدول الاوربية الاخرى ، وخاصة مع فرنسا . ومن اخطر ...لات التي واجهها الحركة البروتستانتية التي ابتدأها مارتن لوثر ، ١٥١٧ . والتي ...ق المانيا واوربا عامة خلال القرن السادس عشر والقرن التالي :

ايطاليا

...ت ايطاليا في مطلع القرن السادس عشر ، مثل المانيا ، قطرا مجزأ لا امل في ...يه ، وقام عدد من الملوك الاوربيين بمحاولات مستمرة للاستيلاء على اجزاء من ...ارضيها الى ممتلكاتهم . ومن العوامل المشجعة على ذلك غنى ايطاليا وانغماس ...ا بالخصام والاقتتال فيما بينهم حتى عندما يتهددهم جميعا عدو خارجي . وعلى ...قد اصبحت ايطاليا ميدانا للمعارك بين الدول الاوربية ، وبقيت مجزأة حتى ...القرن التاسع عشر ، وقد اشتبك فرنسوا الاول ، ملك فرنسا ، والامبراطور ...الخامس ، بحروب متواصلة كان النزاع على ايطاليا اعظم اسبابها . وكانت الحروب ...ين الحاكمين بداية الخلاف الدائم ، والصراع المميت ، مدى اكثر من قرنين ، ...رنسا وامبراطورية الهبسبورغ النمساوية . ومن نتائج حروب فرنسوا الاول في ايطاليا ...ة الادبية والفنية والعلمية في فرنسا . فقد انبهر الفرنسيون بما شاهدوه في ايطاليا ...ن طيبي وتقدم اقتصادي ، ورقي في الآداب والعلوم والفنون وكان ...لاء الفرنسيين بالنهضة الايطالية في هذه الفترة من اهم الدوافع للنهضة الفرنسية

التي سيكون من اعلامها في الشعر رونسار ، وفي الادب رابليه ، وفي الفلسفة والفكر مونتيني . وكان الصراع بين فرنسا والامبراطورية النمساوية هو ما دفع فرانسوا الاول الى عقد معاهدة تحالف وصداقة مع السلطان سليمان القانوني ، وهي اول معاهدة تحالف بين سلطان مسلم وملك اوربي مسيحي (٤) .

مراجع الفصل الثامن

- كارلتون ، كون . قصة الانسان ، ترجمة محمد توفيق حسين وعبد المطلب الامين ص ٤٠٨ - ٤١١ .
- ه . ج . ولز معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ج ٣ ص ١٠٢٦ ج ١٠٣ .
- كارلتون كون ، قصة الانسان ، ص ٤١٣ . وكذلك حضارة عصر النهضة ص ٢ - ٦ وكذلك .

Emnea paters Smith , ...
World History , gim and CO.,
Borton , 1955 , P . 207 - 213
Thompron , European
Civilyation , P . 560 - 569

١ – ادوار بروى ، القرون الوسطى ، نقله الى العربية يوسف اسعد داغر ، فريسلم داغر . وهو المجلد الثالث من تاريخ الحضارات العام ، منشورات عويسلات

٢ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، لجنـــة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة المجلد الثالث ، والرابع .

٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ١٩٧٦ .

٤ – ج . كرامب ، ا ، جاكوب (تحرير) تراث العصور الوسطى راجـع الترجمة محمد بدران ، محمد مصطفى زيادة جزآن ، مؤسسة سجل العـرب ، القاهرة ١٩٦٥ .

٥ – السيرجون ، أ . هامرتن (تحرير) ، تاريخ العالم المجلد ٤ ، ٥ ، ٦ ، اشرفت على ترجمته ادارة الثقافة بوزارة التعليم العالي ، القاهرة .

٦ – هـ . ج . ولز ، معالم الانسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جـــاويـد ، المجلد الثالث ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القـــاهـرة ١٩٧٢

٧) هـ . ا . ل فيشر ، تاريخ اوربا : العصور الوسطى ، نقله الى العربية محمـــد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني ، دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ، ١٩٦٩ .

٨ – د . نور الدين حاطوم ، تاريخ العصر الوسيط في اوربا ، الجزء الاول دار الفكر بيـروت ١٩٦٧ .

٩ – احمد امين ، زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة ، لجنـة التأليـف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٦ .

١٠ –هـ . موسى ، ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز توفيق جـاويـد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١١– لويس ممفورد ، المدينة على مر العصور ، اشراف ومراجعة وتقـديم ابراهيـــم نصحي ج ٢ ، مكتبة [illegible] . المصرية ، ١٩٦٤ .

ـالدكتور توفيق اليوزبكي ، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملكـوكـي ر ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ١٩٧٥ .

١٢ يلين بور ، نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ترجمة محمد توفيق حسين ار الثقافة ، بيروت ١٩٥٧ .

١٠ – لِتون كون ، قصة الانسان ، ترجمة محمد توفيق حسين ، عبـــد المطلب التين ادبية الأهلية ، بغداد ، ١٩٦٥ .

١٥ –تومبون ، لاوبي ، سكفيل ، جورج سارتون ، حضارة عصر النهضـــة ترجمة الدكتور عبد الرحمن زكي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٦) دكتور عبد القادر احمد اليوسف ، العصور الوسطى الاوربية ، المكتبـــة العصرية صيدا ، بيروت ١٩٦٧ .

١٧) Thompson , Palm and Van Nastrand European , Civiliyation , Macmillan Co. London

١٨) Emma Paterossmith , warLd History gimn and Company , Bastone 1955

١٩) C . Warren Hallister , Medieval Europe wiley and sons , Newyork , 1974

٢٠) Roland Baiton . The Ponguin History of Chsirtianity . Vala , 1 , 2 ., London 1964

الفصـــل التاســـع

خاص بكليـــات التربيـــة

1. تأسيس القسطنطينة وقيام الامبراطورية البيزنطية واهم سمات التاريخ البيزنطي
2. عصر جستنيان ٥٢٧ – ٥٦٥
3. الأسرة الهرقلية ٦١٠ – ٧١٧
4. الحركة اللاايقونية .
5. استيلاء اللاتين على القسطنطينية
6. اسرة باليولوجوس وسقوط الامبراطورية البيزنطية في قبضة العثمانيين ١٤٥٣.

* وضع هذا الفصل ليصبح الكتاب مستوفيا لمواد منهج الصف الاول في كلية التربية .

تأسيس القسطنطينية ، وقيام الامبراطورية البيزنطية ، واهم سمات التاريخ البيزنطي

تعد الدولة البيزنطية ، التي يسميها العرب دولة الروم ، واحداً من المجتمعات الكبرى في العصور الوسطى ، المجتمع الاول والذي سنتحدث عنه في هذا ، هو المجتمع البيزنطي ، المسيحي الارثوذكسي ، الذي كان يضم اوروبا الشرقية وصقلية وشرقية وهو وريث المجتمع الهليني والروماني وحضارات الشرق القديم والثاني هو المجتمع المسيحي الغربي الكاثوليكي بشعوبه اللاتينية والرومانية والمجتمع الثالث هو المجتمع الاسلامي ، بتاريخه العريق ، وحضارته من حدود فرنسا غربا الى حدود الصين شرقا ، ولم يقتصر اثر كل من هذه المجتمعات الثلاثة على المنطقة التي نشأ فيها فقد امتد المجتمع المسيحي الارثوذكسي الى البلقان وروسيا وامتد المجتمع الاسلامي الى افريقيا وآسيا الجنوبية الشرقية وامتد المجتمع المسيحي الغربي الى شمال اوربا والى الاقطار التي استعمرها الاوربيون في امريكا الشمالية والجنوبية وغيرها وقد تقابلت هذه المجتمعات الثلاثة في حوض البحر الابيض المتوسط طوال قرون عدة (١) وكان للمجتمع البيزنطي علاقات ، ووشائج متلاحمة ، سلمية وحضارية وحربية ، مع المجتمعين الاسلامي والاوربي الغربي وسنقتصر على الالمام بعلاقات بيزنطة باوربا الغربية ، تكملة وتوضيحا لتاريخ اوربا في العصور الوسطى (٢) .

كانت بيزنطة وريثة روما وقد تبوأت منزلة الصدارة في اقاليم البحر المتوسط بسبب موقعها الممتاز بين الشرق والغرب وتقدمها الصناعي والتجاري بحيث كانت سوقا عظيمة تتدفق اليها الاموال والتجارات من اقطار اوربا والشرق الادنى والاقصى واقاليم البحر الاسود والبحر الابيض المتوسط .

وكانت الى ذلك مدينة مقدسة يقيم فيها البطارقة وآباء الكنيسة ، وظلت مدة تزيد عن احد عشر قرنا معقلاً للامبراطورية وحصنا للحضارة والديانة المسيحية الارثوذكسية وقد اجتمعت لها اسباب الحضارة ، كما عانت من هجمات شعوب كثيرة عليها فقد انتزع منها العرب المسلمون أهم الاقاليم التي كانت تسيطر عليها وهي بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا . وهاجمتها من الشمال الشعوب والقبائل الهونية والصقلبية واجتاحتها [illegible] الشعوب التركية من الجنوب فاسقطت دولتها وسكنت ارضها وعانت [illegible] كانت بيزنطة كذلك من الاضطرابات الداخلية [illegible] والمجاعة والباباوية والانشقاقات الدينية والمذهبية .

...ر بحبوب روسيا الجنوبية ومعادن حوض البحر الاسود ومصايد القفور وقد ... ن اسم مدينة يونانية قديمة ، اسست سنة ٦٥٢ ق.م قامت على رأس ناتئ في البحر عند اول فجوة داخلة في ساحل البسفور الاوربي وكانت هذه الفجوة على شكل هلال مائي داخل في الارض عشرة كيلو مترات ولذا اصبح يسمى في العصور المتأخرة . القرن الذهبي وقامت بيزنطة على رأس مثلث تحمي مياه البحر جانبين من جوانبه الثلاثة ، ويحمي جانبه الثالث سور قوي لاتتحكم فيه اية مرتفعات مجاورة (٣) .

وقد انشأ الامبراطور قسطنطين عاصمة جديدة له في هذا الموقع اطلق عليها اسم : روما الجديدة ولكن الناس اطلقوا عليها اسم : : القسطنطينية تخليدا لذكرى مؤسسها وقد تم بناء روما الجديدة ، او القسطنطينية ، وافتتح بحفل كبير في ١١ آيار سنة ٣٣٠ م ويعتبر هذا التاريخ بداية التاريخ البيزنطي (٤) ان نقل العاصمة الى هذا المقر الجديد كان حدثا تاريخيا مهما ، اعطى الدولة الرومانية حصنا منيعا بصد هجمات المهاجمين ، ويحفظ تراثا مدنيا كبيرا ، ويمد النصرانية بعاصمة تنطلق منها الى جميع الجهات . (٥)

والامبراطور قسطنطين هو النصير الاعظم للمسيحية منذ ان اصدر مرسوم ميلانو الشهير في سنة ٣١٣ الذي اعترف اعترافا قانونيا كاملا بالمجتمع المسيحي . وهو الذي جمع وترأس اول مجمع مسكوني ، اي عالمي . للكنيسة المسيحية الذي انعقد في نيقية سنة ٣٢٥ لحل الخلاف حول طبيعة المسيح بين آريوس ، الذي قال بخلق الابن وخلق الروح القدس فانكر الوهية المسيح ، ومعارضيه . وقد صاغ مجمع نيقية دستور العقائد المسيحية . وكان هذا المجتمع كذلك مثالا على رئاسة الامبراطور للكنيسة المسيحية فقد كان قسطنطين يهدف الى آن تكون الكنيسة المسيحية كنيسة للدولة ويكون الامبراطور رئيسها . وهكذا حل الخلاف بين الدولة الرومانية والمسيحية حلا عمليا . لقد اصبحت الدولة الرومانية في عهد قسط... الكبير حكومة مطلقة الصلاحية ، تستمد ... ن قوة الجيش

ومن محافظتها على الانظمة الموروثة ومن احترامها للقانون وكان على رأس السلطة امبراطور يجمع في شخصه السلطتين ، المدنية والعسكرية ، واصبح مصدر التشريع كما اصبحت اوامره التفسيرات الوحيدة لما يصدر عنه من تشريع ولما كانت جميع امور الدولة في عرف الرومان تخضع لسيطرة الاباطرة كان الامبراطور بطبيعة الحال رئيس رجال الدين وحامي النصرانية (٦)

كانت القسطنطينية ، منذ البداية ، مدينة مسيحية وقد امتزجت فيها العناصر الحضارية اليونانية والرومانية والمسيحية الشرقية وقامت القسطنطينية في منطقة يتكلم اهلها باليونانية وقد زاد قسطنطين في تأكيد روحها اليونانية بانشاء دور الكتب الحافلة بالمخطوطات اليونانية ، كما ملأ شوارع المدينة وميادينها العامة بالكنوز الفنية المنقولة من كل ارجاء العالم اليوناني . واما العنصر الروماني فيتمثل في النظريات الادارية والتقاليد العسكرية والقانون ، وقد منح قسطنطين سكان العاصمة امتياز الخبز المجاني والالعاب المجانية التي كان يتمتع بها جمهور الشعب في روما وكان اهالي القسطنطينية يعدون انفسهم روماناً بالجنسية حتى بعد ان اختفت اللغة اللاتينية من الاستعمال من بيزنطة بزمن مديد والعنصر الثالث هو المسيحي كانت المسيحة عقيدة شرقية وكان المواطن في القسطنطينية شديد الوعي لتراثه اليوناني والروماني ، ولكن نظرته الاساسية في الحياة كانت مختلفة تماما ، حيث اهتم بالشؤون الدينية اهتماما كبيرا طغى احياناً ، على اهتمامه بشؤونه الدنيوية (٧) .

كانت الدولة منذ تأسيسها قد اصطبغت بطابع شرقي في مفهومها للسلطة والحكم ، وفي نظامها الرتبي وتعظيم الامبراطور ، وما الى ذلك . ومنذ القرن الخامس اخذت عرى الامبراطورية الرومانية في التفكك ولم يبق منها صامدا الا القسم الشرقي ، فاصبحت آسيا الصغرى قلب الدولة ومركز الثقل فيها ، واصبح العنصر اليوناني هو العنصر السائد في الدولة وبهذا اصبحت الدولة يونانية ، وبقيت كذلك الى آخر عهدها

صحيح ان اللاتينية بقيت لغة الاسر الحاكمة حتى اوائل القرن السابع او ما بعده بقليل ، ولكنها كانت تزول تدريجيا لتحل اليونانية محلها ومع ان جستنيان كان يكتب قوانينه ومراسيمه باللغة اللاتينية فقد وجد نفسه مضطرا ان يأذن باستعمال اللغة اليونانية في بعض القوانين التي اصدرها ، وان يسمح بظهور بعض الشروح ... ية واما في القرن السابع فقد اصبح التشريع كا... باللغة اليونانية

والخلاصة ان الدولة البيزنطية قد تشربت عناصر شرقية كثيرة ، سواء أكان ذلك في الدين ام في الفن ام في القانون وحتى في نظريتها عن الحكم ولكن الطابع الاساسي لهذه الدولة انما تولد عن امتزاج عنصرين موروثين : العنصر اليوناني الذى اتسمت به مدن شرقي المتوسط الاغريقية ، والعنصر الروماني الذي تلقته من الامبراطورية الرومانية الاولى لقد كانت روما الجديدة ، اي القسطنطينية ، يونانية في اللغة والادب وعلم اللاهوت ، واما قانونها وتقاليدها العسكرية وديلوماسيتها وسياستها المالية وتمسكها الدائم بسيادة الدولة فقد كانت رومانية

لقد بقيت الفكرة الرومانية عن سيادة الدولة وعن الحكومة المركزية حية طوال التاريخ البيزنطي ، وهذه الفكرة هي التي اعطت هذا التاريخ وحدته وفي هذه الناحية يظهر الفرق واضحا بين تاريخ بيزنطة وتاريخ اوربا الغربية . في بيزنطة نجد حكومة واحدة تجمع في قبضتها كل السلطات ، وكان الامبراطور هو صاحب السلطان المطلق على الادارة والجيش والكنيسة ، بينما نجد في اوربا الغربية العديد من الدويلات التي كانت فيها السلطتان الادارية والقضائية لامركزيتين ، حيث كان فيها عدد لايحصى من المحاكم المحلية والهيئات الادارية وبينما تعددت القوانين في اوربا الغربية بسبب تعدد اصولها القبلية وتعدد الدول وانقسامها الى اقاليم اقطاعية ، كان في الدولة البيزنطية نظام قانوني واحد .وبينما تحول النظام الاقتصادي في اوربا الغربية الى النظام الاقطاعي القائم على الارض ، بقيت الامبراطورية الشرقية محتفظة باقتصادها القائم على النقد ، واحتفظت الدولة بحق فرض الضرائب على رعاياها . وكان يتوقف على هذه الضرائب قيام الجيش وادارة المدينة . وقد تركز السلطان كله في العاصمة القسطنطينية وكان هدف النبلاء الدائم ان يلتحقوا بالبلاط وينظموا انفسهم في سلك طبقة من الموظفين الكبار .

وعلى هذا كانت القسطنطينية مجمع قوى الشعب ، وخزانة اموالها ، ومركز صناعاتها ومتاجرها . وكانت الاموال تتدفق عليها من الولايات والاقاليم . ولهذا كانت السيادة على العاصمة هدف كل الطامعين من ابنائها ، والاستيلاء عليها مطمع كل اعدائها . والطابع العام المميز للحضارة البيزنطية هو طابع المحافظة على التقاليد ، وكانت الحياة [illegible] بيزنطة تعبر عن نفسها دائما في صور تقليدية [illegible] م يحدث فيها اى تغيير

جوهري قبل غزو الصليبيين لها سنة ١٢٠٤ حيث قامت ، لمدة من الزمن ، امارات اقطاعية عديدة على انقاض تلك الدولة الموحدة (٨) .

ومما يميز بيزنطة عن اوربا الغربية وضع الكنيسة فيها .

لقد ذكر ان الكنيسة منذ البدء وضعت تحت سيطرة الامبراطور في الدولة البيزنطية اما في اوربا الغربية فقد نشأت الكنيسة مستقلة ، وافادت من تفكك الدولة ، وانقسامها الى دويلات ونشوء النظام الاقطاعي ، فاخذت تمارس السلطات المدنية والعسكرية ، وما زالت دولة البابا تقوى ويمتد سلطانها حتى لقد احس بعض البابوات بأن سلطة البابا يجب ان تكون هي السلطة العليا في اوربا كلها . وقد تولد عن ذلك نزاع مرير متطاول بين البابوات والاباطرة والملوك .

منذ ان احتفل بتدشين مدينة القسطنطينية في ١١ آيار سنة ٣٣٠ الى سقوطها بيد السلطان العثماني محمد الفاتح عام ١٤٥٣ ، ظل عامل واحد ثابتا لا يتغير في بيزنطة الا وهو النظام الامبراطوري ، حيث كان الامبراطور مصدر الحكم و محور الذي يدور حوله كل شيء في الدولة . ولذا كان من الطبيعي ان يقسم المؤرخون تاريخ الدولة البيزنطية بحسب الاسر المالكة التي تعاقبت على العرش . ولقد تعاقب على العرش اسر عديدة لم يكن ليزيد حكم الواحدة منها ، في العصور الاولى ، عن ثلاثة اجيال . واما في القرون الثمانية الاخيرة فقد اشتهرت خمس اسر كبيرة هي الاسرة الهرقلية ٦١٠ – ٧١٧ ، والايسورية ٧١٧ – ٨٢٠ ، والمقدونية ٨٦٧–١٠٥٩ ، واسرة كومنين ١٠٨١ – ١١٨٥ ، واسرة باليولوجوس ١٢٥٨ – ١٤٥٣ . (٩)

لقد تم بناء القسطنطينية في مطلع القرن الرابع . ولكن هذا القرن لم يكن الا مقدمة مهدت للتاريخ البيزنطي بمعناه الدقيق الكامل . فمع ان قسطنطين هو الذي انشأ القسطنطينية الا انه قلما كان يقيم بها . ولم يزرها الامبراطور جوفيان مطلقا . ولم يتم النصر للمسيحية الارثوذكسية في هذا القرن . فعلى الرغم من مجمع نيقية الذي ادان مذهب آريوس فان الا[illegible] الذي عمد قسطنطين مسيحية وهو على فراش

توفي ... سنة ٣٣٧ ... كان من اتباع اريوس ... ان المسيحية ... [illegible] انتشرت انتشارا واسعا بين الناس . والدليل على ذلك ان الامبراطور [illegible] ان يتقرب الى الوثنية .

توفي قسطنطين سنة ٣٣٧ وخلفه على العرش ابناؤه الثلاثة مجتمعين . وكان هؤلاء الاخوة يتصارعون على التفرد بالسلطة على ان قسطنطين الثاني وقسطنس الاول ما لبثا ان توفيا حوالي سنة ٣٥٠ . فانفرد قسطنطيوس الثاني بالسلطة العليا [illegible] في سنة ٣٥١ حتى وفاته سنة ٣٦١ .

وفي اثناء تلك السنوات احدقت المخاطر بالامبراطورية.فقد تواصل الخطـــر الساساني . واصبح ضغط القبائل الجرمانية على نهري الراين والدانوب اشد واقـــوى بسبب ظهور شعب الهون الزاحف من منغوليا . وقد تمكن جوليان ابن عم الامبراطور قسطنطيوس من القضاء على زحف جرماني عند نهر الراين ، فنادى به جنوده امبراطورا سنة ٣٦٠ وفي تلك السنة توفي الامبراطور قسطنطيوس فانفرد جوليان بالامبراطورية دون صدام وسفك دماء . ويستمد جوليان شهرته من رفضه المسيحية وارتداده الـــى الوثنية . حيث اطلق المسيحيون عليه اسم : جوليان المرتد . ولكن حركته انتهت بالفشل فلم يتقبل الناس وثنيته المستمدة من تفسير فلسفي ، وجدوا فـــي المسيحية القائمة على الايمان والروحانية الصوفية طمأنينة روحية من القلق المستولي على نفوسهم من جـــراء اضطراب الاحوال الاجتماعية والمخاطر المحدقة بالدولة من الداخل والخارج . وانتهى نشاط جوليان العسكري بالفشل كذلك . فقد حاول غزو عاصمة الدولة الساسانية . وامعن في زحفه . ولكنه اضطر على التراجع . ومات في اثناء تراجعه في صيف عـــام ٣٦٣ . وقد انتخب الجند امبراطورا جديدا هو الجندي المسيحي جوفيان الذي وقع مع الساسانيين معاهدة مشينة تقضي بالسلم بينهما مدة ثلاثين عاما . وتنازل فيها عن اربع مقاطعات وعن السيادة الرومانية على ارمينية . وتوفي جوفيان في ربيع العام التالـــي ونادى الجند بالقائد فالنتيان امبراطورا . ولكنه فضل ان يحكم الدولة من الغرب . وترك اخاه وتابعه الخاضع له فالنز امبراطورا شريكا له في الشرق . وكان عهد فالنز نقطة تحول كبرى في تاريخ الامبراطورية كان معتدلا ، وعلـــى حظ كبير مـــــــن الكفاية والمقدرة ، الا انه كان مكروها من الناس ، وقـــد اعتبروه زنديقا لانه كـــان من اتباع اريوس ، ولهذا واجهته فتن متواطلة ، وفي سنة ٣٧٦ حصل القوط الغربيون الذين كان يهاجمهم الهون من الخلف ويدفعون بهم الى حدود الدولة الرومانيـــــة

اذن خاص منه بالاستقرار داخل حدود الامبراطورية . وقد عبرت حشود القبائل
مانية من القوط الغربيين نهر الدانوب . وهـــو خط الحدود الفاصل بـــــين
امبراطورية وبين القبائل الجرمانية منذ عهد يوليوس قيصر . وكانت تلك بدايـــة
وات البرابرة لاوربا ، وفاتحة عهد جديد من الاضطرابات . فقد تشاجر القـــــوط
ربيون مع موظفي الامبراطورية وزحفوا على القسطنطينية . وخرج فالنز للاقائهم
ان يتلقى المدد الذي ارسله اليه ابن اخيه الامبراطور الغربي جراتيان ابن فالنتيان .
قي الهزيمة والموت قرب ادرنة سنة ٣٧٨ . وقد اختار جراتيان خلفا لعمه رجـــلا
سبانيا هو ثيودوسيوس الذي اسمته الاجيال اللاحقة ثيودوسيوس الكبير . وقـــد
بدأت سياسته المعتدلة ثائرة القوط الغربيين ، وجعلت منهم الى حين اعوانا نافعيـــن
دولة . وكان ارثوذكسيا متحمسا اضطهد الوثنيين والهراطقة وحرمهم من الحقـــوق
قانونية . وفي المجمع المسكوني الثاني المنعقد في القسطنطينية سنة ٣٨١ ، فرض
وحدة بالقوة على العالم المسيحي . وفي سنة ٣٨٧ عقد مع الساسانيين معاهــــدة
جديدة اقتسم فيها واياهم ارمينية . وفي سنة ٣٩٢ ضم اليه الغرب بعد وفاة جراتيان
هذه آخر مرة يحكم فيها الامبراطورية الرومانية بكاملها والممتدة مـــن بريطانيـــا
ربا الى الفرات شرقاً ، وعند وفاته سنة ٣٩٥ ترك الامبراطورية لولديـــه . فحكم
ركاديوس في الشرق وحكم هونوريوس في الغرب ، وبموت ثيودوسيوس انفصلت
امبراطورية الرومانية .
رومانية الشرقية (البيزنطية) الارثوذكسية عن الامبراطورية الرومانية الغربيـــة
لكاثوليكية انفصالا نهائيا .

وفي القرن الخامس اضمحلت الامبراطورية في الغرب ، وهدتها غزوات
قبائل الجرمانية ، فلم يحمل احد لقب الامبراطور بعد تنازل رمولوس او غسطولوس
في سنة ٤٧٦ وموت يوليوس نيبوس في سنة ٤٨٠ . واما الامبراطورية الشرقية فقـــد
ابت على الحياة قرونا . وكانت عاصمتها القسطنطينية المنيعة تحميها من كل عدوان .

ومع ان القوط الغربيين والهون والقوط الشرقيين عبروا نهر الدانوب الا انهم لم يلبثوا أن آثروا الاستقرار في الغرب . وفي سنة ٤٣٩ استقر الوندال بافريقية وانزلوا الى البحر اسطولا من قرطاجنة نقضوا بذلك على احتكار الرومان للبحر الابيض المتوسط واضطرت موانئ هذا البحر ، التي الفت الامن منذ قرون ، ان تشيد الاستحكامات وكان على القسطنطينية ان تواجه مشكلة الوندال .

وعانت الامبراطورية ، طوال حكم الاسرة الثيودوسية ٣٩٥ – ٤٩١ ، بالاضافة الى هجمات الشعوب الجرمانية والساسانية ، انشقاقات دينية . فقد شجرت منافسة حادة بين الاسكندرية وانطاكية والقدس والقسطنطينية التي اعطيت الرياسة في المجمع المسكوني الثاني . وادعت الاسكندرية ان نسطوريوس بطريرك القسطنطينية قد زل ووقع في الزندقة حيث فرق بين الرب وبين الانسان في شخص المسيح ، وفي المجمع المسكوني الثالث المنعقد في افسوس سنة ٤٣٢ أدين المذهب النسطوري واذاع قسيس اسمه اوطيخا ، اويوتيخس ، مبدأ ينص على وحدة طبيعة المسيح اعترفت به الكنيسة الاسكندرانية . وفي مجمع خلقيدونية المنعقد سنة ٤٥١ أدين مذهب وحدة طبيعة المسيح وعد زندقة وهرطقة .

وكان هذا المجمع نقطة تحول كبرى في تاريخ الامبراطورية في مصر وبلاد الشام . فقد كانت وحدة طبيعة المسيح عقيدة تناسب المزاج الشرقي وسرعان ما انتشرت في الولايات الشرقية ؛ وصارت هذه العقيدة نقطة تجمع للكثيرين من اهالي الولايات الشرقية الذين كانوا يشعرون بان الامبراطورية البيزنطية قوة غريبة عنهم تحكمهم بالقوة ، وتبتز اموالهم وخيرات بلادهم فكانت هذه العقيدة وسيلة التعبير الظاهرية عن النزعات الانفصالية والاستقلالية والقومية وعلى هذا فقد استقرت في مصر الكنيسة القبطية المستقلة عن المذهب الرسمي في القسطنطينية وكذلك استقرت الكنيسة اليعقوبية في بلاد الشام وظهرت طوائف اخرى في الشام والجزيرة الفراتية كالنسطورية وغيرها ؛ وكلها تعبر ، بشكل ديني ، عن الروح الاستقلالية ، والتطلعات الوطنية ، وفي الوقت نفسه كانت الوثنية قد خمدت انفاسها فقد انزل ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٣١ بالوثنيين ضروبا من التعجيز الـ[illegible] والحرمان من الحقوق ، ومازالت سنة ٤٣٨ حتى ادعى انه لم يبق منهم احد في [illegible] الامبراطورية وفي خلال الفترة

التاريخية الطويلة التي تمتد من ٣٣٠ الى ٥١٨ مرت الدولة البيزنطية بازمتين ، عزعتا كيانها ، ولكنها صمدت لهما وخرجت منهما وقد استعادت قوتها . وهاتان الازمتان هما ، غزوات القبائل والشعوب المتبربرة ، والانشقاقات الدينية .

٢ - عصر جستنيان ٥٢٧ – ٥٦٥

تولى عرش الامبراطورية جندي امي من الليريا يسمى جستن وعند وفاته سنة ٥٢٧ خلفه على العرش ابن اخيه جستنيان ، اويوستنيانوس . ٥٢٧ – ٥٦٥ وكان حكم جستنيان اعلى ذروة بلغتها الامبراطورية الرومانية في عهدها المسيحي واخذ جستنيان على عاتقه استرداد افريقيا من الوندال . وايطاليا من القوط الشرقيين . واسبانيا من القوط الغربيين . وقد تمكن من فتح افريقيا واجزاء من اسبانيا وقضى على مقاومة القوط الشرقيين في ايطاليا وفي الشرق تجددت الحرب مع الفرس الساسانيين ، ولكنه تمكن من المحافظة على الجبهة بفضل حنكة قادة جيوشه . ومهارته الدبلوماسية

واهتم جستنيان بالشؤون الداخلية ، فاصلح الادارة ، وقوى نظمها . وقد ترك اثرا باقيا في التشريع فمنذ بداية حكمه قام بتنقيح نصوص القوانين الرومانية ، واصدر مجموعته القانونية الشهيرة سنة ٥٣٣ ؛ وهي من الآثار الباقية في الفقه التشريعي وقد ظل طوال حكمه بواصل اضافة الملاحق القانونية الجديدة لاستكمال اي نقص يظهر . وقد أتم جستنيان عملية تحويل القانون الروماني الى قانون يصلح لدولة تضم شعوبا عديدة . وعالج المشاكل الجديدة التي نشأت عن ظهور الكنيسة واشتراكها في الحياة العامة . نشر جستنيان احكام الفقه الروماني في مجموعة سماها « البندكت » اي الجامع الاوفي ، او « الديجست » اي المختار او المهذب وتحتوي هذه المجموعة على خمسين كتابا . وكل ما في هذه المجموعة اصله من القانون الروماني القديم . ونشر مجموعات لقوانينه ومراسيمه ، وهي تحتوي ما اصدره هو من القوانين والمراسيم وما استبقاه واعتمده مما اصدره اسلافه . وفي سنة ٥٣٣ نشر مدونته الشهيرة في القانون ، وهي تحتوي خلاصة التشريع الروماني وقد ترجمت المدونة الى اللغة العربية بعنوان : مدونة جستنيان في الفقه الروماني (١٠) واكبر فضل لجستنيان انه وفق الى جمع الفقه القديم وتدوينه وحفظه من الضياع وتحتوي مدونة جستنيان على مقدمة وضعها الامبراطور ، وعلى اربعة كتب وينقسم

كل كتاب الى ابواب . وكل باب الى فقرات مر... يبحث الكتاب الاول في اقسام القانون واحكام الاشخاص من جهة علاقتهم بالقانون الخاص . ويبحث الكتاب الثاني في حق الملكية والوراثات الايصائية . والكتاب الثالث في المواريث غير الايصائية اى الشرعية ، وفي الالتزامات . ويتكلم الكتاب الرابع عن الالتزامات الناشئة عن الجرائم والتعديات المختلفة ، وعن الدعاوى المدنية والقضاء فيها ، وعن ووجهها لطلبة الجنائية . ونورد فيما يلي فقرات من المقدمة التي كتبها جستنيان ووجهها لطلبة الفقه توضيحا لما ذكرناه فيما تقدم « الى الشبيبة المتشوقة لعلم فقه القوانين . سلام عليكم وبعد فانه لكيما تحكم الدولة حكما صالحا في وقت السلم وفي وقت الحرب لا يجد صاحب الجلالة الامبراطورية بدا من الاعتماد على ركنين : الاسلحة والقوانين . بالاسلحة يستمر قاهرا لكل عدو من الخارج يقصد الدولة بسوء ، وبالقوانين يقطع دابر المظالم التي يبيتها بعض الاهالي لبعض . وبهذا يكون جديراً باللقبين معاً ، لقب نصير العدل ، ولقب المظفر المنصور .... والمطلع على هذه المدونة يجد فيها مختصرا لاجزاء القانون القديم التي مازال العمل جاريا بها ، وماكان منها قد عمي بتقادم العهد جاءت المراسيم الامبراطورية فالقت عليه شعاعاً من نوركشفه وجلى حقيقة معانيه .... ومحتويات هذه المدونة صار استمدادها من جميع ماكتب السلف من المتون الاولية .... » (١١) .

وقد بذل جستنيان جهدا عظيما في تجميل عاصمته القسطنطينية وجعلها على درجة عالية من الروعة والفخامة وهو الذي انشأ كنيسة آيا صوفيا ، اي كنيسة الحكمة المقدسة ، وهي اجمل واروع اثر معماري مسيحي الى يومنا هذا

وقد عاونت جستنيان في ادارة الامبراطورية زوجته ثيودورا الممثلة السابقة واشهر نساء زمانها وكانت « في الواقع » اعظم من جستنيان شجاعة ورباطة جأش ، وكانت تؤمن بعقيدة وحدة طبيعة المسيح فحمت انصارها واشياعها ، وأما جستنيان فكان يعارض هذه العقيدة لانه لم يقتنع بصحتها من جهة ، ولانه كان صاحب مطامع في الغرب فخشي ان يجر على نفسه استياء الغرب الكاثوليكي السلفي العقيدة من جهة اخرى وحاول ... جد عقيدة توفق بين العقائد ليفرضها على عـ... م المسيحية

باكمله ، وقرر انه ينبغي على كل انسان حتى البطاركة والبابوات انفسهم ان يتبعوا نظرية الامبراطور في اللاهوت

وقد ساعدت ثيودورة زوجها في الحكم ، واخرجته في كثير من الاحيان من مآزق حرجة وهي التي حملته برباطة جأشها ورسوخ عزيمتها على التصدي للثورة المعروفة بـ « ثورة النصر » التي كادت تطيح بعرشه بعد ان خارت عزيمته وأوشك على الفرار ومجمل القضية انه كان يقوم في قلب العاصمة ملعب فسيح لسباق الخيل يدعى الـ « هيبودروم » وكان سائقو عربات السباق يتزيون بلباس اخضر وازرق . وقد اعجب سكان العاصمة بسباق الخيل ، وتحمسوا له ، وانقسموا الى حزبين رياضيين الازرق والاخضر . وتكتل افراد كل حزب وتكاتفوا فانشأوا صندوقاً خاصاً لتشجيع السائقين وشراء جياد السباق والعناية بها . ونشا عن هذا التضامن الرياضي تضامن في السياسة والاجتماع ، فاصبح في العاصمة حزبان سياسيان اجتماعيان هما : حزب الخضر وحزب الزرق . وايد الزرق الارثوذكسية ، وايد الخضر عقيدة الطبيعة الواحدة وانقسم رجال البلاط انفسهم الى زرق وخضر . وكانت ثيودورة تعطف على الخضر . وكان الزرق في الغالب من طبقات الشعب العليا ، والخضر من الطبقات الشعبية . بحيث اصبح الصراع بينهما في بعض الاحيان صراعا طبقيا . وقد حدثت ثورة « النصر » سنة ٥٣٢ ، وكان لها اسباب عديدة ، بعضها دينية عقائدية ، وبعضها اقتصادية ادارية ، ويعود بعضها الى التنافس على الحكم بين الاسر الارستقراطية . وبسبب تعسف الحكومة في الادارة والضرائب والقسوة في معاملة الناس وابتزاز اموالهم بالباطل اتحد الزرق والخضر وهبوا جميعا وهرعوا الى الهيبودروم ثم انطلقوا منه يخربون ويحرقون . وكانوا يهتفون بكلمة « نيكا » ومعناها بالعربية النصر فسميت بها حركتهم هذه.. وقد فاوضهم جستنيان فلم يرضوا ونادوا بامبراطور جديد . ولما اشتدت الثورة ذعر جستنيان فقرر الفرار من العاصمة ولكن ثيودورة وبخته على جبنه ، واعلنت انها تفضل الموت وهي تقاتل على الفرار الى امان ذليل . فتشجع جستنيان ، وعاد اليه ما عزب من شجاعته . فامر قائده بليساريوس باخضاع الثائرين بالقوة بعد ان مضت على ثورتهم ستة ايام . واحاط الجنود بالثوار واكرهوهم على اللجوء الى الهيبودروم . وهناك فتكوا بهم فتكاً ذريعا

فقتلوا منهم عددا كبيرا يقدر بثلاثين او اربعين الف . (١٢)

لم يرض اهل المشرق عن سياسة جستنيان الدينية . وظل الغرب يشك في وبشريته . ولم يقتصر تذمر الناس على سياسته الدينية وانما كانت لهم اسباب اخرى للتذمر والشكوى فالضرائب بلغت حدا يفوق كل احتمال ، وكانت مشاريع جستنيان العمرانية . ومبانية الفخمة . وفتوحاته وحروبه . فادحة النفقات . وغير مثمرة من الناحية الاقتصادية . فلما استنفد كل ما في الخزينة من اموال . عمد الى فرض الضرائب العالية على الناس . والى ابتزاز المال من السكان بكل وسيلة . وفي سنوات حكمه الاخيرة ساهمت الطبيعة في زيادة الصعاب التي واجهها . فقد ادت الزلازل والمجاعات والطاعون الكبير سنة ٥٤٤ الى انقاص موارد الخزينة . وقد بذل جهدا كبيرا في انعاش الاقتصاد والنهوض بالتجارة . ولكنه لم يحقق هدفه . فما ان اخذت التجارة تنتعش قليلا حتى انقض على التجار جباة الضرائب فسلبوهم عن طريق الضرائب ما ربحوه عن طريق الاصلاحات المالية . وظل سكان الامبراطورية يزدادون على الايام ارهاقا وتذمرا . وعلى الرغم من كل فتوحاته وانتصاراته العسكرية . واصلاحاته التشريعية . مات جستنيان سنة ٥٦٥ وجمهور الشعب له كاره . والمتدينون من رعاياه يعتبرونه خارجا عن الدين القويم . وقبل ان ننسى هذه الفقرة عن جستنيان لا بد لنا من التنويه بالقائد العسكري الكبير بليساريوس . فهو الذي قمع ثورة « النصر » في العاصمة وصمد امام الساسانيين وابعدهم عن حدود الدولة . واعاد احتلال شمال افريقية . وصقلية . وايطالية . (٥٣٣ – ٥٤٠ م) .

٣ – الاسرة الهرقلية ٦١٠ – ٧١٧ :

وخلف جستنيان على العرش ابن اخيه جستن الثاني وكان عهده مليئا بالكوارث والاضطرابات ، وعندما توفي سنة ٥٧٨ خلفه على العرش القائد طيبريوس . وفي عهده ابتدأت حقبة جديدة . [illegible] رأى ان الشرق اولى بان ينقذ من الانهيار فترك [illegible]

ايطاليا للومبارد ، وتراجع نائبه « الاكسراخ » الى رافنا وراء المستنقعات . واحتفظت الدولة بخط الساحل الجنوبي . وفازت روما بما يشبه الاستقلال في ظل البابوات . وفي الوقت نفسه سقطت اسبانيا بيد القوط الغربيين . وانتصر الافار في جبهة الدانوب واخذ الصقالبة يهاجمون الامبراطورية . وقد اتخذ طيبريوس سياسة التسامح والملاينة مع المخالفين لمذهب الدولة الرسمي . وحاول ان يخفف الضرائب عن الناس . وان يصد هجمات الاعداء المغيرين من كل جانب . ولكنه توفي سنة ٥٨٢ دون ان يحقق ماهم بتحقيقه من اعمال حربية واصلاحات . وخلفه على العرش زوج ابنته موريقيوس ٥٨٢ – ٦٠٢ فاتبع سياسته . صدّ الافار ، وانتصر على الفرس . وحاول ان يقوى الدفاع عن الامبراطورية واعطى العسكريين سلطة اكبر في ادارة المقاطعات الحدودية والتزمت الدولة الصرامة في النفقات فانصلحت الحال الى حدما . ولكن صرامة الامبراطور موريقيوس المالية ارهقت جنده ورعاياه ارهاقا شديدا ، ولم يتحمل الجند انقاص عطائهم فثاروا عليه وقتلوه ونصبوا فوقاس امبراطورا . ومازال عهد فوقاس ٦٠٢ – ٦١٠ يضطرب بالفوضى والمظالم والفتن الداخلية والغزوات الخارجية حتى جاء هرقل ابن حاكم ولاية افريقيا فانقذ البلاد وانشأ اسرة مالكة دامت خمسة اجيال هي الاسرة الهرقلية .

في عهد هرقل تجددت الحرب بين بيزنطة وفارس . فقد استولى الفرس على بيت المقدس ونهبوها ، وغزوا مصر ، واوشكوا ان يستولوا على القسطنطينية نفسها بمساعدة الافار . ولكن هرقل سحق الجيوش الساسانية سنة ٦٢٨ ، وفي الوقت نفسه اخذت مملكة الافار بالانهيار . ونشر هرقل سياسة بيزنطة على الصقالبة في شبه جزيرة البلقان . وقد انهكت هذه الحروب قوى الدولة ، وبددت طاقاتها ومواردها ، وكانت الولايات المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح تعاني اشد العناء من الجور والضرائب الفادحة والتعسف في الادارة وحاول هرقل مشيئة واحدة فقط هي المشيئة الالهية . وهذه عقيدة « [illegible] المشيئة » . اى ان للمسيح مشيئة واحدة فقط هي المشيئة الالهية . وهذه

العقيدة . التي لقيت بعض النجاح في القسطنطينية وايدها البابا هونوريوس الاول . لم ترضي اشياع مذهب وحدة الطبيعة . وعلى كل حال جاءت تسوية هرقل اللاهوتية بعد فوات الاوان . وفي هذه الفترة بالذات وحد الاسلام العرب فاندفعوا من جزيرتهم العربية يحررون ويفتحون . فازاحوا من بلاد الشام ومصر جيوش البيزنطيين وقضوا على سلطانهم فيها الى الابد . وفي سنة ٦٣٦ وقع هرقل الوثيقةالمحتوية على الاعتراف بالعقيدة الجديدة . وهي السنة نفسها التي وقعت فيها معركة اليرموك الفاصلة التي انتصر فيها العرب المسلمون انتصارهم المبين على الجيش البيزنطي الكبير الذي تمكن هرقل من جمعه من شتى ارجاء امبراطوريته المكدودة المتعبة . وفي سنة ٦٣٨ حرر العرب بيت المقدس . وفي سنة ٦٤١ دخلوا مصر . وقد رحب سكان سوريا ومصر المرهقون بالضرائب ، المضطهدون دينيا وسياسيا ، بالعرب المسلمين . وقد تقلصت حدود الامبراطورية عند وفاة هرقل سنة ٦٤١ فاصبحت قاصرة على آسيا الصغرى وساحل شبه جزيرة البلقان وولاية افريقية وصقلية ، وبعض المواقع الامامية المبعثرة الاخرى . وكانت هذه الاقاليم ، باستثناء افريقية ، تجعل من الدولة وحدة ذاتية ناطقة باللغة اليونانية ، وتعتمد دينيا على بطريركية القسطنطينية . ولم تعصم جبال طوروس البيزنطيين من الجيوش العربية . وكان صد التقدم العربي يقتضي تجميع طاقات الامبراطورية كلها .

واستمرت غزوات العرب للبيزنطيين برا وبحرا . ففي سنة ٦٧٣ نزلوا على بحر مرمرة ، وظلوا طوال هذا العام يغيرون على اسوار القسطنطينية . وقد هاجموها كرة اخرى بحملة كبيرة حاصرتها عامين ٧١٧ – ٧١٨ .

وامتدت الفتوحات العربية في شمال افريقية . ففي سنة ٩٧٠ شرعوا يهاجمون ولاية افريقية ، وفي سنة ٦٩٧ سقطت قرطاجنة بايديهم . وما لبثوا ان اكملوا فتح شمال افريقية ثم فتحوا اسبانيا سنة ٧١١ .

وكانت بلاد البلقان هدفا للصقالبة فاحدثوا فيها الاضطراب والخراب وفي

سنة ٦٧٩ غزت قبيلة هونية شديدة المراس تسمى البلغار المناطق الواقعة في جنوبي نهر الدانوب واستقرت فيها . وبينما كانت الامبراطورية تعاني من هذه الاخطار المصيرية كان الجدل الديني ما زال مستعرا ، يمزق المجتمع ويفتت وحدته . وفي سنة ٦٨٠ انعقد المجمع المسكوني السادس بالقسطنطينية فاستنكر عقيدة « وحدة المشيئة » ورفضها واعتبرها هرطقة .

٤ – الحركة اللاايقونية

مرت الامبراطورية البيزنطية بعد وفاة هرقل بفترة انحلال وفوضى وضعف شديد . فقد تعاقب على العرش اباطرة ضعاف ، وكانت تحدث بين حين وآخر مؤامرات في البلاط تخلع امبراطورا وتولي اخر وكانت فرق الجيش تتمرد . هذا الى اضطرابات اقتصادية ودينية مذهبية . في حين كان العرب يهددونها من الجنوب والبلغار يهددونها في البلقان.وفي سنة ٧١٧ تقدم لتولي العرش اعظم قائد في الامبراطورية وهو لاوون الثالث ، اوليو الملقب بالايسوري ، دون ان يلقي معارضة تذكر فاسس الاسرة الايسورية . وقد تمكن الاباطرة الايسوريون من تحسين دفاع الامبراطورية ومكنوها من الصمود امام العرب . وقد تمكن لاوون الثالث ٧١٧ – ٧٤١ من الدفاع عن العاصمة في اثناء حصار العرب الكبير لها في عامي ٧١٧ – ٧١٨ ، ومن ثم تمكن في سنواته الاخيرة من ارجاعهم الى حدود طوروس . واهتم لاوون الثالث بالادارة فاصلح المالية ، وطور نظام الالوية « الثيمات » وكان اللواء يستعمل بمعنيين : فهو يعني مجموعة من فرق الجند ، كما يعني المقاطعة التي تحتلها تلك الفرق . وكانت كل مقاطعة ، او لواء ، توضع تحت سلطة حاكم عسكري . ولكن ادارته كانت موضع مراقبة تامة من القسطنطينية . وخلف لاوون الثالث ابنه الامبراطور قسطنطين الخامس ٧٤١– ٧٧٥ فتابع سياسته في اصلاح الشؤون المالية والادارية ، وصد البلغار والعرب وقد اعانة على العرب انهيار الخلافة الاموية . وعلى الرغم من اصلاحات لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس الادارية والمالية ، وعلى الرغم من انتصاراتهما العسكرية

فقد حقد عليهما البيزنطيون وردلوهما بسبب سياستهما الدينية . ففي عهد لاوون هذا بدأت الحركة المعروفة في التاريخ بـ « اللاايقونية » ، اي حركة منع عبادة الصور والتماثيل وتقديسها وتكريمها .

الايقونة كلمة يونانية معناها الصورة او الرسم . وتستعمل الكلمة في المصطلحات الدينية للاشارة الى صور القديسين . وتنقسم حرب الايقونات الى مدتين منفصلتين : الاولى من سنة ٧٢٦ حتى ٧٨٠ وتنتهي بالمجمع المسكوني السابع ، وتمتد الثانية من سنة ٨١٣ حتى سنة ٨٤٣ وتنتهي بارجاع عقيدة تكريم الصور المقدسة الارثوذوكسية الى حالتها الاولى . وقد اختلف الباحثون والمؤرخون في اسباب الحركة الايقونية . فبعضهم يرى فيها حركة اصلاحية دينية ، استهدفت تطهير النصرانية من ادران الوثنية ، وتحرير التعليم والتربية من سيطرة رجال الدين . ويرى فيها بعضهم حركة سياسية واقتصادية واجتماعية ، وان الدافع الحقيقي للقائمين بها كان خوفهم من ازدياد ثروة الرهبان وتزايد نفوذهم . ويراها مؤرخون آخرون مزيجا من هذه العوامل جميعاً .

ولم ينشأ الاعتراض على تقديس الايقونات في القرن الثامن فالفكرة قديمة تعود الى القرن الرابع ، بل هي اقدم من ذلك . ففي القرن الرابع حرم مجمع ?يرة المحلي في اسبانيا اقامة الصور في الكنائس . وكذلك فعل عدد من الاساقفة في الشرق والغرب وكان اليهود يحرمون الرسوم ، واعتبر القرآن الكريم الانصاب رجس من عمل الشيطان . وامر الخليفة الاموي يزيد الثاني في سنة ٧٢٣ بتحطيم الايقونات في كنائس النصارى ولكن الحركة اللاايقونية اتخذت في الفترة التي تتحدث عنها طابعا واسعا ، واتسمت بالعنف ، بل وتحولت الى حرب اهلية احيانا . واغلب الظن ان العامل الاقتصادي والسياسي كان له تأثير في انبعاث الحركة اللاايقونية في هذا العصر الذي تتحدث عنه ، وبهذا الشكل العنيف الذي ظهرت فيه . فقد ازداد عدد الرهبان ، وتعاظمت ثروتهم ونفوذهم فبلغوا مئة الف راهب . [illegible] عددهم بصورة خاصة في العاصمة

نفسها . ولم يكن الرهبان جميعا من اهل الزهد والتقوى . وانما ترهب الكثيرون منهم تخلصا من الظلم والجور . وتعسف الحكام والموظفين وجباة الضرائب ومالكي الاراضي الزراعية ، اوطمعا فيما تقدمه حياة الرهبنة من طمأنينة مادية وروحية ومنذ ان سمع الامبراطور لاوون الثالث بما امر به الخليفة يزيد الثاني في سنة ٧٢٣ بتحطيم الايقونات في بلاده بدأ يبث الدعاية السلبية في اوساط العاصمة لاجل ترك الايقونات والاقلاع عن تكريمها . وعندما فشل في اقناع الاساقفة ومن يشايعهم برأيه امر بحظر تكريم الايقونات . وبدأ تنفيذ الامر بازال تمثال السيد المسيح الذي كان منتصبا على باب القصر الامبراطوري . وفي الحال اندلعت ثورة اشتركت فيها النساء اشتراكا فعليا . ومزق المتظاهرون الموظف الذي نفذ امر الامبراطور ، فرد الامبراطور على ذلك ردا عنيفا ، وسقط عدد من القتلى،وهبت ثورة في اليونان وجزر الارخبيل فاخمدها الجيش بالقوة . وفي سنة ٧٣٠ اصدر لاوون الثالث امرا اشد من امره الاول فقاومه البطريرك جرمانوس واحتج عليه فاهانه لاوون وعزله ونصب في مكانه بطريركا جديدا . واحتج البابا غريغوريوس الثاني دون جدوى . وتابع البابا غريغوريوس الثالث موقف سلفه ، وعقد في سنة ٧٣٢ مجمعا محليا اكد وجوب احترام الايقونات وتكريمها . وارسل الامبراطور لاوون قوة حربية ضد البابا ومن قال قوله في ايطاليا . ولكن السفن غرقت في الطريق ، فارسل اسطولا غيره ، ورفع سلطة البابا عن ابرشية صقلية وكلابريه وكريت وايليريه والحقها برئاسة بطريرك القسطنطينية . فقطع البابا كل علاقة له بلاوون . يتبين من هذا ان الحركة اللاايقونية ، وردود الفعل عليها ، تجاوزت بيزنطية وتعدتها الى اوربا .وقد امتدت الحركة الى الكنائس المسيحية داخل الدولة الاسلامية نفسها ، ولكنها لم تؤد الى حروب واقتتال بين بين النصارى بسبب سيطرة المسلمين وضبطهم للامور . وفي هذه الفترة كتب القديس يوحنا ثلاث رسائل ضد محطمي الايقونات .

وتابع الامبراطور قسطنطين الخامس سياسة ابيه لاوون الثالث في مكافحة

الايقونات وسرع في اضطهاد الكنيسة ، وسخر بالاحتفالات الدينية وبالقديسين ، ومنع الاعياد والاصوام ، وخرب الاديرة وجعلها ثكنات للجنود . وعقد مجمعا سنة ٧٥٤ . وقد اقر هذا المجمع اخراج الايقونـــات من الكنائس والبيـــوت وقطع ، اى حرم ، كل اسقف اوكاهن اوشخص يقتنيها ، وقضـى على كل راهب او علماني يقول بالايقونات ان يحاكم امام المحاكم المدنية بتهمة معاداة الله والمعتقدات الموروثة عن الاباء . وتقوى قسطنطين الخامس بقرارات هذا المجمع فاندفع فـي محاربة الايقونات اكثر من ذى قبل وصب ، نقمته على الرهبان ، فقتل منهم عددا كبيرا وسمل عيون بعضهم وقطع ايديهم وآذانهم واكره طائفة منهم على الزواج . وصادر املاك الاديرة وضمها الى املاك الدولة . وقد فر عدد كبير من الرهبان الى ايطاليـا وجنوبي روسيا ولبنان وفلسطين . ويقدر عدد الذين فروا الى ايطاليا بخمسين الفـا . ويبدو من هذا ان هذه الحرب العنيفة كانت ، في الاساس ضد الرهبان اكثر منهـا حربا ضد الايقونات نفسـها . وقد ادت سياسة العنف التي اتبعها لاوون الثالث وابنـه قسطنطين الخامس الى نفور الكنيسة الغربية من دولة الروم ، بيزنطة ، والى تقربهـا من ملوك اوربا وامرائها لتستعين بهم على دفع الاضطهاد . ومن هذا التباعد بين بابـا روما وامبراطور القسطنطينية ، زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة ، وهذا مـا سيؤدى ، الى جانب عوامل اخرى ، الى انقسامها الى كنيستين منفصلتين مستقلتيـن الكنيسة الارثوذكسية الشرقية والكنيسة الكاثوليكية الغربية .

توفى قسطنطين الخامس سنة ٧٧٥ فخلفه ابنه لاوون الرابع ، وكان مثل والـده يرفض الايقونات ولكنه كان لين الجانب ، بعيدا عن العنف . وبعد خمس سنـوات خلفه ابنه قسطنطين السادس وله من العمر عشر سنوات ، فتولت امه ايرينه زمام الحكم باسمه وكانت من محبي الايقونات . وفي عهدها ، وتحت رعايتها ، انعقـد مجمـع ديني في القسطنطينية سنة ٧٨٦ . ولكن الجند اندفعوا اليه شاهرين الســلاح ودفعوا بالـ... خارج الكنيسة وفي سنة ٧٨٧ التأم هذا الـ... مدينة نيقية وكان مؤلفا من ٣٦٧

أبا من اباء الكنيسة وحضره ممثلون عن بابا روما وعن البطاركة الشرقيين الثلاثة . اي بطريرك انطاكية والاسكندرية والقدس . وكان هذا المجمع يمثل جميع الكنائس المسيحية في المشرق . وقد اعترف الاباء المجتمعون بوجوب تكريم الايقونـات . والغوا مقررات مجمع سنة ٧٥٤ لانه لم يكن مسكونيا ، اى لايمثل النصـارى كافـة وقد اصدر المجمع اعتراف الايمان وحدد فيه وجوب تقبيـل الايقونات والسجـود الاكرامي لها « احتراماً للذين صورت عليهم لا عبادة لهم كما انهم الكنيسة اعداؤها لان العبادة انما تجب لله وحده دون غيره » .

وهدأت الحال فترة قصيرة ، ثم عادت الى الاضطراب في عهد لاوون الأرمني اولاوون الخامس ، ٨١٣ – ٨٢٠ ، وقد اتبع سياسة انتهازية ، تتقلب بحسب المصالح والظروف،فقد اقسم يمين الولاء للكنيسة ، وقطع على نفسه عهدا بان يحافظ علـى عقائدها ومصالحها،وكـان يعتمد على جنود اسيويين لا يحترمون الايقونـات ولا يرغبون في تكريمها . فما ان استتب له الامرحتى نكث يمينه ونبذ الـولاء للكنيسة وقد بث القول بأن ما حل بالدولة من ضعف وما احدق بها من خطر انما نشأ عـن العودة الى تكريم الايقونات وتقديسها . وقد عقد مجمعا في سنة ٨١٤ جمع فيـه بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين ممن قال بتكريم الايقونات وممن حرمها و... بتة المجمع الى نتيجة حاسمة . وفي ربيع سنة ٨١٥ عقد مجمعاً محليا ثبت فيه مقررات مجمع سنة ٧٥٤ ، وحرّم تكريم الايقونات . ولكن لاوون لم يسرف في استعمال العنف الشديد ضد مؤيدي الايقونات بل اكتفى بنفي الاساقفة والرهبان وبحبسهم

وفي سنة ٨٢٠ هجم متآمرون على لاوون السادس وهو يصلي في الكنيسـة فذبحوه ، وتوجوا ميخائيل العموري امبراطورا ، وهو مؤسس الاسرة العمورية واسمه مشتق من مدينة عمورية مسقط رأسه ، وقد اصدرامرا منع فيه كل مشادة حول الايقونات واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب ذلك . وجاء حفيده ميخائيل الثالث ٨٤٢ - ٨٦٧ الى العرش وهو في السادسة من عمره ، فاصبحت امه تيودورة وصية عليه !

وكانت ثيودورة من محبي الايقونات وقد انعقد المجمع وصدق اعمال المجمع المسكوني السابع . وفي اول احد من الصوم الكبير من سنة ٨٤٣ نصبت الايقونات المكرمة في كنيسة آيا صوفيا ، الحكمة الالهية ، واصبح هذا اليوم ، وما زال ، عيدا سنويا لانتصار العقيدة الارثوذكسية . واصدر بطاركة الاسكندرية وانطاكية والقدس بيانا مشتركاً بوجوب حماية الايقونات وتكريمها . وبهذا انتهت الحركة اللاايقونية التي هزت اسس الدولة البيزنطية ، وزعزعت اركانها ، والحقت الاذى بعشرات الالاف من ابنائها مدة مئة وعشرين سنة (١٣) .

٥ - اللاتين في القسطنطينية :

في سنة ٨٦٧ استولى العبد باسيليوس على العرش ، واسس الاسرة المقدونية ٨٦٧ - ١٠٥٧ ، التي بلغت في عهدها الامبراطورية البيزنطية ذروة مجدها . وكان التنظيم الداخلي للامبراطورية من القوة بحيث مكن الاباطرة من الاستمتاع ببرنامج توسع وفتوح ، وادى استتباب النظام الى انتعاش التجارة . وكان باسيليوس الاول ٨٦٧ - ٨٨٦ ، قائدا مقتدرا ، حوّل ميزان القوى في الحرب مع العرب الى جانب بيزنطة ولكن في الغرب اجتاح العرب صقلية وجنوب ايطاليا ، ولم يتقدم باسيليوس لنجدتها بيد ان قائده نيقيفوروس فوقاس اعاد السلطة الامبراطورية بجنوب ايطاليا الى درجة من القوة لم تعرف منذ ثلاثة قرون . واتبع باسيليوس وابنه لاوون السادس سياسة داخلية واحدة تهدف الى تقوية حقوق الامبراطور وامتيازاته ومقاومة النزعات الانفصالية والاستقلالية وقد اصدرا مجموعة قوانين تعرف باسم « باسيليكا » ظلت معمولا بها حتى نهاية الامبراطورية .

وقد تعاقب على عرش الامبراطورية في عهد الاسرة المقدونية ، نساء ، واطفال وقادة جيش ، وسياسيون مغامرون . وعانت الدولة كثيرا من تهديد البلغار والروس، ومن الفتن الداخلية ، وتسلط الاسر الاقطاعية مالكة الاراضي الزراعية . ولكن

الامبراطورية كانت تنعم احيانا بفترات من الرخاء والقوة تسترد بها هيبتها وتصد اعداءها او تردهم عن حدودها . فقد هاجم البيزنطيون بلاد الشام ، واستولوا على مناطق فيها ,واستردوا اقريطش ، كريت ، وقاتلوا البلغار واخضعوهم اخضاعا تاما سنة ١٠١٨ ، حتى عادت شبه جزيرة البلقان باجمعها من الدانوب شمالا الى اقصى الجنوب مدخلت في طاعة الامبراطورية . وضمت كذلك ارمينية المستقلة الى حوزتها . وقد حدث معظم هذا في عهد الامبراطور باسيليوس الثاني ، ٩٦٣ - ١٠٢٥ ، الذي امتلأت فيه الخزانة الامبراطورية بالاموال نتيجة لتقشفه واقتصاده .وفي عهد هذا الامبراطور بلغت بيزنطة من سعة الرقعة مالم تبلغه منذ ايام هرقل ، واوتيت من الرخاء والثراء ما لم تصل اليه قط .

وعندما قضي على الاسرة المقدونية في سنة ١٠٥٦ انطلقت عوامل التفرقة والتمزق من عقالها . فمرت بالبلاد من سنة ١٠٥٦ الى سنة ١٠٨١ فترة من الفوضى اقتتلت فيها على السلطة كل من الكنيسة وهيئة الموظفين المدنية الحاكمة مع الارستقراطية العسكرية من ملاك الاراضي .

وقد اتفق حدوث هذه الفوضى مع هجمات اعداء اخذوا يغيرون على الحدود الشرقية والغربية .فقد اتم النورمان فتحهم لجنوب ايطاليا باستيلائهم على باري سنة ١٠٧١ وعبروا البحر الادرياتي الى سواحل البلقان . وتجمع الاتراك السلجوقيون على حدود ارمينية واخذوا يستعدون لفتح آسيا الصغرى .وفي الوقت نفسه كانت الجمهوريات الايطالية التجارية البندقية وجنوة وبيزا تنمو وتزداد قوة وثروة .وقد احدث ذلك انقلابا في ميزان القوى التجارية ، بلغ ذروته في الحروب الصليبية ، وضرب الزعامة التجارية للقسطنطينية ضربة قاصمة .وكانت سنة ١٠٧١ نقطة تحول في التاريخ البيزنطي .ففي هذه السنة سقطت باري بايدي النورمان ، وفيها انتصر السلاجقة بقيادة الب ارسلان في ارمينية ، في اعالي الفرات ، على القوات البيزنطية ، واسروا الامبراطور البيزنطي رومانوس في

... الشهيرة ، التي اصابت الامبراطورية البيزنطية بكارثة لم تفق منها ابداً . وقد اجتاح السلاجقة الاتراك آسيا الصغرى ، واستقروا فيها واتخذوها وطنا لهم دائما . وقد ادى استيلاء السلاجقة على مناطق واسعة في آسيا الصغرى الى حرمان الامبراطورية من المصدر الرئيسي الذي يزودها بالجند والحبوب ، مما اضطرها الى الاعتماد على الجند المرتزقة الاجانب .

وقد انقذ الامبراطور الكسيوس الاول كومنينوس ، ١٠٨١ – ١١١٨ ، الامبراطورية من الانهيار . فقد كان جنديا ماهرا ودبلوماسيا قديرا فابعد النورمان عن البلقان ، ورد الغزاة من الشمال ، وتصدى للسلاجقة ووضعهم في موقف حرج . وقد افاد من الحروب الصليبية ووجهها لصالح الامبراطورية ، فاستخدم الجيوش الصليبية في استرداد الاراضي البيزنطية من السلاجقة وخاصة عاصمتهم نيقية ، ودفع بالصليبيين غربا ليهددوا جناح الاسلام في بلاد الشام .

على ان الحروب الصليبية التي ابعدت السلاجقة عن آسيا الصغرى ردحا من الزمن وانقذت الامبراطورية من السقوط بايديهم ، قد الحقت بتجارة بيزنطة مع اوربا اضرارا بالغة في المدى البعيد . فقد فتحت هذه الحروب طريقا مباشرا للتجارة بين اوربا وبلاد الشام واعطت بيزنطة امتيازات تجارية لتجار البندقية ، الذين زودوها بالسفن ، واضطرت الى رفع الضرائب حتى اصبحت عبئا ثقيلا على السكان . وعبث الامبراطور الكسيوس بعملة الدولة ، التي حافظت على قيمتها طوال القرون السبعة المنصرمة من التاريخ البيزنطي ، وبهذا فقد النقد الامبراطوري مركزه بوصفه وسيلة التبادل الوحيد التي يعتمد عليها . وبسبب العوامل التي عددنا بعضها لم تعد القسطنطينية المركز المالي والتجاري للعالم الغربي بعد ذلك .

واسترد يوحنا الثاني ، ١١١٨ – ١١٤٣ ، ابن الكسيوس ، بحملات عسكرية اراضي اخرى من السلاجقة ، وادخل الرهبة في قلوب الصليبيين . واما ابنه عمانوئيل الاول ١١٤٣ / ١١٨٠ فاخذ يعتمد على مساعدة اوربا ويتكل بوجه خاص [illegible] سفن

الجمهوريات الايطالية . ولكن هذا العون البحري كان معناه منح امتيازات تجارية ومالية لجنوة وبيزا شبيهة بالامتيازات الممنوحة من قبل البندقية . ومع ان القسطنطينية ظلت حتى نهاية تاريخها مصنعا عظيما لادوات الترف والكماليات في العالم ، فقد انخفضت فيها ايرادات الجمارك ، وتناقصت تجارتها الخارجية البحرية او كادت تضمحل وتزول . وفي سنة ١١٧٦ هزم السلاجقة عمانوئيل هزيمة كبرى في موقعة : « مريوكفالوم » التي تعادل كارثة منزكيرت اثرا . وقد اكدت هذه المعركة ان السلاجقة عازمون على الاستقرار في آسيا الصغرى استقرار استيطان دائم .

وبعد وفاة عمانوئيل انتشرت الفوضى في البلاد . فقد استولى اندرونيكوس كومنينوس على العرش ، ١١٨٣ – ١١٨٥ ، بعد ان قتل ابن عمه الامبراطور الشاب الكسيوس الثاني بن عمانوئيل ١١٨٠ – ١١٨٣ .

وكان اندرونيكوس يكره الايطاليين ، فاقترن توليه العرش بتدبير مذبحة للتجار الايطاليين في القسطنطينية وسحب جميع الامتيازات الممنوحة لهم . وقد اصاب عسفه وظلمه اهالي القسطنطينية نفسها فثاروا عليه وخلعوه سنة ١١٨٥ . واعقب ذلك فترة حالكة رهيبة في تاريخ القسطنطينية ، حيث ضعفت الامبراطورية ، وانتشر الفقر والفوضى في ارجائها ، وعاد الايطاليون فحصلوا على المزيد من الامتيازات . وحصلت بلغاريا على استقلالها واعلنت قبرص العصيان . وفي سنة ١٢٠٤ حدثت في القسطنطينية فتنة اتاحت للصليبيين الحجة للاستيلاء عليها ، وتمزيق الامبراطورية .

وقع غزو الصليبيين للقسطنطينية في عهد اسحاق الثاني واخيه الكسيوس ١١٩٥–١٢٠٣ . ولهذا الغزو اسباب عديدة ستبين من خلال العرض . وخلاصتها ان العلاقات بين بيزنطة وأوربا كانت قائمة على المراوغة والخداع ، والتنافس الاقتصادي والسياسي ، التي كثيرا ما كانت تغطي باقنعة من الخلافات الدينية والجدل اللاهوتي العقيم .

في سنة ١١٩٥ خلع الكسيوس ، الذي لقب نفسه الكسيوس الثالث كومنينوس اخاه اسحاق الثاني وسمل عينيه وسجنه هو وابنه الكسيوس . وفي السنة ١١٩٨ ارتقى السدة البابوية انوسنت الثالث ، فاتصل باليكسيوس الثالث وطلب منه توحيد الكنيستين والاشتراك في حملة صليبية رابعة تسترجع القدس وغيرها من حكم المسلمين . ولم يلب احد من ملوك اوربا الكبار نداء البابا ,ولكن تقبل الدعوة عدد كبير من فرسان فرنسا وانكلترا والمانيا والبلدان الواطئة وصقلية .ومن اشهر المشاركين في هذه الحملة الصليبية الرابعة دوج البندقية هنريكوس دندولو الاعمى وكان يعرف القسطنطينية معرفة جيدة ، وفقد بصره عندما حول بعض الروم نور الشمس الى عينيه بمرآة مقعرة . وهذا الحقد الشخصي ، بالاضافة الى المصالح التجارية للبندقية ، من عوامل مساهمة البندقية في غزو القسطنطينية . وقد لبى دوندولو نداء البابا في المشاركة بالحملة الصليبية ، وهو يضمر القضاء على الدولة البيزنطية ، والاستحواذ على بلادها ومواردها التجارية والاقتصادية . وقرر القائمون بالحملة الصليبية الرابعة الاستيلاء على مصر اولا لان مصر كانت مركز الدولة الايوبية التي حررت القدس واجزاء كبيرة من فلسطين من الصليبيين . وقد تم الاتفاق بينهم وبين البندقية على ان تنقل البندقية ، على سفنها ٤٥٠٠٠ فارس و٢٠٠٠٠ جندي وعلى ان تطعمهم شرط ان يدفع الصليبيون لها مبلغا معينا من المال ، وأن تقسم الغنائم في المستقبل مناصفة بينها وبينهم . وتجمعت الحملة الصليبية في شهري تموز وآب من سنة ١٢٠٢ في البندقية . ولم يتمكن الصليبيون أن يدفعوا للبندقية الا نصف المبلغ المتفق عليه . وعلى هذا طلب منهم دندولو الاعمى ان يحتلوا مدينة زارة عبر الادرياتيك لانها كانت تنافس البندقية منافسة شديدة ، وذلك مقابل ما بقي عليهم من تكاليف الحملة . وقد استولى الصليبيون على مدينة زارة المسيحية وقدموها للبندقية .

وفي سنة ١٢٠٢ افلت اليكسيوس انجليوس بن اسحاق الثاني من السجن ، وسافر الى ... مستعين بشقيقته ايرينه زوجة الامير فيليب بن ... طور فردريك

بربروسا ، ويطلب مساعدة زوجها في اخذ حقه وحق ابيه الامبراطور المخلوع وقد استعطف كذلك البابا ، واتصل بالعديد من الامراء الاوربيين . وقد ارسل الامير فيليب وفدا الى زارة يرجو البنادقة والصليبيين مساعدة – الامبراطور المخلوع اسحاق وابنه اليكسيوس للوصول الى العرش . وقد استغل دندولو الاعمى هذه الفرصة احسن استغلال . وقدم الكسيوس بنفسه الى زارة وفاوض دندولو والصليبيين مباشرة ، ووعده بدفع مبلغ كبير من المال مقابل معونته في استرجاع عرش ابيه ، كما اظهر استعداده لادخال الكنيسة الارثوذكسية في طاعة البابا ، واشتراكه اشتراكا فعليا في الحرب المقدسة ضد المسلمين .

وفي اواخر حزيران من سنة ١٢٠٣ وصل الصليبيون الى القسطنطينية ، ونزلوا بالقرب من غلطة ، وقطعوا المآصر ، اي السلاسل الحديد التي كانت تحمي مدخل القرن الذهبي ،ودخلت مراكب البنادقة فاحرقت مراكب البيزنطيين . واقتحم الفرسان الصليبيون اسوار العاصمة واستولوا على المدينة في شهر تموز . وفر الكسيوس الثالث بخزينة الدولة وجواهرها ,واطلق سراح اسحاق الثاني واعلن ابنه شريكاً له في الحكم فاتخذ لقب الكسيوس الرابع ، ولم يوف اسحاق الثاني بوعوده للبنادقة والصليبيين ، واخذ يماطلهم ويرجوهم ان يقيموا خارج اسوار القسطنطينية ، فاستاءوا من ذلك ، واتهموه وابنه بالجحود وخيانة العهود والمواثيق .وفي اوائل سنة ١٢٠٤ ثار في القسطنطينية صهر الكسيوس الثالث دوقاس ، وفي هذه الثورة توفي اسحاق الثاني ، وخنق الكسيوس الرابع ، ونودي بالكسيوس دوقاس امبراطوراً فاتخذ لقب الكسيوس الخامس . ولم يكن بامكان الامبراطور الجديد ان يفي بالتزامات القسطنطينية للبنادقة والصليبيين ، فقرروا احتلال القسطنطينية ، وفي اذار سنة ١٢٠٤ وقع الصليبيون والبنادقة اتفاقا فيما بينهم لاقتسام الامبراطورية الشرقية بعد احتلال القسطنطينية . واشترطت الاتفاقية ان تقام في العاصمة حكومة لاتينية ، وان تقسم الغنائم بين الطرفين ، وان تتولى لجنة مؤلفة من ستة بنادقة وستة فرنسيين امر انتخاب امبراطور ، يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة الرومانية المقدسة ومجد الامبراطورية ، واتفق الطرفان ايضا على ان يحكم هذا الامبر... ربع العاصمة وربع الدولة التابعة

لها ، وعلى ان يوضع تحت تصرفه قصران من قصور العاصمة ، وعلى تقسيم مابقي من من العاصمة وأراضي الدولة مناصفة بين البندقية وبين سائر الصليبيين . وحاصر الصليبيون القسطنطية بضعة ايام ، وفر الكسيوس الخامس . وفي الثالث عشر من نيسان ١٢٠٤ اقتحم الصليبيون القسطنطينية ناهبين مخربين . وشمل النهب كنيسة آيا صوفيا وغيرها من الكنائس والاديرة ، ودمر عدد كبير من اثمن المخطوطات الفنية .وقد انتخب بلدوين ، امير الفلاندرز ، امبراطورا على القسطنطينية .وقسمت الممتلكات فاستولى الامبراطور على خمسة اثمان العاصمة وعلى الاراضي التي تتاخم المضيقين وبحر مرمرة وعلى بعض جزر الارخبيل الكبرى .واستولى مركيز مونتفرات على ثيسالونيكا وماجاورها من اراضي مقدونية وعلى ثيساليه واتخذ لنفسه لقب ملك ، واحتل اثينا وجعل منها ومن ثيبة دوقية ، وحول كنيستها الكاتدرائية في قلب البانثيون الى كنيسة لاتينية . واستولت البندقية على ديراتزو وغيرها من النقاط الهامة على ساحل بحر الادرياتيك الشرقي ، واحتلت كورفو وغيرها من جزر مداخل هذا البحر ، وبعض اماكن في شبه جزيرة المورة وجزيرة اقريطش وبعض المرافئ على شاطئ تراقية وغاليبا وثلاثة اثمان القسطنطينية نفسها . وتسلم قس البندقية كنيسة آيا صوفيا ، واقاموا بموافقة البابا بطريركا على الكنيسة الكاثوليكية في الامبراطورية الجديدة .وقد نظمت الامبراطورية اللاتينية على اساس اقطاعي فقسمت الى عدد من الاقطاعات ، واقسم امراء هذه الاقطاعات يمين الطاعة والولاء للامبراطور . ولم يكتب لهذه الامبراطورية الجديدة عمر طويل . فقد كانت منذ نشأتها اقطاعية ، ضعيفة في السلم وفي الحرب . وكانت مقسمة الولاء في الدين ، فقد ظل الاهالي ارثوذوكسيين متباعدين عن دين الدولة الجديدة ، وظل رجال الدين يتبعون البطريرك الارثوذوكسي الذي نقل مقره الى نيقيه .

تكشف الحملة الصليبية الرابعة ... ح وجلاء المقاصد الاقتصادية والاستعمارية

للحروب الصليبية ، وتحت ستار الدين انجرف المتدينون الجهلاء من عامة الشعب ليمكنوا رؤساءهم من الاستيلاء على الاراضي ، وتأسيس الامارات والتمتع بخيرات البلاد المحتلة . ولم يستطع حتى البابا انوسنت الثالث اخفاء هذه الحقيقة الواضحة

زحفتم على المسيحيين بدلا من المسلمين فاستوليتم على القسطنطينية بدلا من القدس وآثرتم « كنوز الدنيا على كنوز الآخرة » (١٦).

الدامغة فكتب الى مركيزة مونتفرات يقول : « لقد حدتم عن طهارة نذركم عندما

٦ – اسرة باليولوجس وسقوط الامبراطورية البيزنطية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ :

بدأت الامبراطورية اللاتينية ضعيفة ، وسرعان ما اخذت تغوص في دركات الفقر والانحلال وقد قتل بلدوين سنة ١٢٠٥ في حرب مع البلغار ، واعقبه على العرش عدد من ابناء اسرته لم ينالوا رضى الشعب المحكوم ، ولم يحصلوا على معونة من الغرب .واما تجار البندقية والامراء الاقطاعيون من اللاتين فكان همهم أرضاء مصالحهم الذاتية ومنافعهم الشخصية . وكان سكان القسطنطينية يهجرونها بسبب الفقر والمجاعة . وفي سنة ١٢٦١ اقتحم جند ميخائيل باليو لوجوس ، مؤسس اسرة باليو لوجوس الشهيرة الذي سنتحدث عنه فيما يلي ، المدينة عنوة فهرب الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني والبطريرك اللاتيني والحاكم البندقي الى الميناء ، ومنه اقلعوا هم واتباعهم الى اوربا . وبهذا انتهت هذه الدولة المصطنعة التي اقامتها الحملة الصليبية الرابعة .

باءت محاولة البندقية للاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية كلها بالفشل . فقد ظلت الاقاليم التابعة للامبراطورية فى آسيا الصغرى في قبضة رجال ينطقون باللغة اليونانية وانشأ ثيودوروس لاسكاروس زوج ابنة الكسيوس الثالث بمدينة نيقية بلاطا ما لبث ان اصبح المركز الرئيسي للامبراطورية في المنفى.واعلن شخص من اسرة ...سينوس استقلاله في مدينة طرابزون . كما ... الاستقلال في ايبروس احد

افراد اسرة انجيلوس واشرع سلاسيث من اللاتين . وكانت هذه الحكومات الثلاث متعادية ، تدعى كل واحدة منها انها تمثل الامبراطورية في المنفى .وقد فازت بالنصر في النهاية حكومة نيقية . ويعود الفضل في النصر الذي احرزته على منافساتها . عدا طرابزون التي بقيت صامدة حتى قضى عليها الاتراك العثمانيون في سنة ١٤٦١ ، الى كفاءة بعض قادتها وحكامها وحسن تدبيرهم .وقد كان لنيقية اقتصاد مزدهر قائم على الزراعة وعلى التجارة مع السلاجقة ، ونجحت في انشاء جيش بري قوي حسن التدريب والانضباط . وفي سنة ١٢٥٩ تمردت الارستقراطية في نيقية وقتلوا الوصي علـــى العرش وسلموا السلطة لاكبرهم سلطة ونفوذا ومقدرة وهو ميخائيل باليولوجوس الثامن ١٢٥٩ - ١٢٨٢ . وفي ليلة عيد الميلاد من هذه السنة اغتصب ميخائيل التاج ، واصبح الامبراطور مؤسس اسرة باليولوجوس الشهيرة .وبعـــد ان ثبت ميخائيل الثامن سلطته في نيقية قرر استعادة القسطنطينية .

دخل ميخائيل باليولوجس الى القسطنطينية وقد [illegible] خربت وهجرها سكانها . وكانت عودة مجيدة اعادت الهيبة للامبراطورية . ولكنها وضعت بين يديه مشكلات ونفقات لاقبل له بتحملها .واعتمد ميخائيل على حلفائه الجنويين ، ودفع لهم ثمن تحالفهم ومساعدتهم له بالسفن لتخليص القسطنطينية من البنادقة ، امتيازات تجارية انقصت من ايرادات الدولة . واخذت قيمة العملة بالهبوط من جديد بعد ان ثبتها اقتصاد اباطرة نيقية .ولما كان ميخائيل عاجزا عن الوفاء بنظام اعطيـــات جند الحدود الذي يقضي بمنحهم الاراضي المعفاة من الضرائب فقد الغى هذا النوع من الاملاك في آسيا ، وبذا اضعف قوته الدفاعية .وفي سنة ١٢٨٢ توفي ميخائيل فخلفه ابنه اندرونيكوس الثاني ١٢٨٢ - ١٣٢٨ ، وقد شهد حكمه الطويل تدهورا بطيئا يسري في اوصال الدولة .

واخذت الامبراطورية البيزنطية ، و[illegible] تقلصت حدودها وتدهور اقتصادهـــا [illegible] عراها ، تواجه خطرا جديدا متزايدا من الـ[illegible] .[illegible] دفعت غزوات المغـول في القرن الثالث عشر امامها بقبائل تركية جديدة الى آسيا الصغرى . وقد استقـرت احدى هذه القبائل على حدود بيزنطة . وكان رئيسها وقائدها يدعى عثمان . وباسمه سميت الدولة التركية التي انشأها احفاده : « الدولة العثمانية » .

ولم تعد قوات الامبراطور اندرونيكوس العسكرية قادرة على الوقوف بوجـه العثمانيين بعد ان الغى سلفه الامبراطور ميخائيل نظام الجند المقيمين على الحدود ، ولذلك فقد اضطر على الاعتماد على المرتزقة الاجانب . وقد استأجر جماعة مـن المغامرين يسمون بالجماعة القطلونية الكبرى .وبدلا من ان يكونوا عونا للدولـــة تمردوا عليها وحاصروا القسطنطينية سنتين كاملتين ١٣٠٥ - ١٣٠٧ ، وادخلـــوا الاتراك الى اوربا سنة ١٣٠٨ ، وانسحبوا في النهاية فنهبوا مقدونية وما كان يحكمه الفرنجة من بلاد البلقان . وفي هذا الوقت نفسه كانت امبراطورية اسن البلغارية ، وامبراطورية اوروش الصربية ، خطرا دائما على بيزنطة . وبالاضافة الى المخاطر الخارجية كانت الثورات منتشرة في الداخل ، والاقتصاد مرتبكا ، والمالية في تدهور مستمر . وقد ظل اندرونيكوس من سنة ١٣٢١ الى ١٣٢٨ يقاتل حفيده ووريثه اندرونيكوس الثالث ١٣٢٨ - ١٣٤١ ، الذي استقام الامر له بعد وفاة جده الامبراطور الشيخ . وكان عهده كعهد سابقه سلسلة متواصلة من المتاعب الداخلية ، والتدهور الاقتصادي والهجمات الخارجية . وقد فتح الاتراك العثمانيون بروسة سنة ١٣٢٦ ، واستولوا على نيقية سنة ١٣٢٩ ، وعلى نيقوميدية سنة ١٣٣٧ . وبلغت الامبراطورية الصربية في عهد استيفن دوشان ذروة قوتها واتساعها ، فاخذت تهدد القسطنطينية .

واعقبت وفاة اندرونيكوس فترة طويلة من الصراع على العرش ، والاضطرابات الداخلية ،والمخاطر الخارجية . وقد شرع الاتراك العثمانيون يستقرون على الاراضي الاوربية منذ سنة ١٣٥٦ .واستولوا على مدينة ادرنة سنة ١٣٥٧ واتخذوهـا عاصمة لهم وبعد انتصارهم في معركتي الماريتزا سنة ١٣٧١ ، وكوسوفو سنة ١٣٨٩ ، اصبحت با[illegible] وصربيا في قبضتهم . وفي سنة ١٣٩٠ ات[illegible]هم الى الدانوب . ولم يبق

للامبراطورية البيزنطية سوى القسطنطينية وسالونيكا وشبه جزيرة المورة ومدينة ميسترا.

وذهب يوحنا الخامس الى ايطاليا يلتمس العون . ولكن البندقية قبضت عليه وحبسته رهينة لما لها عليه من دين . وفي عهد ابنه وخليفته عمانوئيل الثاني ١٣٩١ – ١٤٢٥ اخذت اوربا الغربية تحس بالخطر المقبل عليها من الاتراك فارسلت جيشا الى بلاد البلقان .ولكن الاتراك قضوا على هذا الجيش في نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ ، وحاصروا القسطنطينية سنة ١٣٩٧ ولكنهم اضطروا الى رفع الحصار بسبب هجوم التتر بقيادة تيمورلنك عليهم من الشرق . وفي سنة ١٤٠٢ هزم التتر السلطان العثماني بايزيد ، واسروه قرب انقرة . وقد كان انهزام الاتراك امام تيمورلنك فرصة نادرة لطرد الاتراك من اوربا وآسيا الصغرى لو كانت في بيزنطة بقية من حياة . ولكن لم يعد في الامبراطورية القوة الكافية للتصدي لهذه المهمة الخطيرة . وقد خانها الصرب ، ولم تتعاون معها اوربا الغربية . وثمة عامل آخر يجدر التأكيد عليه هو ان الاتراك العثمانيين ، ومن تقدمهم من القبائل التركية الاخرى ، كانوا قد استقروا في آسيا الصغرى واوربا استقرارا ثابتة ، واستوطنوها استيطانا دائما . وكان الناس راضين بحكمهم ، بدليل انهم لم يستغلوا فرصة انكسارهم امام تيمورلنك ليثوروا عليهم ويتخلصوا منهم .وقد استرجع الاتراك قوتهم ، واعاذوا هجومهم على القسطنطينية بعد فترة وجيزة من الزمن . فما وافت سنة ١٤١٣ حتى تمزقت امبراطورية تيمورلنك بعد وفاته سنة ١٤٠٤ ، فاسترد الاتراك العثمانيون ممتلكاتهم ، واستجمعوا قوتهم . وسافر عمانوئيل الثاني الى الغرب ، حتى بلغ باريس ولندن ، يبحث عن حلفاء يتقوى بهم ، ويستمد منهم العون ، ولكنه لم يحصل على ما يريد . وقد حافظ عمانوئيل على ما بقي من الامبراطورية بلباقته وتلطفه للاتراك . ولكنه تنازل عن الحكم لابنه يوحنا الثامن ١٤٢٥ – ١٤٤٨ ، وقد استفز يوحنا الاتراك ، ودفعهم الى القيام بمحاولة جديدة لفتح القسطنطينية . ولكن السلطان العثماني اضطر الى رفع الحصار بسبب نشوب عصـ... داخلية .

وفي سنة ١٤٢٣ عمد حاكم سالونيكا الى بيع المدينة للبنادقة خوفا من وقوعها بيد الاتراك . ولكن الاتراك هاجموا المدينة سنة ١٤٣٠ واستولوا عليها . وسافر يوحنا الثامن الى ايطاليا ، وفي مجمع فلورنسا وفيرارا طالب بسلطة الامبراطورية ، ودعا الى توحيد الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية . وقد ايده الغرب ، فارسل حملة الى البلقان . ولكن الاتراك تصدوا لها وسحقوها عند فارنة سنة ١٤٤٤ .

وتوفي يوحنا الثامن فخلفه اخوه قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٩ – ١٤٥٣ . وفي سنة ١٤٥٣ حاصر الاتراك العثمانيون القسطنطينية وبعد دفاع بطولي يائس فريد دام سبعة اسابيع ، سقطت المدينة في ٢٩ أيار . وفي سنة ١٤٦٠ اجتاح الاتراك المورة ، وفي سنة ١٤٦١ قضوا على امبراطورية اسرة كومنين في طرابزون . وبهذا انتهت الامبراطورية البيزنطية لتحل محلها الامبراطورية التركية العثمانية المسلمة . وكان سقوط القسطنطينية بايدي الاتراك العثمانيين نقطة تحول كبرى في التاريخ ، اذ كانت خاتمة العصور الوسطى الاوربية ، وبداية العصور الحديثة . (١٧)

مراجع

١ . شفيق غربال . من مقدمته للترجمة العربية للحضارة البيزنطية تأليف ستيفن رنسمن .

٢ لدراسة العلاقات بين العرب والبيزنطيين (الروم) يمكن الرجوع الى كتب التاريخ العربي المعتمدة كمؤلفات الطبري وابن الاثير وابن كثير وغيرهم ، والى كتب المؤرخين المعاصرين ومنها : الروم جزآن ، للدكتور اسد رستم ، والعرب والروم تأليف فازيليف ، ترجمة الدكتور عبد الهادي شعيرة ؛ والدكتور فؤاد حسنين علي ، دار الفكر العربي . القاهرة

٣ . د . اسد رستم «الروم» : في سياستهم وحضارتهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب المكشوف ، بيروت ١٩٥٥ ، ج ١ ص ٦٢ – ٦٣ .

وينظر كذلك : تاريخ العالم ، نشره بالانكليزية جون . ١ . هامرتن ، الترجمة العربية ، ج ٤ ص ٣١١ .

٤ . ستيفن رنسمن ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٦ .

٥ . اسد رستم ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٤ .

٦ . اسد رستم ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٦ .

٧ . ستيفن رنسمن ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

٨ . نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٣٠٨ – ٣١٨ .

٩ . يجد القارئ قائمة كاملة باسماء اباطرة بيزنطة ، باللغتين العربية والانكليزية وسني حكمهم ، في «الروم» لاسد رستم ، ج٢ ص ٢٩٦ – ٢٩٨ . وفي كتاب رنسمن «الحضارة البيزنطية» ، الترجمة العربية ص ٣٦٩ – ٣٧٧ .

١٠. مدونة جستنيان في الفقه الروماني . نقله الى العربية عبد العزيز فهمي ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ١٩٤٦ .

١١. المصدر السابق ، ص ١ – ٣

١٢. اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ١٧٠ – ١٧٢ .

وينظر ايضا عن عصر جستنيان : ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران مجلد ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٧ – ٢٣٧ . وتاريخ الحضارات العام ، اشراف موريس كروزية ، ترجمة يوسف اسعد داغر ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ٣ ، ص ٤٧ – ٥٠

١٣. اسد رستم ، الروم ، ج ١ ، ص ٣٠٢ – ٣٢٧ .

١٤. ستيفن رنسمن ، الحضارة البيزنطية ، ص ٥١

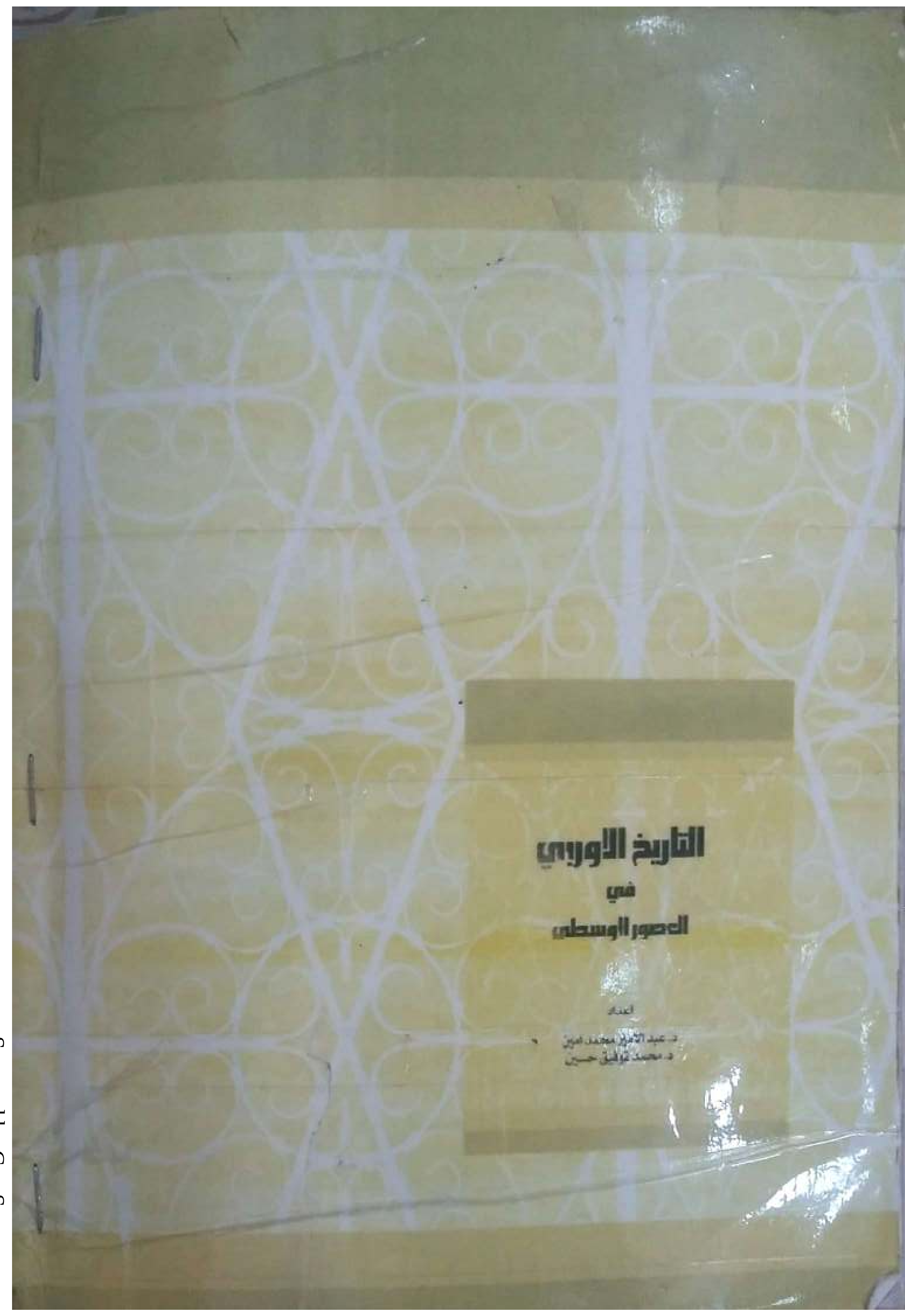
١٥. اسد رستم ، الروم ، ص ١٦٩ – ١٨١ .

١٦. المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

١٧. اعتمدنا في كتابة هذه الخلاصة الوجيزة لتاريخ بيزنطة على المراجع التي ذكرناها وخاصة على الحضارة البيزنطية تأليف رنسمن ، ص ٢٥

٦٢ . والفصلين المترجمين عن شارل ديل الملحقين بالترجمة العربية لكتاب الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز ، ص ٣٢٠ - ٣٥٢ ودائرة المعارف البريطانية الطبعة الخامسة عشر ، المجلد الثالث ، ص ٥٤٧ - ٥٧٢

س/ من هو الملك الملتحب (الملك الغائب) في انكلترا؟



التاريخ الأوروبي

في

العصور الوسطى

إعداد

د. عبد الأمير محمد أمين

د. محمد توفيق حسين